الطبعة العربية الأصليّة

مؤلّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

پاولو كويلو

الرابح يبقى وحيداً

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



باولو كويلو

قبل أن يصبح باولو كويلو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، كاتباً شعبياً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيبياً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم، ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومبوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧. وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»، فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قراءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة، وتوالت، من ثمّ، سلسلة مؤلفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار؛ منها: الفالكيريز، على نهر بيدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، محارب الضوء، فيرونيكا تقرّر أن تموت، الشيطان والآنسة بريم، إحدى عشرة دقيقة، الزهير، ساحرة بورتوبيللو وبريدا.

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٦٠ دولة، وترجمت إلى ٦٧ لغة، وبيع منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة. نال العديد من الأوسمة والتقديرات و٣٣ جائزة عالمية، منها مؤخراً شهادة غينيس للعام ٢٠٠٩ كون أعماله ترجمت إلى أكبر عدد من اللغات بين جميع كتّاب العالم، كما أنه عُيّن سفير التنوّع الثقافي أمام الأونيسكو ومستشاراً خاصاً للحوار بين الثقافات والتقارب الروحي.

الرابح يبقى وحيداً



الرابح يبقى وحيداً

پاولو كويلو

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش. م. ل.

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: O Vencedor Esta So

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت:
http://www.paulocoelho.com.br
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
ISBN: 978-9953-88-302-1

ترجمة: أنطوان باسيل
تدقيق: فؤاد زعيتر
تصميم الغلاف: ريتشي نزال
الإخراج الفني: بسمة تقي

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام يُحتضَر، وسوف ندعوه هنا حسن، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ «من كان معلّمك أيها المعلّم؟».

أجاب: «بل قل المئات من المعلّمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟».

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلّا في ساعة متأخرة جدًا من الليل. وكنت قد أَودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت مساعدته، ففتح لي قِفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك. فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثِر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عمّا إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، مِنوالاً واحداً لا يتغيّر: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنّني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القِسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمّل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنّني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوةَ على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟».

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عَطِشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافّة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غيرَ انعكاسٍ لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلبَ الآخر، ولكنّ شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قزر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة.

توقّفَ حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مُطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تُشعلها؟

ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًا. من ذا الذي يشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظاتٍ مُعيّنة. ولكنّه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أُسِرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنتُ تلميذَ الحياة، وما زلتُ تلميذها. لقد استقيتُ المعرفةَ وتعلّمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تُبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلّق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تُبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي

كثيراً ما أثارت مُخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله منّي، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجّه بالشكر إلى الوكيلة - المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

يا مريم المولودة بلا خطيئة، صلّي لمن يلجأون إليك.
آمين

وقال لتلاميذه: «لهذا أقول لكم: لا تهتموا لنفسكم بما تأكلون، ولا لجسدكم بما تلبسون. فالنفس أهمّ من الطعام، والجسد أهم من اللباس.

ألا اعتبروا بالغربان، فهي لا تبذُر، ولا تحصد، وليس لها مخازن وأهراء، وعلى الله قُوتُها. فلَكم أنتم من الطير أفضل! من يسعه منكم، مهما اهتمّ، أن يطيل قامته ذراعاً؟ فإن تعجزوا عن اليسير، فلمَ تهتمّون بما عداه؟

اعتبروا بزنابق الحقول، فهي لا تغزل، ولا تنسج، أقول لكم: سليمان نفسه، في سناء مجده، ما اكتسى كواحدة منها.

(لوقا ١٢:٢٢-٢٧)

أنت من يمسك بيدي الآن،

أمر واحد ومن دونه لا قيمة لأي شيء،

أوجه إليك إنذاراً عادلاً، قبل أن تمتحنني بالمزيد،

بأنني لست من تفترضني إياه، بل أختلف عنه إلى حد بعيد.

من الذي سيصبح واحداً من أتباعي؟

من سيعرض نفسه مرشّحاً لمودّتي؟

الطريق شائك، والنتيجة غير مؤكدة، بل ربّما مدمّرة.

عليك أن تتخلى عن أي شيء آخر، لأنني أتوقّع أن أكون مقياسك الأوحد والحصري،

بل إن ابتداءك سيكون طويلاً ومنهكاً،

وعليك أن تتخلى عن المبدأ السابق لحياتك وعن اقتدائك بحياة من حولك.

لهذا، حررني الآن قبل أن تجلب المزيد من الاضطراب على ذاتك. ارفع يدك عن كتفي. ضعني أرضاً واذهب في سبيلك.

(والت ويتمان: «أوراق العشب» Leaves of Grass)

إلى سيدتنا العذراء حاملة جسد المسيح الذي نزل
إلى الأرض، ليُرشدنا إلى طريق القتال الصالح.



مقدّمة

شكّلت أهمية دفع المرء ثمن أحلامه، دوماً، أحد المواضيع التي تكررت في كتبي. لكن، إلى أي مدى يمكننا التلاعب في أحلامنا؟ فنحن، في خلال العقود القليلة الماضية، عشنا في ثقافة وفّرت امتيازاً خاصاً للشهرة، والمال، والسلطة. وقد أدّى ذلك بكثر منا إلى الاعتقاد أن هذه هي القيم الوحيدة التي تستحق الجد في طلبها، غافلين عن أن المحرّكين الحقيقيين من وراء الكواليس يبقون مجهولين. يدرك هؤلاء المحرّكون أن السلطة الأكثر فاعلية هي تلك التي لا يلاحظها أحد، إلى أن يفوت الأوان، ونسقط في الفخ. والكتاب متعلّق بهذا الفخ.

في «الرابح يبقى وحيداً»، تسمح ثلاث من الشخصيات الرئيسية الأربع بالتلاعب في أحلامها:

إيغور، المليونير الروسي، الذي يعتقد أن القتل مقبول إذا ارتكب لسبب وجيه، مثل التخفيف من العذاب الإنساني، أو الانتقام من المرأة التي يحب؛

حميد، أحد أقطاب الموضة، الذي انطلق بأفضل النيات، لينتهي وقد علق في المنظومة ذاتها التي حاول استخدامها،

غابرييلا المقتنعة - على غرار كثر من أناس أيامنا هذه - بأن الشهرة هي غاية في حد ذاتها، والمكافأة في عالم يعتبر الشهرة إنجازاً فائقاً.

هذه ليست قصة إثارة أخرى، بل صورة مجرّدة عما نحن فيه اليوم.

باولو كويلو

الصورة

لا يزال يوجد، وأنا أخطّ هذه الصفحات، ديكتاتوريون كثر في السلطة. تعرّضت دولة في الشرق الأوسط للغزو من القوة العظمى الوحيدة في العالم. يتنامى دعم المجموعات الإرهابية. الأصوليون المسيحيون يمتلكون القدرة على انتخاب رؤساء. البحث الروحي تتلاعب فيه الطوائف المختلفة التي تدّعي كل منها امتلاك المعرفة المطلقة. محا عتوّ الطبيعة مدناً بكاملها عن الخريطة. وبحسب دراسة أجراها مفكّر أميركي مشهود له، فإن سلطات العالم كلّه محصورة في أيدي ستة آلاف شخص... فقط.

سجناء الرأي السياسيون بالآلاف في كل قارة من القارات. وها إن التعذيب يُعتبر مرّة أخرى أسلوباً مقبولاً في التحقيق. الدول الأكثر ثراءً تشرع في إقفال حدودها. البلدان الأشد فقراً تشهد نزوحاً لا سابق له، وسكانها يسعون وراء الإلدورادو (مدينة الذهب). ارتكاب أعمال الإبادة مستمر في بلدين أفريقيين على الأقل. النظام الاقتصادي يُظهر بوادر الانهيار، وثروات كبرى آخذة في التقوّض. أصبحت عبودية الاطفال أمراً ثابتاً. ومئات الملايين من الأشخاص يعيشون تحت خط الفقر. وتُقبَل الأسلحة النووية بوصفها أمراً لا

عودة عنه. كما ظهرت أمراض جديدة، ولم تتم بعدُ السيطرة على الأعراض القديمة.

فهل هذه إذاً، صورة العالم الذي أعيش فيه؟

قطعاً لا. وأنا، عندما قرّرت التقاط صورة عن العالم في أيامي، وضعتُ هذا الكتاب.

باولو كويلو

٣:١٧ ق.ظ.

مسدّس البيريتا Px4، أكبر بقليل من جهاز الهاتف النقّال، يزن نحو ٧٠٠ غرام، ويمكنه إطلاق عشر رصاصات. صغير، خفيف، لا تمكن ملاحظته، وهو موضوع في الجيب. ولعياره الصغير ميزة هائلة: فبدلاً من أن تخترق رصاصته جسد الضحية، تصيب العظام وتهشّم كل شيء في طريقها.

واضح أن حظوظ النجاة من طلقة من هذا العيار مرتفعة إلى حدّ ما، وثمة آلاف الحالات التي لم يتم فيها قطع شريان حيوي، وأتيح فيها الوقت للضحية للرد وتجريد المعتدي من السلاح. إلا أن مطلق النار، إذا امتلك ما يكفي من الخبرة، فقد يختار بين الموت السريع، بتصويبه السلاح بين العينين، أو ناحية القلب، أو الموت الأكثر بطئاً، بوضعه الأسطوانة عند زاوية ما على مقربة من الضلوع والضغط على الزناد. يستغرق المصاب وقتاً ليدرك إصابته بجرح قاتل، فيحاول المقاومة أو الهرب أو طلب النجدة. والميزة الكبرى لهذا الأمر، أنه يكون لدى الضحية متسع من الوقت لرؤية

وجه القاتل، بينما تخور قواه ببطء ويسقط على الأرض ولا ينزف إلا القليل من الدم، وهو لا يزال غير مدرك أبداً سبب ما يحصل له.

إنه إلى حد بعيد سلاح الخبراء المثالي. وفي الفيلم الأول من سلسلة أفلام جيمس بوند، أبلغه شخص ما في أجهزة الاستخبارات البريطانية، أنه مسدس «ظريف وخفيف»، في حقيبة يد سيدة ما. لكنه لا يمتلك قدرة رادعة». وصادر في غضون ذلك مسدس بوند القديم، وأبدل به نموذجاً أحدث. لكن النصيحة لا تنطبق إلا على المحترفين، وهي ممتازة في شأن ما يدور في خُلده الآن.

اشترى البيريتا من السوق السوداء ليستحيل تقفّي أثره. ومخزنه محشو بخمس رصاصات برغم أنه لا ينوي إلا استخدام واحدة منها فقط، وقد ميّز رأسها بخطين متعارضين على شاكلة الحرف اللاتيني «إكس x»، مستخدماً في ذلك مبرداً للأظافر. وهكذا ستنقسم إلى أربعة أقسام عندما تُطلق وتصطدم بجسم صلب.

لن يستخدم البيريتا إلا كملاذ أخير. فثمة طرائق أخرى للقضاء على عالم، وتدمير كون. وهي على الأرجح ستفهم الرسالة ما إن يتم العثور على الضحية الأولى. ستدرك أنه فعل ذلك باسم الحب، وأنه لا يشعر بأي نقمة، بل سيستعيدها بدون أن يطرح عليها أي أسئلة عن حياتها في تينك السنتين الماضيتين.

أمل أن تؤتي ستة أشهر من التخطيط الدقيق ثمارها، لكنه لن يعلم بذلك بالتأكيد إلا غداً صباحاً. فمخططه يقضي بالسماح لآلهة الانتقام، شخصيات الميثولوجيا الإغريقية القديمة، بأن تهبط بأجنحتها السوداء إلى تلك الفسحة الطبيعية الزرقاء والبيضاء الملأى بالماس، والبوتوكس والسيارات الفائقة السرعة التي لا منفعة منها لأحد، لأنها لا تتسع إلا لراكبين فقط. وفي وسع جميع هذه الأدوات التي جلبها

معه، أن تقضي في لحظة واحدة على هذه الأحلام كلها، بالسلطة، والنجاح، والشهرة، والمال. أمكنه، لو أراد، أن يصعد إلى غرفته، لأن المشهد الذي انتظر مشاهدته حصل عند الساعة ١١:١١ ب. ظ.، برغم أنه كان على استعداد لمزيد من الانتظار. فالرجل ورفقيته الجميلة - كلاهما بلباس السهرة - وصلا إلى واحدة أخرى من تلك الحفلات التي تقام في كل ليلة بعد موائد العشاء المهمة التي تجذب الناس بأكثر مما تجذبهم أي حفلة عرض أوّل لفيلم في المهرجان.

تجاهل إيغور المرأة. أخفى وجهه وراء صحيفة فرنسية (إذ يمكن صحيفة روسية أن تثير الشبهات) ليتفادى أن تراه. وهو تدبير احترازي غير ضروري؛ فهي، على غرار جميع النسوة اللواتي يشعرن بأنهن ملكات الأرض، لم تنظر قط إلى أي شخص آخر. فمثل هؤلاء النساء حاضرات هنا لإظهار بريقهن، ويتفادين دوماً التطلّع إلى ما ترتديه الأخريات، حتى ولو كلفتهن ملابسهن وزينتهن ثروة، لأن عدد الماسات أو الرداء الفريد من نوعه الذي ترتديه واحدة أخرى، قد يُشعرهن بالإحباط، أو بالسخط، أو بأنهن أدنى مستوى.

توجّه رفيقها الأنيق ذو الشعر الفضّي إلى الحانة وطلب الشامبانيا، وهو من المقبّلات الضرورية لليلة تعد بمزيد من العلاقات، والموسيقى الجيدة، ومنظر جميل للشاطئ واليخوت الراسية في الميناء.

لاحظ مدى تهذيب الرجل وهو يشكر النادلة التي أحضرت شرابهما ويعطيها إكرامية كبيرة.

يعرف الثلاثة بعضهم بعضاً. وقد شعر إيغور بموجة عارمة من السعادة، بينما أخذ الأدرينالين يتفشى في دمه. فهو سيجعلها تشعر في اليوم التالي تماماً بحضوره، لأنهما، عند حد ما، سيلتقيان.

يعلم الله وحده ما الذي قد ينجم عن ذلك اللقاء. فإيغور،

الكاثوليكي المتشدد، قطع عهداً وأقسم يميناً أمام ذخائر القديسة مريم المجدلية (التي احتضنتها العاصمة الروسية لأسبوع ليتمكن المؤمنون من عبادتها) في موسكو. وقف لنحو خمس ساعات في رتل الانتظار، وشعر، حين تمكّن أخيراً من إلقاء نظرة عليها، بأن الأمر بكلّيته واحد من أحلام الكهنة. لكنه لم يشأ أن يخاطر بالإخلال بكلمته، فطلب إليها الحماية والمساعدة على تحقيق هدفه بدون الكثير من التضحية. وقد تعهّد أيضاً بأنه، متى انتهى كل شيء وعاد أخيراً إلى وطنه الأم، سيوصي على أيقونة ذهبية من فنان مشهور يعيش في أحد أديرة نوفوسيبيرسك.

انتشرت، عند الثالثة فجراً، رائحة السجائر والعرق من حانة فندق مارتينيز. كان جيمي (الذي يرتدي دوماً زوجاً مختلف الألوان من الأحذية) أوقف العزف على البيانو، وأصيبت النادلة بالإنهاك. وبرغم ذلك، يرفض الباقون هنا المغادرة. يريدون البقاء في ذلك البهو ساعة أخرى على الأقل، بل الليل كله في انتظار حدوث شيء ما!

مرّت أربعة أيام على مهرجان كان السينمائي، ولم يحدث شيء. فأي ضيف يحلّ على أي طاولة لا يعنيه إلا أمر واحد: مقابلة أصحاب السلطة. النسوة الجميلات ينتظرن أن يقع منتج ما في غرامهن ويعرض عليهن الدور الأول في فيلمه المقبل. يتحادث بضعة ممثلين، ويتضاحكون، متظاهرين بأنهم غير معنيين كليّاً بالمسألة برمّتها، لكن عيونهم شاخصة على الباب دائماً.

شخص ما على وشك الوصول. على أحد ما أن يهبط الآن على هذا المكان. مخرجون جدد، ملؤهم الأفكار، يحملون سِيَر حيواتهم،

ويعددون أفلام الفيديو التي أنتجوها في الجامعة، وقد قرأوا كل ما كُتب عن التصوير وكتابة النص، ويأملون ضربة حظ، وربما لقاء شخص ما عائد لتوّه من حفلة، يبحث عن طاولة شاغرة ليطلب فنجان قهوة ويشعل سيجارة... شخص ما تعب من الذهاب كل الوقت إلى الأمكنة القديمة ذاتها، ويشعر بأنه على استعداد لخوض مغامرة جديدة.

يا للسذاجة!

لو أن هذا يحدث، فإن آخر ما ما يريد مثل هذا الشخص سماعه هو عن «زاوية جديدة فعلاً» تتعلّق بموضوع عادي يفتقر إلى المخيّلة. لكن يمكن اليأس أن يخدع اليائس. بالكاد يلقي ذوو السلطة نظرة من حولهم وهم يدخلون من حين إلى آخر، ويصعدون من ثم إلى غرفهم. لا يبدو عليهم القلق، إذ ليس لديهم ما يخشونه. لا يسامح أفراد الطبقة العليا على الخيانات، وهم يعرفون حدودهم. فهم، برغم ما تقوله الأساطير، لم يصلوا إلى ما هم عليه، إلا من خلال دَوسهم على الآخرين. وإذا كان لا بدّ من العثور على اكتشاف مهم جديد ما - في عالم السينما أو الموسيقى أو الموضة - فإنه أمر سيظهر إثر الكثير من البحث، وليس في حانة فندق ما.

وها إن أفراد الطبقة العليا يقيمون علاقاتهم الغرامية مع الفتاة التي أمكنها ولوج الحفلة، وهي على استعداد للقيام بأي شيء. وقد أخذوا في إزالة تبرجهم، والتدقيق في خطوط وجوههم، وهم يعتقدون أن الوقت قد حان للمزيد من الجراحة التجميلية. ينظرون إلى الأخبار على الإنترنت ليروا هل نشرت وسائل الإعلام ما صرّحوا به في وقت سابق. ويتناولون حبّة المنوّم التي لا مفرّ منها، ويرتشفون الشاي الواعد بفقدان سهل للوزن. يملأون خانات قائمة فطورهم التي ستحضّرها خدمة الغرف، ويعلّقونها على مقبض الباب

إلى جانب إشارة عدم الإزعاج. يغلق أبناء الطبقة العليا عيونهم وقد راودت أذهانهم العبارة الآتية: آمل التمكن من النوم سريعاً، إذ لدي ما أقوم به عند العاشرة من يوم غد.

لكن الجميع يعرفون أن حانة فندق المارتينيز هي المكان الذي يتسكّع فيه أصحاب النفوذ، والمكان الوحيد الذي تتوفر فيه الفرصة الدائمة للقائهم.

ولا يتبادر، حتى إلى إذهان المرتجين، أن أصحاب النفوذ لا يتحدثون إلا مع أصحاب النفوذ، وأنهم يحتاجون إلى التلاقي بين الفينة والفينة إلى موائد الغداء أو العشاء، وإضافة التشويق إلى المهرجانات الكبرى، وتغذية الوهم بأن عالم الرفاهية والأضواء يبلغه جميع من يمتلكون الشجاعة في ملاحقة فكرة ما، وتحاشي الحروب التي لا مكسب فيها، وتسويق العداء بين دول أو شركات. يشعرون بأن ذلك يأتيهم بالمزيد من السلطة والمال، والادعاء بأنهم سعداء ولو أنهم باتوا رهائن نجاحاتهم؛ والاستمرار في الكفاح من أجل زيادة ثروتهم ونفوذهم، حتى ولو كانوا يملكون الطائل منهما، لأن زهو أفراد الطبقة العليا قوامه التنافس بينهم لمعرفة من هو الأرفع شأناً بين من بأيديهم السلطة.

في عالم مثالي، سيتحدّث أصحاب النفوذ مع الممثلين، والمخرجين، والمصممين، والكتّاب الذين أغشى عيونهم التعب، وراحوا يفكّرون في العودة إلى غرفهم المُستأجرة في البلدات البعيدة، بحيث يمكنهم أن يستأنفوا في الغد ماراتون تقديم الطلبات، وتحديد اللقاءات الممكنة، ويكونوا جاهزين على الدوام وحاضرين ومتوثبين.

أصحاب النفوذ، في العالم الواقعي، أسرى غرفهم في هذه اللحظة، يتفحصون بريدهم الالكتروني، ويشتكون من أن حفلات المهرجان هذه هي دوماً ذاتها لا تتغير، وأن أصدقاءهم يضعون حلياً أكثر من حليّهم. ويتساءلون كيف يمكن أن يحتوي اليخت الذي اشتراه منافسهم للتو، على ديكور فريد من نوعه كلّياً؟

ليس لدى إيغور من يتحدث معه، كما أنه لا يريد الكلام. فالرابح يبقى وحيداً.

إيغور مالك ناجح ورئيس لشركة هاتف في روسيا. حجز، منذ عام مضى، أفضل جناح في المارتينيز (الذي يطلب من الجميع أن يدفعوا مسبقاً أجر الإقامة لـ١٢ ليلة على الأقل، بغض النظر عن فترة إقامتهم)؛ وقد وصل بعد ظهر هذا اليوم بطائرته الخاصة، وأقلّته السيارة إلى الفندق، حيث استحم ثم نزل على أمل رؤية مشهد محدّد.

في البداية ألحّ عليه الممثلون والممثلات والمخرجون، إلى أن طلع عليهم جميعاً بالجواب المثالي:

«آسف، لا أتحدث الإنكليزية. أنا بولندي».

أو:

«آسف، لا أتحدث الفرنسية. أنا مكسيكي».

وإذا ما تفوّه أحدهم بكلمات إسبانية، يستخدم إيغور حيلة أخرى. يشرع في كتابة أرقام على دفتر ملاحظاته بحيث لا يبدو كأنه صحافي (لأن الجميع يريدون لقاء الصحافيين)، أو من عظماء صنّاع السينما. وقد وُضعت إلى جانبه مجلّة اقتصادية روسية (لا يمكن معظم الناس التمييز بين الروسية والبولندية أو الإسبانية)، وعلى غلافها صورة مبرمة لأحد المديرين التنفيذيين.

ترك روّاد الحانة، الذين يفاخرون بدقة تفهمهم الجنسَ البشري، إيغور بسلام، معتقدين أنه مليونير ممَّن يأتون إلى كان بحثاً عن رفيقة جديدة. هذه هي على الأقل الشائعة التي أخذت تدور في المكان، في الوقت الذي جلس فيه الشخص الخامس إلى طاولته وطلب مياهاً معدنية، زاعماً عدم وجود مقاعد فارغة أخرى. ويتنبّه إيغور كما يجب إلى نوعية العطر.

فالعطر هو التعبير العامي الذي تستخدمه الممثلات (أو النجمات كما يُسمَّين في المهرجان)، لأنه، على غرار العطور، يسهل كثيراً تغيير علاماته التجارية. إلا أن عطراً واحداً منها قد يشكّل لقيّة حقيقية. يتم السعي إلى العطور في خلال اليومين الأخيرين من المهرجان، إذا لم تتمكن الممثلات المعنيات من التقاط شيء أو أي أحد يتمتع بجانب من الأهمية في صناعة السينما. يمكن عندها هذا الرجل الغريب الذي يبدو عليه الثراء، أن ينتظر. تعرف الممثلات أنه من الأفضل لهن دائماً مغادرة المهرجان برفقة عشيق جديد (يمكنهن لاحقاً تحويله إلى منتج أفلام)، على الانتقال إلى الحدث التالي، والمرور بالشعائر القديمة ذاتها من شرب وتبسّم (تجب المحافظة على التبسُّم)، والتظاهر بأنك لا تنظر إلى أحد، بينما يخفق قلبك بعنف، والوقت يمر سريعاً، ولا تزال في الانتظار الليالي الاحتفالية التي لم تتم دعوتك إليها بعدُ. لكن العطر حصل على مثل هذه الدعوة.

يعرفون ما ستقوله العطور لأنها تبوح دوماً بالأمر ذاته، لكنهم يتظاهرون بتصديقها في أي حال.

أ ـ يمكنني تغيير حياتك.

ب ـ كثيرات هن النساء اللواتي يوددن لو أنهن مكانك.

ج ـ إلى الآن لا تزالين شابة. لكن، ما الذي قد تصبحينه بعد بضع سنوات. عليك التفكير في استثمار بعيد المدى.

د ـ أنا متزوج، لكن زوجتي... (يمكن هذه الافتتاحية أن تملك نهايات متنوعة: مريضة، هددت بالانتحار لو تركتها، الخ.)

هـ ـ أنت أميرة وتستحقين أن تُعامَلي على هذا الأساس. لم أدرك حتى الآن أنني كنت في انتظارك. أنا لا اؤمن بالمصادفات، لكنني أعتقد أنه عليك أن تمنحي هذه العلاقة فرصة.

هي الدهلزة القديمة ذاتها. المتغير الوحيد فيها هو مقدار ما تحصلين عليه من الهدايا (الجواهر هي المفضلة، لأنك تستطيعين بيعها)، ومن الدعوات إلى الحفلات في اليخوت، وما تجمعينه من بطاقات الزيارة، وعدد المرات التي تضطرين فيها إلى الاستماع إلى الثرثرات ذاتها... وأيضاً وأيضاً، إذا كان في وسعك تأمين بطاقة إلى سباقات الفورمولا واحد، حيث سيكون عليك الانخراط مع الطبقة عينها من الناس، وقد تكون فرصتك الكبرى في انتظارك.

العطر هو أيضاً العبارة التي يستخدمها الممثلون الصغار في الإشارة إلى صاحبات الملايين الثريات المتقدّمات في السن، وقد خضعن لجميع عمليات التجميل والبوتوكس. لكنهن، على الأقل، أكثر ذكاءً من أقرانهن الذكور. لا يضيّعن الوقت أبداً: فهنّ أيضاً يصلن في الأيام الأخيرة من المهرجان، مدركات أن المال هو الذي يوفّر لهن القدرة على الجذب.

تخدع العطور الرجالية أصحابها، الذين يعتقدون أن صاحبات السيقان الطويلة والوجوه الشابة قد وقعن حقيقة في حبّهم، وأنهم باتوا قادرين الآن على التلاعب فيهن كيفما شاؤوا، بينما تضع العطور النسائية كامل ثقتها بقوة ماساتها.

يجهل إيغور ذلك كله. فهذه هي المرة الأولى له في المهرجان.

وهو قد أدرك للتو، لدهشته، أنه ما من أحد هنا، بخلاف الموجودين في تلك الحانة، مهتم فعلاً بالأفلام. قلّب صفحات بضع مجلاّت. فتح المغلّفات التي وضعت فيها شركته الدعوات إلى الحفلات الأكثر فخامة، وليس فيها واحدة منها لحضور العرض الأول لأي فيلم. حاول، قبل سفره إلى فرنسا، معرفة الأفلام الجاري عرضها، لكنه واجه صعوبة جمّة في الحصول على هذه المعلومة... إلى أن قال له أحد الأصدقاء:

«انسَ أمر الافلام، فليست «كان» سوى مجرّد عرض للأزياء».

الموضة. ما الذي يفكّر فيه الناس؟ أيعتقدون ان الموضة أمر يتغيّر بحسب فصول السنة؟ هل جاؤوا حقاً من أصقاع الدنيا للتباهي بملابسهم، وجواهرهم، ومجموعات أحذيتهم؟ إنهم لا يفهمون. الموضة ليست إلا طريقة في القول: أنا أنتمي إلى عالمكم. أنا أرتدي بزة جيشكم ذاتها، فلا تُطلقوا عليّ النار.

منذ البداية، ومذ أن أضحت مجموعات من الرجال والنساء تعيش معاً في الكهوف، والموضة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الجميع، حتى الغرباء كليّاً. نحن نلبس بالطريقة ذاتها. أنا أنتمي إلى قبيلتك، فلنتألّب ونتواطأ معاً على الضعفاء كأسلوب للبقاء.

إلا أن بعض الناس اعتقدوا أن الموضة هي كل شيء، وراحوا يبدّدون، كل ستة أشهر، ثروة على تغيير بعض التفاصيل الدقيقة من أجل الحفاظ على عضويتهم في قبيلة الأثرياء الحصرية جداً. ولو أنهم زاروا وادي السيليكون، حيث يضع أثرياء صناعة المعلومات في معاصمهم ساعات بلاستيكية ويرتدون جينزات رثّة، لأدركوا أن العالم قد تغير. يبدو أن الجميع ينتمون الآن إلى الطبقة

الاجتماعية ذاتها. لم يعد يهتم أحد بحجم ماسة ما، أو بماركة ربطة العنق، أو حقيبة اليد الجلدية. زالت في الواقع ربطات العنق وحقائب اليد الجلدية من ذلك الجزء من العالم. لكن، على مقربة منه، تقوم هوليوود، وهي آلة أكثر قوّة نسبيّاً - ولو أنها في انحطاط - لا يزال في وسعها إقناع البسطاء بأثواب الخياطة الراقية، وعقود الزمرّد، وسيارات الليموزين المترامية الحجم. وبما أن هذا لا يزال يظهر في المجلات، فمن الذي سيجرؤ على تدمير صناعة تدرّ مليارات الدولارات، ومحورها الإعلانات، وبيع الحاجات التي لا فائدة منها، واختراع اتجاهات جديدة غير ضرورية بتاتاً، وابتكار مساحيق للوجه متطابقة، لكنها تحمل كلّها ماركات مختلفة؟

يا للسخف! لم يتمكن إيغور من إخفاء نفوره من أولئك الذين تؤثّر قراراتهم في حيوات الملايين من الرجال والنساء الصادقين الذين يكدّون ويعيشون حياة كريمة، وتُسعدهم المحافظة على صحّتهم ومنازلهم ومحبة عائلاتهم.

يا للمجون! في حين يبدو كل شيء منتظماً، وتجتمع العائلات إلى المائدة للعشاء، يظهر شبح الطبقة العليا لبيع أحلام مستحيلة: الرفاهية، الجمال، السلطة... وتتفكّك الأُسَر.

يعمل الوالد وقتاً إضافياً ليتمكن من أن يشتري لابنه أحدث الأحذية الرياضية، لأنه إذا لم يحصل على زوج منها، فسيصبح عرضة للمقاطعة في المدرسة. وتنتحب الزوجة بصمت لأن صديقاتها يمتلكن ثياباً ذات ماركات معروفة، وهي لا تملك المال. وبدلاً من أن يتعلّم أولادهما المراهقون قِيَم الإيمان والأمل الحقيقية، لا يحلمون إلا بأن يصبحوا مطربين أو نجوم سينما. تفقد الفتيات في المدن الريفية أي شعور حقيقي بالذات، ويستلبهن التفكير في الذهاب إلى المدينة الكبرى، وهن مستعدّات للقيام بأي شيء في مقابل الحصول

على قطعة معينة من الجواهر. وبدلاً من أن يتم توجيه العالم نحو العدالة، يتم التركيز على أمور مادية ستصبح، في غضون ستة شهور، عديمة الفائدة ويجب استبدالها. وهكذا، يضمن هذا السيرك كلّه أن الكائنات الدنيئة المجتمعة معاً في «كان» تحافظ على موقعها في قمة الكومة.

لم يتأثر إيغور بهذه القوة التدميرية، لأنه يمتلك واحدة من أكثر الوظائف التي يُحسَد عليها في العالم. وهو يواصل، في يوم، كسب مال يفوق ما ينفقه في سنة، حتى لو استرسل في اللذات الممكنة كلها، المحلَّلة منها والمحرّمة. لا يجد صعوبة في العثور على نسوة، بغض النظر عن معرفتهن كمية المال التي يجنيها: جرّب ذلك غير مرّة، ولم يخفق أبداً. دخل في الأربعين للتو، وهو بكامل لياقته البدنية، ولا يعاني، بحسب فحوصه السنوية، أي مشكلة صحية. وليست عليه ديون أيضاً. ولا هو مجبر على أن يرتدي تصميماً من ماركة معيّنة، أو ارتياد مطعم معيّن، أو قضاء العطلة على الشاطئ الذي يقصده الجميع، أو شراء ساعة لمجرّد أن رياضياً ناجحاً ما يسوّق لها. في استطاعته توقيع العقود بقلم حبر جاف رخيص، وأن يرتدي سترات مريحة وأنيقة مصنوعة بيد خياط يمتلك متجراً صغيراً على مقربة من مكتبه، ولا تحمل أي ماركة على الإطلاق. يستطيع القيام بما يشاء، وليس مضطراً إلى أن يبرهن لأي كان أنه ثري. لديه عمل مثير للاهتمام، ويحب ما يقوم به.

ربما أن مكمن المشكلة هنا: فهو لا يزال يحب ما يقوم به، ومتأكد من أن المرأة التي جاءت إلى الحانة قبل ساعات، لا تجلس معه إلى الطاولة.

حاول الاستمرار في التفكير لإضاعة الوقت. طلب شراباً آخر

من كريستيل؛ فهو يعرف اسم النادلة لأنه قبل ساعة، والحانة أقل اكتظاظاً (كان الناس يتناولون العشاء)، طلب كأساً من الويسكي. قالت إنه يبدو حزيناً، وعليه أن يأكل شيئاً ليُدخل البهجة إلى نفسه. شكرها على اهتمامها، وسُرّ لأن أحداً ما أبدى اهتماماً بحالته النفسية.

ربما كان الوحيد الذي يعرف اسم النادلة التي تخدمه، فالآخرون يريدون معرفة الأسماء، ونوع العمل إن أمكن، فقط لأولئك للجالسين إلى الطاولات والكراسي الوثيرة.

استغرق في التفكير ليشغل نفسه، لكن الساعة تجاوزت الثالثة فجراً، ولم تظهر ثانية المرأة ورفيقها الدمث الذي لاحظ أنه يشبهه على نحو ملحوظ. ربما صعدا مباشرة إلى غرفتهما حيث يتطارحان الفراش الآن، أو ربما لا يزال يحتسيان الشامبانيا في واحد من اليخوت حيث لا يبدأ التهييص والهرج، والمرج إلا بعد انتهاء جميع الحفلات الأخرى. وربما كانا مستلقيين على الفراش يطالعان المجلات، متجاهلَيْن أحدهما الآخر.

ليس الأمر مهمّاً. فإيغور وحيد وتعب، ويحتاج إلى النوم.

٧:٢٢ ق.ظ.

أفاق عند السابعة و٢٢ دقيقة صباحاً، أبكر كثيراً من حاجة جسمه. فهو لم يتأقلم بعدُ مع فارق التوقيت بين موسكو وباريس. لو أنه في العمل لكان قد عقد حتى الآن اجتماعين أو ثلاثة مع مرؤوسيه، ويستعدّ للغداء مع زبائن جدد.

لديه مهمّة أخرى ينجزها هنا: عليه أن يجد من يضحّي به باسم الحب. يحتاج إلى ضحيّة، بحيث تتلقى إيوا رسالته هذا الصباح بالذات.

استحمّ وهبط لتناول القهوة في مطعم شبه مقفر، ثم انطلق إلى جادة لاكروازيت التي يقع فيها معظم الفنادق الفخمة الكبرى. حركة السير مقطوعة، بسبب إقفال أحد الطرقات، وعدم السماح إلا للسيارات التي تحمل إذناً رسمياً بالعبور. والشارع الآخر خال، لأن من يعيشون في المدينة، حتى هم لا يزالون يتأهّبون للذهاب إلى العمل.

لم يشعر بأي نقمة. فقد اجتاز المرحلة الحقيقية الصعبة التي لم

يسعه في خلالها النوم لأنه مملوء بالألم والحقد. هو يفهم الآن شعور إيوا؛ فالزواج بشخص واحد ليس، في النهاية، إلا أسطورة أُكره الناس على قبولها لفترة طويلة جداً. قرأ الكثير عن الموضوع. وليس الأمر مجرد فائض في الهورمونات أو الغرور، بل إنه، بحسب ما تشير إليه الأبحاث، تركيب جينيّ في جميع الحيوانات تقريباً.

كشفت اختبارات الأبوّة التي أجريت على الطيور والقرود والثعالب، أن تطوير هذه الأنواع علاقة اجتماعية مشابهة جداً للزواج، لا يعني بالضرورة أن عليها أن تكون وفية لبعضها البعض. ففي ٧٠ في المئة من الحالات جاء صغارها من آباء غير الأزواج. وتذكر إيغور أمراً كتبه ديفيد باراش، أستاذ علم النفس في جامعة واشنطن، في سياتل، قال فيه إن الأنواع الوحيدة في الطبيعة التي لا ترتكب الزنى، والتي يبدو أنها تتزوج فقط بكائن واحد، هي الدودة المبسطة الجسم .Diplozoon Paradoxum، إذ تلتقي الدودة الذكر مع الأنثى في سن المراهقة وينصهر جسماهما، بكل معنى الكلمة، معاً.

هذا هو السبب الذي يمنعه من اتهام إيوا بأي شيء؛ فهي تبعت غريزتها فحسب. إلا أنها تربَّت على الاعتقاد بتلك الأعراف الاجتماعية غير الطبيعية، ولا بد من أنها تشعر بالذنب معتقدة أنه لم يعد يحبّها، ولن يسامحها أبداً.

وهو في الواقع على استعداد للقيام بأي شيء، حتى أن يبعث برسالة تعني أنه دمّر عالم كائن آخر، لتعرف فقط أنه ليس مستعداً فحسب للترحيب باستعادتها، بل سيسعد أيضاً بدفن الماضي بدون طرح أي سؤال.

رأى امرأة شابة تعرض على الرصيف تحفها، وهي قطع متفرقة من الصناعات اليدوية والجواهر التي تكاد تخلو من الذوق.

نعم، ستصبح هي الضحية. إنها الرسالة التي عليه أن يبعث بها، رسالة ستُفهَم ما إن تبلغ مقصدها. راقبها بحنوّ قبل أن يتوجه إليها، وهي لا تعرف أنها بعد وقت قصير، إذا سار كل شيء كما يجب، ستهيم روحها بين الغيوم، وقد تحرّرت إلى الأبد من عمل في منتهى الغباء... فما هو خارج أي جدل أنه لن يوصلها أبداً إلى حيث ترغب في أن يوصلها.

سألها بفرنسية ممتازة:

- بكم؟

- أي قطعة تريد، يا سيدي؟

- جميعها.

ابتسمت الشابة، وهي في العشرين من عمرها على أبعد تقدير.

ليست المرة الأولى التي يطلب فيها شخص شراء كل شيء. وعادة ما تكون الخطوة التالية: «هل تودين القيام بنزهة؟ أنت أجمل بكثير من بيع هذه الأمور. أنا...».

- لا، أنا لست... أنا لا أعمل في صناعة الأفلام، كما أنني لن أجعل منك ممثلة وأغيّر حياتك. وأنا لست مهتماً أيضاً بالقطع التي تبيعينها. أريد التحدّث فقط. يمكننا القيام بذلك في هذا المكان بالذات».

تفادت الشابة نظرته.

- يصنع أهلي هذه التحف، وأنا فخورة بما أفعله. سيأتي يوم، يمرّ فيه شخص يعرف قيمتها. ارحل، أرجوك، فأنا واثقة من أنك ستجد شخصا آخر يستمع إلى ما لديك قوله.

أخذ إيغور رزمة من الأوراق المالية من جيبه ووضعها برفق إلى جانبها.

- اعذري وقاحتي. ما قلته أنني غير مهتم بشراء أي شيء لأرى إذا كنت ستخفضين السعر. على أي حال، أنا إيغور ماليف. وصلت بالأمس جواً من موسكو، ولا أزال تعباً ومشوّشاً بعض الشيء من الرحلة.

قالت الشابة، مدّعية أنها صدّقت كذبته:

- اسمي أوليفيا.

جلس، بدون إذنها، على المقعد قربها، فزاحت بوصة تقريباً.

- عمَّ تريد التحدُث فيه؟

- خذي المال أوّلاً.

ترددت أوليفيا. لكنها، بعد أن تطلّعت من حولها، لم تجد سبباً يدعوها إلى الخوف. السيارات تسير نحوهما الآن على الخط المتاح، والشبان يقصدون الشاطئ، وزوجان مسنّان يتوجهان تجاههما على الرصيف. وضعت المال في جيبها بدون أن تكلّف نفسها عناء عدّه، فلديها ما يكفي من الخبرة في الحياة لتعرف أنه أكثر مما يجب.

قال الروسي: أشكرك على قبول عرضي. تسألينني ما الذي أريد التحدّث في شأنه؟ ليس في الحقيقة أمراً مهمّاً جدّاً.

- لا بد من أنك هنا لسبب ما. تحتاج إلى سبب لزيارة «كان» في هذا الوقت من السنة، حيث تصبح المدينة لا تُطاق في نظر سكانها ونظر السياح على السواء.

أخذ إيغور يتطلّع إلى البحر، وأشعل سيجارة.

قالت:

- التدخين يضرّ بصحتك.

تجاهل ملاحظتها، وسألها:

- ماذا تعني الحياة لك؟

- الحب.

ابتسمت أوليفيا. التحدّث في أمور أكثر عمقاً هو في الحقيقة طريقة ممتازة لبدء النهار، أكثر من الحديث عن ثمن كل قطعة من القطع الفنية، أو عن الثياب التي يرتديها الناس.

- وماذا تعني لك؟

- نعم، الحب أيضاً. لكن كان من المهم لي أن أجني ما يكفي من المال لأُظهر لأهلي قدرتي على النجاح. فعلت ذلك، وهما فخوران بي الآن. التقيت المرأة الكاملة، تزوّجنا، وأحببت أن أُرزق بأولاد تكريماً لله ومخافة منه. لكن الأطفال، للأسف، لم يأتوا قط.

لم ترغب أوليفيا في السؤال عن السبب. وواصل الرجل الأربعيني بفرنسيته الممتازة:

فكّرنا في تبنّي طفل. وقضينا، بالفعل، سنتين أو ثلاثاً نفكّر في الأمر. لكن الحياة أخذت تمتلئ بالمشاغل، مع رحلات العمل والحفلات والاجتماعات والصفقات.

اعتقدت، عندما جلست هنا للحديث، أنك مجرّد مليونير غريب الأطوار يبحث عن مغامرة، لكنني مستمتعة في الحديث عن هذه الأمور.

- هل تفكّرين في المستقبل؟

- نعم أفعل، وأعتقد أن أحلامي تتقارب إلى حد بعيد مع أحلامك. ومن الواضح أنني أرغب في أن أُرزق بأولاد أيضاً...

توقّفت. لم ترد جرح مشاعر هذا الرفيق غير المتوقّع.

- إذا أمكنني ذلك، طبعاً. فلله أحياناً شؤون أخرى.

بدا أنه لم يسمع الجواب.

- هل يأتي أصحاب الملايين فقط إلى المهرجان؟

- أصحاب الملايين، ومن يعتقدون أنهم كذلك، أو يريدون أن يصبحوا بهذا الثراء. يغدو هذا الجزء من المدينة، في خلال المهرجان، أشبه ببيت المجانين. كل شخص يتصرّف كما لو أنه مهمّ للغاية، بصرف النظر عن الأشخاص المهمين فعلاً، فهم أكثر تهذيباً، وليسوا في حاجة إلى أن يبرهنوا أي شيء لأي كان. لا يشترون دوماً ما أعرضه للبيع، لكنهم يبتسمون، يبدون ملاحظة لطيفة ويعاملونني باحترام. وأنت ما الذي تفعله هنا؟

- صنع الله العالم في ستة أيام، لكن ما هو العالم؟ إنه ما نراه أنا أو أنت. وكلّما مات شخص يموت معه جزء من الكون. ويموت مع الإنسان كل ما شعر به أو اختبره أو رآه، مثل الدموع في المطر.

- «مثل الدموع في المطر... شاهدَتْ مرّة فيلماً استُخدمت فيه هذه الجملة. لا يمكنني الآن أن أتذكّر ما هو.

- لم آت إلى هنا للبكاء. جئت لأبعث برسالة إلى المرأة التي أحب. وأحتاج، كي أفعل ذلك، إلى تدمير بعض الأكوان أو العوالم.

بدلاً من أن يشعرها هذا الإعلان الأخير بالخوف، ضحكت أوليفيا. فلا يبدو هذا الرجل الوسيم، الحسن الملبس، مجنوناً على الإطلاق. وهي قد طفح بها الكيل من سماع الأمر ذاته على الدوام، أنت جميلة جداً، يمكنك أن تقومي بما هو أفضل لنفسك، ما هو ثمن ذلك. إنه باهظ بشكل مخيف، سأذهب وأفكّر في الأمر ثم

أعود (وهو بالطبع ما لا يفعلونه). وهذا الروسي يتمتع على الأقل بحس الفكاهة.

- لماذا تحتاج إلى تدمير العالم؟

- لأتمكن من إعادة بناء عالمي.

أرادت أوليفيا مواساته، لكنها خافت سماع الكلمات الشهيرة: أعتقد أنه في وسعك إضفاء معنى على حياتي. وعند هذا الحد، ستتوقف المحادثة بشكل فجائي، لأنها تمتلك مشاريع أخرى لمستقبلها. وفضلاً عن ذلك، من المنافي للمعقول أن تحاول تعليم شخص أكبر منها سناً وأكثر نجاحاً، كيف يتغلب على مصاعبه.

أحد المخارج أن تعرف المزيد عن حياته. فهو، في النهاية، قد دفع لها - ودفع لها جيداً - في مقابل وقتها.

- كيف تنوي القيام بذلك؟

- أتعرفين شيئاً عن الضفادع؟

- الضفادع؟

نعم، فقد أظهرت مختلف الدراسات البيولوجية الفكرة التالية: إذا وُضع ضفدع في مستوعب يحتوي على ماء من غدير مائه، فسيبقى فيه، ساكناً تماماً، بينما يتم تسخين الماء ببطء. لا يتأثر الضفدع بالارتفاع التدريجي في الحرارة، وبالتغييرات في بيئته. وعندما يبلغ الماء درجة الغليان يموت الضفدع سعيداً سميناً.

لكن، إذا ما رمي بضفدع في مستوعب مليء بماء يغلي بالفعل، فسيقفز فوراً خارجاً منه، ملذوعاً، لكن حيّاً!

لم تستوعب أوليفيا تماماً علاقة هذا بدمار العالم. وتابع إيغور:

- كنت أشبه بهذا الضفدع المسلوق. لم ألاحظ التغييرات.

اعتقدت أن كل شيء على ما يرام، وأن الأمور السيئة لن تلبث أن تزول، والمسألة مجرّد وقت. كنت، بدلاً من القيام بأي شيء، على استعداد للموت لأنني خسرت أهم ما في حياتي. جلست بدون ردّ فعل أغطس حيناً وأرتفع حيناً آخر في ماء يصبح أكثر حماوة مع انقضاء الدقائق.

استجمعت أوليفيا الشجاعة، لتسأل:

- ما الذي خسرته؟

الحقيقة أنني لم أخسر أي شيء. فالحياة تفرّق أحياناً بين الناس ليدركوا كم يعني بعضهم لبعض. ففي الليلة الماضية، على سبيل المثال، شاهدت زوجتي مع رجل آخر. أعرف أنها تريد العودة إلي، وأنها لا تزال تحبني، لكنها لا تمتلك ما يكفي من الشجاعة للقيام بالخطوة الأولى. لا تزال بعض الضفادع المسلوقة تعتقد أن الانقياد هو الذي يهمّ وليس القدرة. الذين يقدرون يقودون، وأولئك الذين يملكون بعض الإدراك يطيعون. فأين الحقيقة في هذا كلّه؟ من الأفضل الخروج من وضع ما ملذوعين بعض الشيء، لكن أحياء وعلى استعداد لاتخاذ المبادرة. وأعتقد أنه في وسعك مساعدتي في تلك المهمّة.

حاولت أوليفيا أن تتصور ما يجول في خاطر الرجل الماثل أمامها. كيف يمكن أحداً التخلي عن مثل هذا الشخص المثير للاهتمام؛ شخص يمكنه التحدّث في أمور لم تفكّر فيها من قبل؟ ومن جديد، لا يوجد منطق في الحب. وهي، برغم صغر سنها، تعرف ذلك. فيمكن خليلها، مثلاً، أن يصبح قاسياً جدّاً أحياناً ويضربها بدون سبب. وبرغم ذلك، فهي لا تطيق الابتعاد عنه ولو ليوم واحد.

ما الذي يتحدثان عنه بالضبط؟ عن الضفادع وكيفية مساعدتها له، وهي بالتأكيد لا تستطيع ذلك، وإلا لكانت ساعدت نفسها أولاً، ومن الأفضل لها أن تغيّر الموضوع.

- وكيف تنوي الشروع في تدمير العالم؟

أشار إيغور إلى خط المرور الخالي في جادة لا كروازيت:

- لنقل إنني لا أريد الذهاب إلى حفلة ما، لكنني لا أجرؤ على قول ذلك صراحة. فلو انتظرت بدء ساعة ازدحام المرور وأوقفت سيارتي في وسط الطريق، فإن الجادة المواجهة للبحر كلها ستتوقف في غضون عشر دقائق، وسيظن السائقون أن حادثاً قد وقع، ولا شك في أنهم سوف ينتظرون بصبر. وسوف تصل الشرطة في غضون خمس عشرة دقيقة، مع شاحنة لقطر السيارة بعيداً.

- هذا النوع من الأمور يقع دائماً.

- آه، نعم، لكنني بعناية شديدة وبدون أن يلاحظ أحد، أكون قد خرجت من سيارتي، ونثرت أمامها مسامير وأدوات حادة أخرى. وقد اعتنيت بطلاء هذه الأدوات كلها باللون الأسود، بحيث تختلط مع الزفت. وبينما تقترب القاطرة تثقب إطاراتها. وتنشأ لدينا الآن مشكلتان، ويبلغ السير المتوقف وراءنا ضواحي هذه المدينة الصغيرة، الضواحي ذاتها التي ربما تقيمين فيها.

- واضح أنك تمتلك مخيلة نيّرة، لكنك لن تتمكن بهذا سوى من تأخيري ساعة واحدة.

جاء الآن دور إيغور في الابتسام.

- في استطاعتي الخروج بجميع أنواع الوسائل لجعل هذا الموقف أكثر سوءاً. يمكنني عندما يبدأ الناس في التجمع من حولي

للمساعدة، أن أُلقي بشيء أشبه بقنبلة دخانية تحت الشاحنة، وهنا سيُخيف الجميع. أركب سيارتي مدّعياً اليأس وأدير المحرك، وأكون قد أفرغت القليل من وقود القدّاحات على أرضية السيارة فيشتعل. وعندها أقفز من السيارة لمراقبة المشهد، يلتهم اللهب السيارة بالتدريج، ويبلغ خزان الوقود، ويحصل الانفجار الذي سيؤثر أيضاً في السيارة التي في الخلف... وهكذا دواليك في تفاعل متسلسل. يمكنني إنجاز ذلك كلّه بواسطة سيارة، وبضعة مسامير، وقنبلة دخانية يمكن شراؤها من المتجر، وكمية قليلة من سائل القداحات...

أخرج إيغور من جيبه قارورة صغيرة تحتوي على سائل ما.

- مثل هذه الكمية. كان علي القيام بذلك عندما أوشكت أيوا على تركي لأجعلها تؤجّل قرارها وتفكّر بعض الشيء في العواقب. غالباً ما يبدّل الناس آراءهم عندما يفكرون في القرارات التي يحاولون تبنّيها. فاتخاذ خطوات معينة يتطلّب الكثير من الشجاعة.

لكنني كنت امتلك أكثر مما يجب من الكبرياء. اعتقدت أن الأمر لا يعدو كونه خطوة موقتة، وسرعان ما ستدرك خطأها. أنا متأكد من أنها نادمة على تركي، وتريد العودة، كما سبق أن قلت، لكنني أحتاج إلى تدمير بعض العوالم من أجل حدوث ذلك.

تغيّر تعبير وجهه، ولم تعد أوليفيا تجد القصة مسلية فنهضت.

- أحتاج، في الحقيقة، إلى القيام ببعض العمل.

- لكنني دفعت لك لتستمعي إلي. دفعت ما يكفي لتغطية نهار عملك بكامله.

دست يدها في جيبها لتعيد إليه ماله، لكنها رأت في تلك اللحظة المسدس مصوّباً إلى وجهها.

- اجلسي.

حثها حافزها الأول على الهروب. فالزوجان المسنان لا يزالان يقتربان.

وكما لو أنه يستطيع قراءة أفكارها، قال:

- لا تهربي. لن أطلق إذا عاودت الجلوس والاستماع إلي. أقسم، إذا لم تحاولي القيام بأي شيء، ونفّذت ما أقوله لك، إنني لن أطلق النار.

مرّت سلسلة من الخيارات سريعاً في رأس أوليفيا، أولها أن تشرع في الركض شاقة طريقها بشكل متعرّج، إلا أنها أدركت أن الضعف والوهن قد أصابا ساقيها.

كرّر الرجل كلامه:

- اجلسي، لن أطلق النار، إذا استجبت لما يُطلَب منك. أعاهدك بذلك.

نعم، إنه لجنون إن أطلق النار في صبيحة مشمسة، والسيارات تمر بهما، والناس يقصدون الشاطئ، وحركة السير تصبح أكثر كثافة بمرور الدقائق، والمزيد من المشاة يسيرون على طول الرصيف. من الأفضل إطاعة الرجل، حتى إن كانت في حالة تسمح لها بالقيام بشيء آخر، وقد كاد يُغمى عليها.

أطاعت. بات عليها الآن أن تقنعه بأنها لا تشكّل تهديداً، وأن تستمع إلى هذا الزوج المهجور يتفجّع، وتتعهد له أنها لم تر شيئاً. وعندما يحضر رجل شرطة في دوريته المعهودة، تطرح نفسها أرضاً وتصرخ طالبة النجدة.

قال الرجل محاولاً تهدئتها:

- أعرف تماماً ما تشعرين به. أعراض الخوف بقيت هي ذاتها منذ

فجر الزمن. إنها هي عينها تماماً منذ أن اضطر الرجال إلى مواجهة الحيوانات المفترسة؛ وهي لا تزال على هذا النحو حتى يومنا هذا: الدماء تنسحب من الوجه والبشرة، لتحمي الجسم وتتفادى فقدان الدم. لذلك يصبح لون الناس شاحباً. ترتاح الأمعاء وتطلق كل شيء بحيث لا تبقى نفايات سامة تلوث الكائنات العضوية. يرفض الجسم التحرّك في البداية حتى لا يستفز الحيوان المعني بحركته المفاجئة.

قالت أوليفيا في سرّها:

هذا كلّه حلم. تذكّرت والديها اللذين افتُرض بهما أن يكونا معها هنا هذا الصباح، لكنهما سهرا الليل كلّه يصنعان الجواهر لأنهما راهنا على أن يكون اليوم كثير الحركة. وهي منذ ساعات قليلة، تضاجع خليلها الذي تعتقد أنه رجل حياتها، برغم أنه يضربها أحياناً؛ وقد بلغا النشوة معاً، وهو أمر لم يحدث منذ وقت طويل. قررت، بعد الفطور، ألاّ تستحم كعادتها، لأنها شعرت بأنها حرّة، ومفعمة بالطاقة، ومسرورة بالحياة.

لا، لا يمكن هذا أن يحدث. يجب أن تحاول الظهور في مظهر الهادئة.

- فلنتحدّث. إن سبب شرائك كل ما لديّ، هو إتاحة الفرصة للتحدث. كما أنني لم أحاول النهوض للهرب.

ضغط بفوّهة المسدس برفق على أضلع الفتاة. مرّ الزوجان المسنّان أمامهما، رمقاهما بنظرة ولم يلاحظا أي أمر غريب. لقد اعتقدا أن الفتاة البرتغالية تحاول كالعادة التأثير في رجل ما بحاجبيها الداكنين وابتسامتها الطفولية. وهي ليست المرة الأولى التي يريانها فيها مع رجل غريب. وهذا الرجل، يوحي من ثيابه بأنه يملك الكثير من المال.

حدّقت أوليفيا فيهما بعينيها، كما لو أنها تستعطفهما، وتحاول أن تخبرهما بما يجري بمجرد النظر. لكن الرجل الذي إلى جانبها، قال بابتهاج:

- صباح الخير.

ابتعد الزوجان بدون أن يتفوّها بكلمة. فهما لم يتعوّدا التحدّث إلى الغرباء، أو تبادل التحية مع بائعي الشوارع.

قال الروسي كاسراً الصمت:

نعم، فلنتحدث. أنا لن أحاول في الحقيقة عرقلة السير. كنت أقدّم ذلك كمثال ليس إلّا. ستدرك زوجتي أنني هنا عندما تبدأ في تسلُّم الرسائل. لن أسلك الطريق البديهي الذي يقضي بأن أذهب وألاقيها. أريدها هي أن تأتي إليّ.

هنا مخرج ممكن.

- إذا شئت، أسلّمها الرسائل. قل لي اسم الفندق الذي تنزل فيه.

ضحك الرجل.

- تعانين عاهة التفكير الشبابية بأنك أذكى من أي شخص آخر. فأنت، في اللحظة التي تغادرين فيها هذا المكان، ستتوجهين مباشرة إلى الشرطة.

جمد الدم في عروقها. هل سيجلسان طوال النهار عند الشاطئ؟ الآن وقد عرفت وجهه، هل سيصوب مسدسه عليها في النهاية؟

- قلت إنك لن تطلق النار.

- وعدتك بأنني لن أفعل إذا تصرّفت بطريقة أكثر بلوغاً، وبالاحترام المطلوب لذكائي.

إنه محق. الأمر البالغ الذي يجب القيام به هو أن تتحدث بعض

الشيء عن نفسها. فربما أثارت التعاطف الموجود دائماً في ذهن المجنون، من خلال شرحها أنها في وضع مشابه، برغم أن ذلك ليس صحيحاً

مرّ فتى بهما راكضاً وسماعتا جهاز الموسيقى في أذنيه، وهو لم يلتفت حتى للنظر إليهما.

- أعيش مع رجل يحوّل حياتي إلى جحيم، وبرغم ذلك لا يمكنني التخلي عنه.

تغيّرت النظرة في عيني إيغور.

اعتقدت أوليفيا أنها قد وجدت طريقة للإفلات من المصيدة. كوني ذكيّة. لا تستسلمي؛ فكّري في المرأة التي تزوَّجت بالرجل الجالس قربك. كوني صادقة.

- أبعدني عن أصدقائي. وهو دائم الغيرة برغم أنه في وسعه الحصول على جميع النساء اللواتي يريد. ينتقد كل ما أقوم به، ويقول إنني غير طموحة. بل إنه يأخذ العمولة القليلة التي أجنيها.

لم يقل الرجل شيئاً، واكتفى بالتحديق في البحر. أخذ الرصيف يمتلئ بالناس. ما الذي سيحدث إذا ما وقفت على قدميها وهربت؟ هل سيطلق النار عليها؟ هل المسدس حقيقي؟

أحست بأنها تناولت موضوعاً قد يثير اهتماماً. فكّرت في أنه من الأفضل عدم القيام بأي عمل طائش، متذكّرة طريقته في الحديث وفي النظر إليها قبل ذلك بدقائق.

- وبرغم ذلك، كما ترى، لا أستطيع حمل نفسي على هجره. حتى لو أنني سألتقي الرجل الأكثر لطفاً وثروة وكرماً في العالم،

فإنني لن أتخلى عن خليلي في مقابل أي شيء. أنا لست مازوشية، ولا أتلذّذ بهذا الإذلال الدائم، لكن يصدف أنني أحبه.

شعرت بفوّهة المسدس تضغط من جديد على أضلعها. لقد تفوهت بالأمر الخاطئ.

- قال بصوتٍ ملؤه الاشمئزاز: لستُ مثل خليلك الساقط ذلك. عملت جاهداً على بناء ما أملك. كدَدْتُ طويلاً وبجهد، وثابرت برغم الانتكاسات الكثيرة. ولطالما كنت صادقاً في معاملاتي، برغم مرور أوقات اضطررت فيها إلى أن أكون قاسياً وغير متسامح. ولطالما كنت مسيحياً جيّداً. لدي أصدقاء نافذون، ولطالما كنت ممتنّاً لهم. أنا، باختصار، قمت بكل شيء بالشكل المناسب.

لم اؤذ أحداً ممّن اعترضوا سبيلي. وشجّعت زوجتي، كلما أمكن، على أن تفعل ما تريد فعله، والنتيجة هي: ها أنا وحدي. نعم، قتلت أناساً في الحرب الغبيّة التي أُرسلت لخوضها، إلا أنني لم أفقد إحساسي بالواقع. لست واحداً من قدامى المحاربين المتضررين نفسياً الذين يدخلون مطعماً ما ويمطرون الناس بأسلحتهم الرشاشة. لست إرهابياً. ويمكنني، بالتأكيد، أن أقول إن الحياة لم تعاملني بإنصاف، فأخذت مني أهمّ ما عندي: الحب. لكن توجد نساء أخريات، وألم الحب يتلاشى دوماً. أحتاج إلى الحركة، فقد سئمت كوني ضفدعاً يغلي ببطء حتى الموت.

- لمَ أنت مستاء إلى هذا الحد، إذا كنت تعلم بوجود نسوة أخريات، وبأن ألم الحب يتلاشى دوماً؟

نعم، إنها تتصرف كإنسان بالغ الآن، وقد أدهشتها الطريقة الهادئة التي تحاول التعامل فيها مع المجنون الماثل أمامها.

بدا أنه يتردّد.

- لا أعرف حقيقة. ربما كان سبب ذلك التخلّي عني مرّة أكثر مما يجب. ربما لأنني أريد أن أبرهن لنفسي عما أنا قادر عليه. ربما لأنني كذبت، ولا توجد إلا امرأة واحدة لي. لدي خطة.

- أي خطة؟

- سبق أن قلت لك إنني سأواصل تدمير العوالم إلى أن تدرك مدى أهميتها لي، وإنني مستعد لركوب المخاطر من أجل استعادتها.

الشرطة!

لاحظ كلاهما سيّارة الشرطة تقترب.

قال الرجل:

- آسف، كنت أنوي التكلّم أكثر بعض الشيء. فالحياة لم تعاملك بإنصاف كبير أنت أيضاً.

أدركت أوليفيا أنها النهاية. وبما أنه لم يعد لديها ما تخسره، حاولت النهوض من جديد. ثم شعرت بيد ذلك الغريب على كتفها اليمنى، كما لو أنه يعانقها بشوق.

«ساموزاشيتا بيز أوروجيا»، أو «سامبو» كما يُعرف أكثر بين الروس، هو فن القتل السريع باليدين العاريتين بدون أن تدرك الضحية ما يحدث. تم تطويره عبر القرون عندما اضطر القرويون أو القبائل إلى مواجهة الغزاة وهم عزّل. استخدمته الأجهزة السوفياتية على نطاق واسع للقضاء على الناس بدون ترك أي أثر. حاولوا إدخاله ضمن فنون السلاح الأبيض في دورة موسكو الأولمبية عام ١٩٨٠، لكن تم رفضه على أساس أنه خطر جداً، برغم جميع جهود شيوعيي تلك الأيام لإدخال رياضة لا يمارسها أحد غيرهم في الألعاب.

إنها طريقة مثالية لا يعرف حركاتها إلا قلة من الناس.

ضغط إبهام إيغور الأيمن على وريد أوليفيا، وكفّ الدم عن الجريان إلى الدماغ. وضغطت اليد الأخرى، في غضون ذلك، على نقطة محددة قرب الإبط، ما سبب تصلّب العضلات. ما من تقلصات، والمسألة ليست إلا مجرّد انتظار دقيقتين.

بدت أوليفيا كأنها غفت بين ذراعيه. مرت سيارة رجال الشرطة من ورائهما مستخدمة الخط المغلق أمام حركة السير الأخرى. حتى أنهم لم يلاحظوا الشخصين المتعانقين؛ فلديهم أمور أخرى يقلقون في شأنها في هذا الصباح، مثل الجهد الخارق الذي عليهم بذله للإبقاء على حركة السير. إنها مهمة مستحيلة إذا تم تنفيذها حرفيّاً. فآخر اتصال عبر الراديو أبلغهم أن ثرياً ثملاً قد حطّم سيارته على بعد ميل أو أكثر من هناك.

انحنى إيغور، وهو لا يزال يسند الفتاة، واستخدم يده الأخرى لالتقاط قطعة القماش المفروشة أمام المقعد وكانت ستعرض عليها كل تلك القطع العديمة الذوق. طواها بمهارة ليرتجل منها وسادة.

تأكد من أنه ما من أحد في الجوار، فمدد جسدها الساكن بحنو على المقعد. بدت كما لو أنها نائمة؛ ربما تذكّرت في أحلامها يوماً رائعاً معيّناً ما، أو شهدت الكوابيس المتعلّقة بخليلها العنيف.

وحدهما الزوجان المسنّان شاهداهما يجلسان معاً. وإذا ما تم اكتشاف الجريمة - وهو ما يشك فيه إيغور لعدم وجود علامات ظاهرة - فإنهما سيصفانه للشرطة بأنه أكثر ابيضاضاً، أو اسمراراً، أو أكبر أو أصغر مما هو عليه فعلاً؛ ليس ثمة أدنى سبب للقلق؛ فالناس لا ينتبهون كثيراً إلى ما يدور من حولهم.

طبع، قبل أن يرحل، قبلة على جبين الجميلة النائمة وتمتم:

كما ترين، فقد بررت بوعدي، ولم أطلق النار.

سار بضع خطوات. أخذ رأسه يؤلمه بشكل رهيب. هذا أمر طبيعي جداً، فالدم يغمر الدماغ، وهذا رد فعل مفهوم لدى شخص كان للتو خاضعاً لأقصى درجات التوتر. شعر بالسعادة برغم الصداع. نعم، لقد فعل ما انطلق للقيام به.

يمكنه إتمام الأمر. وهو أكثر سعادة لأنه حرّر الروح من ذلك الجسد الهش. حرّر روحاً عاجزة عن الدفاع عن نفسها حيال صوّال جبان. ولو أن علاقة الفتاة استمرت مع خليلها لانتهى بها الأمر مكتئبة وقلقة ومتجردة من أي احترام للذات، ولأصبحت طيّعة كالخاتم في يده.

لم تكن الحال على هذا المنوال مع إيوا. فلطالما كانت قادرة على اتخاذ قراراتها الخاصة. وفّر لها الدعم المعنوي والسند المالي عندما قرّرت فتح محل للخياطة الراقية. امتلكت حرّية السفر كيفما شاءت. فقد كان رجلاً وزوجاً نموذجياً. وبرغم ذلك، فإنها ارتكبت غلطة: لم تستطع فهم حبه وتسامحه. إلا أنه أمل أنها ستتلقى الرسائل؛ وهو، على أي حال، سبق أن قال لها يوم مغادرتها إنه سيدمّر عوالم لاستعادتها.

التقط الهاتف النقال الذي اشتراه للتو، وهو من النوع الذي يُرمى بعد الانتهاء من استخدامه، وقد شرَّجه بأقل قدر ممكن من الوحدات، وبعث منه برسالة مكتوبة.

١١:٠٠ ق.ظ.

قيل إن كل شيء بدأ مع فتاة مجهولة تبلغ التاسعة عشرة من العمر، عرضت نفسها بالبكيني أمام مصورين لم يكن لديهم عمل أفضل يقومون به في مهرجان كان عام ١٩٥٣. قفزت فوراً إلى النجومية، وأصبح اسمها أسطورياً، وهي: بريجيت باردو. وها إن الجميع يظنون أنه في وسعهم القيام بما قامت به. لا يدرك أحد أهمية أن تكون الواحدة ممثلة؛ الجمال وحده هو المهم.

هذا ما يدفع النسوة ذوات السيقان الطويلة والشعور المصبوغة، شقراوات العالم المعلّبات، إلى السفر مئات الكيلومترات، بل آلاف الأميال إلى «كان»، ولو بهدف وحيد هو أن يقضين يوماً كاملاً على الشاطئ آملات أن تتم رؤيتهن، وتصويرهن، واكتشافهن. يُردن الفرار من المصيدة التي تنتظر جميع النساء: أن يصبحن ربات منزل يهيئن، في كل مساء، العشاء لأزواجهن، ويأخذن الأولاد إلى المدرسة في كل نهار، ويحاولن نبش بعض مساوئ حياة جيرانهن الرتيبة ليصبح لديهن ما يثرثرن به مع صديقاتهن. ما تريده هؤلاء النسوة هو الشهرة، والمجد، والروعة: أن يصبحن محط حسد الآخرين الذين

يعيشون في مدنهن، والفتيان والفتيات الذين اعتبروهن بشعات، غير مدركين أنه في وسعهن في يوم من الأيام أن يكبرن ليصبحن مثل الإوزات، أو يتفحتن إلى زهرة يشتهيها الجميع. يطلبن مهنة في عالم الأحلام حتى لو اضطررن إلى استدانة المال لزرع السيليكون في أثدائهن، أو لشراء بعض الملابس الأحدث والأكثر إثارة. مدرسة التمثيل؟ انسي الأمر، فالمنظر الجميل والعلاقات المناسبة هي كل ما يلزمك. يمكن السينما اجتراح العجائب، على الافتراض، دوماً، أنك ستتمكنين من اقتحام هذا العالم. كل شيء للهروب من سجن المدينة الريفية ومن الأيام الطويلة الموحشة والرتيبة. ثمة ملايين الناس الذين لا يعترضون على هذا النوع من الحياة، ويجب تركهم يعيشون الحياة التي يرون أنها تناسبهم. بيد أنه عليك أن تدعي الخوف في المنزل، إذا جئت إلى المهرجان، وتكوني مستعدة لأي شيء: اتخاذ قرارات مرتجلة؛ إخبار الأكاذيب إذا لزم الأمر، الادعاء أنك أصغر سناً مما أنت عليه؛ الابتسام للذين تمجّينهم؛ ادعاء الاهتمام بمن يُضجرونك؛ أو طعن صديقة ساعدتك مرّة، في ظهرها، بعد أن أضحت الآن منافسة غير مرغوبة. لا تدعي الندم أو الخجل أو المشاعر تعترض طريقك. فالجائزة تساوي أي مقدار كان من التضحيات.

شهرة. مجد. روعة.

تجد غبريبلا أن هذه الأفكار تثير الغيظ. فهي ليست نهائياً الطريقة المثلى لبدء نهار جديد. والأسوأ من ذلك أنها تعاني الإسراف في الشرب.

على الأقل ثمة عزاء واحد. فهي لم تستفق من النوم في فندق من خمس نجوم بقرب رجل يطلب منها ارتداء ملابسها والرحيل، لأن لديه أعمالاً مهمة يتعاطى بها، مثل شراء الأفلام أو بيعها.

نهضت وتطلّعت من حولها لترى إن كانت واحدة من صديقاتها لا تزال في الشقة. وغني عن القول أنهن لسن موجودات. فقد غادرن منذ فترة طويلة إلى جادة الكروازيت، حيث أحواض السباحة، وحانات الفنادق، واليخوت، ومواعيد محتملة للغداء واللقاءات العفوية على الشاطئ. فُرُش خمسة على أرض الشقة الصغيرة المشتركة التي تم استئجارها لفترة المهرجان بسعر فاحش. أحاطت بالفُرُش كومة من الثياب، والأحذية المخلوعة، وعلاّقات الثياب التي لم يتكبد أحد مشقّة إعادتها إلى خزانة الملابس.

راودتها فكرة أن الثياب تشغل مكاناً أكثر من الناس.

ليس الأمر أنه في وسعهن أن يحلمن بارتداء ملابس من تصميم إيلي صعب، أو كارل لاغرفيلد، أو فيرساتشي أو غاليانو، بل لأن ما لديهن يشغل معظم الشقة: ملابس البحر، الأقمشة والأحذية ذات النعال السميكة، وأدوات التجميل الكثيرة.

قالت في سرّها: سأرتدي يوماً ما يحلو لي، لكنني أحتاج الآن إلى منحي فرصة.

- *ولماذا تريد تلك الفرصة؟*

الأمر في منتهى البساطة. لأنها تعرف أنها الأفضل برغم تجربتها المحبطة في المدرسة - حيث خيّبت آمال أهلها كثيراً -، وبرغم التحديات التي واجهتها من أجل أن تثبت لنفسها أنه في وسعها التغلّب على الصعاب، والإحباطات، والهزائم. وُلدت لتربح وتشع... لا شك لديها في ذلك.

أعرف أنه يجب علي أن أسأل نفسي، عندما أحصل على ما أردته دوماً: هل يحبونني ويُعجبون بي بسبب ما أنا عليه، أم لأنني مشهورة؟

وهي تعرف من حققوا النجومية على المسرح. وهم، بعكس توقعاتها، غير متصالحين مع أنفسهم. ما إن يتركوا خشبة المسرح حتى يصبحوا غير مطمئنّين، تملأهم الشكوك، وتعساء. يريدون أن يكونوا ممثلين حتى لا يضطروا إلى أن يكونوا أنفسهم، ويعيشون في الخوف من أن يقوموا بخطوة خاطئة واحدة تضع حداً لحياتهم المهنية.

لكنني مختلفة، فلطالما كنت أنا نفسي.

أذلك صحيح؟ أم أن كل واحد في موقعها يفكّر بالطريقة ذاتها؟

نهضت وأعدّت القهوة. المطبخ في حالة فوضى، ولم تكلّف أي من صديقاتها نفسها مهمة غسل الأطباق. هي لا تعرف لماذا أفاقت في مثل هذا المزاج السيئ، يشغلها الكثير من الشكوك. تعرف عملها جيداً، وتكرّست له قلباً وقالباً. وبرغم ذلك يبدو الأمر كأن الناس يرفضون الاعتراف بموهبتها. تعرف ما هي عليه الكائنات الإنسانية، وبخاصة الرجال - الحلفاء المستقبليين - في معركة تحتاج إلى كسبها سريعاً، لأنها أصبحت في الخامسة والعشرين، وتكاد تصبح كبيرة جدا على مصنع الأحلام. تعرف أموراً ثلاثة:

أ - الرجال أقل غدراً من النساء؛

ب - لا يلاحظون ما ترتديه المرأة لأنهم يقومون دوماً بتعريتها في أذهانهم؛

ج - يمكنك غزو العالم ما دمت تمتلكين صدراً، وبوتوكس، وبطناً في حالة جيدة.

وبسبب هذه الأمور الثلاثة، وهي تعرف أهميتها، وتعلم أيضاً بأن

جميع النسوة الأخريات اللواتي تتنافس معهن يحاولن إبراز ميزاتهن، فإنها تركّز انتباهها فقط على النقطة (ج) في قائمتها. فهي تمارس التمارين وتحاول المحافظة على لياقتها. تتحاشى الريجيم، برغم أن ذلك يتنافى مع المنطق، وترتدي ثياباً متحفّظة جداً. نجح ذلك جيداً حتى الآن، وقد أمكنها أن تظهر أصغر سناً مما هي عليه. وهي تأمل أن ينجح ذلك في «كان» أيضاً.

الصدر، البوتوكس، الفخذان. يمكنهم في الوقت الحاضر التركيز على تلك الأمور إن شاؤوا. لكن سيأتي يوم يرون فيه ما يمكنها حقيقة القيام به.

ارتشفت قهوتها وشرعت في فهم مزاجها السيّئ. إنها محاطة ببعض أجمل نساء الأرض! هي بالتأكيد لا تعدّ نفسها بشعة، لكن لا مجال لأن تتنافس معهن. عليها أن تقرر ما تفعل. فكّرت ملّياً وطويلاً قبل أن تقوم بهذه الرحلة، فالمال متعسّر، وهي لا تملك المزيد من الوقت للحصول على عقد. ارتادت أماكن مختلفة في خلال اليومين الأولين، مقدّمة إلى الناس نسخة عن سيرتها الذاتية وصورها. إلا أن كل ما حصلت عليه هو دعوة في الليلة الماضية إلى مطعم رخيص، أُطلقت الموسيقى فيه على عنانها، ولم تلتق فيه بأحد من الطبقة الأرفع. شربت أكثر مما يجب كي تحلّ روادعها. وانتهى بها الأمر لا تعرف أين هي، أو ما الذي تفعله هناك. بدا كل شيء غريباً عنها: أوروبا، الطريقة التي يرتدي فيها الناس ثيابهم، اللغات المختلفة، البهجة المزيفة. أما الحقيقة فهي أن الجميع يتمنّون لو تمت دعوتهم إلى حدث أكثر أهمية بدلاً من الحضور في هذا المكان التافه للغاية، والاستماع إلى الموسيقى القديمة ذاتها، والاضطرار إلى إجراء محادثات عبر الصياح حول حيوات الأشخاص الآخرين والمظالم التي يرتكبها الأقوياء في حق من لا حول لهم. تعبت

غبريلا من التحدّث عن مثل هذه المظالم المزعومة. فالأمر على ما هو في مثل هذه البساطة. يختارون الذين يريدون اختيارهم، وهم غير مضطرين إلى تبرير أنفسهم لأحد. وهي لهذا السبب، تحتاج إلى خطة. فشابات كثيرات يراودهن الحلم ذاته (لكنهن لا يتمتعن، طبعاً، بمقدار موهبتها) سيدرن موزعات سير حيواتهن وصورهن، ولا بد من أن المنتجين الذين جاؤوا إلى المهرجان قد غرقوا في الملفات، وأسطوانات «الدي.في.دي.» وبطاقات التعريف.

ما الذي سيجعلها تبرز؟

تحتاج إلى التفكير. فهي لن تحظى بفرصة أخرى كهذه، خصوصاً أنها أنفقت معظم مدّخراتها على هذه الرحلة. وما يرعبها أكثر هو أنها تتقدم في السن. إنها في الخامسة والعشرين، وهذه فرصتها الأخيرة.

تطلّعت، وهي ترتشف قهوتها، من نافذة المطبخ الصغيرة إلى الشارع الذي لا منفذ له من تحتها. كل ما أمكنها رؤيته هو بائع التبغ وفتاة صغيرة تأكل الشوكولاتة. نعم، إنها فرصتها الأخيرة. وهي تأمل أن تخرج بنتيجة مختلفة، عما خرجت به فرصتها الأولى.

عادت بالتفكير إلى الوراء، حين كانت في الحادية عشرة تمثّل في مسرحيتها المدرسية الأولى، أكثر المدارس كلفة في شيكاغو. لم تنشأ رغبتها التالية في النجاح عن هتاف الترحيب الجماعي الذي حصدته من الحضور المقتصر على الآباء والأمهات والأقارب والأساتذة. كانت تؤدي شخصية «ماد هاتر» في «آليس في بلاد العجائب». حازت الدور - وهو من الأفضل في المسرحية - بعد أن خضعت لاختبار مر فيه الكثيرون من الفتيان والبنات الآخرين.

يبدأ دورها الأول بـ: شعرك يحتاج إلى قصّ. وعندها تجيبها

آليس: يجب أن تتعلمي عدم إطلاق ملاحظات شخصية، فهذا فظ جداً.

عندما حان الوقت الذي تم انتظاره طويلاً، وقت تمزنت عليه مراراً وتكراراً، أصبحت على درجة كبيرة من التوتر، بحيث أخطأت في جملتها، وقالت بدلاً منها: شعرك يحتاج إلى الغسيل. وقالت الفتاة التي أدت دور آليس جملتها التالية على أي حال. كما تمكن الحضور من ملاحظة الخطأ الذي وقع، لولا أن غبرييلا، التي عرفت أنها ارتكبت هفوة، فقدت فوراً قدرتها على النطق. وبما أن ماد هاتر شخصية رئيسية إذا ما أريد للمشهد أن يستمر، ولأن الأطفال لا يتقنون الارتجال على المسرح (برغم أنهم يرتجلون بما يكفي في الحياة الحقيقية)، لم يعرف أحد ما العمل. ثم، بعد دقائق عدة طويلة، اكتفى المثلون في خلالها بالتحديق بعضهم إلى بعضهم الآخر، شرعت المعلمة في التصفيق، وأعلنت أن الوقت قد حان للاستراحة، وأمرت الجميع بمغادرة الخشبة

لم تغادر غبرييلا المسرح فحسب، بل تركت المدرسة أيضاً باكية. ووجدت في اليوم التالي أن المشهد مع ماد هاتر قد حذف، وأن الممثلين سينتقلون بدلاً من ذلك مباشرة إلى لعبة الكرة والمطرقة مع الملكة. قالت المعلمة «لا يهم أبداً، لأن قصة «آليس في بلاد العجائب» هي كناية عن الكثير من السخف على أي حال». لكن أثناء الفرصة، تألّبت الفتيات مع الصبيان ضد غبرييلا، وشرعوا في ضربها.

لم يكن هذا خارجاً جداً عن المألوف. فهو أمر تكرر في شبه انتظام. وقد تعلّمت الدفاع عن نفسها بما أمكنها من همّة، عندما هاجمت، بدورها، الأولاد الأضعف منها. إلا أنها في هذه المناسبة تلقّت الضربات بدون أن تتفوّه بكلمة وبدون أن تذرف دمعة. جاء رد

فعلها مفاجئاً كثيراً، بحيث إن القتال بالكاد استغرق وقتاً. توقع رفاق مدرستها أن تصرخ وتصيح. وسرعان ما فقدوا الاهتمام عندما لم تفعل. فغبرييلا أخذت، مع كل ضربة، تفكّر:

سأصبح يوماً ممثلة عظيمة وستندمون.

من يقول إن الأطفال لا يمكنهم أن يقرروا ماذا يريدون أن يفعلوا في الحياة؟

الراشدون يقولون.

وعندما نكبر لنصبح راشدين لأنفسنا، نعتقد أننا كائنات حكيمة هي دائماً على حق. ما من شك في أن الكثيرين من الأطفال قد مرّوا في تجربة مماثلة، لاعبين دور ماد هاتر أو الأميرة النائمة أو علاء الدين أو آليس. وقرروا في ذينك الزمان والمكان الابتعاد عن الأضواء والتصفيق. لكن لم يسبق لغبرييلا أن خسرت معركة؛ فهي التلميذة الأكثر جمالاً والأوفر ذكاء في المدرسة، وتحصل دوماً على أفضل العلامات في الصف، وعرفت في وجدانها أنها إذا لم تقاوم فستضيع.

أن تتعرض للضرب على أيدي رفاقها في المدرسة أمر - لأنها كانت تعطي بقدر ما كانت تتلقى -، أما أن تحمل إخفاقاً كهذا معها طوال حياتها، فذلك أمر آخر. وعلى ما نعرفه جميعاً، فإن سطراً تافهاً في مسرحية مدرسية، وعدم المقدرة على الرقص مثل الباقين، أو ملاحظة فظّة أُطلقت حول سيقان هزيلة أو رأس كبير - وهي أمور تعرّض لها جميع الأولاد -، قد تنتج عنها عاقبتان مختلفتان جذرياً.

يختار بعض الناس الانتقام، ويحاولون أن يجيدوا حقيقةً ما اعتقد الآخرون أنه ليس في وسعهم القيام به. ويذكُرون قائلين: في يوم من الأيام: ستحسدونني.

إلا أن معظم الناس يقبلون محدوديتهم، لتتَّخذ من ثمَّ أمورهم منحىً ينحدر سوءاً. يكبرون غير مستقرين وطيّعين (برغم أنهم يحلمون بيوم يتحررون فيه ويتمكّنون من القيام بما يحلو لهم). يتزوّجون ليثبتوا أنهم ليسوا بهذه البشاعة التي قال عنها الأولاد الآخرون (برغم أنهم يستمرّون في الاعتقاد، في قرارة أنفسهم، أنهم كذلك). ينجبون الأولاد لئلا يقول أحد إنهم عقيمون (ولو أنهم يريدون الأطفال في أي حال). يتأنقون في لباسهم فلا يستطيع أحد القول إنهم يُسيئون اختيار ملابسهم (برغم أنهم يعرفون أن الناس سيقولون ذلك في جميع الحالات).

بحلول الأسبوع التالي، نسي جميع من في المدرسة حادثة المسرحية، لكن غبرييلا قررت أنها، بعد أن تصبح ممثلة مشهورة عالمياً ترافقها السكريتيرات والحراس الشخصيون والمصورون وفيالق المعجبين، ستعود في يوم من الأيام إلى تلك المدرسة. ستعرض مسرحية «آليس في بلاد العجائب»، بحيث يعود ريعها إلى الأطفال المحتاجين. وسوف تحتل عناوين الاخبار، وسيقول كل رفاق طفولتها:

وقفتُ مرة على خشبة المسرح ذاته معها!

أرادتها أمها أن تدرس الهندسة الكيميائية. وما إن أنهت دراستها الثانوية حتى أرسلها والداها إلى معهد إيلينويز للتكنولوجيا. أخذت في سياق النهار تدرس مسارات البروتين وتركيب البنزين، بينما أمضت سهراتها الليلية مع إيبسن، وكوراد، وشكسبير، وهي تحضر حصة المسرح التي دفعت أقساطها من المال الذي أرسله إليها والداها لشراء الثياب وكتب الجامعة. تدربت على أيدي أفضل المحترفين، وحظيت بأساتذة ممتازين. حصلت على تقويمات جيّدة وعلى رسائل توصية. غنّت (بدون معرفة والديها) مع كورس مجموعة

موسيقى روك، ولعبت دور راقصة شرقية في مسرحية عن لورنس العرب. كان من المستحسن دائماً قبول أي دور يتم عرضه. وثمة دوماً احتمال وجود شخص مهم بين الحضور، شخص سيدعوها إلى أول دور تجريبي حقيقي لها. عندها ستنتهي أزمنة الاختبارات تلك كلها، وينتهي معها صراعها لكسب مكان تحت الأضواء.

مرّت السنون. أدّت غبرييلا دعايات تلفزيونية: إعلانات عن معجون الأسنان، وعملت في مجال عرض الأزياء... بل كادت تُغويها حتى تلبية دعوة من مجموعة متخصصة بتأمين مرافقات لرجال الأعمال، لأنها كانت تحتاج يائسة إلى المال لتحضير ملف ترسله إلى كبريات وكالات عرض الأزياء والتمثيل في الولايات المتحدة. ومن حسن حظها، أن الله، الذي لم تفقد الإيمان به مطلقاً، قد أنقذها. فقد عُرض عليها، في اليوم ذاته، دور رديف في فيديو كليب لمغنٍّ ياباني، سيتم تصويره تحت جسر القطار السريع في شيكاغو. تلقّت أجراً أعلى بكثير مما توقّعت (طلب المنتجون، على ما يبدو، أجوراً مرتفعة جداً للممثلين الأجانب)، وأمكنها بهذا المال الإضافي أن تنتج كتاب الصور الحيوي (أو «الكتاب» كما يُعرف في كل لغة من لغات العالم)، الذي كلّفها أيضاً أكثر بكثير مما تصوّرت.

لطالما قالت لنفسها إنها لا تزال في بداية حياتها المهنية، برغم أن الأيام والأشهر شرعت في المرور بسرعة. كان ممكناً أن يتم اختيارها، وهي تتابع اختصاصها في المسرح، لأداء دور أوفيليا في هاملت، لكن الحياة غالباً ما كانت تؤمّن لها إعلانات لمزيل الرائحة ومساحيق التجميل. وفي كل مرّة، كانت تذهب إلى وكالة ما لتعرض عليها «كتابها» ورسائل التوصية من أساتذتها وأصدقائها وزملائها، تجد غرفة الانتظار تعج بفتيات يشبهنها. جميعهن مبتسمات، وجميعهن يكره بعضهن بعضاً، وجميعهن يفعلن ما في

وسعهن للحصول على شيء، أي شيء، يتيح لهن الرؤية، كما يسميها أصحاب الاختصاص.

تنتظر لساعات وصول دورها، وهي تقرأ في غضون ذلك كتباً عن التأمل والتفكير الإيجابي. وينتهي بها الأمر جالسة قبالة شخص ما - رجلاً أو امرأة - يتجاهل الرسائل ويذهب مباشرة إلى الصور بدون أي تعليق عليها أيضاً. يتم تدوين ملاحظة باسمها. ويُصار إلى استدعائها أحياناً إلى التجربة، التي لن تؤتي ثمارها إلا بنسبة واحد إلى عشرة. وعندها، ستقف أيضاً، بكل موهبتها (أو هكذا تظن)، أمام الكاميرا وأمام الكثيرين من قليلي الأدب، وهم يقولون لها دائماً: اهدئي، ابتسمي، استديري إلى اليمين، أَنزلي ذقنك بعض الشيء، العقي شفتيك. أما النتيجة، فصورة لماركة قهوة جديدة.

وما الذي يحدث عندما لا يتم استدعاؤها؟ تشعر بأنها منبوذة، لكنها سرعان ما تعلّمت التعايش مع ذلك، واعتبرته تجربة ضرورية، وامتحاناً لمثابرتها وإيمانها. لم تقبل واقع أن صفوف المسرح، ورسائل التوصية، وسيرة الحياة التي تعدِّد الأدوار الصغيرة التي أدتها في مسارح صغرى، لا جدوى منها على الإطلاق...

رن جرس هاتفها النقال.

...لم تنتبه إليه قط.

استمرّ في الرنين.

كانت لا تزال مسافرة عائدة بالزمن، وهي تنظر إلى أسفل إلى بائع دخان وفتاة صغيرة تأكل الشوكولاتة، عندما أفاقت أخيراً من شرودها، فأدركت ما يحدث وردَّت على الهاتف.

أبلغها صوت في الجانب الآخر من الخط أن لديها اختباراً بعد ساعتين.

لديها اختبار!

في «كان»!

هكذا استحقّ الأمر عبور المحيط، والوصول إلى مدينة، جميع فنادقها محجوزة بالكامل، واللقاء في المطار مع شابات أخريات في الوضع ذاته الذي هي فيه (بولندية، روسيتين، وبرازيلية)، وتجوالهن في المنطقة قارعات الأبواب إلى أن عثرن على شقة، باهظة السعر، يتقاسمنها. بعد كل تلك السنوات التي جزبت فيها حظها في شيكاغو وسفرها من وقت إلى آخر إلى لوس أنجلس بحثاً عن مزيد من وكلاء الأعمال، والمزيد من الإعلانات، والمزيد من الرفض، تبيّن أن مستقبلها موجود في أوروبا!

في غضون ساعتين من الوقت؟

لم تستطع اللحاق بالباص، لأنها لا تعرف الطرقات. فهي تقيم في مكان مرتفع على تلّة شديدة الانحدار لم تنزل منها سوى مرتين: لتوزيع نسخ من كتابها، وللذهاب إلى تلك الحفلة الغبية الليلة الماضية. وفي المناسبتين، لدى بلوغها أسفل التلّة، طلبت إلى غرباء كليّاً عنها توصيلها، لكن من غير الممكن ترك الأمور للمصادفة في هذه المرة أيضاً، وعليها أن تجد بنفسها حلاً للمشكلة. فالاختبارات تتبع جدولاً زمنياً متشدّداً. وهذا من أول الأمور التي يتعلّمها المرء في وكالات التمثيل. لاحظت في يومها الأول في «كان» أن السير يكاد يكون معرقَلاً على الدوام، وأن كل ما يمكنها القيام به هو ارتداء ملابسها والمغادرة فوراً. ستصل إلى هناك في ساعة ونصف الساعة. تذكّرت الفندق الذي ينزل فيه المنتج لأنه يقع على طريق الحج الذي سلكته بالأمس بحثاً عن فرصة ما، عن فرجة.

المشكلة الآن هي ماذا ترتدي؟

أكبَّت على الحقيبة التي جلبتها معها، واختارت جينز آرماني مصنوعاً في الصين اشترته من السوق السوداء في شيكاغو بثُمنِ سعره الحقيقي. لا يمكن أحداً القول إنه غير أصلي، لأنه ليس كذلك؛ فالجميع يعرفون أن أرباب الصناعة الصينيين يرسلون ٨٠٪ من إنتاجهم إلى المحلات الأصلية، بينما يقوم الموظفون، في شكل جانبي، ببيع الـــ ٢٠٪ المتبقية. فهي تشكِّل، إذاً كلفته زيادة في المخزون، وفائضاً عن الطلب.

وضعت قميصاً أبيض ماركة DKNY كلفته أكثر من الجينز. علمت، وهي الأمينة على مبادئها، أن من الأفضل أن تكون الثياب محتشمة. لا تنانير قصيرة، ولا فتحات على الصدر، لأنه إذا ما تمت دعوة النسوة الأخريات إلى الاختبار، فإن هذا هو ما سيرتدينه.

احتارت في شأن تبرّجها. واختارت في النهاية أساساً خفيفاً جدّاً وتخطيطاً أخف منه للشفتين. خسرت بالفعل ١٥ دقيقة ثمينة.

١١:٤٥ ق.ظ.

الناس لا يقنعون أبداً. إذا حصلوا على القليل، يطلبون المزيد. وإذا حصلوا على الكثير، فسيستمرون في طلب المزيد. وما إن يحصلوا على المزيد حتى يتمنوا لو أنه في وسعهم السعادة مع القليل، لكنهم يعجزون عن بذل أقل قدر من الجهد في ذلك الاتجاه.

ألأنهم لا يدركون مدى سهولة السعادة؟ ما الذي تريده تلك الفتاة بالجينز والقميص الأبيض، التي مرت بنا للتو راكضة؟ ما الأمر الطارئ إلى هذا الحد الذي يمنعها من تخصيص الوقت لتأمل هذا اليوم المشمس الرائع، والبحر الأزرق، والأطفال في عرباتهم، وأشجار النخيل التي تحف بالشاطئ؟

لا تركضي، يا صغيرة! فلن تفلتي من الحاضرين الأكثر أهمية في حياة أي كائن حي: الله والموت. الله يرافقك في كل خطوة من خطواتك، وسينزعج لأنه في وسعه أن يرى أنك لا تولين انتباهاً لمعجزة الحياة، أو بالأصح الموت. فها أنت مررت بجثة ولم تلاحظي ذلك حتى.

مرّ إيغور مرات عدة حتى الآن بمسرح الجريمة. وأدرك، عند حد ما، أن إيابه وذهابه المتكرِّرين قد يثيران الشبهة. لذلك قرر أن يبقى على مسافة مئتي ياردة حذرة من المسرح، متكئاً على الدرابزين المطل على الشاطئ. ارتدى نظارة سوداء، وليس في الأمر ما يثير الشك، ليس لأنه نهار مشمس فحسب، بل لأن النظارة السوداء، في مدينة مشاهير مثل «كان»، هي مرادف للمكانة الاجتماعية.

دُهش لأن منتصف النهار قد شارف على الحلول، ولم يلاحظ أحد بعدُ وجودَ شخص ميت ممدّد في الشارع الرئيسي لمدينة هي، في هذا الوقت من السنة، محط انتباه العالم.

ثمة زوجان يقتربان من المقعد الآن، ويبدو عليهما الاستياء. شرعا في الصياح على الجميلة النائمة؛ إنهما والدا الفتاة، وقد غضبا لأنها لا تعمل. هزّها الرجل معنّفاً، ثم انحنت المرأة حاجبة مجال رؤية إيغور.

عرف إيغور ما الذي سيحدث تالياً.

صرخت الأم. أخرج الوالد هاتفه النقال من جيبه وتحرّك بعيداً، وقد بان عليه الاضطراب. وهزّت الأم جسد ابنتها الذي لا يستجيب. توقف المارة، بات في إمكانه الآن خلع نظارته السوداء، والانضمام إليهم بوصفه واحداً من المتفرجين الفضوليين.

شرعت الأم في البكاء، وهي ملتصقة بابنتها. أبعدها شاب عنها برفق، وهو يحاول الآن إنعاشها بواسطة الفم، لكنه سرعان ما استسلم، وقد أخذت مسحة من اللون الأرجواني تغطّي وجهها.

فليستدع أحد سيارة إسعاف!

طلب أشخاص عدة الرقم ذاته، وقد شعروا جميعهم بأنهم نافعون، مهمّون، مهتمّون. بات في إمكانه الآن سماع صوت صافرة

الإنذار من بعيد. أخذت صرخات الوالدة تعلو. حاول شاب وضع ذراع مؤاسية حولها، لكنها دفعته بعيداً. حاول أحدهم رفع الجثة، لكن آخر طلب إليه إعادتها، فقد فات أوان أي محاولة

وقال شخص قربه: ربما تناولت جرعة زائدة من المخدّر، شبان اليوم قضية خاسرة.

هزّ من سمعوا التعليق رؤوسهم كالحكماء موافقين. ظل إيغور مستكيناً، في حين كان المسعفون ينزلون تجهيزاتهم من سيارة الإسعاف، ويستخدمون الصعقات الكهربائية على قلب أوليفيا، بينما الطبيب الأكثر خبرة يقف جانباً لا يتفوّه بكلمة، لأنه، برغم معرفته أنه ليس ثمة ما يمكن عمله، لا يريد أن يُتهم زملاؤه بالإهمال. مددوا جثة أوليفيا على حمّالة ووضعوها في سيارة الإسعاف، والأم لا تزال ملتصقة بابنتها. وسمحوا، بعد نقاش قصير، لها بالدخول أيضاً، وابتعدت سيارة الإسعاف بسرعة.

لم يمرّ أكثر من خمس دقائق بين اكتشاف الزوجين للجثة ومغادرة سيارة الإسعاف. بقي الوالد واقفاً هناك، مصدوماً، لا يعرف إلى أين يذهب، أو ماذا يفعل. توجّه الرجل نفسه الذي أبدى التعليق حول الجرعة المفرطة إلى الوالد، وقد نسي مع من يتحدث، وقدّم إليه روايته للوقائع:

- لا تقلق، يا سيدي. هذا النوع من الأمور يحدث في كل يوم في الجوار.

لم يُجب الوالد. كان لا يزال ممسكاً بهاتفه النقال ويحدّق في الفراغ. فهو إما لم يفهم الملاحظة، وإما لا يملك أدنى فكرة عما يخبره عنه هذا الرجل ويقول إنه يحدث في كل يوم، وإما أنه في حالة صدمة أرسلته فوراً إلى بُعد غير معروف، لا مكان للألم فيه.

تفرقت الحشود بالسرعة ذاتها التي ظهرت فيها. وبقي شخصان فقط: الوالد الذي لا يزال ممسكاً بهاتفه، والرجل الذي خلع نظارته السوداء وأمسك بها.

- سأله إيغور: هل تعرف الفتاة؟.

لكن الوالد لم يُجبه.

من الأفضل القيام بما فعله الجميع، والاستمرار في السير على طول جادة لاكروازيت، ورؤية ما يحدث في هذه الصبيحة المشمسة في «كان». وهو، على غرار والد الفتاة، لا يعرف ما الذي يشعر به؛ فلقد دمّر عالماً لن يتمكن أبداً من إعادة بنائه، حتى ولو امتلك سلطات الأرض كلها. أوَتستحق إيوا ذلك؟ فمن رحم تلك الشابة، أوليفيا - يعرف أن اسمها يصيبه باضطراب بالغ، لأنه يعني أنها لم تعد مجرّد وجه في حشد - ربما كان سيخرج عبقري قد يصل إلى حد اكتشاف دواء للسرطان، أو وضع مسوَّدة اتفاق تضمن أن العالم سيعيش أخيراً بسلام. وهو لم يدمر شخصاً واحداً فحسب، بل الاجيال المقبلة كلها التي قد تخرج منها. ما الذي فعله؟ هل يشكّل الحب، مهما يكن كبيراً وشديداً، مبرّراً كافياً لذلك؟

اختار الشخص الخطأ ضحية أولى له. فموتها لن يحتل الأخبار أبداً، ولن تفهم إيوا الرسالة.

لا تفكّر في الأمر، فما حدث قد حدث. عليك بتحضير نفسك للمضي أكثر في الأمر. عليك بالمتابعة. ستدرك الفتاة أن موتها لم يذهب عبثاً، بل إنه تضحية باسم حب أعظم. انظر من حولك، وشاهد ما يحدث في المدينة، تصرّف كمواطن عادي. حصلت بالفعل على حصتك العادلة من الألم في هذه الحياة؛ وأنت تستحق الآن بعض السلام والعزاء.

تمتَّع بالمهرجان. هذا ما حضرت نفسك من أجله.

وجد، برغم أنه يحمل عدة السباحة معه، صعوبة في الذهاب إلى أي مكان قريب من شاطئ البحر. بدا أن الفنادق الكبرى قد حصلت على حقوق الانتفاع من بقع كبيرة من الشاطئ، ملأتها بالكراسي، والشعارات، والنادلين والحراس الشخصيين الذين يطلبون، عند كل مدخل، مفتاح غرفة النزيل أو أي شكل آخر من أشكال التعريف عن النفس. وثمة مناطق أخرى شغلتها صالات هائلة الحجم، بيضاء اللون، حيث تقوم شركة إنتاج ما، مؤسسة جعة أو أدوات تجميل، بإطلاق آخر منتجاتها في ما يسمى حملة الإطلاق. لباس الناس هنا عادي، إذا ما عنينا بالعادي قبعة كرة مضرب وقميصاً زاهياً وبنطلوناً فاتح اللون للرجال، وحليّاً وقمصاناً خارجية واسعة وبرمودا وأحذية منخفضة الكعب للنساء.

أما النظارات السوداء فلا بُدّ منها للجنسين. لكن، لم يعرض الكثير من مساحات الأجساد لأن أفراد الطبقة الأرفع قد كبروا كثيراً على ذلك الآن، وأي عرض كهذا مدعاة للسخرية، والشفقة.

لاحظ إيغور أمراً واحداً آخر: الهاتف النقّال. إنه العنصر الأهم في الثياب.

من الضروري تلقّي سيل مستمر من الرسائل أو الاتصالات، والاستعداد لقطع أي محادثة من أجل الرد على اتصال ليس طارئاً أبداً، أو الوقوف وكبس أزرار نصوص لا نهاية لها عبر خدمة الرسائل SMS. نسوا جميعاً أن أحرفها الأولى تعني خدمة الرسائل القصيرة. وهم بدلاً من ذلك يستخدمون أزرار الهاتف كأنه آلة طابعة. إنها عملية بطيئة، مربكة، وقد تسبّب ضرراً خطيراً

للإبهام. أوَذلك مهم؟ في هذه اللحظة بالذات، يمتلئ الأثير، ليس في «كان» فحسب، بل في العالم كله أيضاً، برسائل على غرار «صباح الخير» يا حبّي»، «أفقت من النوم وأنا أفكّر فيك»، و«أنا سعيد لوجودك في حياتي»، «سأصل إلى المنزل في غضون عشر دقائق، أرجوك جهزي الغداء وتأكدي من إرسال ثيابي إلى المصبغة»، أو «الحفلة هنا مملّة حقاً، لكن ما من مكان آخر أذهب إليه، أين أنت؟»... أمور تستغرق كتابتها خمس دقائق، أما النطق بها فعشر ثوان فقط. لكن هذا ما هو عليه العالم. وإيغور يعرف كل شيء عن هذا، لأنه جنى مئات الملايين من الدولارات، لأن الهاتف لم يعد مجرد وسيلة اتصال مع الآخرين، بل خيط أمل، طريقة للاعتقاد أنك لست وحدك، ووسيلة لإظهار مدى أهميتك للآخرين.

يقود هذا الأمر العالم إلى حالة من الجنون المطبق. ومقابل يوَرو في الشهر، ومن خلال نظام عبقري أُنشئ في لندن، يبعث لك مركز اتصال رسالة نموذجية مرة كل ثلاث دقائق. وما عليك، عندما تعرف أنك ستتحدّث مع شخص تريد التأثير فيه، إلا أن تطلب رقماً محدَّداً لتنشيط العملية. يرن الهاتف، تلتقطه، تفتح الرسالة، تقرأها بسرعة، وتقول «آه، يمكن هذا أن ينتظر» (بالطبع يمكنه ذلك: فقد كتب بناءً على الطلب). وهكذا، يشعر الشخص الذي تتحدث معه بأهميته، وتتحرك الأمور بسرعة أكبر لأنه يدرك أنه في حضور شخص كثير الانشغال. ثلاث دقائق أخرى، وتقطع الحديث رسالة أخرى، يرتفع الضغط، ويمكن مستعمل هذه الخدمة أن يقرر إذا كان الأمر يستحق إقفال هاتفه لربع ساعة، أو أن يكذب قائلاً إن عليه فعلاً تلقّي هذا الاتصال، ويخلّص نفسه بالتالي من رفيق سمج.

ثمة وضع واحد، ينبغي أن تُطفأ فيه جميع الهواتف النقالة. ليس

في موائد العشاء الرسمية، أو في لحظة تمثيل عميقة في مسرحية، أو في خلال وقت حساس من فيلم، أو حينما يقوم مغني أوبرا بمحاولة تأدية واحدة من أكثر المقطوعات المنفردة صعوبة، فجميعنا استمعنا إلى الهاتف المحمول لشخص ما يرن في مثل هذه المناسبات. لا الوقت الوحيد الذي يقلق فيه الناس حقيقة من أن هاتفهم النقال قد يثبت خطره، هو عندما يصعدون على متن الطائرة ويستمعون إلى الكذبة المعتادة: يجب إطفاء جميع الهواتف النقالة في خلال الرحلة لأنها قد تتداخل مع أنظمة الملاحة. جميعنا نصدق هذا، ونفعل ما يطلبه منا المضيفون الجويون.

يعرف إيغور متى تم ابتداع هذه الأسطورة. فشركات الطيران تحاول، منذ سنين، إقناع الركاب باستخدام الهواتف المدمجة بمقاعدهم. والتي تبلغ كلفة الدقيقة الواحدة في خلالها عشرة دولارات. وهي تستخدم نظام البث ذاته الذي تستخدمه الهواتف المحمولة. لم تعط الاستراتيجية مفعولها، لكن الأسطورة استمرت. نسوا إزالة التحذير من لائحة المسموح والممنوع التي على المضيف الجوي تلاوتها قبل الإقلاع. وما لا يعرفه أحد هو أن راكبين أو ثلاثة على الدوام في كل رحلة، نسوا أن يطفئوا هواتفهم. أضف إلى ذلك أن اتصال الحواسيب المحمولة بالإنترنت يستخدم النظام ذاته الذي تستخدمه الهواتف المحمولة. ولم تسقط بعدُ أي طائرة في أي مكان من العالم بسبب ذلك.

إنهم يحاولون الآن تعديل التحذير بدون أن يثيروا كثيراً خوف الركاب، ولا أن يخفضوا الأسعار. ففي وسعك استخدام الهواتف النقالة ما دامت من النوع الذي يمكن شبكه بنظام الرحلة الجوية. ويبلغ ثمن مثل هذه الهواتف أربعة أضعاف ثمن الأخرى. ولم يتمكن أحد

قط من أن يشرح ما هو نظام الرحلة الجوية. وإذا ما اختار الناس أن يتم التغرير بهم بهذه الطريقة، فهذا شأنهم.

تابع سيره، وقد أصابته النظرة الأخيرة، التي رمقته بها الفتاة قبل أن تموت، بالاضطراب، لكنه فضّل عدم التفكير في ذلك.

المزيد من الحراس الشخصيين، المزيد من النظارات السوداء، المزيد من البكيني على الشاطئ، والمزيد من الملابس ذات الألوان الفاتحة والجواهر، تحضُر عملية الإطلاق. المزيد من الناس الهارعين كما لو أن لديهم أمراً مهماً جداً يقومون به ذلك الصباح. المزيد من المصورين عند كل زاوية يحاولون إنجاز المهمة المستحيلة في التقاط ما هو غير اعتيادي، والمزيد من المجلات والصحف المجانية حول ما يحدث في المهرجان، والمزيد من الناس يوزعون المناشير للفنانين المساكين الذين لم تتم دعوتهم إلى الغداء في واحدة من تلك الصالات البيضاء مناشير دعائية لمطاعم على رأس التلة بعيداً عن كل شيء، حيث لا يمكن سماع الكثير مما يحدث في جادة لاكروازيت، فوق، حيث تستأجر العارضات الشقق طوال فترة المهرجان أملاً منهن في أن يتم استدعاؤهن إلى اختبار يغيّر حيواتهن إلى الأبد.

تلك الأمور كلها لا تثير الدهشة، ويمكن توقّعها. وإذا ما قرر الذهاب إلى إحدى هذه الصالات الآن، فلن يجرؤ أحد على طلب ما يعزف عنه، لأن الوقت لا يزال باكراً، ويخشى المسوّقون ألا يأتي أحد. لكن، بعد نصف ساعة من الوقت، بحسب مجرى الأمور، يعطى الحراس الأمنيون أوامر مشددة بأن يُدخلوا فقط الفتيات الجميلات اللواتي ليس لهن من يرافقهن.

ولمَ لا يجرّب ذلك؟

تبع حَدْسه، فهو أولاً وأخيراً في مهمة. نزل بضع درجات لا توصل إلى الشاطئ، بل إلى صالة بيضاء كبيرة ذات نوافذ بلاستيكية، ومكيف هواء، وكراسي بيضاء وطاولات معظمها فارغ. سأله أحد الحراس الأمنيين إن كان يحمل بطاقة دعوته، فقال إن معه واحدة. وادعى أنه يفتش في جيوبه، ثم سألته مضيفة ترتدي الأحمر هل في وسعها مساعدته. قدّم إليها بطاقة زيارته التي تحمل شعار شركة الهاتف التابعة له، واسمه، إيغور ماليف، رئيس الشركة. ذكر أنه متأكد من وجود اسمه على اللائحة، لكن لا بد من أنه ترك دعوته في الفندق، فقد حضر سلسلة من الاجتماعات ونسي أن يُحضرها. رحبت المضيفة به ودعته إلى الدخول، فقد تعلّمت الحكم على الرجال والنساء من طريقة لبسهم، وكلمة رئيس تحمل المعنى ذاته في كل مكان في العالم. ثم إنه رئيس شركة روسية! والجميع يعرف كم أن الاغنياء الروس يحبون البذخ وإظهار ثرائهم. وما من حاجة إلى التدقيق في اللائحة.

دخل إيغور. توجّه مباشرة إلى البار - الصالة جيدة التجهيز، وتحتوي حتى على حلبة للرقص -، وطلب عصير الأناناس لأنه يناسب الجو. والأهم من ذلك أن المشروب يأتي مزيناً بشمسية يابانية صغيرة جداً زرقاء تكملها ممصّة سوداء.

جلس إلى واحدة من الطاولات الكثيرة الفارغة. كان، بين الاشخاص القليلين في المكان، رجل في الخمسين ذو شعر محنّى باللون البني الضارب إلى السواد، وسمار اصطناعي، وجسم شُحذ في واحد من تلك الأندية الرياضية التي تعد بالشباب الدائم. يرتدي

قميصاً ممزّعاً ويجلس بين رجلين آخرين يرتدي كلاهما بزّة لا عيب فيها من ماركة معروفة. استدار الرجلان ليواجها إيغور، فأدار على الفور رأسه بعض الشيء، لكنه واصل تفحصهما من وراء نظارته السوداء. حاولا اكتشاف من هو الوافد الجديد، لكنهما سرعان ما فقدا الاهتمام.

لكن اهتمام إيغور أخذ في الازدياد.

ليس مع الرجل حتى هاتف محمول موضوع على الطاولة، برغم أن مساعدَيْه يُجريان الاتصالات باستمرار.

وبرغم أن هذا الرجل سيئ الملبس، ومتعجرف، فقد سُمح له بالدخول إلى الصالة. ولو أن هاتفه الجوال مطفأ، لكن النادل يستمر في المجيء إليه سائلاً عن طلباته، وهو لا يتنازل حتى للرد عليه، بل يكتفي بالإشارة إليه كي يرحل. بدا أنه شخص مهم جداً.

أخرج إيغور خمسين يورو من جيبه، وأعطاها للنادل الذي شرع للتو في تجهيز الطاولة.

سأل وهو يسترق النظر إلى الطاولة الأخرى:

- من السيّد صاحب القميص الأزرق الناصل؟

- جافيتس وايلد. إنه رجل مهم جدّاً.

ممتاز. بعد شخص نكرة مثل الفتاة على الشاطئ، فإن شخصية مثل جافيتس وايلد ستكون مثالية. صحيح أنه ليس مشهوراً، لكنه مهم. إنه واحد من الأشخاص الذين يقرّرون من يجب أن تسلّط عليه الأضواء، ولا يشعر بالحاجة إلى الاهتمام كثيراً بمظهره الخاص لأنه معروف تماماً من هو. إنه المسؤول عن تحريك الخيوط، فتشعر الدمى بأنها الأشخاص الأكثر حظوة وعرضة للحسد في

العالم، إلى أن يأتي يوم يقرر فيه محرّك الدمى، لسبب ما، قطع الخيوط، فتسقط الدمى لا حول لها ولا قوة.

واضح أنه عضو في الطبقة الأرفع، ما يعني أنه يتمتع بأصدقاء مزيفين وبالكثير من الأعداء.

- سؤال أخير: هل من المقبول تدمير كون باسم الحب الأكبر؟

ضحك النادل.

- هل أنت الله، أم مجرّد مثلي الجنس؟

- لست أيّاً منهما، لكن شكراً على الجواب.

أدرك أنه ما كان عليه أن يطرح ذلك السؤال. أولاً، لأنه لا يريد دعماً من أحد لتبرير ما يقوم به. وبما أن كل واحد سيموت في يوم من الأيام، فقد تولّدت لديه قناعة بأنه على البعض القيام بذلك باسم شيء أعظم. هكذا هو الأمر منذ فجر الأزمنة، حيث ضحى رجال بأنفسهم لإطعام قبيلتهم، وحيث سُلّمت العذارى إلى الكهنة لتهدئة روع التنانين والآلهة. والسبب الثاني هو أنه جلب الآن الاهتمام إلى نفسه بإظهاره الاهتمام بالرجل الجالس إلى الطاولة الأخرى.

من المؤكد أن النادل سينسى، لكن لا حاجة إلى ركوب مخاطر غير ضرورية. قال لنفسه إنه من الطبيعي أن يريد الناس، في مهرجان كهذا، معرفة أمور عن أشخاص آخرين. والأكثر طبيعية من ذلك، هو تقديم المكافأة على مثل هذه المعلومات. فهو قد فعل الأمر ذاته مئات المرات داخل مطاعم في كل أنحاء العالم. ولا شك في أن آخرين قد فعلوا الأمر عينه بالنسبة إليه. فالنادلون تعوّدوا الحصول على المال لتوفير اسم ما أو طاولة أفضل، أو لتسليم رسالة متكتّمة، بل إنهم يتوقّعون ذلك أيضاً.

لا، لن يتذكّر النادل أي شيء. ويعلم إيغور أن ضحيته التالية ماثلة هنا أمامه. ولو أنه نجح، وتم التحقيق مع النادل، فسيكون الأمر الوحيد الغريب الذي جرى ذلك النهار هو رجلاً سأله إن كان يعتقد أنه من المقبول تدمير كون باسم الحب الأعظم. بل إنه قد لا يتذكّر هذا القدر. وستقول له الشرطة أن يصفه، فيجيب النادل: «بصراحة، أنا لم أُوله الكثير من الانتباه، لكنني أعرف أنه نفى كونه مثلي الجنس». وستُسقط الشرطة المسألة بهدوء، قد ألفت هذا النوع من المفكّرين الفرنسيين الذين يجلسون في الحانات، ويطلعون بنظريات غريبة وتحليلات معقّدة عن علم اجتماع مهرجان الأفلام، على سبيل المثال.

بيد أن أمراً آخر قد أخذ يضايق إيغور.

الاسم، أو الأسماء.

سبق له أن قتل من قبل بالأسلحة، وبمباركة من بلاده. لا يعرف عدد الذين قتلهم، لكنه نادراً ما رأى وجوههم، ولم يسأل قطعاً عن أسمائهم. فمعرفة اسم شخص تعني أن الشخص الآخر كائن إنساني وليس عدوّاً. معرفة اسم أحد تحوّله إلى شخص فريد ومتميّز، له ماض ومستقبل، له أجداد وربما ذرّية؛ شخص عرف الانتصارات والهزائم. فالأشخاص هم أسماؤهم؛ يفخرون بها، يرددونها آلاف المرات في حيواتهم ويُعرَفون بها. الاسم هو الكلمة الأولى التي يتعلمونها بعد «ماما وبابا».

أوليفيا، جافيتس، إيغور، إيوا.

لكن روح الشخص لا تملك اسماً، فهي حقيقة مجرّدة تسكن جسداً معيّناً لفترة محددة من الوقت. وهي، في يوم من الأيام، تغادره، ولن يزعج الله نفسه بسؤال الروح ما اسمك؟ عندما تصل

إلى الديمونة الأخيرة. سيكتفي الله بالسؤال: هل أحببت عندما كنت حيّة؟ لأن ذلك هو جوهر الحياة: القدرة على الحب، وليس الاسم الذي نحمله على جواز سفرنا، أو بطاقة الزيارة وبطاقة الهوية. غيّر كبار الصوفيين أسماءهم، بل تخلّوا عنها نهائياً في بعض الأحيان. وعندما سئل يوحنا المعمدان عمّن هو، اكتفى بالقول: أنا صوت صارخ في البرّية. وعندما عثر يسوع على الرجل الذي سيبني عليه بيعته، تجاهل واقع أن الرجل المعني قضى حياته كلها مجيباً على اسم سمعان، وسمّاه بطرس. وعندما سأل موسى الله عن اسمه، جاءه الجواب: أنا هو الذي هو.

ربما كان عليه البحث عن ضحية أخرى، فأوليفيا تكفي كضحية ذات اسم. إلا أنه شعر، في هذه اللحظة بالذات، بأنه ليس في إمكانه أن يعود أدراجه. ثم قرّر ألا يسأل عن اسم العالم التالي الذي سيدمّره. لا يستطيع التراجع لأنه يريد إحقاق العدالة للفتاة المسكينة، المعرّضة للأذى على المقعد عند الشاطئ. ضحية جميلة سهلة، وتحدٍّ جديد هذا الرجل المبلّل بالعرق، الرياضي المزيف، صاحب الشعر المحنّى، ذو التعبير الضجر، والواضح أنه شخص له الكثير من النفوذ: هو أكثر صعوبة بكثير. فالرجلان صاحبا البزتين ليسا مجرّد مساعدين؛ فقد لاحظ أنهما يجولان، بين الفينة والأخرى، بأنظارهما حول الخيمة، يراقبان كل ما يحدث في الجوار. وعليه أن يتسلّح بالشجاعة إذا أراد أن يكون جديراً بايوا.

ترك المصاصة في عصير الأناناس، وبدأ الناس يتوافدون. عليه أن ينتظر امتلاء المكان، لكن ليس طويلاً جداً. لم يخطط لتدمير عالم ما في عز النهار، وسط الجادة في «كان». وهو لا يعرف تماماً كيف سينفّذ مشروعه التالي. إلا أن شيئاً يقول له إنه قد اختار المكان المثالي.

لم تعد أفكاره مع المرأة المسكينة على الشاطئ. أخذ الأدرينالين يملأ دمه، وشرع قلبه يخفق بسرعة أكبر، وهو متحمس وسعيد.

لن يُضيع جافيتس وقته هنا لمجرد الحصول على وجبة طعام مجانية في واحدة من آلاف الحفلات التي لا شك في أنه يُدعى إليها في كل سنة. لا بد من أنه هنا لسبب محدّد، أو للقاء إنسان معيّن. هذا السبب أو الشخص سيشكّل، بلا شك، أفضل حجة غياب لإيغور.

١٢:٢٦ ب.ظ.

راقب جافيتس وصول الضيوف الآخرين. أخذ المكان يكتظ بالناس وهو يفكر في ما يفكر فيه دوماً:

ما الذي أفعله هنا؟ أنا لا أحتاج إلى هذا. لا أحتاج، في الواقع، إلا إلى القليل جداً من أي كان. لدي كل ما يلزمني. أحمل اسماً كبيراً في عالم السينما، ويمكنني الحصول على أي امرأة أرغب فيها، برغم أنني ألبس بطريقة سيئة. وأنا، في الواقع، أعبر عن مقصد بلباسي السيئ. ولّت منذ زمن بعيد الأيام التي لم أكن أملك فيها سوى بزة واحدة. وكنت، في المناسبات النادرة التي أتلقى فيها دعوة من الطبقة الأرفع (بعد الكثير من الزحف، والاستعطاء، وقطع الوعود)، أحضّر نفسي لغداء كهذا كما لو أنه المناسبة الأكثر أهمية في حياتي. وأنا أدرك الآن أن الشيء الوحيد الذي يتغير هو المدن التي تجري فيها مثل حفلات الغداء هذه. وفي ما عدا ذلك، فإنها في الحقيقة مضجرة ومتوقّعة.

سيأتيني الناس ويقولون لي إنهم يقدسون عملي. وسيدعونني

آخرون بالبَطَل، ويشكرونني لأنني منحت الفرص للخارجين عن المألوف. وستلاحظ النسوة الجميلات والذكيات، اللواتي لا تخدعهن المظاهر، الناس يتحلّقون حول طاولتي، ويسألن النادل عمّن أكون. ويجدن على الفور طريقة ما لمقاربتي، متأكدات من أن الأمر الوحيد الذي أهتم به هو الجنس. ولدى كل واحدة منهن خدمة تطلبها مني. لهذا السبب يمدحنني ويداهنني، ويعرضن علي ما يعتقدن أنني أحتاج إليه. إلا أن جل ما أريده هو أن أُترك وشأني.

ذهبت إلى ألف حفلة مثل هذه. ولست هنا، في هذا الصيوان، لسبب محدّد سوى أن النوم فارقني، برغم أنني طرت إلى فرنسا بطائرتي النفاثة الخاصة، وهي تحفة تقنية يمكنها الطيران على ارتفاع ٣٦ ألف قدم من كاليفورنيا مباشرة إلى «كان» بدون أن تضطر إلى التوقف للتزوّد بالوقود. قمت بتبديل الشكل الأصلي للكابين. كان يمكنه أن يحمل ١٨ راكباً براحة، إلا أنني أنقصت عدد المقاعد إلى ستة، وأبقيت الكابين منفصلاً عن طاقم الطائرة المؤلف من أربعة. من المؤكد أن ثمة شخصاً سيسأل دوماً: هل يمكنني المجيء معك؟ ولدي الآن العذر المثالي: «عفواً، لا يوجد مكان».

جهّز جافيتس، لعبته الجديدة التي كلّفت نحو أربعين مليون دولار، بسريرين، وطاولة اجتماع، وحمام، ونظام موسيقيّ من طراز ميرندا (وضعت بانغ أند أولوفسن تصميماً ممتازاً، وجزّدت حملة علاقات عامة جيدة، إلا أن ذلك أصبح جزءاً من الماضي)، وآلتين لصنع القهوة، وفرن مايكرويف للطاقم وفرن كهربائي له (لأنه يكره الطعام الذي يعاد تسخينه). لا يعاقر جافيتس إلا الشامبانيا، ويرحّب بكل من يرغب في أن يشاركه في زجاجة «موي إي شاندون ١٩٦١». وبرغم ذلك، فإن قبو الطائرة يحتوي على أي شراب

قد يرغب أي ضيف فيه. وتوجد أيضاً شاشتا «أل- سي- دي- ٢١ إنشاً، جاهزتان لعرض أحدث الأفلام، حتى تلك التي لم تجد طريقها بعدُ إلى صالات السينما.

والطائرة النفاثة هي واحدة من الطائرات الأكثر تقدّماً في العالم (برغم أن الفرنسيين يصرّون على أن «داسو فالكون» هي الأفضل)، إلا أنه بغض النظر عن مقدار المال الذي في حوزته، لا يستطيع تغيير الساعات في أوروبا. فهي الآن الثالثة و٤٣ قبل الظهر في لوس أنجلس، وقد أخذ يشعر حقيقة بالتعب. بقي مستيقظاً طوال الليل، متوجهاً من حفلة إلى أخرى، مجيباً عن السؤالين الغبيين ذاتيهما اللذين تبدأ بهما أي محادثة:

كيف كانت رحلتك؟

وهو ما يجيب عنه جافيتس دائما بسؤال:

لماذا؟

ولا يعرف الناس بماذا يجيبون، فيبتسمون محرجين، وينتقلون إلى السؤال التالي على اللائحة:

هل ستقيم هنا طويلاً؟

ويسأل جافيتس من جديد: لماذا؟ ثم يدّعي أن عليه الرد على هاتفه المحمول. يقدم اعتذاراته ويسير بالصف مع صديقيه ذوي البزتين، اللذين لا يفارقانه أبداً.

لم يلتق بأحد مثير للاهتمام. لكن من الذي يمكن أن يثير فضول رجل يملك تقريباً كل ما يمكن المال أن يشتريه؟ حاول تبديل أصدقائه ولقاء أناس لا علاقة لهم البتة بعالم السينما، من فلاسفة، وكتّاب، ومشعوذين، ومديرين في شركات تصنيع

الأغنية. جرى كل شيء في البداية بسهولة إلى أن طُرح السؤال الذي لا مفرّ منه: هل تودّ قراءة النص الذي كتبته؟ أو السؤال الثاني الأكثر إلحاحاً: لدي صديق (أو صديقة) رغب دوماً في أن يصبح ممثلاً، هل لديك مانع من مقابلته؟

نعم، لديه مانع. ثمة أمور كثيرة يفعلها في الحياة غير العمل. تعوّد أن يطير مرّة في الشهر إلى ألاسكا، يدخل أول حانة، يثمل، يأكل البيتزا، يجول في البرية، ويتحدّث إلى الناس الذين يعيشون في المدن الصغيرة هناك. يتمرّن ساعتين يومياً في ناديه الخاص، لكن الاطباء حذّروه من أنه لا يزال عرضة لمشاكل في القلب. لم يهتم كثيراً بلياقته البدنية، فما يريده حقيقة هو التخفيف بعض الشيء من الضغط الدائم الذي يبدو أنه يُثقل عليه في كل ثانية من اليوم، والقيام ببعض التأمل، ومداواة جروح نفسه. وهو، عندما يكون في الريف، يسأل دوماً الناس الذين يصدف أن يلتقي بهم: كيف هي الحياة الطبيعية، لأنه نسي كيف هي. وقد تنوّعت الأجوبة؛ وأدرك بالتدريج، أنه وحده في العالم حتى عندما يحيط به أناس آخرون.

قرر وضع لائحة بما يشكّل الحالات والتصرفات الطبيعية، بالاستناد إلى ما يفعله الناس بدلاً مما يقولونه.

ألقى جافيتس نظرة من حوله. رأى رجلاً يضع نظارة سوداء يشرب عصير الفاكهة. بدا غافلاً عن محيطه ويحدق في البحر، كما لو أنه في مكان بعيد جداً من هناك. أنيق الملبس، جميل المظهر، وقد خط الشيب شعره. هو من أول الواصلين، ولا بد من أنه يعرف من هو جافيتس. وبرغم ذلك، لم يُجهد نفسه بالاقتراب وتقديم نفسه. إنها لشجاعة منه أن يجلس منفرداً هناك على هذا

النحو. فأن يكون المرء وحيداً في «كان» أمر غير مستحب، يعني أنه ما من أحد مهتم بك، وأنك غير مهم، أو لا تعرف أحداً.

حسد الرجل الذي ربما لَم تنطبق عليه لائحة السلوك الطبيعي التي يحتفظ بها دوماً في جيبه. بدا على درجة كبيرة من الاستقلالية والحرية، ولَمّا توانى جافيتس حقيقة عن التحدث معه، لولا أنه يشعر بالتعب الشديد.

استدار نحو واحد من صديقيه.

- ما معنى أن يكون المرء طبيعياً؟

- هل ضميرك يزعجك؟ هل فعلت أمراً لم يكن يجدر بك القيام به؟

واضح أن جافيتس قد طرح السؤال الخاطئ على الرجل الخطأ. فربما افترض رفيقه أنه يأسف لما فعله في حياته، وأنه يريد البدء من جديد، إلا أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. فلو أن الندم قد انتابه لكان تأخر كثيراً على البدء من جديد، إنه يعرف قواعد اللعبة.

- سألتك ما معنى أن يكون المرء طبيعياً؟.

بدا أحد الصديقين وقد استعصى عليه الأمر. واستمر الآخر في استطلاع الخيمة مراقباً الداخلين والخارجين.

قال الصديق الأول أخيراً: الحياة أشبه بشخص يفتقر إلى أي طموح.

أخرج جافيتس لائحته من جيبه ووضعها على الطاولة:

«أحملها دوماً معي، وأضيف إليها كل الوقت».

قال الصديق إنه لا يستطيع النظر إليها الآن، لأن عليه أن يبقى متيقظاً لما يدور من حوله. بيد أن الرجل الآخر، وهو أكثر ارتياحاً وثقة، قرأ اللائحة بصوت مسموع:

١ - الطبيعي هو كل ما من شأنه أن يُنسينا من نحن وما نريد؛ ويمكننا بهذا الطريقة أن نعمل لننتج، وننجب، ونكسب المال.

٢ - تحديد قواعد خوض الحرب (ميثاق جنيف).

٣ - استهلاك سنواتك وأنت تدرس في الجامعة فقط لتكتشف في نهاية ذلك كله، استحالة توظيفك.

٤ - العمل من التاسعة حتى الخامسة من كل يوم في شيء لا يوفر لك أي لذة، بحيث تتمكن من التقاعد بعد ثلاثين عاماً.

٥ - تتقاعد وتكتشف أنك لم تعد تملك ما يكفي من الطاقة للتمتع بالحياة، فتموت من الضجر المحض بعد ذلك ببضع سنين.

٦ - استخدام البوتوكس.

٧ - الاعتقاد أن السلطة أهم بكثير من المال، وأن المال أهم بما لا يُقاس من السعادة.

٨ - السخرية من كل من يسعى إلى السعادة بدلاً من المال، واتهامه بفقدان الطموح.

٩ - مقارنة أشياء مثل السيارات والمنازل والثياب، وتحديد الحياة وفقاً لهذه المقارنات، بدلاً من محاولة اكتشاف السبب الحقيقي لحياتنا.

١٠ - عدم التحدث مطلقاً إلى الغرباء. والتفوه بأمور كريهة في حق الجيران.

١١ - الاعتقاد أن أهلك دائماً على حق.

١٢ - الزواج، وإنجاب الاولاد، والبقاء معاً بعد وقت طويل على موت الحب، قائلين إن ذلك لمصلحة الأولاد (الذين يبدو أنهم صموا آذانهم عن الخلافات المستمرة).

١٣ - توجيه النقد إلى كل من يحاول أن يكون مختلفاً.

١٤ - الاستيقاظ كل صباح على الصوت الهستيري للمنبه عند طاولة السرير.

١٥ - التصديق المطلق لكل ما يظهر مطبوعاً.

١٦ - وضع قصاصة من القماش الملون حول عنقك، برغم أنه لا فائدة منها سوى أن اسمها ربطة عنق.

١٧ - عدم طرح سؤال مباشر أبداً، برغم أن الشخص الآخر يمكنه أن يحزر ما الذي تريده.

١٨ - الاحتفاظ بابتسامة على شفتيك حتى عندما تكون على وشك البكاء، والشعور بالأسى على من يظهرون مشاعرهم.

١٩ - الاعتقاد أن الفن يساوي ثروة، أو لا يساوي شيئاً على الإطلاق.

٢٠ - ازدراء كل ما هو سهل تحقيقه لأنه لا يساوي شيئاً إذا لم يتضمن أي تضحية.

٢١ - اتباع اتجاهات الموضة مهما تكن سخيفة وغير مريحة.

٢٢ - الاعتقاد أن جميع المشاهير يدخّرون أطناناً من المال.

٢٣ - استثمار الكثير من الوقت والمال على الجمال الخارجي، والاهتمام القليل بالجمال الداخلي.

٢٤ - استخدام جميع الوسائل الممكنة لتظهر أنك فوق غيرك من البشر، برغم أنك لست إلا كائناً عادياً.

٢٥ - عدم النظر إلى عيني أي شخص عندما تستخدم وسائل النقل العامة حتى لا يتم تفسير ذلك على أنك تحاول التعرف إليه.

٢٦ - الوقوف في مواجهة الباب في المصعد مدعياً أنك الإنسان الوحيد فيه بغض النظر عن مدى اكتظاظه.

٢٧ - عدم الضحك بصوت مرتفع جداً في المطعم مهما تكن النكتة مضحكة.

٢٨ - ارتداء الملابس، في نصف الكرة الشمالي، بحسب الفصول: أكمام قصيرة في الربيع (مهما يكن الطقس بارداً)، وسترة من صوف في الخريف (مهما يكن الطقس حاراً).

٢٩ - تغطية شجرة عيد الميلاد، في نصف الكرة الجنوبي، بالثلج الاصطناعي برغم أنه لا علاقة للشتاء بولادة المسيح.

٣٠ - افتراضك، وأنت تتقدم بالعمر، أنك حارس الحكمة في العالم، حتى لو أنك لم تعش بالضرورة ما يكفي لمعرفة الصواب من الخطأ.

٣١ - الذهاب إلى حفلة شاي خيرية، والاعتقاد أنك قمت بما عليك لوضع حد للتفاوت الاجتماعي في العالم.

٣٢ - تناول الطعام ثلاث مرات في اليوم، حتى لو لم تكن جائعاً.

٣٣ - الاعتقاد أن الآخرين هم دائماً أفضل منك، أي أجمل منظراً، أكثر وغنى، وأشد ذكاء؛ وأنه من الخطر جداً أن تخطو خارج حدودك الذاتية. لذا من الأفضل عدم قيامك بشيء.

٣٤ - استخدام سيارتك كسلاح وكدرع لا تُخترق.

٣٥ - الشتم في زحمة السير.

٣٦ - الاعتقاد أن كل خطأ يرتكبه ابنك، يعود سببه كلياً إلى معشره.

٣٧ - الزواج بأول شخص يوفر لك موقعاً محترماً في المجتمع، ويمكن الحب أن ينتظر.

٣٨ - قولك دائماً: لقد حاولت، وأنت لم تحاول في الحقيقة على الإطلاق.

٣٩ - إرجاء القيام بالأمور المهمة في الحياة إلى وقت لاحق ستفتقر فيه إلى الطاقة.

٤٠ - تفادي الكآبة بجرعات يومية كبيرة من مشاهدة التلفزيون.

٤١ - الاعتقاد أنه في وسعك التأكد من كل شيء حققته.

٤٢ - الافتراض أن النساء لا يحببن كرة القدم، وأن الرجال لا يهتمون بتزيين المنزل والطبخ.

٤٣ - انتقاد الحكومة على كل الأمور السيئة التي تقع.

٤٤ - الاعتقاد أن كونك إنساناً جيداً، طيباً، محترماً، يعني أن الآخرين سيرون فيك إنساناً ضعيفاً، سريع العطب، وسهل التلاعب فيه.

٤٥ - أن تقتنع بالتساوي بأن العدوانية والفظاظة مرادفتان للتمتُّع بشخصية قوية.

٤٦ - الخوف من الفحص بالمنظار الداخلي (إذا كنت رجلاً)، ومن الولادة (إذا كنت امرأة).

ضحك الصديق.

قال، يجب أن تصنع فيلماً عن هذا الموضوع.

قال جافيتس في سرّه: ليس من جديد. ليست لديهما فكرة. هما معي طوال الوقت. وبرغم ذلك، فإنهما لا يزالان لا يفهمان ما أفعله. أنا لا أصنع الأفلام.

تبدأ جميع الأفلام في ذهن من يسمّى المنتج. يقرأ كتاباً، يقول أو تخطر له فكرة لامعة، وهو يقود سيارته على طول الطرق المعفاة من رسم المرور في لوس أنجلس (التي هي في الحقيقة

ضاحية كبرى تبحث عن مدينة). وهو، لسوء الحظ، وحيد، إن كان في السيارة، أم في رغبته في تحويل تلك الفكرة اللامعة إلى شيء تمكن رؤيته على الشاشة.

يبحث ليرى إذا كانت حقوق تحويل الكتاب إلى فيلم لا تزال متوافرة. إذا جاء الجواب سلباً، فإنه يمضي باحثاً عن منتوج آخر. فثمة في النهاية أكثر من ستين ألف كتاب يتم نشرها سنوياً في الولايات المتحدة وحدها. وإذا جاء الجواب إيجاباً، فسوف يتصل هاتفياً بالمؤلف، ويقدم أقل عرض ممكن، وهو ما يتم قبوله في العادة، لأن حب الارتباط بآلة الأحلام ليس حكراً على الممثلين والممثلات. فكل مؤلف يشعر بأهمية أكبر عندما يتم تحويل كلماته إلى صور.

يرتّبان لغداء معاً. يقول المنتج إن الكتاب عمل فني وقابل جداً لأن يحوّل إلى فيلم سينمائي، وإن الكاتب عبقري يستحق التقدير. يشرح الكاتب أن عمل الكتاب استغرق خمس سنوات، ويستأذن للمشاركة في كتابة السيناريو. ويأتيه الجواب: لا، حقاً، ليس عليك القيام بذلك. إنها وسيلة إعلامية مختلفة كليّاً. لكنني أعرف أنك ستحب النتيجة. ثم يضيف: سيكون الفيلم أميناً جداً للكتاب، وهو ما يعرف كلاهما أنه كذبة تامة ومطلقة.

يقرر الكاتب الموافقة على الشروط، واعداً نفسه بأن المرة المقبلة ستكون مختلفة. يوافق. وها إن المنتج يقول إن عليهم إثارة اهتمام واحد من كبار الاستوديوهات، لأنهم يحتاجون إلى دعم مالي للمشروع. يسمّي بضعة نجوم يدعي أنهم اصطفوا للحصول على الأدوار الرئيسية، وهي كذبة تامة ومطلقة أخرى، لكنها كذبة يتم نسجها دوماً، وتؤتي ثمارها بوصفها تقنية للاستمالة. يشتري ما يُعرف بالخيار، وهو أنه يدفع حوالى عشرة آلاف دولار للاحتفاظ

بالحقوق على مدى ثلاث سنوات. وماذا يحدث من ثم؟ عندها سندفع عشرة أضعاف هذا المبلغ وسيحق لك ٢٪ من الربح الصافي. وهكذا، ينتهي الجزء المالي من الحديث، لأن الكاتب مقتنع بأنه سيجني ثروة من هذا الجزء من الأرباح.

ولو أنه دار بالسؤال لاكتشف سريعاً أن محاسبي هوليوود يتدبرون بطريقة لا يجني فيها الفيلم أي أرباح.

ينتهي الغداء، ويسلم المنتج الكاتب عقداً هائل الحجم، ويسأله إن كان في إمكانه توقيعه الآن، بحيث يُبلغ الاستوديو أن المنتوج أصبح نهائياً له. يوقّع الكاتب العقد بدون مزيد من التفكير في المسألة، وعيناه مسمّرتان على النسبة المئوية (غير المدوّنة)، وعلى إمكان رؤية اسمه في الضوء (وهو ما لن يحدث أيضاً، ويحظى على الأكثر بسطر في عملية الإقرار بالفضل، يقول: بالاستناد إلى كتاب من وضع...).

باطل الأباطيل، وكل شيء باطل، ولا جديد تحت الشمس، على ما قاله سليمان منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

يبدأ المنتج في قرع أبواب مختلف الاستوديوهات. وهو قد بات معروفاً في عالم هذه الصناعة. تُفتح له بعض الأبواب، لكن اقتراحه لا يلقى القبول دوماً. وهو، في هذه الحالة، لا يتعب نفسه في الاتصال هاتفياً بالمؤلف ودعوته من جديد إلى الغداء، بل يكتفي بأن يكتب رسالة إليه مفادها الآتي: برغم حماستي للمشروع، فإن صناعة السينما ليست مستعدة بعدُ لهذا النوع من القصص، وإنني أعيد العقد (غير الموقّع طبعاً).

وإذا قُبل الاقتراح، يقصد المنتج الشخص الأدنى مستوى، والأقلّ تقاضياً للأجر في التراتبية: كاتب السيناريو، الشخص الذي

سيقضي أياماً، وأسابيع، وشهوراً، يكتب الفكرة الأصلية، ويعيد كتابتها، لتتلاءم مع الشاشة. تُرسَل المخطوطات إلى المنتج (ولا تُرسَل أبداً إلى المؤلف)، الذي، كعادته، يرفض المسودات الأولى لمعرفته أنه في وسع كاتب السيناريو أن يقدّم دائماً ما هو أفضل. يمر المزيد من أسابيع القهوة والأرق وشهورهما على صاحب الموهبة الجديد (أو الكاتب الممتهن القديم العهد. لا يوجد ما هو بين الاثنين) الذي يعيد كتابة كل مشهد. فيرفضه المنتج آنذاك أو يعيد تركيبه (ويفكّر كاتب السيناريو: إذا كان في وسعه الكتابة بهذه الجودة اللعينة، فلماذا لا يقوم بكتابة الأمر كله؟ ثم يتذكّر مرتّبه، ويعود سريعاً إلى حاسوبه).

أخيراً، يكاد النص يصبح جاهزاً. عند هذا الحد يضع المنتج لائحة بالمطالب: إزالة أي إشارة سياسية قد تغضب المشاهدين الأكثر محافظة؛ المزيد من القبلات، لأن النساء يهوين هذا النوع من الأمور؛ قصة لها بداية وصلب موضوع وخاتمة وبطل يستدر دموع الجميع بتضحيته، وتكرس نفسه للآخرين؛ وشخصية واحدة تضيع أحد أحبتها في بداية الفيلم وتعثر عليه، أو عليها، من جديد في نهايته. ويمكن في الواقع إجمال جميع النصوص في شكل مختصر جداً: رجل يحب امرأة، رجل يخسر امرأة، رجل يستعيد امرأة. إن ٩٠٪ من الأفلام تتمحور حول ذلك الموضوع ذاته.

وعلى الأفلام التي تكسر هذه القاعدة أن تكون عنيفة جداً للتعويض عن ذلك، أو أن تحتوي على الكثير من المؤثرات الخاصة التي تعجب الجماهير. ولماذا ركوب مخاطر غير ضرورية ما دامت هذه الصيغة المجرَّبة تشكّل ضمانة أكيدة للنجاح؟

على من يبحث المنتج لاحقاً وقد تسلّح بقصة يعتبر أنها مكتوبة جيداً؟ وعلى الاستوديو الذي موّل المشروع. لكن لدى الاستوديو صفاً طويلاً من أفلام عليه عرضها في دور السينما التي يتناقص عددها باستمرار في العالم. يطلبون إليه الانتظار بعض الشيء، أو العثور على موزع مستقل، ليس قبل أن يتأكدوا أولاً من توقيع المنتج على عقد هائل الحجم (يأخذ في الاعتبار حتى الحقوق الحصرية خارج كوكب الأرض)، يحملونه فيه كامل المسؤولية عن الأموال المنفقة.

وهنا يأتي دور من هم مثلي! يمكن الموزع المستقل أن يسير عبر الشارع بدون التعرّف إليه، برغم أن الجميع يعرفون من هو في المهرجانات الإعلامية كهذا المهرجان. إنه الشخص الذي لم يطلع بالفكرة، ولم يعمل على النص، ولم يستثمر سنتاً واحداً.

جافيتس هو الوسيط. إنه الموزّع.

يستقبل المنتج في مكتب صغير (الطائرة الكبيرة، المنزل الذي يحتوي على حوض للسباحة، الدعوات إلى الحفلات في كافة أنحاء العالم مخصصة فقط لمتعته الذاتية، فالمنتج لا يستحق حتى أن تُقدّم إليه المياه المعدنية). يأخذ قرص «الدي.في.دي.» إلى منزله. يشاهد الدقائق الخمس الأولى. إذا أحبها يتابع المشاهدة حتى النهاية، لكن ذلك لا يحدث إلا مرة من أصل كل مئة فيلم جديد تعطى له. ثم إنه ينفق عشرة سنتات على اتصال هاتفي، ويطلب إلى المنتج العودة في تاريخ ووقت محددين.

«سنوقّع»، يقولها كأنه يقدّم إلى المنتج خدمة كبرى. سأقوم بتوزيع الفيلم.

يحاول المنتج المفاوضة. يريد أن يعرف عدد صالات السينما، وفي

أي عدد من البلدان، وفي ظل أي شروط. لكن لا معنى لهذه الأسئلة، لأنه يعرف ما الذي سيقوله الموزع، يتوقف الأمر على رد الفعل الذي تلقاه بعد العروض التجريبية الأولى. يتم عرض الإنتاج على مشاهدين يتم انتقاؤهم من مختلف الطبقات الاجتماعية، أناس اختارتهم خصيصاً شركات الأبحاث التسويقية. يقوم الخبراء بتحليل النتائج. فإذا جاءت إيجابية، يتم إنفاق عشرة سنتات أخرى على اتصال هاتفي، وفي اليوم التالي يقدِّم جافيتس إلى المنتج ثلاث نسخ من عقد واسع آخر. يطلب المنتج بعض الوقت ليتمكن محاميه من قراءته. يقول جافيتس إنه موافق على ذلك، لكنه يريد الانتهاء من وضع برامج ذلك الموسم، ولا يضمن أنه لن يختار فيلماً آخر في خلال ذلك الوقت.

تقتصر قراءة المنتج على الفقرة التي تبلغه كم سيتقاضى. يُسَرّ بما يرى فيوقّع، لأنه لا يريد تفويت هذه الفرصة.

مرّت سنوات منذ أن جلس مع المؤلف لمناقشة إنتاج فيلم عن كتابه، وقد نسي تماماً أنه يمر الآن في الوضع ذاته تماماً.

باطل الأباطيل، وكل شيء باطل، ولا جديد تحت الشمس، على ما قاله سليمان منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

راقب جافيتس الصالة وهي تمتلئ بالضيوف. وعاود التساؤل عما يفعله هنا. إنه يسيطر على أكثر من ٥٠٠ دار للسينما في الولايات المتحدة، ولديه عقد حصري مع خمسة آلاف أخرى في العالم، حيث يُجبر العارضون على شراء كل ما يعرضه عليهم، حتى ولو لم تنجح الأفلام دوماً. يعرفون أن نجاحاً واحداً في شباك التذاكر من شأنه أن يعوّض خسارة الأفلام الخمسة الأخرى التي أخفقت في

اجتناب الحشود. يعتمدون على جافيتس، الموزّع المستقل الكبير، البطل الذي تمكّن من كسر احتكار الاستوديوهات الكبرى، وأصبح أسطورة في عالم السينما.

لم يطرح أحد السؤال عن كيفية قيامه بهذا، لكن بما أنه مستمر في تقديم نجاح كبير لهم في مقابل كل خمسة إخفاقات (المعدل هو نجاح كاسح لكل خمسة إخفاقات)، فلا أهمية للأمر حقاً.

لكن جافيتس يعرف كيف أصبح ناجحاً، وهذا هو السبب في أنه لا يقصد أي مكان بدون صديقيه اللذين ينشغلان في هذه اللحظة في الرد على الاتصالات وتدبير الاجتماعات وقبول الدعوات. ويتمتع كلاهما بمظهر خارجي معقول: لا يشبهان أصحاب الأجسام الضخمة الذين يقتحمون الأبواب، لكنهما يعادلان جيشاً بكامله. تدرّبا تدريباً متقناً وخدما في أوغندا والأرجنتين وباناما. أحدهما يهتم بالمكالمات الهاتفية، والآخر يراقب الجوار باستمرار حافظاً في ذاكرته صورة كل إنسان وكل حركة وكل إيماءة. يتبادلان هذه المهمات لأنهما، على غرار المترجمين الفوريين والمراقبين الجويين، يحتاجان إلى قسط من الراحة كل خمس عشرة دقيقة.

ما الذي يفعله في عملية الإطلاق هذه؟ كان في إمكانه البقاء في الفندق محاولاً أخذ قسط من النوم. تعب من التملق والثناء، ومن اضطراره، في كل دقيقة، إلى الابتسام وإلى أن يقول للأشخاص الذين يحاولون أن يقدموا إليه بطاقاتهم أنه لا فائدة من ذلك لأنه سيهملها. وعندما يلحون، يطلب إليهم بلطف التحدث مع واحد من سكريتيرييه (اللذين تم إسكانهما كما يجب في فندق ممتاز آخر في جادة لاكروازيت، حيث لا يُسمح لهما بالنوم، إذ عليهما الرد على الهاتف الذي يرن بدون توقف، أو الإجابة على

البريد الالكتروني الذي يطوف عليهما من دور السينما في جميع أنحاء العالم، إلى جانب وعود بتطويل الأعضاء الذكرية أو هزّات الجماع المتكررة التي تتمكن من تفادي جميع مصافي حثالة البريد). ويقوم واحد من معاونيه، بحسب هزّة رأسه، إما بإعطاء الشخص عنوان السكريتير أو رقم هاتفه، وإما يأسف قائلاً. إن بطاقات الزيارة قد نفدت منه.

نعم، ما الذي يفعله في عملية الإطلاق هذه؟ فهو سيكون نائماً الآن في لوس أنجلس مهما يجئ متأخراً من إحدى الحفلات. يعرف جافيتس الجواب، لكنه لا يريد قبوله به: فهو يخشى البقاء وحيداً. يحسد الرجل الذي وصل من قبل وجلس يشرب عصير الفاكهة محدّقاً في البعيد، ويبدو مرتاحاً وغير منشغل، في محاولة منه ليبدو مشغولاً أو مهماً. قرر أن يدعوه إلى تناول شراب معه، لكنه لاحظ أنه غادر.

شعر في هذه اللحظة، بشيء يوخزه من الوراء.

بعوض! هذا ما أكرهه في حفلات الشاطئ.

وجد إبرة صغيرة، وهو يحاول حك اللسعة. لا بد من أنها من عمل ممازح غبي. تطلّع من ورائه، حيث وجد على بعد ياردتين منه، شاباً أسود ذا شعرٍ طويل مجعد، يضحك بصوت مرتفع يفصله عنه ضيوف متنوعون آخرون؛ وكانت مجموعة من النساء تحدّق فيه بمزيج من الاحترام والرغبة.

منعه تعبه الشديد من الرد على هذا الاستفزاز. فمن الأفضل أن يدع الفتى يلعب دور المهرّج إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه فيها التأثير في الآخرين.

غبي.

استجاب رفيقاه للتغيير في وضعية الرجل، وهما اللذان يتقاضيان أجرا يبلغ ٤٣٥ دولاراً في اليوم لحمايته. رفع أحدهما يده إلى كتفه اليمنى حيث يحتفظ بمسدس أوتوماتيكي في قراب مخفي تماماً تحت سترته. ووقف الآخر بهدوء على رجليه (فهما في النهاية في حفلة)، ووضع نفسه بين الرجل الأسود ورب عمله.

قال جافيتس: لا أهمية للأمر، فهو مجرّد مزاح.

أراهما الإبرة.

جرى إعداد هذين الغبيين لهجمات بالأسلحة النارية، ولأعمال اعتداء جسدية أو حماية رئيسهما من القتل. فهما دائماً أول من يدخل غرفته في الفندق، وعلى استعداد لإطلاق النار إذا اقتضى الأمر. يمكنهما الإحساس بشخص يحمل سلاحاً (وهو أمر يحدث بشكل دائم في مدن عدّة من العالم)، فلا يشيحان بنظرهما عنه إلى أن يتأكدا من أنه مأمون الجانب. وعندما يدخل جافيتس المصعد فإنهما يحشرانه بينهما جاعلين من جسميهما نوعاً من الجدار. لم يرهما قط يشهران مسدسيهما، لأنهما لو فعلا ذلك لاستخدماهما، وهما يحلاّن في العادة أي مشكلة بنظرة أو ببضع كلمات هادئة.

مشكلات؟ لم يصادف أي منها منذ أن استخدم صديقيه هذين، كما لو أن مجرّد وجودهما يكفي لطرد الأرواح الشريرة وأصحاب النيات السيئة.

قال أحدهما:

- ذلك الرجل، أحد أول الواصلين، وجلس وحده إلى الطاولة هناك... ألم يكن مسلّحاً؟

تمتم الرجل شيئاً مثل «من الممكن»، لكن الشخص غادر الحفلة

منذ بعض الوقت. وقد تمت مراقبته لأنهما لم يستطيعا معرفة ما الذي ينظر إليه من خلف نظارته السوداء.

ارتاحا. شرع أحدهما في الرد على الهاتف من جديد، وأخذ الآخر يسمر نظره في الجمايكي الذي رد إليه النظرة بدون خوف. ثمة أمر غريب في شأن ذلك الرجل، إلا أنه، بمجرد قيامه بخطوة خاطئة، سيضطر من حينها فصاعداً إلى وضع أسنان اصطناعية. وسيُنجز الأمر بأكبر هدوء ممكن، على الشاطئ، بعيداً عن العيون المتفحصة، وعلى يد واحد منهما فقط، بينما يقف الآخر منتظراً وإصبعه على الزناد. لكن مثل هذه الاعمال الاستفزازية تشكّل أحياناً خديعة لإبعاد الحارس الشخصي عن الضحية المستهدفة. تعوّدا مثل هذه الخدع.

حسن...

لا، ليس حسناً. استدع سيارة إسعاف. لا يمكنني تحريك يدي.

١٢:٤٤ ب.ظ.

يا للحظ!

آخر ما توقعته ذلك الصباح هو أن تلتقي الرجل الذي - وهي متأكدة من ذلك - سيغيّر حياتها. إنه موجود هنا، بذّ الثياب كالعادة، جالساً مع صديقين، لأن أصحاب النفوذ لا يحتاجون إلى إظهار مدى قوتهم، ولا يحتاجون حتى إلى حراس شخصيين.

لورين نظرية بأنه يمكن تقسيم جمهور «كان» إلى صنفين:

أ - مكتسبي السمرة، الذين يمضون النهار بطوله تحت الشمس (وهم قد أصبحوا من الرابحين)، ويحوزون البطاقات الضرورية التي تمكنهم من دخول مناطق المهرجان المحظورة. يعودون إلى فنادقهم ليجدوا في انتظارهم الكثير من الدعوات التي يلقى معظمها طريقه إلى سلة المهملات.

ب - أما الصنف الثاني، فالشاحبو اللون، الذين يجدّون في السير من مكتب مظلم إلى آخر، يراقبون الاختبارات، وهم إما

يشاهدون أفلاماً جيدة ستضيع في حمأة الأمور الأخرى المعروضة، وإما عليهم أن يتحملوا بعض الأمور الرهيبة حقاً التي قد تكسب مكاناً لها تحت الشمس (بين من اكتسبوا السمرة)، لأن صانعيها يعرفون الاشخاص المناسبين.

وجافيتس وايلد هو طبعاً ممن يفاخرون باكتسابهم سمرة يُحسَدون عليها.

المهرجان الذي يحتل هذه المدينة الصغيرة في جنوب فرنسا لمدة ١٢ يوماً، وتحدَّد فيه الأسعار، ويُسمح فقط للسيارات المرخص لها بالسير عبر الشوارع، ويملأ المطار بالطائرات الخاصة والشاطئ بالعارضات، ليس مجرد سجادة حمراء يحيط بها المصورون، ويسير عليها النجوم الكبار في طريقهم إلى قصر المؤتمرات. فلا علاقة لـ «كان» بالموضة، بل إنها متعلّقة بالسينما!

أكثر ما يروعك الرفاه والرونق. لكن قلب المهرجان الحقيقي هو السوق الموازية الضخمة لصناعة الأفلام: مشترون وبائعون من جميع أنحاء العالم يلتقون معاً لعقد صفقات حول أفلام قد أُنجزت بالفعل، أو للحديث عن الاستثمارات والأفكار. ويتم في اليوم العادي عرض ٤٠٠ فيلم، معظمها في شقق تُستأجر طوال فترة المهرجان، مع أناس يجثمون بانزعاج على الأسرّة، يشتكون من الحر ويطالبون بتلبية كل رغبة من رغباتهم، من زجاجات المياه المعدنية وصعوداً، ويتركون الذين يعرضون الفيلم وقد تحطّمت أعصابهم وتجمّدت ابتساماتهم، لأن ما يهم هو الحصول على فرصة عرض شيء ما، ربما استغرقت صناعته سنوات طويلة.

لكن، في حين أن هذه الإنتاجات الـ ٤٨٠٠ الجديدة، تُحارب

بكل ما أوتيت من قوة من أجل فرصة مغادرة غرفة الفندق لتُعرض في قاعة سينما لائقة، يسير عالم الأحلام في اتجاه مغاير، التكنولوجيات الجديدة تتقدم، لم يعد الناس يغادرون منازلهم كثيرا لأنهم لا يشعرون بالأمان، أو لأن لديهم أعمالاً كثيرة، أو بسبب الفضائيات التلفزيونية حيث يمكنك في العادة الاختيار بين ٥٠٠ فيلم في اليوم، وما تدفعه لا يكاد يساوي شيئاً.

يبقى أن الأسوأ هو أن الإنترنت حوّل الجميع إلى صانعي أفلام. فالمواقع المتخصصة تعرض أفلاماً لأطفال يسيرون، ورجال ونساء تُقطع رؤوسهم في الحرب، أو نساء يعرضن أجسادهن لمجرّد لذّة معرفة أن الأشخاص الذين يشاهدونهن يستمتعون بلحظتهم الخاصة من اللذة الفردية. كما أن ثمة أفلاماً تُعرَض عن أشخاص يتجمّدون برداً في المحطة المركزية الكبرى، وحوادث سير، ومقاطع رياضية وعروض أزياء، أفلاماً مصنوعة بكاميرات فيديو خفية تهدف إلى إحراج الأبرياء المساكين الذين يعبرون أمامها.

لا يزال الناس يخرجون، طبعاً. إلا أنهم يفضلون إنفاق أموالهم في المطاعم وعلى ثياب الموضة، لأنه في وسعهم الحصول على كل شيء آخر على شاشات تلفزيوناتهم الفائقة الجودة أو حواسيبهم.

ولّت منذ زمن بعيد أيام كان الجميع يعرف فيها من فاز بالسعفة الذهبية. وأنت، إذ تسأل الآن من الذي فاز السنة الماضية، فلن يتمكن أحد من التذكّر، حتى الأشخاص الذين حضروا المهرجان بالفعل. «روماني ما، أليس كذلك؟»، قال أحدهم. «لست متأكداً، إلا أنني أعتقد أنه فيلم ألماني»، يقول آخر. ينسحبان متسللين لمراجعة الكاتالوغ ويكتشفان أنه إيطالي، تبيّن أن أفلامه لا تعرض إلا في دُور سينما الفنون.

عادت السينما، بعد فترة من المنافسة الحادة مع تأجير الفيديو،

إلى الازدهار. لكن يبدو أنها تدخل الآن مرحلة جديدة من الانحطاط، إذ عليها أن تنافس عمليات التأجير عبر الإنترنت، والقرصنة، وأسطوانات «الدي.في.دي»، تلك التي تحتوي على أفلام قديمة تُقدَّم هدية مع الصحف. وهذا يجعل من التوزيع عملية أكثر وحشية. وإذا ما فكّر واحد من الاستوديوهات الكبرى في استثمار كبير، يتأكد من أنه سيُعرض في أكبر عدد ممكن من دور السينما في الوقت ذاته، ما يترك القليل من المجال لأي فيلم جديد بالمغامرة في الدخول إلى السوق.

ولا تكتشف النفوس المغامرة التي تقرر ركوب المجازفة، برغم جميع الحجج المخالفة، إلا متأخرة جداً، أنه لا يكفي الحصول على منتوج جيّد. فكلفة إيصال فيلم ما إلى دور العرض في عواصم العالم الكبرى، باهظة للغاية، وتتضمن إعلانات من صفحة كاملة في الصحف والمجلات، وحفلات استقبال، ومسؤولين صحافيين، وحفلات تسويق، وفريقاً مكلفاً جداً من الناس، وأجهزة تصوير متطورة، ويداً عاملة نادرة باطراد. والمعضلة الأكبر من ذلك كله، إيجاد من يوزّع الفيلم.

وبرغم هذا، تتواصل الأمور في كل سنة: الكدّ في السير من مكان إلى آخر؛ المواعيد؛ الطبقة الأرفع التي تهتم بكل شيء إلّا بما يُعرض على الشاشة؛ الشركات المستعدة لدفع عُشر المعقول فقط لتمنح صانع فيلم ما شرف عرض عمله على التلفزيون؛ طلبات إعادة تجهيز الفيلم بشكل لا يثير حفيظة العائلات؛ طلبات إعادة مَنتجة الفيلم؛ والوعود (التي لا يتم الوفاء بها دائماً) بعقد جديد في السنة المقبلة، إذا تم تغيير النص كلّياً ليركّز على موضوع معيّن واحد.

يستمع الناس ويقبلون لأنه ليس لديهم خيار آخر. فالطبقة

الأرفع تحكم العالم، حججها غامضة الدلالة، وأصواتها خافتة، وابتساماتها هادئة، لكن قراراتها نهائية. وهي تعرف ذلك. فهي تقبل أو ترفض. لديها السلطة. والسلطة لا تتفاوض مع أحد، بل مع نفسها فقط. لكن، لم يضع كل شيء. ففي عالم الخيال كما في عالم الواقع، ثمة دائماً بطل ما.

وها إن مورين تحدّق بفخر في واحد من هؤلاء الأبطال! فالاجتماع الكبير سيُعقد أخيراً بعد يومين، وقد مضى ما يقارب السنوات الثلاث من العمل، والأحلام، والاتصالات الهاتفية، والسفر إلى لوس أنجلس، والهدايا، والخدمات التي طلبتها من أصدقائها في مصرف الخدمات التابع لها، ونفوذ خليل سابق لها درس معها في مدرسة السينما، ثم قرر أنه من الأسلم العمل في مجلة أفلام مهمة بدلاً من المخاطرة بخسارة كل من رأسه وماله.

قال الخليل السابق «سأتحدّث إلى جافيتس». إلا أنه ليس في حاجة إلى أحد، وليس حتى إلى الصحافيين الذين قد يسوّقون منتوجه أو يحطّمونه. إنه فوق ذلك كلّه. وقد حاولنا مرّة وضع مقالة تحاول معرفة كيف أصبح كل مالكي دُور السينما هؤلاء يأكلون من يده، ولم يكن أي من العاملين معه على استعداد لقول أي شيء. سأتحدّث معه، لكن لا تمكنني ممارسة أي ضغط عليه.

وقد تحدّث معه بالفعل وجعله يشاهد أسرار القبو. وتلقّت في اليوم التالي اتصالاً يقول إن جافيتس سيلتقي بها في «كان».

لم تجرؤ مورين، في ذلك الوقت، حتى على القول إنها تقيم على بعد عشر دقائق بالتاكسي من مكتبه، وتم عوضاً عن ذلك تدبير لقاء في هذه المدينة الفرنسية البعيدة جداً. اشترت تذكرة

سفر بالطائرة إلى باريس، ثم أخذت القطار، واستغرق وصولها إلى «كان» النهار كلّه. أظهرت إيصالها للمدير السيئ الخلق في أحد الفنادق الرخيصة. واستقرّت في غرفة فردية اضطرّت فيها إلى تسلّق حقائبها من أجل بلوغ الحمام. واستحصلت (مرة أخرى بفضل خليلها السابق) على دعوات إلى مناسبات من الطراز الثاني: تسويق لماركة جديدة من الفودكا، أو إطلاق موضة جديدة من الأقمشة. وقد فات الأوان كثيراً على طلب إذن بدخول قصر المهرجانات والمؤتمرات.

صرفت أكثر من ميزانيتها، وسافرت لأكثر من عشرين ساعة، لكنها ستحصل لنفسها أخيراً على الدقائق العشر. وهي متأكدة من أنها ستخرج وقد حصلت على عقد وعلى مستقبل يلوح أمامها. نعم، صناعة الأفلام في أزمة، لكن ما همّ؟ فالأفلام (مهما تكن قليلة) لا تزال تدرّ المال، أليس كذلك؟ فالمدن الكبرى مطلية بالإعلانات الكبيرة للأفلام الجديدة. وبماذا تمتلئ مجلات المشاهير؟ بالأقاويل حول نجوم السينما! ومورين تعرف - او بالاحرى تؤمن - أن موت السينما قد أُعلن مرات كثيرة من قبل، وبرغم ذلك فقد استمرت. ماتت السينما عند وصول التلفزيون. ماتت السينما بوصول تأجير الفيديو. ماتت السينما عندما شرعت الانترنت في السماح بالوصول إلى المواقع المقرصَنة. إلا أن السينما ذاتها لا تزال حيّة، وفي حالة جيدة، في شوارع هذه المدينة المتوسطية الصغيرة، التي، تدين، بلا شك، بشهرتها للمهرجان.

المسألة الآن هي في استخراج أكثر ما يمكن من هذا المنّ النازل من السماء، وفي القبول بكل شيء، وبأي شيء على الإطلاق. فجافيتس وايلد هنا. وقد شاهد فيلمها. والأضواء مركّزة على موضوع الفيلم: الاستغلال الجنسي، الطوعي أو الإكراهي، وقد أخذ

يحظى بالكثير من الانتباه الإعلامي بعد سلسلة من الحالات التي احتلت العناوين الرئيسية في جميع أنحاء العالم. إنها اللحظة المناسبة تماماً لظهور أسرار القبو على الملصقات الإعلانية التي تجهّزها حلقة التوزيع التي يسيطر عليها.

جافيتس وايلد، المتمرّد صاحب القضية، الرجل الذي أحدث انقلاباً في طريقة وصول الأفلام إلى الجمهور العريض. وحده الممثل روبرت ردفورد حاول شيئاً مماثلاً مع مهرجانه الخاص للسينما، «صندانس»، المخصص لصانعي الأفلام المستقلين. وبرغم ذلك، لم يتمكن ردفورد، بعد عقود من الجهد، من عبور الحاجز إلى عالم يحرّك مئات الملايين من الدولارات في الولايات المتحدة، وأوروبا، والهند. لكن جافيتس كان رابحاً.

جافيتس وايلد، مخلّص صانعي الأفلام، الأسطورة الكبرى، حليف مصالح الأقلية، صديق الفنانين، رب العمل الجديد، الذي اتضح أنه استخدم منظومة ما ذكية جداً (ليست لديها فكرة عما هي، لكنها تعرف أنها نجحت) لبلوغ ذُور السينما في جميع أنحاء العالم.

دبّر جافيتس وايلد اجتماعاً معها يستغرق عشر دقائق بعد يومين من الآن. وهنا لا يمكن أن يعني إلا أمراً واحداً فقط، وهو أنه وافق على مشروعها، وأن كل شيء آخر ليس سوى مسألة تفصيلية.

وأخذت تكرّر: سأقبل بأي شيء، أي شيء على الإطلاق.

من الواضح أنه لن تسنح الفرصة لمورين، في هذه الدقائق العشر، لقول أي كلمة عما عانته خلال السنوات الثماني (نعم، ربع عمرها) التي استغرقتها صناعة الفيلم. وما من فائدة في أن تقول له إنها قصدت مدرسة الأفلام، وأخرجت بعض الإعلانات، وصنعت فيلمين

قصيرين حظيا باستقبال حار في مختلف دُور سينما، المدن الصغيرة أو في حانات بديلة في نيويورك. وإنها، من أجل جمع المليون دولار الضرورية لإنتاج الفيلم، رهنت المنزل الذي ورثته عن والديها. وهذه هي فرصتها الوحيدة، لأنه ليس لديها منزل آخر ترهنه.

راقبت رفاقها الطلبة وهم يختارون، بعد الكثير من الكفاح، الدخول في العالم المريح للإعلانات - التي ثمة الكثير والكثير منها - أو وظيفة ما آمنة، لكن مغمورة، في واحدة من الشركات الكثيرة التي تنتج المسلسلات التلفزيونية. وأخذت، بعد الاستقبال الحار الذي لقيه فيلماها القصيران، تحلم بأمور أرفع مستوى، ومن ثم لم يعد يوجد ما يوقفها.

اقتنعت بأنها صاحبة رسالة: جعل العالم مكاناً أفضل للأجيال المقبلة، من خلال الالتقاء بأناس يفكّرون مثلها، لإظهار الفن على أنه ليس مجرّد وسيلة للترفيه، وإنقاذ مجتمع ضائع وتسليته؛ ومن خلال فضح زعماء العالم بما هم عليه من عيوب؛ وإنقاذ الأطفال الذين يموتون الآن من الجوع في مكان ما في أفريقيا؛ ومن خلال المجاهرة بالمشاكل البيئية؛ ووضع حد للظلم الاجتماعي.

هذا، بلا شك، مشروع طموح، لكنها واثقة من أنها ستنجزه ولو من خلال المثابرة المحض. وعليها للقيام بذلك أن تنقّي روحها، فلجأت بالتالي إلى القوى الأربع التي طالما سددت خطاها: الحب، الموت، السلطة، والزمن. علينا أن نحب لأن الله يحبنا. علينا أن نعي الموت إذا أردنا أن نفهم الحياة كما يجب. علينا أن نكافح لننمو، ونحن نكسب هذا الصراع، بدون الوقوع في فخ السلطة، لأننا نعرف أنه لا قيمة لمثل هذه السلطة. وعلينا، أخيراً، أن نقبل أن روحنا الخالدة هي، في هذه اللحظة، عالقة في شبكة الزمن بكل فرصه ومحدودياته.

وربما هي عالقة في شبكة الزمن، لكنها لا تزال قادرة على العمل على ما يوفر لها اللذة ويملأها بالحماسة. ويمكنها، من خلال أفلامها، أن تقدم مساهمتها إلى عالم يبدو أنه يتفكك من حولها، ويمكنها أن تحاول تغيير الواقع وتحويل الكائنات الإنسانية.

بعد موت والدها الذي اشتكى طوال حياته من أنه لم تتح له فرصة تحقيق ما حلم دوماً بالقيام به، أدركت أمراً مهمّاً جدّاً، وهو: أن التحولات لا تحصل إلا في أوقات الأزمات.

لم تُرد لحياتها أن تنتهي كحياته. لن تحب أن تقول لابنتها: ثمة أمر أردت القيام به وقد جاءت لحظة امكنني فيها إنجازه، لكنني لم أملك شجاعة المخاطرة. وعندما حصلت على ميراثها، عرفت أنه أُعطي لها من أجل سبب واحد فقط: السماح لها بتحقيق قَدَرها.

قبلت التحدّي. قضى حلمها، على عكس الفتيات المراهقات الأخريات اللواتي طالما حلمن بأن يصبحن ممثلات مشهورات، بأن تخبر قصصاً يمكن الأجيال اللاحقة مشاهدتها، فتبتسم وتحلم في شأنها. مثلها الأكبر هو «المواطن كين»، ذلك الفيلم، الذي أنتجه إذاعي أراد أن يشهّر بأحد أقطاب الصحافة الأميركية النافذين، أصبح كلاسيكياً ليس بسبب موضوعه وحسب، بل لأنه تعاطى بطريقة خلاقة ومتجددة مع مشاكل اليوم الأخلاقية والتقنية. كل ما تطلّبه الأمر فيلم واحد لكسب الشهرة الدائمة.

«فيلمه الأول».

تحقيق النجاح من المرة الأولى ممكن. برغم أن مخرجه، أورسون ويللز، لم يقدّم أي شيء على هذه الدرجة من الجودة من

بعد. وبرغم اختفائه عن الساحة (وهذا يحصل)، ويُدرَّس الآن في مقررات عن السينما، فما من شك في أن أحداً ما سيعيد عاجلاً أم آجلاً اكتشاف عبقريته. فـ «المواطن كين» ليس إرثه الوحيد؛ لقد أثبت للجميع أنه إذا كانت خطوتك الأولى بما يكفي من الجودة، فلن تنقصك الدعوات لاحقاً. وعليها أن تحصل على هذه الدعوات. لقد قطعت عهداً لنفسها بأنها لن تنسى أبداً الصعوبات التي مرّت بها، وبأن حياتها ستساهم في تعظيم الحياة الإنسانية.

وبما أنه لا يمكن أن يوجد إلا فيلم أول وحيد، فقد صبّت جميع جهودها الجسدية، وصلواتها، وطاقتها العاطفية، في مشروع واحد. أكثَرَ اصدقاؤها دوماً في وضع النصوص والاقتراحات والأفكار، لينتهي بهم الأمر يعملون في وقت واحد على أشياء متعدّدة بدون أن يضطلع أي منهم في الحقيقة بأي شيء. وموريَن، على العكس منهم، كرّست نفسها، جسداً وروحاً، لـأسرار القبو، وهي قصة عن خمس راهبات يزورهن مهووس جنسي. وبدلاً من محاولة هدايته إلى الخلاص المسيحي، أدركن أن الطريقة الوحيدة للتحاور معه هي من خلال القبول بمعايير عالمه الشاذ. قررن تسليم أجسادهن إليه حتى يتمكن من فهم مجد الرب من خلال الحب.

خطتها بسيطة. فممثلات هوليوود، مهما بلغت بهن الشهرة، يختفين في العادة من لائحة الممثلين ببلوغهن الخامسة والثلاثين. يستمررن في الظهور على صفحات مجلات المشاهير، ويُشاهَدن في المزادات الخيرية وفي الحفلات الكبرى؛ يعتنقن القضايا الإنسانية، وعندما يدركن أنهن في الحقيقة سيبتعدن كلّياً عن الأضواء، يشرعن في الزواج أو في طلاق وسخ، ويُثرن فضائح علنية... وذلك كله من أجل بضعة أشهر أو أسابيع أو أيام من المجد. وليست للمال أهمية في تلك الحقبة ما بين البطالة والغياب التام، ويقبلن بأي دور يتيح لهن فرصة الظهور على الشاشة.

قاربت مورين ممثلات كن، قبل أقل من عقد، في قمة الشجرة، لكنهن يشعرن الآن بأن الأرض أخذت تميد من تحتهن، ويحتجن يائسات إلى عودة الأمور إلى ما كانت عليه. امتلكت نصاً جيداً، أرسلته إلى وكلائهن الذين طلبوا أجوراً منافية للمعقول، وحصلوا على جواب بالرفض القاطع. وقضت خطوتها التالية بمقاربة كل ممثلة على حدة. أبلغتهن أنها تملك المال للمشروع، وانتهين جميعهن إلى الموافقة مع تفاهم بأن لا يعرف أحد أنهن يعملن في مقابل ما قد يكون: لاشيء.

لا فائدة من التواضع في عالم صناعة السينما. وأحياناً يظهر لها في أحلامها طيف أورسون ويللز: حاولي المستحيل. لا تبدئي من الأسفل لأنك هناك الآن. تسلّقي تلك الأدراج سريعاً قبل أن يسحبوا السلّم بعيداً. إذا شعرت بالخوف فاتلي صلاة، لكن استمزي. لديها نص ممتاز، وممثلون من الدرجة الأولى، وتعرف أن عليها إنتاج ما هو مقبول من الاستوديوهات الكبرى، لكن بدون أن تضحي بالنوعية. ويمكن، بل ضروري، للفن والتجارة، السير يداً بيد. أما بالنسبة إلى ما تبقى، فحسناً، إن ما بقي يتألف من أمور متنوعة: نوع النقاد الذين يعيشون حالة الاستمناء الذهني، والذين يحبون الأفلام التي لا يفهمها أحد؛ الدوائر البديلة الصغيرة حيث يخرج نصف دزينة من الناس أنفسهم من العروض، فيمضون ساعات الفجر الأولى في الحانات يدخنون ويناقشون مشهداً محدداً (يحتمل كثيراً أن يكون معناه مختلفاً عما قُصد منه عند تصويره)؛ بعض المخرجين يلقون المحاضرات لشرح ما هو واضح بالفعل للمشاهدين، اجتماعات لنقابات العمال تطالب الدولة بمزيد من المساعدة للسينما المحلية؛ بيانات عامة في المجلات الفكرية، هي نتيجة اجتماعات لا تنتهي ويتم فيها الإعلان عن الشكاوى القديمة ذاتها حول عدم

اهتمام الحكومة بدعم الفنون، الرسالة الظرفية المنشورة في الصحافة الجلية التي لا يقرأها عادة إلا الأطراف المعنيون، أو عائلاتهم.

فمن يغير العالم؟ الطبقة الأرفع. أولئك هم الذين يفعلون. أولئك الذين يبدّلون سلوك العدد الأكبر الممكن من الناس، وقلوبهم وأذهانهم.

وهذا ما جعلها تنشد جافيتس، و«أوسكار» و«كان».

وبما أنه لا يسعها الحصول على هذه الأمور ديموقراطياً - الأناس الآخرون مستعدون كثيراً لتقديم المشورة، لكنهم ليسوا على استعداد أبدا لمساندة أي من المخاطر - فإنها قامرت وحسب بكل شيء. تعهّدت كلَّ من توفر، وأمضت أشهراً تعيد كتابة النص. أقنعت مخرجين فنيين ممتازين - لكن غير معروفين - ومصممين وممثلين ثانويين، بالمشاركة، وفي غياب المال وعدتهم فقط بمزيد من الإطلالة في المستقبل. تأثروا جميعهم بأسماء الممثلات الرئيسيات الخمس (لا بد من أن الموازنة ضخمة!)، وطلبوا في البداية أجوراً كبيرة، إلا أنهم انتهوا على اقتناع بأن مثل هذا المشروع قد يكون له موقع جيد في سيرة حياتهم المهنية. تحمّست مورين كثيراً للفكرة إلى حد بدا معه أن هذه الحماسة تفتح لها جميع الأبواب.

وها قد حان وقت الخطوة الأخيرة، الخطوة التي ستصنع الفارق كلّه. فلا يكفي الكاتب أو الموسيقي أن ينتج شيئاً ذا نوعية جيدة، بل عليه التأكد من ألا ينتهي عمله يجمع الغبار عن رف ما، أو في درج.

الرؤ...ي...ة، هي المطلب!

أرسلت نسخة من الفيلم إلى شخص واحد فقط: جافيتس وايلد. استخدمت جميع معارفها. عانت الرفض، لكنها ثابرت. تم تجاهلها، لكن ذلك لم ينتقص من شجاعتها. أسيئت معاملتها، سُخر منها، استُبعدت، وبرغم ذلك حافظت على إيمانها بإمكان تحقيق ذلك لأنها سكبت دم حياتها في ما قامت به. ثم دخل خليلها السابق الساحة، ووافق جافيتس وايلد على مشاهدة الفيلم ومقابلتها.

أبقت عينيها على جافيتس في خلال عملية الإطلاق، وهي تتذوق مسبقاً اللحظة التي سيقضيانها معاً بعد يومين. وفجأة لاحظته يتصلّب، وعيناه مسمّرتان على لاشيء. استرق أحد صديقيه النظر وراءه وإلى جانبه، ودس إحدى يديه داخل سترته. وشرع الرجل الآخر يضغط مسعوراً على رقم في هاتفه المحمول.

أثمة ما حصل؟ بالتأكيد لا. فالأناس القريبون منه لا يزالون يتحدّثون، ويشربون، ويستمتعون بيوم آخر من المهرجان، والحفلات، والشمس، والأجساد الجميلة.

حاول أحد الرجلين مساعدة جافيتس على النهوض وجعله يسير، لكنه بدا عاجزاً عن الحركة. لا يمكن أن يكون شيئاً خطيراً. لقد جاءت من بعيد، وهي باتت على مقربة كبيرة و...

أمكنها سماع صفارة الإنذار من بعيد. لا بد من أنها الشرطة تشق طريقها عبر حركة السير المزدحمة باستمرار من أجل الوصول إلى شخص مهم ما.

وضع أحد الرجلين ذراع جافيتس حول كتفه، وكاد يحمله متوجهاً به صوب الباب. أخذت صفارة الإنذار تقترب. استمر الرجل الآخر، ويده داخل سترته، في التطلع في الاتجاهات كلها. والتقت عند حد ما أعينهما.

ها إن أحد الصديقين ينقل جافيتس عبر الحاجز، وموريـن تتساءل كيف يمكن شخصاً على هذا القدر من النحافة، أن يحمل مثل هذا الرجل الضخم البنية، ويبدو أنه لا يبذل إلا القليل من الجهد.

توقف صوت صفارة الإنذار عند خارج الصيوان. ها إن جافيتس الآن قد اختفى عن الأنظار بصحبة واحد من الصديقين، بينما الرجل الآخر يسير نحوها، ولا تزال إحدى يديه في داخل سترته.

«ماذا حصل؟»، سألت، وهي خائفة، لأن سنوات من إدارة الممثلين علّمتها أن وجه هذا الرجل هو وجه قاتل محترف، وجه يبدو كأنه منحوت من صخر.

«تعرفين ما حصل»، قال الرجل بلكنة صعب عليها تحديدها.

رأيت أنه أخذ يصبح مريضاً، لكن ما الذي حصل؟

أبقى الرجل يده داخل سترته. خطر لمورين لحظتها أن هذه قد تشكّل فرصة لتحويل حادثة بسيطة إلى أمر كبير.

هل تمكنني المساعدة؟ أيمكنني الذهاب معه؟

بدا أن اليد في السترة أخذت ترتاح بعض الشيء، لكن العينين تراقبان كل حركة تقوم بها.

سآتي معكم. أنا أعرف جافيتس وايلد. أنا صديقة له.

بعد ما بدا كأنه دهر، لكنه لا يعدو كونه جزءاً من الثانية، استدار الرجل وانطلق بسرعة بعيداً صوب الجادة بدون أن يتفوّه بكلمة.

أخذ ذهن مورين يعمل بسرعة: لماذا قال إنها تعرف ما حصل؟ ولماذا فقد فجأة أي اهتمام بها؟

لم يلاحظ الضيوف الآخرون شيئاً، في ما عدا صوت صفارة الإنذار التي نسبوها ربما إلى أمر ما يحصل في الشارع. ليست لصفارات الانذار أي علاقة مع الفرح والشمس والشراب والاتصالات والنساء الجميلات والرجال الوسيمين، ومع الشاحبي اللون وأولئك الذين اكتسبوا السمرة. صفارات الإنذار تنتمي إلى عالم آخر، عالم النوبات القلبية، والامراض، والجريمة. الأناس هنا لا يهتمون أبداً بصفارة الإنذار.

أخذ رأس مورين في الدوران. حصل شيء ما لجافيتس، وقد يكون هذا عطية من الآلهة. هرعت إلى الباب وشاهدت سيارة إسعاف تبتعد مسرعة، وهي تطلق صفاراتها، سالكة خط الطريق المقطوع على الجادة.

«إنه صديق لي»، قالت لأحد الحراس الشخصيين عند المدخل. «إلى أين يأخذونه؟»

زودها الرجل باسم المستشفى. وشرعت مورين، بدون التوقف للتفكير، في الركض بحثاً عن تاكسي. أدركت، بعد عشر دقائق من ذلك، أنه لا توجد تاكسيات في المدينة سوى تلك التي يستدعيها بؤابو الفنادق، وقد استدرجوها باحتمال الحصول على بقشيش كبير. وبما أنها لا تحمل مالاً في حقيبتها، دخلت محلاً لصنع البيتزا وعرضت على أحد ما الخارطة التي تحملها معها، وعلمت بأن عليها أن تركض لنصف ساعة على الأقل لتصل إلى هدفها.

أمضت حياتها كلها وهي تركض، ولن يُحدث نصف ساعة آخر الكثير من الفرق.

١٢:٥٣ ب.ظ.

«صباح الخير».

«تقصدين «عصرية الخير»، أليس كذلك؟ «أجابت واحدة من الفتيات الاخريات. لقد فات الظهر.

كل شيء كما تخيلته تماماً. فالشابات الخمس الأخريات المنتظرات جميعهن يشبهنها بعض الشيء، جسدياً على الأقل. إلا أنهن متبرجات كثيراً، ويرتدين تنانير قصيرة وقصماناً فوقية مفتوحة على الصدر، ومنشغلات في هواتفهن المحمولة ونصوصهن.

ما من أحد منهن يتكلّم لأنهن يعرفن أنهن رفيقات روح مررن جميعهن في الصعوبات ذاتها، وواجهن، بدون شكوى، التحديات عينها، ورضين بكل ضربة من الضربات القاضية. يحاولن جاهدات الاعتقاد أنه ليست للأحلام تواريخ صلاحية، وأنه يمكن الحياة أن تتغير بين ثانية وأخرى، وأن الوقت المناسب ينتظرهن في مكان ما، وهذا ليس سوى اختبار لقوة إرادتهن.

ومن المرجح أنهن جميعاً تخاصمن مع عائلاتهن المقتنعة بأن المطاف سينتهي ببناتهن إلى العمل كمومسات.

اشتغلن جميعهن في المسرح، واختبرن معاناة رؤية المشاهدين والنشوة المصاحبة، ومعرفة أن كل عين من الأعين مسمرة عليهن. شعرن بالتوتّر في الجو، وسمعن التصفيق في النهاية. تخيّلن لمئات المرات بليلة تأتي يوجد فيها عضو من الطبقة الأعلى بين الجمهور فيزروهن، بعد تأديتهن، في غرفة ملابسهن، حاملاً أمراً ذا شأن أكثر من دعوة إلى العشاء، أو الحصول على أرقام هواتفهن، أو تهنئتهن على حسن تأديتهن.

وهن، في البدء، قبلن عدداً قليلاً من هذه الدعوات، لكن المكان الوحيد الذي أوصلتهن إليه هو رجل نافذ، متقدم في العمر - في العادة متزوج، على غرار جميع الرجال الذين يثيرون الاهتمام -، مهتم فقط بالظفر بواحدة أخرى.

لكل منهن خليل من عمرها، لكن عندما يسألهن أحد إذا كن متزوجات أم عزباوات، يجبن دوماً: حرّات وغير مرتبطات. اعتقدن أنهن مسيطرات على الوضع. فلقد قيل لهن جميعاً - مئات المرات حتى الآن - إنهن يتمتعن بموهبة حقيقية ولا يحتجن إلا إلى الفرصة المناسبة، وإن الشخص الموجود هنا أمامهن هو الذي سيغيّر حياتهن. وقد صدّقن ذلك أيضاً في بعض المرات. سقطن في فخ مبالغتهن في الثقة بالنفس، واعتقادهن أنهن يتولّين الأمر، إلى أن يحل اليوم التالي فيحولهن رقم الهاتف الذي أعطي لهن إلى سكريتيرة سيئة الخلق جداً، لا نية لها في أن تدعهن يتحدّثن مع رب عملها.

هدّدن ببيع قصصهن لصحف الفضائح، قائلات إنهن تعرضن للخداع، لكن أياً منهن لم تفعل ذلك في الحقيقة، لأنهن لا يزلن في

مرحلة التفكير في أنه: لا يجب أن أفسد حظوظي في عالم التمثيل.

ربما شاركت واحدة أو اثنتان غابرييلا في تجربتها في «آليس في بلاد العجائب»، ويَردن الآن، جميعهن، أن يثبتن لأفراد عائلاتهن أنهن يتمتعن بمقدرة أكبر مما يُظن. وقد شاهدت العائلات حتى الآن، بالتأكيد، بناتهن في الدعايات وفي الملصقات ولوحات الإعلان المنتشرة حول المدينة، وقد اقتنعت، بعد بضعة جدالات أولية، بأن هؤلاء البنات أنفسهن على وشك الدخول في عالم الأضواء الباهرة والروعة.

تعتقد جميع الفتيات هنا أن حلمهن ممكن، وأنه سيتم في يوم من الأيام الاعتراف بموهبتهن، وإلى أن يدرك أحدهم الأمر فجأة: توجد كلمة سحرية وحيدة: العلاقات العامة والصلات. فمن جميعهن بتوزيع كتبهن بمجرد وصولهن إلى «كان»، ويُبقين عيناً يقظة دائمة على هواتفهن النقالة، ويتلقين الدعوات التي يمكنهن الحصول عليها إلى عمليات الإطلاق والمناسبات، ويحاولن جهدهن الدخول إلى تلك التي لا يمكنهن دخولها، ويحلمن دوماً بأن يطلب منهن أحد مرافقته إلى واحدة من حفلات المساء أو، حلم الأحلام، بأن يمنحهن الجائزة الأكبر بين الجوائز، وهي الدعوة إلى السير معه على السجادة الحمراء إلى قصر المؤتمرات. لكن هذا الحلم هو الأصعب تحقيقاً... صعب إلى درجة أنهن لا يسمحن لأنفسهن بالتفكير فيه إذا بدّدت مشاعر الرفض والإحباط قدرتهن على ارتداء الوجه السعيد الذي ينبغي لهن إظهاره كل الوقت، حتى وهن لسن سعيدات البتة.

الصلات

وجدن، بعد حالات كثيرة من الأخطاء في هوية الأشخاص،

الصلة المفيدة، وهذا هو سبب وجودهن هنا. فقد أدت إحدى هذه الصلات والعلاقات العامة، إلى أن يتصل بهن منتج نيوزيلندي. لم تسأل أي منهن عمّا يتعلّق به الأمر. عرفن فقط أنه عليهن أن يأتين في الموعد تماماً لأنه ليس لأحد وقت يضيعه، وبالتأكيد ليس الأناس الذين يعملون في صناعة السينما. الوحيدات اللواتي لديهن الوقت لتضييعه هن الشابات الخمس في غرفة الانتظار المنشغلات في هواتفهن المحمولة ومجلاتهن، يُرسلن مكرهات الرسائل المكتوبة لمعرفة إذا تمت دعوتهن إلى شيء ما في وقت لاحق من اليوم، ويحاولن التحدث مع أصدقائهن، ويحرصن دائماً على القول إنهن لا يستطعن الكلام الآن، لأن لديهن اجتماعاً مهماً مع منتج أفلام.

غابرييلا هي الرابعة في الدور. حاولت تفسير النظرة في أعين أول ثلاث مرشحات خرجن من الغرفة بدون التفوه بكلمة، لكنهن جميعهن ممثلات قادرات على إخفاء أي انفعال، سواء أكان فرحاً أم حزناً. سرن، ثلاثتهن، بتصميم إلى الباب وتمنين للأخريات الحظ الطيب، كما لو أن الواحدة منهن تقول: لا حاجة إلى التوتر، يا صبايا، ليس لديكن ما تخسرنه. فالدور لي.

غُطّي أحد جدران الغرفة بقماشة سوداء. والأرض مفروشة بجميع أنواع الأشرطة الكهربائية والأضواء المغطاة بشبكة معدنية، وثمة ما يشبه الشمسية وقطعة قماش بيضاء مفروشة أمامها، بالإضافة إلى معدات الصوت، والشاشات وكاميرا فيديو. وتوجد في الزوايا زجاجات مياه معدنية، وحقائب معدنية، وسيب، وأكوام من

الورق وحاسوب. وثمة امرأة تفترش الأرض، ترتدي نظارة طبية. بدت في الثلاثين ونيف، وها هي تقلب صفحات كتاب غابرييلا.

«مريع»، قالت من دون أن تلتفت إليها من تحت. «مريع»!

لم تعرف غابرييلا تماماً ماذا تفعل. ربما عليها الادعاء أنها لا تستمع وتمضي صوب مجموعة التقنيين الذين يدخنون بدون انقطاع وهم يتحادثون بابتهاج في إحدى الزوايا، أو ربما عليها البقاء وحسب حيث هي.

«هذه الواحدة مريعة»، كررت المرأة القول.

«هذه أنا».

لم تستطع منع نفسها. فقد ركضت نصف «كان» لتصل إلى هنا، وانتظرت نحو ساعتين، وتخيلت مرّة أخرى أيضاً أن حياتها على وشك أن تتغير إلى الأبد (برغم أنها أصبحت الآن أقل فأقل عرضة لمثل هذه التخيلات، ولن تسمح لنفسها بأن تتحمس كما تعوّدت أن تفعل)، وهي بالتأكيد لا تحتاج إلى أسباب إضافية لتصاب بالاكتئاب.

«أعرف»، قالت المرأة وعينها مسمّرة على الصور. «لا بد من أنها كلّفتك ثروة. فالناس يمتهنون صناعة الكتب، وكتابة السير المهنية، وإعطاء دروس في التمثيل، ويجنون في الغالب المال من أناس مغرورين مثلك».

- إذا كنت تعتقدين أنني مريعة، فلماذا استدعيتني؟

- لأننا نحتاج إلى شخص مريع.

ضحكت غابرييلا. ورفعت المرأة أخيراً رأسها وميّزتها من أعلى إلى أسفل.

- أحب ثيابك. فأنا أكره الأناس السوقيين.

عاد حلم غابرييلا إليها، وازدادت خفقات قلبها.

ناولتها المرأة ورقة.

- امضي إلى العلامة هناك.

ثم استدارت صوب الفريق.

- أطفئوا سجائركم، وأقفلوا النافذة. لا أريد للصوت أن يفسد.

العلامة كناية عن صليب مصنوع من الورق اللاصق الأصفر على الأرض. ويعني هذا أن الممثل موجود تلقائياً في الموقع الصحيح بالنسبة إلى الإضاءة والكاميرا.

- الجو حار جداً هنا، ويكتّني العرق. هل يمكنني على الأقل الذهاب إلى الحمام، ووضع بعض الأساس أو التبرج قليلاً؟

بالتأكيد يمكنك، لكن عندما تعودين لن يبقى لنا الوقت للتسجيل. علينا ان نسلّم هذه المواد بحلول بعد ظهر هذا اليوم.

لا بدّ من أن جميع الفتيات اللواتي جئن إلى هنا طرحن السؤال ذاته، وحصلن على الجواب عينه. ومن الافضل عدم إضاعة الوقت. أخذت محرمة من جيبها ومسحت بها وجهها وهي تتوجه إلى العلامة.

أخذ أحد المساعدين مكانه وراء الكاميرا، بينما غابرييلا تحارب ضد الوقت، محاولة قراءة ما هو مكتوب على نصف الورقة تلك.

«الاختبار الرقم ٢٥، غابرييلا شيري، وكالة تومسون».

خمسة وعشرون؟ افتكرت غابرييلا.

و... «ابدأوا»، قالت المرأة صاحبة النظّارة.

وما لبث أن عم الصمت.

- لا، لا يمكنني تصديق ما تقول. ما من احد يرتكب جريمة قتل بدون سبب.

- ابدئي من جديد. أنت تتحدثين إلى خليلك.

- لا، لا يمكنني تصديق ما تقول. ما من أحد يرتكب جريمة قتل كهذه بدون سبب.

- كلمة «كهذه» غير موجودة في النص. هل تعتقدين حقاً أن كاتب الحوار، الذي عمل على هذه على مدى أشهر، لم يفكّر في إدخال هذه العبارة، لكنه قرر العكس لأنه لا فائدة منها، ولأنها سطحية وغير ضرورية؟

أخذت غابرييلا نَفَساً عميقاً. ليس لديها ما تخسره سوى صبرها. وهي ستبذل أفضل ما لديها الآن، ثم تغادر، تمضي إلى الشاطئ أو تعود إلى السرير لبعض الوقت. تحتاج إلى الراحة لتستعيد لياقتها من أجل جولة حفلات الكوكتيل المسائية.

حلّ عليها هدوء غريب ولذيذ. شعرت فجأة بأنها محميّة، محبوبة، ممتنة لأنها حيّة. ما من أحد يُجبرها على أن تكون هنا، تتحمل بعدُ إذلالاً آخر. وها إنها، للمرة الأولى منذ سنوات، تدرك قوتها، وهي قوة لم تفكّر أبداً في أنها موجودة.

- لا، لا يمكنني تصديق ما تقول. ما من احد يرتكب جريمة قتل بدون سبب.

«السطر التالي».

ما من داع لها لأن تقول ذلك. فغابرييلا كانت ستتابع على أي حال.

- من الأفضل لنا أن نذهب ونرى طبيباً. أعتقد أنك تحتاج إلى المساعدة.

«كلا»، قالت صاحبة النظارات التي تلعب الآن دور الخليل.

- حسناً، لا طبيب إذاً. ما رأيك في نزهة صغيرة، ويمكنك أن تخبرني ما الذي يحصل بالضبط. تعرف أنني أحبك، وحتى لو لم يهتم أي أحد آخر على وجه الأرض بك، فأنا أهتم.

لا مزيد من الأسطر. عم صمت آخر. امتلأت الغرفة بطاقة غريبة.

«أبلغ الفتيات الأخريات أنه في وسعهن الذهاب»، قالت المرأة صاحبة النظارات للشخص الآخر الحاضر.

هل يعني هذا ما تعتقد غابرييلا أنه يعنيه؟

- اذهبي إلى المارينا عند آخر جادة الكروازيت، قبالة الأللي دي باليبه. سينتظرك مركب هناك عند الساعة ١:٥٥ تماماً ليقلّك لمقابلة السيد غيبسون. سنرسل إليه الفيديو الآن، إلا أنه يحب دوماً لقاء الأشخاص الذين قد يتعامل معه.

ظهرت ابتسامة على وجه غابرييلا.

- قلت «قد»، ولم أقل «سيتعامل معهم».

بقيت الابتسامة: السيد غيبسون!

١:١٩ ب.ظ.

على طاولة من الفولاذ غير القابل للصدأ، بين المفتش سافوا والطبيب الاختصاصي في علم الأمراض، تستلقي شابة جميلة في حوالى العشرين، عارية تماماً وميتة.

- أمتأكد أنت؟

توجه الطبيب إلى المغسلة الفولاذية. نزع قفازيه المطاطين، ألقاهما في سلة القمامة، واستدار إلى الصنبور.

- تمام التأكيد. ما من آثار للمخدّرات.

- ما الذي حصل إذاً؟ هل يمكن شابة مثلها أن تصاب بنوبة قلبية؟

الصوت الوحيد في الغرفة هو صوت المياه الجارية. فكّر الطبيب عالِم الأمراض:

- يأتون دوماً بالبديهي: المخدرات، النوبة القلبية...

استغرقه أكثر من اللازم ليغسل يديه، فالقليل من التشويق لا

يذهب أبداً سُدىً. دهن ذراعه بالمطهر وتخلّص من المعدات التي تُرمى بعد الاستعمال في التشريح، ثم استدار وطلب من المفتش التحقق من الجثة.

- كلا، حقيقة، ألقِ نظرة متفحصة. لا تُصَب بالحرج. فملاحظة التفاصيل هي جزء من عملك، أليس كذلك؟

تفحّص سافوا الجثة بإمعان. وعند حد ما مدّ يده لرفع أحد ذراعي الفتاة، لكن الطبيب أوقفه:

- لا داعي للمس.

مرّر سافوا نظره على جثة الفتاة العارية. وهو بات يعرف أموراً كثيرة عنها الآن: أوليفيا مارتن، ابنة والدين برتغاليين، واعدت أخيراً شاباً لا عمل محدداً له، منغمساً بقوة في حياة «كان» الليلية، ويخضع في الوقت الراهن للاستجواب في مركز للشرطة في مكان آخر. أصدر أحد القضاة أمراً بتفتيش شقته، حيث تم العثور على بعض قوارير تيترا هايدرو كانابينول THC، وهو المركّب الهلوسي الرئيسي في الماريجوانا، الذي يمكن تناوله محلولاً بزيت السمسم، ولا يخلّف رائحة وله مفعول أقوى من مفعول تنشق المادة عبر التدخين. وتم العثور أيضاً على ستة مظروفات، يحتوي كل منها على غرام واحد من الكوكايين، وبعض لطخ الدم على أحد الشراشف الذي أرسل الآن إلى المختبر لفحصه. إنه، في أكثر الحالات، مروج صغير ربما. وهو معروف بالفعل من الشرطة بعدما أمضى فترتين في السجن لأسباب ليس العنف الجسدي واحداً منها.

أوليفيا جميلة، حتى في موتها. حاجباها الداكنان، مظهرها الطفولي، ثدياها... «لا»، فكّر: لا يجب أن انساق إلى هنا. فأنا محترف.

«لا تمكنني رؤية شيء»، قال.

ابتسم الطبيب، ووجد سافوا أن اغتباطه بنفسه مثير للحنق بعض الشيء. أشار الخبير إلى علامة صغيرة تكاد لا تُرى، مائلة إلى اللون الأرجواني بين الكتف الشمالي للفتاة وعنقها. ثم أظهر له علامة أخرى مماثلة على جانب اليد اليمنى من جذعها، بين اثنين من أضلاعها.

- يمكنني البدء بإعطائك التفاصيل التقنية. حصلت الوفاة نتيجة سدّ وريد الوداج والشريان السباتي، وقد تم في الوقت ذاته تطبيق ضغط مماثل على كتلة محددة من الأعصاب، حدث ذلك بدقة كبيرة، بحيث إنه سبب شللاً تاماً في الجزء الأعلى من الجسم.

لم يقل سافوا شيئاً. أدرك طبيب علم الأمراض أن الوقت ليس مناسباً للتباهي بمعرفته، أو لإطلاق النكات، بل شعر بالأسف على نفسه. فهو يعمل في شكل يومي مع الموت، ويمضي النهار كله محاطاً بالجثث وبأناس يحملون القبور في وجوههم. لا يخبر أولاده أحداً عن عمل والدهم، وهو ليس لديه ما يتحدّث به في حفلات العشاء، لأن الناس يكرهون مناقشة ما يرون فيه مواضيع يقشعر منها البدن. وهو يتساءل أحياناً هل أخطأ ربما في اختيار مهنته.

- ... يمكن القول باختصار إنها خُنقت.

استمر سافوا لا يقول شيئاً. فعقله يعمل بسرعة كبيرة: كيف يمكن خنق شخص ما في وضح النهار في جادة لاكروازيت؟ أخذت إفادة والديها. قالا إن ابنتهما غادرت المنزل في ذلك الصباح ومعها البضاعة المعتادة. يجب القول إنها بضاعة غير شرعية لأن باعة الشوارع لا يدفعون ضريبة، وهم بالتالي ممنوعون من التجارة،

برغم أن ذلك يكاد يكون غير ذي علاقة الآن، على ما فكّر فيه.

«الأمر المثير للاهتمام في شأن هذه الحالة بالذات»، قال الطبيب، «أنه في حالة الخنق العادية توجد آثار على الكتفين معاً. وهي، تظهر، عندما يمسك المهاجم بضحيته حول العنق والضحية تكافح للتخلّص. أما في حالتنا هذه، فإن يداً واحدة، أو بالأحرى إصبعاً واحدة أوقفت وصول الدم إلى الدماغ، بينما الإصبع الاخرى شلّت الجسم، ومنعته من المقاومة. وهنا يتطلب تقنية متطورة جداً ومعرفة مفصلة بالجسم البشري».

- هل يمكن أن تكون قُتلت في مكان آخر، ثم نُقلت إلى المقعد الذي وجدناها عليه؟

- لو حصل هنا لوجدنا علامات أخرى على جسمها. هنا هو الأمر الأول الذي فتشت عنه، وعندما لم أر أي علامات، بحثت عن إشارات إلى أنه تم الإمساك بها بزنديها وكاحليها. ولو حصل هنا لكنا نتعامل مع أكثر من قاتل واحد. لكنه لم يوجد ما يشير إلى ذلك. وثمة بالتأكيد، بدون الدخول في المزيد من التفاصيل التقنية، أمور معينة تحصل ساعة الوفاة وتترك آثاراً على الجسم. البول مثلاً، و...

- ما الذي تقوله؟

- إنها قُتلت حيث تم العثور عليها، وثمة شخص واحد متورط في الجريمة بالحكم على آثار الأصابع على جسمها. وبما أنه لم يشاهدها أحد تحاول الهرب، فمن الواضح أنها كانت تعرف قاتلها الذي جلس إلى يسارها. لا بد من أنه شخص تلقى تدريباً عالياً وصاحب معرفة واسعة بفنون القتال بالسلاح الأبيض.

هز سافوا برأسه شاكراً، وسار مسرعاً إلى المخرج. هاتف في طريقه مركز الشرطة، حيث يخضع الخليل للاستجواب.

«انسوا أمر المخدرات»، قال. «ففي أيدينا جريمة قتل. حاولوا اكتشاف ما يعرفه الخليل عن القتال بالسلاح الأبيض. أنا قادم فوراً».

«كلا»، قال الصوت في الطرف الآخر. «توجَّهْ مباشرة إلى المستشفى. أعتقد أننا نواجه مشكلة أخرى».

١:٢٨ ب.ظ.

حلّق نورس فوق أحد الشواطئ وشاهد فأراً. طار هابطاً وسأله:

أين جناحاك؟

وبما أن كل حيوان يتحدث بلغته الخاصة، لم يفهم الفأر السؤال، لكنه حدّق في الشيئين الغريبين الكبيرين المعلّقين إلى جسم الكائن الآخر.

لا بد من أنه مصاب بمرض ما، اعتقد الفأر.

لاحظ النورس الفأر وهو يحدّق في جناحيه، وفكّر:

يا للمسكين. لا بدّ من أن وحوشاً هاجمته وخلّفته صمّاً ونزعت عنه جناحيه.

شعر النورس بالأسف على الفأر، فالتقطه وطار به في جولة في السماء. أخذه الحنين إلى الديار بلا شك، فكّر النورس وهما يطيران. ثم إنه عاد ووضع الفأر بحرص على الأرض.

غرق الفأر لبضعة أشهر بعد ذلك في الغمّ، فقد عرف الأعالي وشاهد عالماً واسعاً وجميلاً، لكنه أخذ مع الوقت يعتاد على كونه فأراً من

جديد، وبات يعتقد أن المعجزة التي حصلت في حياته ليست إلا مجرّد حلم.

هي قصة من زمن طفولتها، وبرغم ذلك فهي الآن في السماء، تمكنها رؤية البحر الفيروزي، واليخوت الفاخرة، وتشاهد الناس صغاراً كالنمل من تحتها، الصيوانات على الشاطئ، التلال، الأفق إلى يسارها ووراءه أفريقيا وجميع مشاكلها.

أخذت الأرض تقترب بسرعة. فكرت في أنه من الأفضل مشاهدة البشر من فوق. عندها فقط تمكننا رؤية كم أنهم صغار.

بدت إيوا ضجرة، إما هنا وإما أنها متوتّرة. لا يعرف حميد حقيقة ما الذي يجول في رأس زوجته، برغم أنه بات لهما معاً أكثر من سنتين. صحيح أن «كان» تشكل محنة لكل معني بالأمر، لكن لا تمكنه مغادرة المهرجان بأبكر مما هو مقرّر. ولا بد، إلى جانب ذلك، من أنها تعوّدت على هذا كله، لأن حياة زوجها السابق لم تكن مختلفة كثيرة، مع مآدب العشاء التي يجب حضورها، والمناسبات الواجب تنظيمها، والاضطرار دوماً إلى التنقل بين البلدان والمحيطات واللغات.

أهي دائما على هذا المنوال، أم أنها لم تعد تحبني بالقدر ذاته الذي أحبتني فيه أولاً؟

هذه فكرة محظورة. الرجاء التركيز على أمور أخرى.

لا يسمح صوت المحرك بإجراء محادثة إلا باستخدام سماعة الرأس مع المذياع الموصول فيها، لكن إيوا لم تلتقط السماعتين المعلقتين إلى جانب مقعدها. ولا فائدة من أن يطلب منها وضعها، بحيث يتمكن من أن يقول لها للمرة الألف إنها المرأة الأكثر أهمية في حياته، وإنه

سيبذل ما في وسعه لتستمتع بمهرجان كان الذي تحضره للمرة الأولى. وقد جُهّز نظام الصوت في الداخل بحيث يمكن الطيار أن يسمع ما يقال عبره، وإيوا تكره إظهار العواطف في العلن.

ها هما، في تلك الفقاعة الزجاجية، على وشك الهبوط. أمكنه رؤية السيارة البيضاء الضخمة، المايباخ، وهي الأغلى ثمناً والأكثر تطوراً بين موديلات المرسيدس بنز. سيستقلانها بعد قليل، ويستمعان إلى بعض الموسيقى الهادئة، ويشربان الشامبانيا المثلجة أو المياه المعدنية.

نظر ليعرف الوقت في ساعتها البلاتينية، وهي نسخة مصدّقة من أول الموديلات التي أنتجها متجر صغير في مدينة شافهازن. يمكن النساء صرف ثروة على الألماس، إلا أن ساعة اليد هي قطعة الجواهر الوحيدة المسموحة لرجل صاحب ذوق رفيع، ووحده الخبير الفعلي يعرف ماهية هذه الساعة التي نادراً ما يتم الإعلان عنها في المجلات المصقولة الورق.

قد يكون هنا ما يحدد المهارة الحقّة: معرفة أين يمكن العثور على الأفضل حتى لو لم يسمع به الناس أبداً، وإبراز الأفضل أيضاً بغض النظر عما قد يقوله الآخرون.

إنها حوالى الثانية بعد الظهر، ويحتاج إلى التحدث مع وكيل أسهمه في نيويورك قبل بدء التبادل في البورصة. وسيقوم، بوصوله، باتصال واحد - واحد وحسب - يعطي فيه تعليماته لهذا اليوم. ليس كسب المال في الكازينو، كما يسمي أموال الاستثمار، رياضته المفضلة؛ إلا أن عليه أن يدّعي أنه يراقب ما يقوم به مدراؤه ومهندسوه الماليون. ويمكنه الاعتماد على دعم الشيخ ويقظته. لكن عليه أن يبرهن برغم ذلك أنه مطلع أولاً بأول على ما يجري.

قد يكون عليه، في نهاية الأمر، أن يُجري اتصالين هاتفيين، بدون أن يعطي تعليمات محددة عما يجب بيعه أو شراؤه. فهو يركّز طاقته على أمر آخر: فبعد ظهر هذا اليوم ستسير ممثلتان على الأقل - واحدة مشهورة وأخرى مغمورة - على البساط الأحمر وهما ترتديان ملابسه. ولديه، بالتأكيد، مساعدون يمكنهم الاهتمام بكل شيء، لكنه يحب أن يشارك شخصياً، ولو كان فقط ليذكّر نفسه بأن كل تفصيل مهم، وأنه لم يفقد الصلة مع الأساس الذي بنى عليه امبراطوريته. وهو، في ما عدا ذلك، يريد قضاء ما بقي من وقته في فرنسا محاولاً الاستمتاع كلّياً بصحبة إيوا، يعرّفها إلى الأناس المثيرين للاهتمام، ويتنزه معها على الشاطئ، ويتناولان الغداء في مطعم صغير ما في بلدة قريبة، أو يسيران، يداً بيد، عبر حقول الكرمة التي تمكنه رؤيتها في الأفق.

لطالما اعتقد أنه لن يقع في غرام أي شيء سوى عمله، برغم أن لائحة غزواته تتضمن سلسلة يحسد عليها من العلاقات مع بعض النساء اللواتي هن أكثر مثاراً للحسد. إلا أنه في اللحظة التي ظهرت فيها إيوا على الساحة، أصبح رجلاً آخر. باتت لهما معاً سنتان، وحبه يزداد قوة وشغفاً أكثر من قبل. لقد وقع في الحب. هو، حميد حسين، أحد أهم مصممي الأزياء في العالم، والوجه البارز لمجمّع دولي ضخم يبيع الرفاه والرونق، الرجل الذي حارب ضد كل شيء وضد الجميع، وتحدَّى أفكار الغرب المسبقة حول مواطني الشرق الأوسط ودينهم... الرجل الذي استخدم معرفة جدود قبيلته للبقاء والتعلم وبلوغ القمة. وهو، خلافاً للشائعات، لا يتحدر من أسرة نفطية ثرية. فوالده بائع ثياب وجد، في يوم من الأيام، حظوة لدى الشيخ، لأنه ببساطة، رفض القيام بما طلب منه القيام به.

يحب حميد، في كل مرة تساوره الشكوك في شأن قرار عليه

اتخاذه، العودة إلى المثل الذي تلقاه في مراهقته: القول ،لا، لأصحاب السلطة، حتى لو عنى ذلك ركوب مجازفة كبرى. وقد كاد ذلك ينجح في كل مرة تقريباً. وفي المرات القليلة التي لم ينجح فيها، لم تكن العواقب بالخطورة التي تخيلها.

لم يعش والده، للأسف، لشاهدة نجاح ولده. فعندما شرع الشيخ في شراء جميع الأراضي المتوفرة في جزء من الصحراء لبناء واحدة من أكثر المدن حداثة في الأرض، امتلك والده الشجاعة ليقول لواحد من موفدي الشيخ:

لن أبيع. فعائلتي موجودة هنا منذ قرون. دفنا والدنا هنا. تعلمنا النجاة من العواصف والغزاة. لا يمكننا بيع المكان الذي كلّفنا الله برعايته.

ضاعف الموفدون عروضهم. وعندما استمر في الرفض غضبوا وهددوا بالقيام بكل ما يتطلبه الأمر لإزاحته. أخذ الشيخ أيضاً يعيل صبره. أراد البدء بمشروعه فوراً لأن لديه مخططات كبرى. فسعر النفط ارتفع في السوق العالمية، وثمة حاجة إلى إنفاق المال قبل أن تنفد احتياطات النفط وتتلاشى أي إمكانية لبناء البنى التحتية الآيلة إلى استجلاب الاستثمارات الأجنبية.

لكن حسين العجوز بقي على رفضه بيع ملكيته، مهما يكن الثمن. عندها قرر الشيخ المضي إليه والتحدث معه مباشرة.

،يمكنني أن أقدم إليك كل ما تشتهيه،، قال.

،إذاً، وفر لابني تعليماً جيداً. إنه في السادسة عشرة الآن، ولا مستقبل له هنا،

فقط إذا بعتني المنزل.

أعقب ذلك صمت طويل، ثم قال والده، وهو ينظر إلى الشيخ مباشرة، أمراً لم يتوقع الأخير أبداً سماعه.

- تقضي مسؤوليتك، يا سيدي، بتعليم جميع رعاياك، ولا يمكنني إبدال مستقبل عائلتي بماضيها.

تذكّر حميد منظر الحزن الهائل في عيني والده وهو يتابع:

«إذا أمكنك على الأقل إعطاء ابني فرصة في الحياة، فسأوافق على عرضك».

غادر الشيخ بدون التفوه بكلمة أخرى. وطلب في اليوم التالي من والد حميد ان يرسل ابنه إليه ليتحدثا معاً. وبعد السير في طرق مقطوعة، وتجاوز الرافعات العملاقة والعمال الذين يعملون بدون كلل، واجتياز أحياء بكاملها جارٍ هدمها، وصل حميد أخيراً إلى القصر الذي شيّد إلى جانب المرفأ القديم.

دخل الشيخ في الموضوع مباشرة:

- تعلم بأنني أريد شراء منزل والدك. ثمة القليل من النفط المتبقي في بلادنا، وعلينا الاستغناء عنه وإيجاد سبل أخرى قبل أن تجف الآبار. سنثبت للعالم أنه في وسعنا أن نبيع، ليس النفط وحسب، بل خدماتنا أيضاً. لكن علينا، لاتخاذ هذه الخطوات الأولى، القيام ببعض الإصلاحات الكبرى، مثل بناء مطار جيّد. نحتاج إلى أرض ليتمكن الأجانب من البناء عليها. فحلمي عادل ونياتي طيبة. وثمة أمر سنحتاج إليه، وهو المزيد من الخبراء الماليين. وأنت قد سمعت الحوار بيني وبين والدك...

حاول حميد إخفاء خوفه، لوجود أكثر من دزينة من الأشخاص يستمعون إلى حوارهما، لكن قلبه كان قد امتلك جواباً جاهزاً عن كل سؤال طُرح عليه.

- ... قل لي إذاً، ما الذي تريد القيام به؟

- أريد دراسة تصميم الملابس الراقية.

تطلّع الاشخاص الآخرون الموجودن إلى بعضهم البعض، وهم ربما لا يعرفون ما الذي يقصده.

- يبيع والدي الكثير من الثياب التي يشتريها للأجانب الذين يعيدون بدورهم تصميمها ويكسبون أكثر بمئة مرة مما يربح. وأنا على ثقة بأنه يمكننا القيام بالأمر ذاته هنا. أنا مقتنع بأن الموضة قد تكون واحدة من الوسائل التي تتيح لنا كسر الأحكام الاعتباطية التي تصدرها بقية الأمم في شأننا. وإذا جعلنا غيرنا يرون أننا لا نلبس كالبرابرة، فسيجدون أنه من الاسهل عليهم تقبّلنا.

سمع هذه المرة، تمتمات في البلاط: أهو يتحدث عن الثياب؟ هذا أمر من شأن الغربيين المهتمين بمظهر الناس الخارجي أكثر مما يهتمون بما هم عليه في دواخلهم.

- لكن الثمن الذي يدفعه والدي مرتفع جداً. وأنا أفضل الاحتفاظ بمنزلنا. سأعمل بالملابس التي يملكها، وإذا شاء الرب الرحوم فسأحقق حلمي. وأنا، على غرار جلالتك، أعرف ما أريد.

ذهش أفراد البلاط لسماعهم الفتى يتحدى ليس فقط الزعيم الأكبر للمنطقة، بل يرفض أيضاً الموافقة على رغبات والده، لكن الشيخ ابتسم:

- وأين يدرس المرء التصميم على أفضل طراز؟

- في فرنسا، أو إيطاليا، وبالعمل مع كبار المختصين. وثمة

جامعات يمكن المرء الدراسة فيها، لكن لا يوجد بديل عن الخبرة. لن يكون الأمر سهلاً، لكنني سأنجح بمشيئة الله الرحيم.

طلب منه الشيخ العودة بعد الظهر. سار حميد صوب المرفأ وزار البازار، حيث تأمل معجباً بالألوان، والثياب، والمطرزات. أحب زيارة البازار، لكنه أحزنه أنه سيُدمَّر قريباً لأن جزءاً من الماضي سيضيع ويضيع معه هامش كبير من التقاليد. أمن الممكن وقف التقدّم؟ أمن الحكمة محاولة وقف نمو أمة؟ تذكّر كم من الليالي جلس حتى وقت متأخر يرسم على ضوء الشمعة، ناقلاً الثياب التي يرتديها البدو، وهو يخشى من أن الرافعات والاستثمار الاجنبي ستدمر في يوم الأيام الأزياء القبلية.

عاد إلى القصر عند الساعة المحددة. وها قد أصبح هناك الآن مزيد من الناس بصحبة الشيخ.

«اتخذتُ قرارين»، قال الشيخ. «أولاً، سأدفع مصاريفك لسنة. لدينا ما يكفي من الصّبية المهتمين بمهنة في قطاع المال، لكنك أول من يعرب عن رغبته في تعلّم الخياطة. يبدو الأمر جنوناً مطبقاً، لكن الجميع قالوا لي إن أحلامي مجنونة أيضاً. لكن انظر ما الذي أعطتني إياه. ولا يمكنني العمل بما يناقض المثل الذي أعطيه.

«من ناحية أخرى، ليس لأي من مساعديّ أي ارتباط بأوساط الأناس الذين أشرت إليهم، وبالتالي سأدفع لك جعالة شهرية صغيرة تقيك شر التسوّل في الشوارع. ستعود منتصراً، ستمثل بلدنا، فمن المهم أن تتعلم الأمم الأخرى احترام ثقافتنا. وعليك قبل أن تعود، أن تتعلم لغات الدول التي ستذهب إليها، فما هي هذه اللغات؟

- الإنكليزية والفرنسية والإيطالية. وأنا ممتن كثيراً لك على كرمك. لكن ماذا بالنسبة إلى والدي...

أشار إليه الشيخ بالصمت.

- قراري الثاني هو التالي: سيبقى منزل والدك حيث هو. وهو، وفقاً لأحلامي، سيصبح محاطاً بناطحات السحاب، فلا تدخل الشمس نوافذه، وهو سيضطر في النهاية إلى الانتقال. إلا أن المنزل سيبقى مكانه إلى الأبد. سيتذكرني الناس في المستقبل ويقولون: «كان رجلاً عظيماً لأنه غيّر بلده. وهو كان عادلاً لأنه احترم حقوق بائع ثياب».

هبطت الهيليكوبتر عند أقصى نهاية الرصيف، ونحّى ذكرياته جانباً. خرج أولاً ومدّ من ثم يد المساعدة لإيوا. لمس بشرتها ونظر بفخر إلى هذه المرأة الشقراء، وكلها بالأبيض وثيابها تلمع تحت ضوء الشمس، وهي تمسك بيدها الأخرى قبعتها الجميلة الناعمة البيج التي ترتديها. مرّا من أمام صفوف اليخوت الراسية من كل جانب، واتجها إلى السيارة التي تنتظرهما بينما السائق يقف عند الباب المفتوح.

أمسك بيد زوجته وهمس في أذنها:

- آمل أنك استمتعت بالغداء. إنهم جامعو تحف كبار، وسخاء كبير منهم أن يوفّروا لنا الهيليكوبتر.

- نعم، لقد أحببته.

لكن ما عنته إيوا فعلاً هو: «كلا، كرهته. والأسوأ هو أنني أشعر حقيقة بالذعر. فلقد استلمت للتو رسالة على هاتفي المحمول، وأعرف من الذي أرسلها، ولو أنه لا يمكنني التعرّف إلى الرقم».

دخلا السيارة الواسعة المصنوعة لشخصين فقط، حيث ما تبقى

يشكل مساحة خالية. مكيف الهواء محدد على الحرارة المثالية، والموسيقى مناسبة تماماً لمثل هذه اللحظة، ولا يمكن الضجيج الخارجي أن يخترق عزلتهما المثالية. جلس في المقعد الجلدي الوثير. فتح البراد الصغير قبالتهما وسأل إيوا إذا كانت تود بعض الشامبانيا. «كلا»، أجابت، «المياه المعدنية ستفي بالغرض».

- شاهدت زوجك السابق بالأمس في حانة الفندق، قبل أن نغادر للعشاء.

- هذا مستحيل. فلا عمل له في «كان».

لأحبت أن تقول: «قد تكون مصيباً. فلقد تلقيت للتو نص رسالة. وعلينا ركوب الطائرة التالية ونذهب من هنا».

- آه، أنا متيقن تمام اليقين من أنه هو.

لاحظ حميد أن زوجته ليست في مزاج جيد للتحدث. فلقد ترعرع على احترام خصوصية من يحب، وأجبر نفسه على التفكير في شيء آخر.

قام، بعدما استأذن أولاً من إيوا، بإجراء الاتصال الهاتفي الضروري بسمسار أسهمه في نيويورك. استمع بصبر إلى جملتين أو ثلاث، ثم قطع بتهذيب أي مزيد من الأخبار عن اتجاهات السوق. لم يستغرق الاتصال كله أكثر من دقيقتين.

أجرى اتصالاً آخر بالمخرج الذي اختاره لفيلمه الأول. والمخرج في طريقه إلى المركب ليلتقي مع النجمة، وهي، نعم، ممثلة شابة تم اختيارها وستنضم إليهم بعد وقت قصير.

استدار من جديد صوب إيوا، لكنها لا تزال تبدو غير راغبة في الحديث. نظرتها ضائعة، تحدق من نافذة الليموزين في اللاشيء.

ربما هي قلقة لأنه ليس لديها متسع من الوقت في الفندق. فعليها أن تبدّل ثيابها فوراً وتتوجه مباشرة إلى عرض للأزياء «تافه فوق اللزوم»، يقيمه مصمم بلجيكي، وحيث يريد حميد أن يرى بنفسه العارضة الأفريقية الشابة، ياسمين، التي يقول له مساعدوه إنها ستشكل الوجه المثالي لمجموعته المقبلة.

أراد أن يعرف كيف ستتجاوز الفتاة ضغوط الحدث في «كان». وإذا سار كل شيء كما هو مخطط له، فستصبح واحدة من عارضاته النجمات في أسبوع الموضة في باريس المقرر في تشرين الأول/أكتوبر.

أبقت إيوا عينيها مسمّرتين على النافذة، ليس لأنها مهتمة بما يحصل في الخارج. فهي تعرف الرجل اللطيف، الخلّاق، المصمم، الأنيق، الذي يجلس إلى جانبها، معرفة وثيقة. توقن بأنه يرغب في وصالها كما لم يرغب أي رجل في وصال امرأة من قبل، في ما عدا، وهذا هو المهم، الرجل الذي هجرته. يمكنها الوثوق به برغم أنه يعيش محاطاً ببعض من أجل النساء في العالم. إنه رجل صادق، يكدّ في العمل. واجه الكثير من التحديات وتغلّب عليها كي ينتقل به سائق في تلك الليموزين، ويتمكن من أن يقدّم إليها كوباً من الشامبانيا أو المياه المعدنية المفضلة لديها. إنه قوي وتمكنه حمايتها من أي خطر، إلا واحداً، وهو الأسوأ بينها كلها: زوجها السابق.

لا تريد الآن إثارة الشبهات بالتقاطها الهاتف من جديد لإعادة قراءة الرسالة، فهي تحفظها عن ظهر قلب:

دَمّرتُ عالماً من أجلك، يا كاتيوشا.

لا فكرة لها عما تعنيه هذه الكلمات، إلا أنه ما من أحد آخر يناديها بهذا الاسم.

علّمت نفسها حب حميد، برغم أنها تكره الحياة التي يعيشها، والحفلات التي يقصدانها، وأصدقاءه. وهي لا تعرف بعدُ هل نجحت في جعل نفسها تحبه. وثمة أوقات تشعر فيها بأنها على حافة الانتحار يأساً. جل ما تعرفه أنه شكّل خشبة خلاصها في وقت اعتقدت فيه أنها ضاعت إلى الأبد، عاجزة عن الخلاص من فخ زواجها.

قبل ذلك بسنوات كثيرة، وقعت في حب ملاك عاش طفولة تعيسة، واستُدعي إلى الجيش السوفياتي ليقاتل في حرب سخيفة في أفغانستان، فقط ليعود إلى بلد على حافة الانهيار. وهو برغم هذا، تغلّب على المصاعب كلها حتى ينجح. شرع يعمل بكدّ كبير، يستدين من أناس غامضين جداً، يستلقي مستيقظاً في الليل قلقاً في شأن المخاطر التي يأخذها، متسائلاً كيف ستمكنه أبداً إعادة تسديد هذه القروض. تحمّل الفساد المستشري بدون أن يشتكي، قابلاً أنه سيكون عليه أن يرشو مسؤولاً حكومياً في كل مرة يحتاج فيها إلى إجازة جديدة لمنتوج من شأنه أن يحسن نوعية حياة شعبه. كان مثالياً وعطوفاً. لم يعارض أحد قيادته، نهاراً، لأن الحياة علّمته كيفية القيادة، وساعدته الخدمة العسكرية على أن يستوعب تماماً طريقة عمل التراتبية. أما في الليل، فيلتصق بها ويسألها أن تحميه وتنصحه، وأن تصلّي ليسير كل شيء كما يجب، وليتمكن من تفادي الأفخاخ الكثيرة التي تعترض سبيله في كل يوم.

كانت إيوا تداعب شعره، وتؤكد له أن كل شيء على ما يرام، وأنه رجل طيّب، والله يكافئ دوماً الصالحين.

ثم ما لبثت أن أخذت الصعوبات تفسح الطريق بالتدريج أمام الفرص. بدأ العمل الصغير الذي أسسه - بعدما كاد يتوسل الناس لتوقيع العقود - ينمو لأنه واحد من القلة الذين استثمروا في أمر لم يعتقد أحد أنه يمكن أن ينجح في بلد لا يزال مبتلياً بشبكات اتصال يكاد يعفّ عليها الزمن. تغيّرت الحكومة وتراجع الفساد. أخذ المال يتدفق، ببطء أولاً، ثم بكميات كبيرة. لكنهما لم ينسيا أبداً الأزمنة الصعبة التي مرّا بها، ولم يهدرا أبداً أي قرش. قدّما مساهمات إلى المؤسسات الخيرية ورابطات الجنود السابقين. عاشا بدون زهو يحلمان باليوم الذي سيتمكنان فيه من رمي ذلك كله من وراء ظهريهما والذهاب للعيش في منزل بعيد عن العالم. وعندما يحصل هذا، سينسيان أنهما اضطرا مرّة إلى التعامل مع أناس لا أخلاق لهم ولا كرامة. أمضيا معظم وقتهما في المطارات والطائرات والفنادق. عملا ١٨ ساعة في اليوم، ولم يتمكنا على مدى سنوات من أخذ شهر عطلة معاً.

غذّيا الحلم ذاته: أن يأتي يوم يصبح فيه نمط الحياة المسعور هذا ذكرى بعيدة، وتصبح جروح هذه الفترة كالميداليات التي تُكسب في حرب تخاض باسم الإيمان والأحلام. ففي النهاية، لقد ولد كل كائن بشري - أو هكذا تعتقد - ليحب ويعيش مع المحبوب.

انقلبت عملية إيجاد العمل فجأة رأساً على عقب. وبدلاً من قيامهما بالبحث عن العقود، أخذت العقود تأتي في شكل بديهي. وقد صدرت مجلة أعمال مهمة وصورة زوجها تتصدر الغلاف، وشرع الأشخاص المهمون المحليون يرسلون إليهما الدعوات إلى الحفلات

والمناسبات. أخذا يحظيان بمعاملة ملوكية، وانهالت عليهما كميات أكبر من المال.

اضطرا إلى التأقلم مع هذه الظروف المتغيرة. اشتريا منزلاً جميلاً في موسكو، يحتوي على جميع وسائل الراحة الممكنة. ولأسباب لم تعرفها، وتفضل ألا تعرفها، انتهى شركاء زوجها السابقون في السجن (إنهم الشركاء أنفسهم الذين أعطوه تلك القروض الأساسية، والتي ردّها إيغور كلها حتى آخر قرش برغم الفائدة الفاحشة عليها). ومنذ تلك اللحظة وصاعداً، أخذ حراس شخصيون يرافقون إيغور إلى كل مكان. كانا اثنين فقط في البداية - رفيقين قديمين وصديقين من حرب أفغانستان - انضم إليهما من ثم آخرون، بينما أخذت الشركة الصغيرة تنمو لتصبح عملاقاً متعدد الجنسيات ولها فروع في بلدان عدة في سبع مناطق زمنية مختلفة، وتقوم أكثر فأكثر باستثمارات متنوعة.

أمضت إيوا أيامها في محلات التسوق، أو في تناول الشاي مع صديقاتها اللواتي يتحدّثن دوماً عن الأمور ذاتها. وأراد إيغور، طبعاً، الذهاب إلى ما هو أبعد... وأكثر بعداً. وهو على أي حال لم يصل إلى ما وصل إليه إلا من خلال الطموح القوي والكد في العمل. وكلما سألته عما إذا كانا قد ذهبا إلى ما هو أبعد بكثير مما خططا له، وعما إذا حان الوقت لتحقيق حلمهما بالعيش فقط على الحب الذي يكنانه لبعضهما البعض، كان يطلب القليل من الوقت. شرع في معاقرة كميات أكبر من الخمر. وعاد في إحدى الليالي إلى المنزل بعد عشاء طويل مع أصدقاء له تناولوا فيه الكثير من النبيذ والفودكا، فلم يعد في إمكانها كبت عواطفها. قالت إنها لم تعد قادرة على تحمل فراغ الحياة الذي تعيشه، وإذا لم يقم

بشيء في وقت قريب فستصاب بالجنون. سألها إيغور إذا لم تكن مكتفية بما لديها.

«نعم، أنا مكتفية، والمشكلة هي أنك أنت غير مكتف، ولن تكون أبداً. أنت غير مطمئن وتخشى فقدان كل ما حققته، لا تعرف كيف تنسحب وأنت متقدم. وينتهي بك الأمر تدمر نفسك. أنت تقتل زواجنا وحبي».

ليست هذه المرة الأولى التي تتحدث فيها على هذا النحو مع زوجها، فلطالما كانا صادقين الواحد مع الآخر، لكنها شعرت بأنها بلغت النهاية. فلقد اكتفت من التسوق ومن حفلات الشاي وبرامج التلفزيون المريعة التي تشاهدها وهي تنتظر عودته من العمل.

- لا تقولي ذلك. لا تقولي إنني أقتل حبنا. أعدك بأننا قريباً سنلقي بهذا كله وراءنا، كوني صبورة وحسب. ربما عليك أن تبدئي مشروعاً ما لحسابك الخاص، لأنه لا بد من أن حياتك الآن فظيعة جداً.

هو على الأقل اعترف بذلك.

سألها: ما الذي تودين فعله؟

فكرت في أنه نعم، ربما يشكل ذلك مخرجاً:

- أود العمل في مجال الموضة. لطالما كان هذا حلمي.

حقق لها زوجها أمنيتها على الفور. وجاءها في الاسبوع التالي بمفاتيح متجر في واحد من أفضل مجمعات التسوق في موسكو. استطارت إيوا فرحاً. اكتسبت حياتها معنى جديداً. ستنتهي، بدون رجعة، الأيام الطويلة والليالي التي أمضتها منتظرة. اقترضت المال،

واستثمر إيغور ما يكفي في العمل ليتيح لها حظاً كبيراً في النجاح.

شكلت مآدب العشاء والحفلات - التي شعرت فيها دوماً بأنها دخيلة - اهتماماً جديداً لها. وفي خلال سنتين فقط، أصبحت تدير متجر الخياطة الأكثر نجاحاً في موسكو، بفضل العلاقات التي بنتها في مثل هذه المناسبات الاجتماعية. وبرغم أنها امتلكت حساباً مشتركاً مع زوجها، وهو لم يسأل أبداً عن المبلغ الذي صرفته، فقد حرصت على أن تعيد المال الذي أقرضها إياه. وشرعت في القيام بسفرات عمل وحدها، باحثة عن تصاميم جديدة وماركات حصرية. وظّفت أناساً، واهتمت بنفسها بإدارة حسابات شركتها... وها قد أصبحت - لدهشتها - امرأة أعمال ممتازة.

علّمها إيغور كل شيء. إنه مثال يُحتذى... قدوة يجب اتباعها. وبينما سار كل شيء كما يجب، واكتسبت حياتها معنى جديداً، أخذ ملاك النور الذي أضاء سبيلها في التخاذل.

كانا في مطعم في إيركوتسك، بعدما أمضيا نهاية أسبوع في قرية صيادي سمك على شواطئ بحيرة بايكال. كانت الشركة حينها تمتلك طائرتين وهيليكوبتر بحيث يمكنهما السفر كما يحلو لهما، ويعودان يوم الاثنين للبدء من جديد. لم يشتك أي منهما في شأن قضائهما وقتاً قليلاً معاً، لكن اتضح أن سنوات الصراع الطويلة شرعت في الإضرار بهما. لكنهما عرفا أن حبهما أقوى من أي شيء آخر، وأنهما، ما داما معاً، فسيكونان بخير.

في خلال عشاء على ضوء الشموع، جاء شحاذ سكران إلى

المطعم، وسار إلى طاولتهما. جلس وشرع في الكلام. قاطعاً عليهما لحظتهما الثمينة وحدهما بعيداً عن الهرج والمرج في موسكو. بعد دقيقة، عرض صاحب المحل أن يسحبه، لكن إيغور قال إنه سيهتم به. ازداد الشحاذ حمية، والتقط زجاجة الفودكا وشرب منها، ثم أخذ في طرح الأسئلة (من أنتما؟ لماذا لديكما هذا المال كله، بينما نحن نعيش في مثل هذا الفقر هنا؟)، وشرع يشتكي في شكل عام من الحياة ومن الحكومة.

تحمله إيغور لبضع دقائق إضافية، ثم وقف على قدميه. أخذ الرجل من ذراعه واقتاده إلى الخارج (المطعم موجود في شارع غير معبّد). كان حارساه الشخصيان ينتظرانه. رأت إيوا عبر النافذة أن زوجها بالكاد تكلم معهما، في ما عدا إصدار أمر ما بما يعني أبقيا أعينكما على زوجتي، وتوجه صوب شارع فرعي صغير. وعاد بعد دقائق من ذلك مبتسماً.

قال إنه لن يزعج أحداً بعد الآن.

لاحظت إيوا بريقاً مختلفاً في عينيه. بدتا كأنهما امتلأتا بفرح عارم، أكبر بكثير من أي فرح أظهره في خلال نهاية الأسبوع التي أمضياها معاً.

- ما الذي فعلته؟

لم يجب إيغور، واكتفى بطلب المزيد من الفودكا. ثابر كلاهما على الشرب في خلال الليل: هو سعيد ومبتسم، وهي قد اختارت أن تفهم فقط ما أرادت فهمه. فلطالما كان سخياً مع أولئك الأقل حظّاً منه، وبالتالي فإنه قد يكون أعطى الرجل مالاً ليساعده على الخروج من فقره.

بعودتهما إلى الفندق، قال:

إنه أمر تعلّمته في حداثتي، عندما قاتلت في حرب ظالمة من أجل مثال لم اؤمن به. ثمة دائما طريقة لوضع حد للفقر.

لا، لا يمكن إيغور أن يكون هنا في «كان». من المؤكد أن حميد أخطأ. فالرجلان لم يلتقيا إلا مرة واحدة من قبل، في بهو المبنى الذي أقاما فيه في لندن، عندما وجد إيغور عنوانهما ومضى إلى هناك، وتوسّل إيوا أن تعود. تحدّث حميد إليه، لكنه لم يسمح له بالدخول، مهدداً بابلاغ الشرطة. ورفضت، على مدى أسبوع، مغادرة شقتهما، متذرّعة بوجع الرأس، لكنها كانت تعرف أن ملاك النور قد تحول إلى شر مطلق.

تطلّعت إلى هاتفها من جديد، وأعادت قراءة الرسالة.

«كاتيوشا». شخص واحد فقط يطلق عليها هذا الاسم. الرجل الذي عاش في ماضيها وسيُرهب حاضرها حتى آخر أيام حياتها، مهما شعرت بالحماية، ومهما عاشت بعيدة، حتى ولو أقامت في عالم لا يمكنه ولوجه أبداً. الشخص ذاته، الذي أخذ بعد عودتهما من إيركوتسك - كما لو أنه أزاح عن كاهله ثقلاً هائلاً - يتحدّث بحرية أكبر عن الظلال التي تسكن روحه.

«لا يمكن أحداً، أي أحد على الإطلاق، أن يتهدد خصوصيتنا. أمضينا ما يكفي من الوقت في خلق مجتمع أكثر عدلاً وأكثر إنسانية. وتجب إزالة كل من لا يحترم لحظات حريتنا بطريقة لن يفكّر بعدها أبداً في العودة».

خافت إيوا أن تسأل ماذا تعني عبارة «بطريقة». اعتقدت أنها تعرف زوجها، لكنه بدا بين لحظة وأخرى، أن بركاناً أخذ يرعد، وأن الموجات الصدمية تصبح أقوى فأقوى. تذكّرت بعض المحادثات

التي أجرتها معه في وقت متأخر من الليل، وكان لا يزال شاباً، وكيف أنه قال لها، إبان الحرب في أفغانستان، إنه اضطر أحياناً إلى القتل دفاعاً عن النفس. لم تلمس أبداً أسفاً أو ندماً في عينيه.

- نجوتُ، وهذا هو المهم. كان يمكن حياتي أن تنتهي بعد ظهر يوم مشمس، أو فجراً على الجبال المغطاة بالثلوج، أو في إحدى الليالي ونحن في خيمتنا نلعب الورق مطمئنين إلى أن الوضع تحت السيطرة. ولو أنني متّ لما تغير شيء في العالم... لأصبحت مجرّد رقم إحصائي آخر لدى الجيش، وميدالية أخرى لعائلتي.

لكن يسوع ساعدني، وأنعم علي بردود فعل سريعة. ولأنني تجاوزت أقسى التجارب التي يمكن رجلاً أن يواجهها، قدّم إلي القدر الأمرين الأكثر أهمية في حياتي: النجاح في العمل والشخص الذي أحب.

- أن تَقْتُل لإنقاذ حياتك أمر، لكن أن تزيل إلى الأبد سكّيراً مسكيناً ما قطع عليك عشاءك وكان في وسع صاحب المطعم أن يبعده بسهولة، أمر آخر. لم تتمكن من إزاحة الفكرة من رأسها. بل إنها أخذت تذهب أبكر من المعتاد إلى المتجر، وعند عودتها إلى المنزل تجلس أمام حاسوبها حتى ساعة متأخرة من الليل. ثمة سؤال أرادت أن تتحاشاه. أمكنها الاستمرار على هذا المنوال على مدى بضعة أشهر مستخدمة الروتين ذاته: رحلات عمل، حفلات، مآدب عشاء، اجتماعات، مزادات خيرية، بل إنها بلغت حد التساؤل عما إذا كانت أساءت فهم ما قاله زوجها في إيركوتسك، ولامت نفسها على اتخاذها مثل هذا الحكم المتسرع.

مرّ الوقت، وأصبح السؤال أقل أهمية حتى الليلة التي حضرا فيها معاً حفلة مزاد خيري كبرى في واحد من أغلى المطاعم في ميلانو. كانا هناك لسببين مختلفين: إيغور من أجل إنجاز تفاصيل

عقد مع مؤسسة إيطالية، وإيوا من أجل حضور أسبوع الموضة حيث نوت القيام ببعض المشتريات لمحلها في موسكو.

وما حدث في وسط سيبيريا، جرى تكراره في واحدة من أكثر مدن العالم تطوراً. فهذه المرة جلس صديق لهما، شديد السوء، إلى طاولتهما بدون استئذان، وشرع في المزاح وإطلاق الملاحظات النابية. رأت إيوا يد إيغور تشد بقوة أكبر على قبضة سكينه. فطلبت، بما أمكنها من اللباقة والتهذيب، من الصديق المغادرة. كانت حينها قد شربت بضع كؤوس من «الأستي سبومانتي»، كما يشير الإيطاليون إلى ما كان يدعى شامبانيا، لأنه تم حظر استخدام كلمة شامبانيا بموجب ما يسمى حماية تعيين المصدر. والشامبانيا تعني ببساطة نبيذاً أبيض يُصنع باستخدام بكتيريا معينة تاخذ، عندما يتم التحكم فيها بشدة، في توليد غازات داخل الزجاجة، بينما يُعتَّق النبيذ لفترة تمتد إلى خمسة عشر شهرا على الأقل. والاسم يدلّ إلى المنطقة التي يُنتج فيها. وسبومانتي هو النوع ذاته تماماً، لكن القانون الأوروبي لا يسمح له بأن يُعرف بالاسم الفرنسي، بما أن كرومه موجودة في إيطاليا، وليس في منطقة شامبانيا الفرنسية.

شرعا في الحديث عن الشامبانيا وعن القوانين التي تحكم الأسماء، بينما حاولت أن تزيح من رأسها السؤال الذي حاولت طمسه، وقد أخذ يراودها بكامل قوته وجبروته. تابعا الحديث، وواصلت الشرب، إلى أن جاءت لحظة لم تعد تستطيع فيها الإحجام.

«ما المشكلة لو أن أحدهم سكر بعض الشيء وجاء إلينا للحديث؟».

أجاب إيغور وقد تبدّل صوته:

- لأننا نادراً ما نسافر معاً. وتعرفين كذلك رأيي في العالم الذي نعيش فيه، حيث الأكاذيب تخنقنا، ويتم تشجيعنا على وضع إيماننا بالعِلم بدلاً من القيم الروحية، وبأن نغذّي أرواحنا بالأمور التي يخبرنا المجتمع أنها مهمة، بينما نحن، في الواقع، نموت ببطء لأننا نعرف ما يحصل من حولنا، ولأننا نُجبر على القيام بأمور لم نخطط أبداً للقيام بها، ونعجز، حتى حينها، عن التخلي عن ذلك كله، وتكريس أيامنا وليالينا للسعادة الحقة، للعائلة، للطبيعة، للحب. ولماذا ذلك؟ لأننا نشعر بأننا مُجبَرون على إكمال ما بدأنا به، بحيث نحقق الاستقرار المالي الذي نحتاج إليه للتمتع ببقية حياتنا ونحن نكرّس أنفسنا واحدنا للآخر لأننا شخصان مسؤولان. أعرف أنك تفكّرين أحياناً في أنني أعمل أكثر من اللازم. وهذا ليس صحيحاً. إنني أبني مستقبلنا، وسرعان ما سنصبح حرين في أن نحلم وأن نعيش أحلامنا.

الاستقرار المالي ليس ما ينقصهما. فليست عليهما ديون، ويمكنهما وحسب النهوض عن تلك الطاولة هناك، ومعهما فقط بطاقات الائتمان، ويغادران هذا العالم الذي يبدو أن إيغور يكرهه، ويبدآن كل شيء من جديد. ولن يكون عليهما أن يقلقا أبداً في شأن المال. لطالما تحدّثت معه عن هذا، وإيغور يقول دائماً الشيء ذاته: لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك. ثم إنه ليس الوقت المناسب لمناقشة مستقبلهما كزوجين.

وتابع: إن الله فكّر في كل شيء. نحن معاً لأنه قرّر أن علينا ذلك. قد لا تقدّرين أهمية وجودك في حياتي حق قدرها، لكنني لم أكن لأصل، بدونك إلى ما وصلت إليه اليوم. وضَعَنا جنباً إلى جنب، وألهمني قوته للدفاع عنك كلما اقتضى الأمر ذلك. علّمني أن كل شيء جزء من مخطط، وعلي أن احترم ذلك حتى آخر

تفصيل فيه. ولو أنني لم أفعل ذلك، لكنت الآن ميتاً في كابول، أو أعيش فقيراً في موسكو.

السبومانتي أو الشامبانيا، بغض النظر عما تُسمى، بدا أنها فعلت فعلها، وكشفت، بدون لبس، ما هي قادرة عليه.

سألته: ماذا حل بالشحاذ في سيبيريا؟

لم يعرف إيغور في البداية ما الذي تتحدث عنه، فذكّرته إيوا بما حصل في المطعم هناك:

- أود أن أعرف ماذا فعلت به؟

- أنقذتُه.

أطلَقت لسماعها تلك الكلمة السحرية، تنهيدة ارتياح.

- أنقذتُه من حياة قذرة يائسة في تلك الشتاءات الجليدية حيث تقوم الكحول بتدمير جسمه ببطء. تركت روحه تنطلق صوب النور لأنني علمت، من اللحظة التي جاء فيها إلى المطعم ليدمّر سعادتنا، بأن روحه مسكونة بالشرير.

شعرت إيوا بأن قلبها يكاد يقفز من مكانه. شرع يخفق بقوة. ليست في حاجة إلى أن يقول على نحو مباشر: لقد قتلتُه. فمن الواضح أنه فعل.

- لا وجود لي بدونك. فكل من يحاول التفريق بيننا أو تحطيم الوقت القليل الذي نمضيه معاً في هذه اللحظة بالتحديد من حياتنا، يحصل على المعاملة التي يستحق.

أيعني هذا ربما أنه يستأهل أن يُقتل؟ أمن الممكن أن مثل هذا الأمر حصل من قبل بدون أن تلاحظ؟ شربت، ثم شربت المزيد،

وأخذ إيغور يسترخي من جديد. وقد أحب حوارهما، بما أنه لم يفتح قلبه لأي أحد من قبل.

قال: نحن نتحدّث اللغة ذاتها. ننظر إلى العالم بالطريقة عينها. نتقم بعضنا البعض بكمال لا يُمنح إلا لمن يضعون الحب فوق كل شيء. وكما قلت، فأنا بدونك لا وجود لي.

انظري إلى أبناء الطبقة الأرفع من حولنا. يعتقدون أنهم مهمون جداً، وعلى درجة كبيرة من الإدراك الاجتماعي لأنهم مستعدون، في مزاد خيري، لدفع ثروة لقاء غرض عديم الفائدة، أو حضور عشاء لجمع الأموال لمساعدة المشردين في رواندا، أو إنقاذ الباندا في الصين. فالمشردون والباندا هم الأمر ذاته بالنسبة إليهم. يشعرون بأنهم متميزون، ومتفوقون على الإنسان العادي لأنهم يقومون بشيء مفيد. هل سبق لهم أن خاضوا حرباً؟ كلا. يثيرون الحروب، لكنهم لا يخوضون غمارها. وإذا انتهت الحرب إلى نتائج جيدة يأخذون الفضل كله. وإلا، فإنهم يضعون اللوم على الآخرين. إنهم واقعون في غرام أنفسهم.

- أريد، يا حبيبي، أن أسألك أمراً آخر...

صعد لحظتها بالذات أحد المقدّمين إلى المسرح، وشكر الجميع على وجودهم هنا الليلة. وقال إن المال الذي سيجمع سيخصَّص لشراء أدوية لمخيمات اللاجئين في أفريقيا.

«ما لم يقله»، تابع إيغور كما لو أنه لم يسمعها، «هو أن عشرة في المئة فقط من كامل المبلغ المجموع سيبلغ مقصده. وسيستخدم الباقي للدفع لقاء هذا الحدث، وثمناً لهذا العشاء، وللدعاية والمنظمين، وباختصار للأناس أصحاب هذه الفكرة البارعة في المقام الأول،

وذلك كله بثمن فاحش. يستخدمون الفقر سبيلاً ليصبحوا أكثر ثراء».

- ولماذا نحن هنا إذاً؟

- لأننا نحتاج إلى أن نكون. هذا جزء من عملي. لا نية لي في إنقاذ رواندا أو إرسال الأدوية إلى اللاجئين، لكنني أعرف ذلك على الأقل. الضيوف الآخرون هنا الليلة يستخدمون مالهم لغسل ضمائرهم ونفوسهم وتنقيتها من الذنب. بينما كانت عملية الإبادة جارية في رواندا، موّلت جيشاً صغيراً من الأصدقاء الذين منعوا سقوط أكثر من ألفي قتيل. هل عرفتِ بذلك؟

- لا، فأنت لم تخبرني أبداً.

- لم أحتج إلى ذلك. فأنت تعرفين أنني أهتم بالأناس الآخرين.

بدأ المزاد بحقيبة سفر صغيرة، ماركة لويس فويتون. وبيعت بعشرة أضعاف سعرها. شاهد إيغور المزاد وهو ساكن الجوارح، بينما هي شربت كأساً آخر من السبومانتي، وتساءلت إذا كان يجدر بها طرح ذلك السؤال أم لا.

رقص فنان على أنغام موسيقى لمارلين مونرو، ورسم في الوقت ذاته صورة. وبلغت المزايدات على تحفته الفنية المنجزة حدود السماء: سعر شقة صغيرة في موسكو.

كأس أخرى من النبيذ. غرض آخر يباع، أيضاً بسعر لا يعقل.

أكثرت من الشراب في تلك الليلة إلى درجة أنه تم حملها إلى الفندق. وقبل أن يضعها في السرير وقبل أن تغفو، استجمعت أخيراً الشجاعة لتسأل:

- وإذا كنت سأهجرك؟

- اشربي أقل في المرة المقبلة.

- أَجبني.

- لا يمكن ذلك أن يحصل أبداً. فزواجنا مثالي.

استعادت حسن تصوّرها للأمور، لكنها عرفت أنها باتت تمتلك ذريعة، وادعت أنها في حالة من اللاوعي أكثر مما يمكن فعلاً أن يفعله بها السُكْر.

- نعم، لكن ماذا لو فعلت؟

- سأجعلك تعودين، وأنا جيّد في الحصول على ما أريد، حتى لو اقتضى ذلك تدمير عوالم بأكملها.

- وماذا لو التقيت برجل آخر؟

نظر إليها بدون ضغينة، وبما يشبه النية الحسنة.

أعلم، حتى ولو قاسمت كل رجل في الأرض الفراش، أن حبي سيبقى.

منذ ذلك الحين، تحول ما بدا أنه نعمة إلى نقمة. فهي متزوجة بوحش، بقاتل. ما هي تلك القصة عن تمويل جيش من المرتزقة للتدخل في حرب قبلية؟ ما هو عدد الرجال الذين قتلهم ليمنعهم من إزعاج سكينتهما الزوجية؟ في إمكانه إلقاء اللوم على الحرب، وعلى الإصابات النفسية التي عانى بسببها، والمشقات التي اجتازها، إلا أن رجالاً كثيرين مزوا في التجارب ذاتها بدون أن يخرجوا منها وهم على قناعة بأنهم أداة العدالة الإلهية، ويحملون مشروعاً كبيراً ما.

اعتاد إيغور القول، في كل مرّة تمضي فيها في رحلة عمل، ،أنا

لا أغار، لأنني أعرف مدى حبي لك، وأعرف مدى حبك لي. لن يحدث أبداً ما من شأنه أن يعكّر صفو زواجنا.

اقتنعت أكثر من ذي قبل، بأن هذا ليس حباً. إنه أمر سقيم وعليل، وعليها إما أن تقبله وتقبل أن تعيش بقية حياتها سجينة الخوف، وإما أن تحرر نفسها بأسرع ما يمكن عند أول فرصة.

كانت فرص عدة، لكن الأكثر إلحاحاً والأشد إصراراً كان آخر رجل تتخيل إقامة علاقة حقيقية معه: الخياط الذي يُبهر عالم الموضة، ويزداد شهرة، ويتلقى كمية كبيرة من المال من بلده كي يدرك العالم أن للقبائل البدوية قيماً أخلاقية متينة، وأنها على خلاف مستحكم مع النظام الذي تفرضه عليها تقاليدها. إنه رجل يصبح العالم، باطراد، تحت قدميه.

أخذ، في كل مرة يلتقيان فيها في عروض الأزياء، يتخلّى عن جميع ارتباطاته ويُلغي حفلات الغداء والعشاء، بحيث يمكنهما وحسب قضاء بعض من الوقت معاً بهدوء، منحبسين داخل غرفة في فندق، في معظم الأحيان بدون أن يتطارحا الغرام. يشاهدان التلفزيون، يأكلان، يشربان (برغم أنه لم يسبق له أن ارتشف نقطة من الكحول)، يذهبان للسير في المنتزهات، يزوران دكاكين بيع الكتب، يكلمان الغرباء، يتحدثان القليل عن الماضي، بدون أن تقرع كلماتهما مرة واحدة باب المستقبل، بينما يقضيان الكثير من الثرثرة عن الحاضر.

قاومت ما أمكنها. وبرغم أنها غير واقعة في غرامه، وافقت فوراً عندما اقترح عليها ترك كل شيء والانتقال معه إلى لندن. إنها الطريقة الوحيدة الممكنة للخروج من جهنمها الخاصة.

ظهرت رسالة أخرى على هاتفها. لا يعقل. لم يحصل بينهما اتصال منذ سنتين.

«لقد دمّرت عالماً آخر بسببك، يا كاتيوشا».

ممن هي؟

ليست لديّ أدنى فكرة. لم يظهر رقم المرسل.

ما قصدَتْ قوله هو أنها مرتعبة.

- نكاد نصل. تذكّري ليس أمامنا متسع كبير من الوقت.

اضطرت الليموزين إلى المداورة لبلوغ مدخل فندق المارتينيز. فإلى جانبي الحواجز المعدنية التي أقامتها الشرطة، يمضي أناس من جميع الأعمار يومهم على أمل إلقاء نظرة عن كثب على بعض المشاهير. يلتقطون الصور بكاميراتهم الرقمية، ويخبرون أصحابهم عمن رأوه، ويبعثون برسائل عبر الانترنت إلى المجموعات الافتراضية التي ينتمون إليها. يشعرون بأن تلك اللحظة الوحيدة من المجد تبرر الانتظار الطويل: إلقاء نظرة على ممثلة أو ممثل، أو حتى على مقدّم برامج تلفزيونية!

يتم إبقاؤهم على مسافة آمنة برغم أن صناعة الشهرة تستمر في العمل بفضلهم، ويسأل الحراس الشخصيون، المتمركزون في مواقع استراتيجية، كل من يدخل الفندق عن إثبات على نزوله فيه أو اجتماعه مع أحد ما. وعليك عندها إما أن تُخرج البطاقة الممغنطة التي تُستخدم مفتاحاً لغرفتك، وإما أن يتم إرجاعك على مرأى من الجمهور. وإذا جئت لاجتماع عمل أو تمت دعوتك لتناول كأس في الحانة، فإنهم يعطون اسمك لجماعة الأمن، والجميع يراقبونك، ويجعلونك تنتظر ليروا هل ذلك صحيح أم لا. يستخدم الحارس الشخصي جهازه اللاسلكي لطلب الاستقبالات، وأنت تنتظر

هناك لما يبدو أنه دهر قبل أن يُسمح لك أخيراً بالدخول بعد تعرضك للإذلال العلني. أما الذين يصلون بالليموزين فيُعامَلون، طبعاً، بطريقة مختلفة.

فُتح بابا المايباخ: أحدهما من السائق والآخر من بواب الفندق. وُجهت الكاميرات إلى إيوا، وشرعت في التصوير؛ فإذا كانت تقيم في المارتينيز ووصلت في سيارة فاخرة، فلا بد من أنها مهمة برغم عدم معرفة أحد هويتها. ربما هي عشيقة الرجل الذي ترافقه. وإذا صح ذلك وكان يقيم علاقة من خارج الزواج، فثمة دائماً فرصة لإرسال الصور إلى واحدة من صحف الفضائح. وربما أن الجميلة الشقراء واحدة من الشهيرات الأجنبيات غير المعروفات في فرنسا بعد. وسيجدون اسمها لاحقاً في ما يُسمى «مجلات الناس»، ويفرحون لأنهم وُجدوا على بعد أربع أو خمس ياردات فقط منها.

نظر حميد إلى الحشد الصغير المزدحم عند الحواجز الحديدية. لم يتمكن أبداً من فهم هذه الظاهرة لكونه ترعرع في مكان لا تحصل فيه مثل هذه الأمور وحسب. وقد سأل مرة صديقاً له عن سبب مثل هذا الاهتمام الكبير بالمشاهير.

«لا تفترض أنهم جميعاً من المعجبين»، قال صديقه. «منذ الأزل والجنس البشري يعتقد أن وجوده على مقربة من شيء غامض لا يمكن بلوغه، يمكنه أن يجلب البركات. لهذا السبب، يحج الناس لزيارة الملهمين الروحيين والأماكن المقدسة».

- لكن... «كان»؟!

- يمكن ذلك أن يحصل في أي مكان يمكنهم أن يلقوا فيه نظرة من بعيد على أحد المشاهير المحيّرين. فتلويحة من أحد

المشاهير هي بالنسبة إلى المعجبين أشبه برشّهم بغبار العنبرية، أو بالمن من السماء.

الأمر ذاته في كل مكان. خذ، على سبيل المثال، حفلات البوب الضخمة تلك التي تبدو أشبه باجتماعات دينية، أو كيف أن الناس على استعداد للانتظار خارج مسرح، نفدت بطاقاته، فقط لمشاهدة أناس الطبقة الأرفع يدخلون ويغادرون. خذ الحشود التي تذهب إلى ملاعب كرة القدم لمشاهدة مجموعة من الرجال الذين يطاردون كرة. فالمشاهير أوثان، أو أيقونات إذا شئت. وهم، في النهاية، أشبه بالرسومات التي تراها في كنيسة، ويمكنها أن تصبح صوراً للعبادة في غرف نوم المراهقين أو ربات البيوت، بل حتى في مكاتب كبار رجال الصناعة، الذين، برغم ثرواتهم الضخمة، يحسدونهم على شهرتهم.

لكن ثمة فارقاً واحداً وحسب: فالجمهور، في هذه الحالة، هو الحكم الأكبر. وإذا كان يصفّق اليوم، فسيكون على القدر ذاته من السعادة في الغد لقراءة بعض ما تكشفه مجلات الشائعات من فضائح عن معبودهم. ويمكنه من ثم القول: يا للمسكين. أنا سعيد لأنني لست مثله. وهو قد يهيم حباً بمعبوده اليوم، لكنه سيرجمه في الغد، ويصلبه بدون أن يشعر بأي ندم

١:٣٧ ب.ظ.

على عكس الفتيات اللواتي جئن للعمل هنا الصباح وهن يستخدمن أجهزة موسيقاهن وهواتفهن المحمولة لتقطيع الساعات الخمس التي تفصل تبرجهن وتصفيف شعورهن عن عرض الأزياء الفعلي، تطالع ياسمين كتاباً، هو ديوان شعر:

،طريقان تشعبا في غابة خريفية صفراء

ولأسفي لم أتمكن من سلوكهما معاً،

وقفت، أنا المسافر وحيدة،

نظرت ملياً إلى أبعد ما يأخذني إليه نظري،

إلى حيث ينحرف بين الأكمات.

ثم أخذت الثاني، والأمر سيان،

وربما أنه الأفضل،

فهو معشوشب لم تطأه الأقدام
وإن كان المارّ من هنا
سينهكهما بالدرجة ذاتها.

كلاهما غطته هذا الصباح
أوراق الشجر التي لم تطأها قدم.
آه، أبقيت الأول ليوم آخر!
بيد أنه، وكل طريق يؤدي إلى آخر،
أشك في أنني سأعود إليه أبداً.

أقول هذا، وأنا أتنهد
في مكان ما ومنذ دهور ودهور:
طريقان تشعبا في غابة، وأنا...
أنا أخذت الطريق الأقل سلوكاً،
وهو ما أحدث كل الفرق».

هي اختارت الطريق الأقل سلوكاً، وقد أجدى نفعاً برغم أنه كلفها غالياً. جاءت الأمور في الوقت المناسب. أتاها الحب وهي في حاجة إليه أكثر ما يكون، وهو لا يزال معها هنا الآن. قامت بعملها مع الحب، ومن أجله، وبسببه... وكان بالأحرى حبّاً بإنسان معيّن واحد.

اسم ياسمين الحقيقي هو كريستينا. تقول سيرتها الذاتية إن آنا ديتر اكتشفتها من خلال رحلة إلى كينيا، لكن لا يوجد إلا

القليل من التفصيل حول هنا، ما يترك المجال لإمكان طفولة قضتها في المعاناة والجوع، وهي عالقة وسط حرب أهلية. وهي في الواقع، برغم بشرتها السوداء، مولودة في مدينة أنتويرب البلجيكية التلقيدية جداً، ابنة لرجل وامرأة فرّا من النزاعات الأبدية بين الهوتو والتوتسي في رواندا.

في نهاية أحد الأسابيع، كانت، وهي في السادسة عشرة، تساعد والدتها في واحد من أعمال التنظيف التي لا تنتهي، عندما تقدّم منهما رجل وعرّف عن نفسه قائلا إنه مصوّر.

«تمتاز ابنتك بجمال استثنائي»، قال. «أودّ لو أنها تعمل معي كعارضة».

أترى هذا الجراب الكبير الذي أحمله؟ إنه مليء بمواد التنظيف. أعمل ليل نهار كي تتمكن من الذهاب إلى مدرسة جيدة، وتحصل، في يوم من الأيام، على شهادة جامعية. هي لم تتعدّ السادسة عشرة.

«إنه العمر المثالي»، قال المصوّر، وسلم بطاقته إلى كريستينا. «أخبريني إذا غيّرت رأيك».

استمرتا في السير. لكن الوالدة لاحظت ان ابنتها احتفظت بالبطاقة.

لا تنخدعي. فهنا ليس عالمك. يريدون وحسب جرّك إلى السرير.

لم تحتج كريستينا إلى من يقول لها ذلك. فبرغم أن جميع فتيات صفها يحسدنها، وجميع الصّبية أرادوا أخذها إلى الحفلات، كانت مدركة تمام الإدراك أصولها وحدودها.

بقيت، برغم ذلك، لا تصدّق عندما حصل الأمر ذاته من جديد معها. كانت قد دخلت للتو محل بيع المثلجات عندما لاحظت امرأة

أكبر منها سناً جمالها. قالت إنها مصورة أزياء. شكرتها كريستينا. أخذت بطاقتها ووعدتها بأنها ستتصل بها برغم أنها لم تنو القيام بذلك، وبرغم أن كل فتاة في عمرها تحلم بأن تصبح عارضة أزياء.

شرعت، بعد ذلك بثلاثة أشهر، تنظر من نافذة محل يبيع الثياب الغالية الثمن، عندما خرج صاحب المتجر للتحدث معها.

- ما العمل الذي تزاولينه؟

- عليك أن تسألني في الواقع ما الذي سأعمله. سأدرس وأصبح طبيبة بيطرية.

- أنت في الحقيقة تسلكين الطريق الخطأ. هل تودين العمل معنا؟

- لا وقت لديّ لبيع الملابس. فأنا أساعد والدتي كلما استطعت.

- أنا لا اقترح أن تبيعي أي شيء. أود التقاط بعض الصور لك وأنت ترتدين ملابسنا.

ولولا حدث جرى معها بعد ذلك بأيام قليلة، لما أصبحت هذه اللقاءات سوى ذكريات حلوة تستعيدها عندما تتزوج وتُرزق باولاد، وتحبها عائلتها وتكفيها مهنتها.

كانت مع بعض الأصدقاء في ناد ليلي ترقص وتشعر بسعادة الحياة، عندما اقتحمت المكان مجموعة من عشرة صبيان يصيحون. تسعة منهم يحملون عصياً وقد أُلصقت بها شفرات أمواس، ويأمرون الجميع بالخروج. عم الهلع وشرع الناس في الهرب راكضين. لم تعرف كريستينا ما العمل، إلا أن حَدْسها أبلغها بالبقاء حيث هي وتحويل نظرها.

وقبل ان تتمكن من فعل أي شيء، رأت الصبي العاشر يسحب سكيناً من جيبه، ويتوجه إلى أحد أصدقائها، يمسكه من الخلف ويشرط عنقه. غادرت العصابة بالسرعة التي ظهرت فيها، بينما أخذ الأشخاص الآخرون الموجودون إما بالصراخ، وإما في محاولة الهرب، وإما وهم جالسون على الأرض يبكون. مضت قلة منهم إلى الضحية لرؤية إذا كانت تمكنهم المساعدة عارفين أنه قد فات الأوان على ذلك. واكتفى آخرون، مثل كريستينا، بالتحديق في المشهد وهم في حالة صدمة. هي تعرف الفتى المقتول وتعرف القاتل أيضاً، وحتى أنها تعرف أيضاً الدافع إلى الجريمة (قتالاً في إحدى الحانات قبل وقت قليل من توجههم إلى النادي الليلي)، لكنها كأنها تطفو في مكان ما في السحب، كما لو أن ما جرى حلم سرعان ما ستفيق منه، يبللها العرق، مرتاحة إلى معرفة أن لجميع الكوابيس، مهما طالت، نهاية.

لكنه ليس حلماً.

استغرقها الأمر بضع دقائق للعودة إلى الأرض، مولولة، تطلب من أحد ما القيام بشيء ما، صارخة بالناس أن يفعلوا شيئاً. كانت تصرخ وتصرخ لا لسبب على الإطلاق، ولم يؤد صراخها إلا إلى زيادة الناس توتّراً. ثم وصل رجال الشرطة، يحملون الأسلحة، يتبعهم المسعفون، ومن ثم التحريون الذين صفّوا جميع الشبان على الحائط، وشرعوا في التحقيق معهم، طالبين رؤية وثائقهم، وهواتفهم النقالة، وعناوينهم. من قتل الفتى، ولماذا؟ لم يمكن كريستينا قول أي شيء. نُقلت الجثة بعيداً، وقد غطّيت بشرشف. أرغمتها ممرضة على تناول حبة دواء، وأبلغتها أنها ممنوعة، مهما كان السبب، من القيادة عائدة إلى المنزل. وما هو مسموح لها إما ركوب سيارة أجرة، وإما اعتماد النقل العام.

رن جرس الهاتف في وقت مبكر من الصباح التالي. فررت الوالدة قضاء النهار في المنزل مع ابنتها التي بدت، على نحو ما، منفصلة عن العالم. أصرت الشرطة على التحدث مع كريستينا مباشرة، وأن عليها أن تحضر عند الظهر إلى مخفر الشرطة وتسأل عن مفتش معين. رفضت الوالدة، فهددتها الشرطة. وفي النهاية لم يبق أمام كريستينا ووالدتها من خيار.

وصلنا في الوقت المحدد. سأل المفتش كريستينا إذا كانت تعرف القاتل.

بقيت كلمات والدتها تتردد في أذنها: لا تقولي شيئاً. نحن مهاجرتان وهم من البلجيكيين. نحن سوداوان، وهم من البيض. ما إن يخرجوا من السجن حتى يبدأوا بملاحقتك. وهكذا رضخت:

لا أعرف الفتى. لم يسبق لي أن رأيته من قبل.

علمت بأنها بقولها هذا تخاطر بفقدان حبها الحياة.

«بل تعرفين من هو»، رد عليها المفتش بحدّة. «انظري، لا تخافي. لن يحصل لك شيء. لقد أوقفنا كامل المجموعة تقريباً، ونحتاج إلى شاهد للمحكمة.

لا أعرف شيئاً. لم أكن على مقربة من المكان. لم أشاهد من قام بذلك.

هزّ المفتّش رأسه يائساً.

«سيكون عليك تكرار ذلك في المحكمة»، قال. «وبما أنها يمين كاذبة، أي أنك ترتكبين جريمة الكذب على القاضي، فقد تقبعين في السجن المدة التي سيقضيها القتلة أنفسهم».

استُدعيت، بعد ذلك بأشهر، للشهادة. جلس الفتية جميعهم هناك مع محاميهم. بدوا كأنهم يستمتعون بالموقف. تعرّفت واحدة من الفتيات اللواتي كنّ تلك الليلة في النادي، إلى القاتل في المحكمة.

ثم جاء دور كريستينا. سألها النائب العام أن تتعرّف إلى الشخص الذي ذبح صديقها.

أجابت: لا أعرف من قام بذلك.

هي سوداء وابنة مهاجرين. قدّمت إليها الحكومة منحة دراسية. جلّ ما أرادته هو استعادة إرادتها بالحياة، وأن تشعر مرّة أخرى بأن لديها مستقبلا. أمضت أسابيع تحدّق في سقف الغرفة، رافضة الدراسة أو عمل أي شيء. لم يعد العالم الذي عاشت فيه حتى الآن ينتمي إليها. تعلّمت، في سن السادسة عشرة، بأقسى طريقة، أنها عاجزة عن القتال من أجل أمانها. تحتاج إلى مغادرة أنتويرب، وإلى التجوال في العالم، واستعادة فرحها وقوّتها.

تُرك الفتية أحراراً بسبب الافتقار إلى الأدلة، فقد احتاج الادعاء إلى شاهدين لإثبات التهم، وضمان أن يدفع الطرف المذنب ثمن جريمته. اتصلت كريستينا، بعد مغادرتها المحكمة، بالأرقام الموجودة على بطاقتي الزيارة اللتين أعطاها إياهما المصوران، وحددت موعدين للقائهما، ثم عادت إلى متجر الملبوسات الذي سبق لمالكه أن خرج خصيصاً للتحدث معها وطلب موافقتها على عرض ملابسه. لكن البائعة قالت إن للمالك مَتاجر في جميع أنحاء أوروبا، وهو رجل كثير الانشغال، وليس في وسعها أن تعطيها رقم هاتفه.

لحسن الحظ امتلك المصوران ذاكرة أفضل، وتذكّرا فوراً اسمها، وتدبرا اللقاء معها.

عادت كريستينا إلى المنزل وأطلعت أمها على ما قررت القيام

به. لم تحاول طلب النصح منها أو إقناعها، بل اكتفت بالقول إنها تريد مغادرة أنتويرب نهائياً، وإن فرصتها الوحيدة هي في العمل كعارضة.

تطلّعت ياسمين مجدداً من حولها. لا تزال تفصلها ثلاث ساعات على عرض الأزياء، والعارضات الأخريات يتناولن السَّلطَة، ويشربن الشاي، ويتحدّثن عما سيفعلنه تالياً. جئن من بلدان مختلفة، ولهن تقريبا عمرها ذاته - تسع عشرة سنة - وربما ينشغل ذهنهن بأمرين: الحصول على عقد جديد في تلك الليلة، والعثور على زوج ثري.

تعرف روتينهن الجمالي. يضعن، قبل النوم، كريمات مختلفة لتنظيف مسامهن وإبقاء بشرتهن رطبة، وهكذا يجعلن، منذ وقت باكر، أجسامهن العضوية تعتمد على المواد الاصطناعية للاحتفاظ بتوازن مثالي. ويضعن في الصباح المزيد من الكريمات والمزيد من المرطبات. يشربن كوباً من القهوة السوداء بدون سكّر، ويتناولن بعض الفاكهة والألياف، بحيث يمكنهن بسرعة إخراج أي طعام آخر يتناولنه في خلال اليوم. هن أصغر من أن يبدأن مزاولة التمارين في ناد رياضي، كما أن اجسامهن قد تشرع في أخذ أشكال ذكورية. يصعدن إلى الميزان ثلاث أو أربع مرات في اليوم، وتحتفظ معظمهن، في الواقع، بميزانهن الخاص احتياطاً، لأنهن ينزلن أحياناً في نزل بدلاً من الفندق. ويُصبن بالاكتئاب في كل مرّة يخبرهن فيها مؤشر الميزان أنهن كسبن أونصة أخرى.

معظم العارضات هن فقط في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وبالتالي فإن أمهاتهن يرافقهن كلما أمكنهن ذلك. لا تعترف

الفتيات أبداً بأنهن واقعات في غرام أحد - برغم أن معظمهن مغرمات - لأن الحب يجعل السفرة تبدو طويلة أكثر، ولا تطاق، وتثير في خليلهن شعوراً غريباً بأنه يفقد المرأة (أو الفتاة) التي يحب. بالتأكيد تفكّر الفتيات في المال، ويكسبن ما معدله ٤٠٠ يورو في اليوم، وهو مرتّب تُحسَد عليه من لا تزال، في معظم الاحوال، أصغر من الحصول على إجازة سَوق سيارة وقيادتها. لكن أحلامهن تذهب إلى ما هو أبعد من كونهن عارضات، يعرفن أنه سرعان ما ستحل وجوه جديدة محلهن، واتجاهات جديدة، ويحتجن بالتالي، على نحو ملح، إلى إظهار أنه في وسعهن القيام بما هو أكثر من السير على منصة العرض. ويلححن دوماً على وكالاتهن كي تجري لهن اختباراً على الشاشة ليُثبتن أنهن يملكن ما يؤهلهن ليصبحن ممثلات... وهذا حلمهن الأكبر.

توافق الوكالات طبعاً على هذا، لكنها تنصحهن بالتريث قليلاً، لأن حياتهن المهنية لا تزال بعدُ في بدايتها. والحقيقة أن معظم وكالات العارضات لا تملك اتصالات خارج عالم الموضة؛ تكسب نسبة مئوية جيدة، وتتنافس مع الوكالات الأخرى، والسوق ليست كبيرة إلى هذا الحد. ومن الأفضل الحصول على ما يمكنها الحصول عليه الآن قبل أن يمر الوقت، وتجتاز العارضة العشرين، وهو حاجز العمر الخطير، إذ إن بشرتها تكون عندها قد فسدت من كثرة المرطّبات، وجسمها قد تهادم من كثرة الطعام القليل السعرات الحرارية، وقد تأثر ذهنها بالفعل بالعلاجات التي تأخذها لكسر الشهية، والتي تنتهي بفراغ كلّي في العينين والرأس.

وخلافا لما يعتقده معظم الناس، تدفع العارضات مصاريفهن الخاصة: تذاكر السفر، الفنادق، وتلك السَّلَطات التي لا غنى عنها. يستدعيهن مساعد مصمم الأزياء للقيام بما يسمى تجربة الأداء،

لاختيار من يظهر على ممر العرض أو في الصور. ويتواجهن في هذه الجلسات مع الكثيرين من الأناس المتبرمين الذين يستخدمون القليل من السلطة التي لهم للتنفيس عن إحباطاتهم اليومية، ولا يتفوهون بأي نوع من كلمات التشجيع: فلا يسمعن سوى كلمتي رهيب ومريع. تُجري الفتيات هذا الاختبار وينتقلن إلى التالي، متمسكات بهواتفهن النقالة تمسكهن بالحياة، كما لو أنها ستقدم إليهن وحياً إلهياً، أو توصلهن على الأقل بعالم أسمى يحلمن بالارتقاء إليه، حيث سيتم تحويلهن إلى نجمات، ومنه يتطلّعن إلى جميع تلك الوجوه الجميلة في الأسفل.

يفخر أهاليهن بأن بناتهم قد انطلقن انطلاقة جيدة، ويأسفون لمعارضتهم الأساسية مثل هذه الحياة المهنية. فبناتهم يكسبن في النهاية المال ويساعدن العائلة. يستاء خلاّنهن، لكنهم يكبتون مشاعرهم لأنه من الجيد لـــ «أنا» الشخص أن يُشاهَد يخرج مع عارضة محترفة. يعمل وكيل العارضات مع دزينات من الفتيات من أعمار متشابهة وتخيلات متشابهة، وهو مستعد لإعطاء أجوبة فورية عن جميع أنواع الأسئلة التي تطرحها الفتيات كلهن: هل يمكنني المشاركة في أسبوع الموضة في باريس؟ هل تعتقد أن لديّ ما يلزم للدخول في عالم الأفلام؟ أما أصدقاء الفتيات فيحسدونهن، إما سرّاً وإما في العلن.

تذهب هؤلاء العارضات الشابات إلى أي حفلة يُدعين إليها. يتصرّفن كما لو أنهن أكثر أهمية مما هن عليه، ويدركن، في قرارة أنفسهن، أنهن يوددن لو أن أحداً يكسر الحاجز الجليدي المصطنع الذي يُحطن به أنفسهن. ينظرن إلى الرجال الأكبر سناً بمزيج من الإعراض والانجذاب، يعرفن أن هؤلاء يملكون ما يكفي من المال لمساعدتهن على القيام بالقفزة الكبيرة، إلا أنهن لا يردن،

في الوقت ذاته، أن يَبدين أشبه بالمومسات الراقيات. يُشاهدن دوماً وكأس الشامبانيا بيد واحدتهن، لكن ذلك ليس إلا جزءاً من الصورة التي يُردن إظهارها. يعرفن أن الكحول قد تؤثر في وزنهن، وبالتالي فإن مشروبهن المفضل هو كوب من المياه المعدنية العادية، لأن للمياه الفوّارة عواقب فورية على شكل البطن وإن كانت عديمة التأثير في الوزن. لديهن مُثُل عليا، وأحلام، وكرامة، لكن هذه الأمور كلها ستتلاشى في أحد الأيام عندما لن يعود في إمكانهن إخفاء بوادر هجمة السيلوليت.

يعقدن ميثاقاً سرياً مع أنفسهن بعدم التفكير مطلقاً في المستقبل. يصرفن الكثير مما يكسبنه على أدوات التجميل، التي تعد بشباب دائم. يعشقن الأحذية، لكنها باهظة الثمن؛ وبرغم ذلك يكرمن أنفسهن أحياناً ويشترين زوجاً من النوع الأفضل. يحصلن، بنصف الثمن العادي، على ثياب من أصدقاء في عالم الموضة. يتقاسمن شقة صغيرة مع أهلهن، ومع شقيق يرتاد الجامعة، وشقيقة قررت أن تصبح أمينة مكتبة أو عالمة. يفترض الجميع أنه لا بد من أن الفتيات يجنين ثروة، وغالباً ما يطلبون منهن قروضاً توافق الفتيات على إعطائها لأنهن يوددن أن يظهرن بمظهر الإنسانة المهمة، الثرية، الكريمة والمختلفة عن غيرها. لكنهن بذهابهن إلى المصرف يجدن حساباتهن دوماً عند الخط الأحمر، وقد تجاوزن حدود بطاقات اعتمادهن.

يستحصلن على مئات دعوات الزيارة. يلتقين برجال أنيقي الملبس يقدّمون عروضاً يعرفن أنها زائفة، لكنهن يتصلن بهم هاتفياً من مرة إلى أخرى للبقاء على الاتصال، وهن مدركات أنهن قد يحتجن، في يوم من الأيام، إلى المساعدة برغم أن هذه «المكرمة» لن تأتي إلا بثمن. يسقطن جميعهن في المصيدة ذاتها. جميعهن يحلمن بنجاح

سهل ليدركن فقط أنه غير موجود. وجميعهن يكن، ببلوغهن السابعة عشرة، قد عانين خيبات لا تحصى، وخيانات، وإذلالات، ويحتفظن برغم ذلك باعتقادهن... الراسخ.

يرقدن في شكل سيئ بسبب الحبوب المختلفة التي يتناولنها. يستمعن إلى قصص عن الأنيروكسيا - المرض المنتشر في عالمهن، وهو نوع من الاضطراب الذهني يسببه وسواس الوزن أو مظهر الشخص الخارجي، وينتهي بالجسم رافضاً كل تغذية -. يقلن إن هذا لن يحصل أبداً لهن، لكنهن لا يلاحظن أبداً ظهور أول أعراضه.

يخرجن من الطفولة فوراً إلى عالم الأضواء والإبهار، بدون مرورهن بالمراهقة. وعندما يُسألن عن مشاريعهن المستقبلية، يكون جوابهن دوماً حاضراً على طرف لسانهن: سأدرس الفلسفة. وأنا أعمل وحسب لأدفع أقساط دراستي.

يعرفن أن هذا ليس صحيحاً. أو بالأحرى، يوقنَّ بأنه ليست لدى أي من هذه الكلمات رنة صحيحة، لكنهن لا يتمكّن من وضع الإصبع على الجرح كما يجب. هل يردن حقيقة شهادة جامعية؟ هل يحتجن فعلاً إلى المال لمتابعة دراستهن؟ ليس لديهن وقت للجامعة لأن ثمة دوماً جلسات اختبار في الصباح. والتقاطاً للصور بعد الظهر، وحفلة كوكتيل قبل حلول الظلام، ومن ثم حفلة أخرى عليهن الذهاب إليها لتتم رؤيتهن، والإعجاب والرغبة فيهن.

يظهرن، بالنسبة إلى الأشخاص الآخرين. كأنهن يعشن حياة أشبه بقصص الخيال. وهن كذلك، يعتقدن لفترة أن هذا هو المعنى الحقيقي للحياة. فهن، بعد كل شيء، يكدن يمتلكن كل ما حسدن عليه في السابق الفتيات اللواتي ظهرن في المجلات وإعلانات مواد التجميل. ويمكنهن، بقليل من الانضباط، توفير القليل من المال إلى أن تظهر، بعد تفحصهن اليومي الدقيق بشرتهن. أولى

العلامات التي يتركها التقدم في السن. ويعرفن بعد ذلك أن المسألة مسألة وقت قبل أن يلاحظ المصمم أو المصور الأمر ذاته. فأيامهن معدودة.

أخذت الطريق الأقل سلوكاً، وهو ما أحدث الفرق كله.

نهضت ياسمين. وبدلاً من العودة إلى كتابها، ملأت كأسها بالشامبانيا (دائماً موجودة، لكن نادراً ما يتم شربها)، وتناولت قطعة نقانق ومضت صوب النافذة، حيث وقفت صامتة. وهي صاحبة قصة مختلفة.

١:٤٦ ب.ظ.

أفاق يتصبب عرقاً. أدرك، وهو ينظر إلى الساعة على طاولة السرير، أنه لم يستغرق في النوم سوى أربعين دقيقة فقط. إنه منهك، وخائف، وفي حالة من الرعب. فلطالما نظر إلى نفسه على أنه عاجز عن الإضرار بأحد. وها إنه، برغم ذلك، قد قتل شخصين بريئين هذا الصباح. ليست المرة الأولى التي يدمّر فيها عالماً، لكنه امتلك في السابق دوماً أسباباً وجيهة للقيام بذلك.

حلم بأن الفتاة على المقعد المجاور للبحر جاءت لرؤيته، وباركته بدلاً من لعنه. استلقى ينتحب في حضنها ويرجوها أن تسامحه، إلا أنها بدت غير مهتمة بذلك، بل اكتفت بمداعبة شعره وطلبت منه ألا يُزعج نفسه. إنها أوليفيا، صورة السخاء والغفران. أخذ يتساءل الآن إن كان حبه لإيوا يساوي ما يقوم به.

يفضّل أن يعتقد أنه يساوي. وواقع أن أوليفيا تأخذ جانبه، وأنه التقى بها في مرتبة عليا أكثر قرباً من القَدَر الإلهي، وأن كل

شيء تم بسهولة أكبر مما تصوّر، فإن ذلك كله يشير إلى أنه لا بد من وجود سبب وراء ما يحصل.

كان من الصعب الإفلات من أعين صديقَي جافيتس اليقظة. عرف أن هذا النوع من الرجال، بالإضافة إلى حسن اللياقة البدنية والاستعداد للتحرك بسرعة ودقة، متدرب على تذكّر كل وجه، وملاحقة كل حركة، وتقدير كل خطر. ومن المرجح أنهما عرفا بأنه مسلّح، وهذا هو سبب مراقبتهما له لبعض الوقت، لكنهما استرخيا عندما أدركا أنه لا يشكل تهديداً. وربما اعتقدا أنه يقوم بنوع عملهما ذاته، وأنه جاء إلى الصيوان للتحقق من المكان ومعرفة مدى أمنه لرئيسه.

لكنه ليس له رئيس، وهو يشكل تهديداً. فمنذ اللحظة التي دخل فيها الصيوان، وقرر من ستكون ضحيته التالية، لم تعد ثمة عودة إلى الوراء، وإلا خاطر بفقدان احترامه نفسه. رأى أن المدخل المؤدي إلى الصيوان محروس، بيد أنه يسهل كثيراً التسلل منه إلى الشاطئ. غادر بعد عشر دقائق على وصوله أملاً منه أن صديقي جافيتس سيلاحظان ذهابه. ثم سار من حول الصيوان وعاد إلى مدخل القاعة المخصصة لنزلاء فندق المارتينيز (كان عليه أن يُبرز البطاقة المفتاح)، وإلى المنطقة المخصصة للغداء. ليس من الممتع أبداً للمرء السير بحذائه في الرمل، وقد لاحظ إيغور أنه لا يزال تعباً من رحلته الجوية، ومن الخوف من أن تثبت استحالة تنفيذ مخططه، ومن التوتر الذي شعر به بعد تدميره كون تلك الشابة المسكينة بائعة الحرفيات والأجيال التي قد تنجبها. وعليه برغم ذلك المتابعة.

أخذ من جيبه، قبل عودته إلى الصيوان، مصاصة الشراب التي احتفظ بها. فتح القارورة الزجاجية الصغيرة التي أظهرها لأوليفيا، وهي لا تحتوي، كما قال لها، على البترول، بل على شيء يكاد يكون بلا معنى: إبرة وقطعة من الفلين. استخدم شفرة معدنية رقيقة ليصنع ثقباً في الفلينة بقطر المصاصة ذاته.

ثم عاد وانضم إلى الحفلة التي باتت الآن تعج بالضيوف الذين يدورون في المكان، يقبّلون بعضهم البعض ويتعانقون، مُصدرين صيحات صغيرة تشي بتعرفهم إلى شخص ما، متناولين أكواب الكوكتيل الملونة بكل أطياف الألوان لمجرد أن يشغلوا أياديهم بشيء ويتحكّموا في قلقهم في انتظار افتتاح المقصف. وعندها سيتمكنون من تناول الطعام، باعتدال طبعاً، لأنه يجب أخذ الحميات والجراحات التجميلية بالاعتبار، ومآدب العشاء في آخر النهار، حيث عليهم، بحسب ما تفرضه آداب السلوك، أن يأكلوا حتى لو لم يكونوا جائعين.

معظم الضيوف من الكبار في السن، ما يعني أنها مناسبة للمحترفين. وفر عمر الضيوف مساعدة إضافية لمخططه، بما أن معظمهم يحتاج إلى نظارات طبية. وغني عن القول أنه ما من أحد يضعها لأن الأعين التعبة مؤشر على التقدم في السن. فهنا على الجميع أن يلبس ويتصرف مثل من هم في مقتبل الحياة، كشبان في القلب وبصحة ممتازة، والادعاء أنهم لا يبالون بما يدور من حولهم بسبب انشغالهم بأمور أخرى، بينما الحقيقة أنهم لا يستطيعون الرؤية. ولا تسمح لهم عدساتهم اللاصقة سوى بالتعرف إلى شخص يبعد عنهم بضع ياردات وحسب، أضف إلى ذلك أنهم سيكتشفون سريعاً من الذي كانوا يتحدثون إليه.

اثنان فقط من بين الضيوف لاحظا كل شيء وكل واحد، هما صديقا جافيتس. لكنهما هذه المرة أصبحا عرضة للمراقبة.

وضع إيغور الإبرة داخل المصاصة، وادعى أنه يعيدها إلى شرابه.

بدت مجموعة من الفتيات الجميلات يقفن على مقربة من طاولة جافيتس يستمعن، مأخوذات، بالقصص الغريبة التي يرويها رجل جمايكي. وقد أخذت كل فتاة تخطط في الواقع للتخلص من منافساتها وأخذ الرجل إلى سريرها لتمتُّع الجمايكيين بصيت كبير من الفحولة.

اقترب إيغور أكثر من جافيتس. أخذ المصاصة من الكوب ونفخ فيها، قاذفاً بالإبرة في داخلها في اتجاه الضحية. بقي ما يكفي الوقت ليرى جافيتس يضع يده على ظهره. ثم غادر وتوجّه مباشرة إلى الفندق ليحاول أخذ قسط من النوم.

الكوراري مادة استخدمها في الأساس هنود أميركا الجنوبية للصيد بالأسهم، وتوجد في المستشفيات الأوروبية، لأنه يمكن استخدامها، في ظروف يتم التحكم فيها، في شل بعض العضلات بما يسهل عمل الجراح. ويمكن جرعة قاتلة - مثل تلك التي على رأس الإبرة التي أطلقها إلى ظهر جافيتس - أن تقتل عصفوراً في دقيقتين وحسب. وتستغرق الخنزير البري خمس عشرة دقيقة للموت، وتلزم لإهلاك الحيوانات الثديية الكبيرة - كالإنسان مثلاً - عشرون دقيقة.

فما إن تدخل في مجرى الدم، حتى تسترخي الألياف العصبية في الجسم، ثم تتوقف كلها عن العمل، مسببة اختناقاً تدريجياً.

والأمر الأكثر غرابة - أو الأسوأ كما يقول البعض - أن الضحية تبقى واعية في خلال ذلك كله، لكنها لا تستطيع التحرك لطلب المساعدة، أو لوقف عملية الشلل البطيئة التي تجتاح الجسم.

يعرف الهنود تماماً ما عليهم القيام به، لو أن أحداً جرح إصبعه بسهم مسموم في خلال حملة صيد في الأدغال. يستخدمون الإنعاش بواسطة الفم وترياقاً عشبياً يحملونه معهم دائماً، لأن مثل هذه الحوادث تحصل غالباً. أما في المدينة فلا يمكن المسعفين عمل شيء، لأنهم يعتقدون أنهم يتعاملون مع أزمة قلبية.

لم يلتفت إيغور إلى الوراء، وهو يسير إلى الفندق. عرف أن واحداً من الصديقين سيبحث كالمسعور عن الفاعل، بينما يستخدم الآخر الهاتف ليطلب سيارة الإسعاف التي ستصل بأقصى سرعة، إلا أن أفراد طاقمها لا يمتلكون أي فكرة عما يجري. سيأتون مرتدين بزات ملونة وسترات واضحة للرؤية، ويحملون مزيلاً للرجفان - لاستخدام سلسلة من الصعقات الكهربائية للقلب - وجهازاً محمولاً للتخطيط. وفي حالة الكوراري، يبدو أن القلب هو آخر عضلة تصاب، ويستمر يخفق حتى بعد حصول وفاة الدماغ.

لن يلاحظ المسعفون أي شيء مريب في شأن ضربات القلب، فيحقنوه بالمصل اعتقاداً منهم أنه يعاني ضربة شمس أو تسمماً من الطعام، ويستمروا برغم ذلك في اتخاذ الإجراءات التقليدية بما فيها قناع الأوكسيجين. عند هذا الحد، تكون الدقائق العشرون قد انقضت. وأن الجسم قد يبقى حياً، لكنه سيصبح في حالة إنباتية.

نعم، لقد خطط لكل شيء. استخدم طائرته الخاصة بحيث يتمكن من الدخول إلى فرنسا بمسدسه غير المرخص ومختلف

السموم التي استحصل عليها عبر علاقاته مع المافيا الشيشانية العاملة في موسكو. تمت دراسة كل خطة وكل حركة بعناية، وتدرّب عليها كما لو أنه يخطط لاجتماع عمل. وضع في رأسه لائحة بالضحايا. وعلى جميع الآخرين، في ما خلا الضحية التي التقى بها وتحدث معها، أن يكونوا من طبقات وأعمار وجنسيات مختلفة. أمضى أشهراً يحلل حيوات القتلة المتسلسلين، مستخدماً برنامج كمبيوتر يتمتع بشعبية كبيرة لدى الإرهابيين، ولا يترك أي أثر عن أي أبحاث تمت بها. وقد اتخذ جميع الخطوات الآيلة إلى فراره، بعد إنهاء مهمته، بدون أن يلاحظه أحد.

يتصبب عرقاً. لا، إنه ليس الندم - ربما لا تستأهل إيوا حقّاً مثل هذه التضحية -، بل التفكير في احتمال عبثية المشروع. يحتاج إلى أن تعرف المرأة التي أحبها أكثر ما يكون، أنه قادر على فعل أي شيء من أجلها، بما في ذلك تدمير الأكوان. لكن أيستأهل الأمر ذلك حقيقة؟ أم من الضروري أحياناً القبول بحكم القدر والسماح للأمور بأخذ مجراها الخاص وانتظار أن يعود الناس إلى رشدهم في الوقت الذي يناسبهم؟

إنه تعب. لم يعد في إمكانه التفكير في شكل سويّ. ومن يدري، فربما الشهادة أفضل من القتل: تسليم نفسه، وبالتالي القيام بتضحية كبرى، مقدّماً حياته من أجل الحب. ويسوع أفضل مثال على ذلك. عندما رأى أعداء يسوع أنه مهزوم ومعلق على الصليب، اعتقدوا أن كل شيء انتهى. شعروا بالفخر لما قاموا به، هم المنتصرون، معتقدين أنهم وضعوا حداً نهائياً للمشكلة.

إيغور مشوّش. قضت نيّته بأن يدمر أكواناً وليس التخلي عن حرّيته بسبب الحب. ففي حلمه كانت الفتاة ذات الحاجبين

السوداوين تشبه سيّدة بيبتا، الأم التي تحمل ابنها بين ذراعيها وهي فخورة وكثيرة المعاناة في آن.

ذهب إلى الحمام. وضع رأسه تحت المرشاش وفتح الماء الباردة. ربما إنها قلّة النوم... وجوده في مكان غريب، في منطقة توقيت مختلفة، أو ربما واقع كونه يقوم فعلاً بالأمور التي خطط للقيام بها، لكنه ظن أنه لن ينفذها أبداً. هل ما يفعله صحيح؟ إنه يحتاج إلى إشارة.

التضحية. نعم، عليه أن يفكّر في ذلك، لكنه ربما احتاج إلى تجربة تدمير ذينك العالمين هذا الصباح ليتمكن من رؤية ما يحصل بوضوح أكبر. افتداء الحب عبر الاستسلام التام. سيتم تسليم جسمه إلى الجلادين الذين يحكمون على حركات الشخص، وينسون ما يتعلق بالنيات والاسباب الكامنة وراء أي عمل يعتبره المجتمع جنونياً. سيستقبل يسوع (الذي يدرك أن الحب يستأهل أي قدر من التضحية) نفسه، وتحصل إيوا على روحه. ستعرف أنه قادر على الاستسلام، والتضحية بالذات، وذلك كله من أجل شخص واحد. لن يحكم عليه بالموت لأن المقصلة أُلغيت في فرنسا منذ عقود، إلا أنه قد يمضي سنوات طويلة في السجن. ستتوب إيوا عن خطاياها، وتأتي لزيارته، وتجلب له الطعام. سيتسع لهما الوقت للحديث، والتفكير، والحب، وستصبح روحاهما أقرب من ذي قبل برغم أن جسديهما لن يتلامسا. وحتى لو اضطرا إلى الانتظار لسنوات قبل أن يتمكنا من العيش في المنزل الذي ينوي بناءه عند بحيرة بايكال، فإن فترة الانتظار ستطهّرهما وتباركهما.

التضحية، نعم. أوقف المرشاش، نظر لبرهة إلى وجهه في المرآة. لم ير نفسه، بل الحَمَل المستعد لأن يُذبح من جديد. ارتدى الثياب ذاتها التي كان يلبسها هذا الصباح. خرج إلى الشارع، وتوجه إلى

المكان الذي اعتادت البائعة الصغيرة الجلوس فيه، ومضى إلى أول رجل شرطة يراه.

- أنا قتلت الفتاة التي اعتادت العمل هنا.

- تلك التي كانت تبيع الحرفيات؟

هزّ إيغور برأسه علامة الإيجاب.

لم ينتبه إليه رجل الشرطة كثيراً. وجّه التحية إلى زوجين مارين بالمكان محملين بالمشتريات.

«عليكما الحصول على خادمة!»، قال الشرطي.

«إذا دفعت أنت أتعابها»، أجابت المرأة مبتسمة. «لا يمكن استخدام الناس في هذه الأيام!».

- آه، هيا، لا يمكن المال أن يكون السبب. فأنت في كل أسبوع تضعين خاتماً مختلفاً من الماس في إصبعك.

لم يتمكن إيغور من فهم ما يجري. لقد اعترف للتو بارتكابه جريمة.

«هل سمعت ما قلته؟»، عاد وقال للشرطي.

- انظر، الجو حار جداً. اذهب وتمدد لبعض الوقت. فلـ «كان» الكثير مما تعرضه على زوارها.

- لكن ماذا بالنسبة إلى الفتاة؟

- أكنت تعرفها؟

- لم أشاهدها طوال حياتي من قبل. كانت هنا هذا الصباح. أنا....

- ... أنت رأيت سيارة الإسعاف تصل وتحمل شخصاً، واستنتجت أنها قُتلت. لا أعرف من أين أنت، يا سيدي، لا أدري إذا كان لديك

أولاد، لكن احترس من المخدرات. يقول الناس إنها ليست على هذا القدر من السوء، لكن انظر إلى ما حدث لتلك الفتاة المسكينة.

وابتعد الشرطي بدون انتظار الجواب.

أكان على إيغور الإصرار، وتقديم المزيد من التفاصيل؟ وهل كان الشرطي ليأخذه عندها على محمل الجد؟ لأنه يستحيل طبعاً قتل شخص ما في وضح النهار في الشارع الرئيسي في «كان». وبرغم هذا، فإنه كان مستعداً لتبني العالم الآخر الذي دمّره في حفلة حاشدة بالناس.

لكن ممثل القانون والنظام وحسن الآداب، لم يشأ الاستماع إليه. ما هو هذا العالم الذي يعيش فيه؟ أعليه أن يسحب المسدس من جيبه، ويشرع في إطلاق النار في جميع الاتجاهات كي يصدّقوه؟ أعليه التصرف مثل بربري يقتل بدون سبب قبل أن يقرروا في النهاية الاستماع إليه؟

راقب إيغور الشرطي يعبر الطريق ويدخل مطعماً للوجبات الخفيفة. قرر الانتظار لفترة تحسباً، فقد يغير رأيه ويحصل على المزيد من المعلومات من مخفر الشرطة، ويعود ويسأله عن تفاصيل إضافية عن الجريمة.

كان مقتنعاً كثيراً بأن هذا لن يحصل. تذكّر ملاحظة الشرطي للمرأة على الماسة في إصبعها. هل يعلم ما هو مصدرها؟ بالتأكيد لا، لأنه لو عرف لأخذها فوراً إلى مخفر الشرطة، واتهمها باستخدام بضاعة جرمية.

ظهرت الماسة، تلك التي تخص المرأة، في شكل سحري في أحد المتاجر الراقية، وقد قطعها أولا - كما يقول باعة المتجر دائماً - جوهريون هولنديون أو بلجيكيون. وقد تم تصنيفها وفقاً لصقلها،

ولونها، وصفائها ووزنها بالقيراط. وسيتراوح سعرها من بضع مئات من اليورو إلى ما سيعتبره معظم الناس سعراً فاحشاً حقاً.

الماسة، أو الحجر البزاق، وهو اسمها الثاني، ليست، على ما يعرفه الجميع، سوى قطعة من الفحم عملت فيها الحرارة والزمن فعلهما. ويستحيل، بما أنها لا تحتوي على أي مواد عضوية، معرفة كم تستغرق بنيتها من الوقت لتتغير، برغم أن علماء الجيولوجيا يقدرون ذلك بما يتراوح ما بين ٣٠٠ مليون ومليار سنة. ويتشكّل الماس في شكل عام على عمق ٩٠ ميلاً تحت قشرة الأرض، ثم يرتفع تدريجاً صوب السطح حيث يُستخرج من المناجم.

والماسة هي أقسى المواد الطبيعية وأكثرها مقاومة، ولا تقطع الماسة إلا الماسة. وتُستخدم الجزيئات التي تنتجها هذه العملية في آلات الصقل والقطع. وتقع الأهمية الحقيقية للماس في استخدامَه كجواهر. فالماسة هي التعبير الأسمى عن الخيلاء الإنسانية.

منذ بضعة عقود، أخذ الماس يختفي من السوق، في عالم بدا أنه على وشك العودة إلى الأمور الأكثر عملية، وإلى مزيد من المساواة الاجتماعية. وعندها، قررت شركة التعدين الأكبر في العالم، ومقرها جنوب أفريقيا، توظيف واحدة من أفضل وكالات الإعلان العالمية. التقت الطبقة الأعلى بالطبقة الأعلى، وأُجريت الأبحاث، وجاءت النتيجة جملة من ثلاث كلمات: «الماس إلى الأبد».

وجدت المشكلة حلاً لها. تبنى الجوهريون الشعار، وعادت الصناعة إلى الازدهار. وإذا كان الماس إلى الأبد، فهل من طريقة أفضل للتعبير عن الحب، الذي يجب من الناحية النظرية على الأقل، أن يستمر إلى الأبد؟ وهل من طريقة أفضل لتمييز الطبقة الأرفع عن مليارات السكان الآخرين الذين يشكلون النصف الأسفل من الهرم؟ ازداد الطلب على الحجارة، وشرعت الأسعار في الارتفاع. وبعد

مضيّ سنوات قليلة وجدت الشركة الأفريقية الجنوبية ذاتها، وقد بلغت حتى حدّ تحديد قواعد السوق العالمية، محاطة بالجثث.

إيغور يعرف ما الذي يتحدث عنه. عندما ساهم في تشكيل جيش يتدخل في النزاع القبلي في أفريقيا، ثبت أن المهمة صعبة للغاية. لا يعني هذا أنه يأسف لها، خصوصاً أنه تمكن من إنقاذ الكثير من الأرواح، برغم أن قلة من الناس عرفت بالمشروع. وقد ذكره مرّة عَرَضاً لإيوا في إحدى مآدب العشاء التي باتت منسية الآن، لكنه قرر عدم البوح بالمزيد. فهو يفضل، عندما يقوم بعمل خيري، ألا تعرف يده اليمنى ما تفعله يده اليسرى. لقد ساعده الماس على إنقاذ الكثير من الأرواح، لكن هذه واقعة لن تظهر في سيرة حياته.

رجل الشرطة الذي لا يهتم بمجرم يعترف بجريمته، لكنه يشيد بالجوهرة في إصبع امرأة تحمل أكياساً ملأى بأوراق الحمّام ومواد التنظيف، ليس مناسباً للوظيفة. إنه لا يعرف أن هذه الصناعة التي لا معنى له، تنتج نحو ٥٠ مليار دولار في السنة، وتوظّف جيشاً كبيراً من عمال المناجم، والناقلين، وشركات الأمن الخاصة، ومعامل الماس، وشركات التأمين، وبائعي الجملة، ومتاجر الكماليات. وهو لا يدرك أنها تنشأ في الوحول وتجتاز أنهراً من الدم قبل أن تبلغ واجهة المتجر.

الوحل هو المكان الذي يقضي فيه عامل المنجم حياته بحثاً عن الحجر الذي سيجلب له في النهاية الثروة التي يرغب فيها كثيراً. يعثر على بعض منها، ويبيع كل حجر بمتوسط عشرين دولاراً، وهو حجر سيكلف المستهلك عشرة آلاف دولار. إلا أنه يسعد بما يكفي، لأن الناس، حيث يعيش، يجنون أقل من خمسين دولاراً في

السنة، وتكفيه خمسة حجارة ليعيش حياة قصيرة، لكن سعيدة، وهو الذي عمل في ظل أسوأ الظروف الممكنة.

يشتري الحجارة أناس غير محدَّدي الهوية، ويمررونها فورا إلى الجيوش غير النظامية في ليبيريا والكونغو وأنغولا. ويتم، في هذه البلدان، تعيين رجل محاط بحراس مدججين بالسلاح للمضي إلى مدرج يمكن الطائرات أن تهبط فيه بطريقة غير شرعية. تهبط طائرة كما هو مقرر، يخرج منها رجل يرتدي بزة، يرافقه في العادة رجل آخر يرتدي قميصاً بكمين قصيرين، ويحمل حقيبة صغيرة. يتم تبادل التحيات على عجل. ويقوم الرجل الذي يرافقه الحراس الشخصيون بتسليم بضع رزم صغيرة، والرزم تُصنع دوماً من جوارب نسائية قديمة، ربما لأسباب تتعلق بالتطيُّر.

يأخذ الرجل ذو الكمين القصيرين عدسة خاصة يستخدمها الجوهري، ويضعها على عينه اليسرى، ويأخذ في التدقيق في كل قطعة بقطعتها. ويمتلك بعد نحو ساعة ونصف الساعة فكرة جيدة عما يتعامل معه، ثم يأخذ من حقيبته ميزاناً الكترونياً دقيقاً خاصاً، ويُفرغ محتوى الرزمة على الميزان. يقوم ببعض الحسابات على قطعة ورقية. يعيد وضع العدة في الحقيبة مع الميزان، يشير الرجل صاحب البزة إلى الحراس المسلحين، فيصعد خمسة أو ستة منهم إلى الطائرة. يبدأون بإفراغ صناديق كبيرة يكومونها إلى جانب المدرج إلى أن تغادر الطائرة من جديد. وتستغرق العملية كلها معظم النهار.

تُفتح الصناديق الكبيرة التي تحتوي على بنادق دقيقة الإصابة، وألغام ضد الأشخاص، ورصاصات تنفجر عند الاصطدام فتطلق دزينات من الكرات المعدنية الصغيرة القاتلة. تُسلّم الأسلحة إلى

المرتزقة والجنود، وسرعان ما تجد البلاد نفسها في مواجهة انقلاب بطّاش جديد. تُباد قبائل بأكملها، تتطاير أرجل الأطفال أو أيديهم بسبب القنابل العنقودية، وتُغتصب النساء. وفي غضون ذلك، وعلى مسافة بعيدة جداً، عادة في أنتويرب أو في أمستردام، يعمل أناس جدّيون بتكرّس واعتناء في تقطيع الحجارة، وقد ابتهجوا بمهارتهم الذاتية، واستحوذ عليهم بريق النور الذي يأخذ في التوهّج في كل جانب من جوانب قطعة الفحم هذه التي بدّل الزمن في بنيتها. الماس يقطع الماس.

توجد من جهة نساء يصرخن يائسات تحت سماء ملبدّة بالدخان. ومن جهة أخرى، أبنية جميلة قديمة تُشاهد من خلال نوافذ غرف جيّدة الإضاءة.

تبنّت الأمم المتحدة، في ٢٠٠٢، عملية كيمبرلي، وهي قرار يحاول اقتفاء مصدر الماس ويمنع الجوهريين من شراء كل ما يأتي من مناطق الحرب. وعاود صاقلو الماس الأوروبيون المرموقون، لبعض الوقت، شراء الحجارة الكريمة من الشركة الحصرية الجنوب أفريقية. لكنه تم اكتشاف سبل لجعل الماسة رسمية، وبات القرار مجرّد زيف سمح للسياسيين بالادعاء أنهم يتحركون لوضع حد لـ «الماس الدامي»، وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به.

بادل إيغور الماس بالسلاح، منذ خمسة أعوام، وأنشأ مجموعة صغيرة تهدف إلى وضع حد للنزاع في شمال ليبيريا، وقد نجح، وحدهم القتلة قُتلوا. عاد السلام إلى القرى الصغيرة، وبيعت الماسات لجوهريين في أميركا بدون طرح أي أسئلة محرجة.

يحق للرجال القيام بما يرتؤونه مناسباً، عندما لا يتحرك المجتمع لوقف الجريمة.

حصل شيء مماثل منذ بضع دقائق على ذلك الشاطئ. ما إن تم اكتشاف الجريمتين، حتى تطلّع أحد ما صوب الجمهور وقال ما يقال دوماً:

إننا نبذل أقصى جهدنا لكشف القاتل.

ليكن ذلك. مرّة أخرى يُريه القدر البالغ الجود الطريقَ إلى الأمام. التضحية لا تكفي. وإلى جانب ذلك، عندما فكّر في الأمر. وجد أن إيوا لن تصبر على غيابه مع عدم وجود من تتحدث معه في خلال الليالي الطويلة والنهارات التي لا تنتهي في انتظار إطلاقه. وستنتحب كلّما فكّرت فيه في زنزانته الباردة، وهو يحدّق في جدران سجنه البيضاء. وعندما سيحين الوقت أخيراً ليذهبا ويعيشا في المنزل عند شواطئ بحيرة بايكال، سيكونان قد أصبحا طاعنين في السن وكبيرين جداً على اختبار المغامرات التي خططا لها معاً.

عاد الشرطي من مطعم الوجبات السريعة وانضم إليه على الرصيف.

- هل ما زلت هنا، يا سيدي؟ هل أنت تائه؟ هل تحتاج إلى المساعدة؟

- لا، شكراً لك.

- كما سبق وقلت لك، اذهب وخذ قسطاً من الراحة. يمكن الشمس أن تكون خطرة جداً في هذا الوقت من النهار.

عاد إلى الفندق وأخذ حماماً. طلب من عامل الاستقبال إيقاظه في الرابعة، وهكذا ينال ما يكفي من الراحة لاستعادة صفاء ذهنه الضروري لمنعه من المضي في ارتكاب مثل هذه الأمور الجنونية. فقد كاد يخرب المخطط بأكمله.

اتصل بالبواب وحجز طاولة على شرفة الفندق لما بعد استيقاظه من النوم، فهو يود تناول بعض الشاي هناك بدون أن يزعجه أحد. ثم استلقى، وحدّق في السقف، منتظراً أن يأتيه النوم.

ما هم من أين يأتي الماس، ما دام يشع؟

وحده الحب، في هذا العالم، يستحق مطلقاً كل شيء. ولا معنى لأي شيء غيره.

شعر إيغور، على غرار ما فعل مرات عدة في حياته من قبلُ، بفيض من الحرية التامة. أخذ التشوش يختفي تدريجاً من رأسه ويعود إليه صفاؤه.

لقد وضع مصيره بين يدي يسوع، ويسوع قرّر أن عليه الاستمرار في مهمته.

غفا بدون أدنى شعور بالذنب.

١:٥٥ ب.ظ.

قررت غابرييلا السير بتؤدة إلى المكان الذي سيقلّها المركب منه: تحتاج إلى ترتيب أفكارها، وإلى الهدوء. فقد بلغت حداً لن تصبح فيه أكثر أحلامها السرية حقيقة وحسب، بل أيضاً أسوأ كوابيسها.

رنّ جرس هاتفها. رسالة مكتوبة من وكيلها.

«تهاني. اقبلي بكل ما يعرضونه عليك XXX».

راقبت جموع الناس الذين بدا أنهم يتجولون، جيئة وذهاباً، في الجادة، بدون هدف. وهي، في المقابل، لديها هدف! ليست مجرد واحدة أخرى من الباحثات عن الحظ اللواتي يأتين إلى «كان» ولا يعرفن تماماً من أين يبدأن. لديها سيرة مهنية متينة، وبعض التجربة الاحترافية المحترمة، ولم تحاول أبداً التقدم في الحياة باستخدام ميزاتها الجسدية، وهي صاحبة موهبة حقيقية! ولهذا، اختيرت للقاء هذا المخرج الشهير، بدون مساعدة من أحد، وبدون أن

تضطر إلى ارتداء ثياب مثيرة، ولا ان تُعطَى وقتاً للتمرن على دورها. ومن المؤكد أنه سيأخذ هذه الأمور كلها في الاعتبار.

توقّفت لتناول وجبة خفيفة، فهي لم تأكل أي شيء طوال النهار. وما إن أخذت أول رشفة من قهوتها حتى عادت أفكارها إلى الأرض.

لماذا اختيرت؟

ما هو دورها بالتحديد في الفيلم؟

وماذا لو قرر غيبسون، بعد مشاهدته التجربة، أنها ليست الشخص المنشود؟

«اهدئي». قالت في سرها، فليس لديها ما تخسره، لكن صوتاً آخر أصرّ على أن:

«هذه فرصتك الأولى والوحيدة».

لا يوجد ما اسمه الفرصة الأولى والوحيدة، فالحياة توفّر دوماً فرصة أخرى. لكن الصوت قال من جديد:

«ربما، لكن كم من الوقت قبل أن تسنح فرصة أخرى؟ تعرفين كم عمرك، ألا تعرفين؟».

تعرف بالتأكيد. إنها في الخامسة والعشرين في عالم حتى الممثلات الأكثر التزاماً فيه... إلخ... الخ.

لا تحتاج إلى الخوض في ذلك كله من جديد. دفعت ثمن الساندويش والقهوة وتوجهت صوب الرصيف، وهي تحاول هذه المرة السيطرة على تفاؤلها، طالبة من نفسها عدم الإشارة إلى الآخرين بوصفهم باحثين عن الحظ، وتردد في ذهنها قواعد التفكير

الإيجابي التي يمكنها تذكّرها، أي شيء لتفادي صرف تطلُّعها طويلاً إلى هذا الاجتماع الوشيك جداً.

آمني بالفوز، يأتِ صاغراً إليك.

غامري بكل شيء باسم الحظ، وابقي بعيدة عن كل ما يُقدَّم إليك عالماً من الرفاه.

الموهبة عطيّة عامة، لكن الشجاعة في استخدامها. لا تخافي أن تكوني الأفضل.

لا يكفي التركيز على ما قاله المعلّمون العظام، بل إنها تحتاج إلى مساعدة من السماء. أخذت تصلّي، شأنها دائماً عند اضطراب خاطرها. شعرت بأنه عليها أن تقطع وعداً، وتقرر أنها، في حال نالت الدور، ستسير كل الطريق من «كان» إلى الفاتيكان. إذا ما تمت صناعة الفيلم. وإن حاز نجاحاً عالمياً.

كلا، بل يكفي فقط الحصول على دور في الفيلم مع غيبسون، لأن ذلك سيجلب انتباه منتجين ومخرجين آخرين. وعندها تقوم بالحجّ الموعود.

بلغت مكان اللقاء. نظرت إلى البحر، ومجدداً إلى رسالة وكيلها. وبما أنه يعرف بالفعل تفاصيل الموضوع فلا بد من أن ذلك يعني أن المخرج جدّي. لكن ماذا يعني القبول بأي ما يتم عرضه عليك؟ أيعني هذا أن عليها مشاركة المخرج أو من يلعب دور البطولة، في الفراش؟

لم تفعل ذلك أبداً من قبل، لكنها الآن على استعداد للقيام بأي شيء. وبعد، من التي لم تحلم في مشاركة نجم سينمائي في الفراش؟

تطلّعت من جديد إلى البحر. في وسعها العودة إلى الشقة وتغيير ملابسها، لكنها تطيّرت. وبما أن جينزاً وتي - شيرتاً بيضاء كانا كافيين لإيصالها إلى هذا الحد، فعليها على الأقل الانتظار حتى نهاية النهار لتغيير ملابسها. حلت حزامها بعض الشيء، وجلست في وضعية زهرة اللوتس، وشرعت في القيام ببعض التنفس على طريقة اليوغا. تنفسَّت ببطء، واستقر جسمها وقلبها وأفكارها في أماكنها.

رأت زورقاً سريعاً يقترب. قفز رجل منه وقال:

غابرييلا شيري؟

هزّت برأسها علامة الإيجاب، فطلب منها الرجل الذهاب معه. صعدا إلى الزورق وانطلقا في بحر يعج باليخوت من جميع الأنواع والأحجام. لم يتفوّه الرجل بأي كلمة، كما لو أنه بعيد جداً، وربما يحلم بما قد يجري في كابينات تلك المراكب الصغيرة، وكم أنه من الممتع الحصول على واحد مثلها. ترددت غابرييلا ورأسها يعج بالتساؤلات والشكوك. غالباً ما يمكن كلمة متعاطفة أن تحوّل غريباً إلى حليف قد يساعد على إعطاء فكرة مفيدة حول كيفية التصرف. لكنها لا تعرف من هو. فربما لديه نفوذ لدى غيبسون، أو قد يكون مجرّد مساعد لا يحسب له حساب، يكلف بأعمال مثل نقل ممثلات مجهولات وإيصالهن إلى رئيسه.

من الأفضل عدم قول أي شيء.

بعد خمس دقائق، تحاذى الزورق مع مركب أبيض ضخم اسمه سانتياغو، كما هو مكتوب على المقدمة. أنزل بحار سلّماً وساعدها على الصعود إلى المتن. اجتازت غرفة استقبال واسعة تجري فيها التحضيرات لما يبدو أنه حفلة كبرى في وقت لاحق من تلك

الليلة. توجهت صوب مؤخرة المركب حيث يوجد حوض صغير للسباحة، وطاولتان تفيئهما المظلات، وبضعة كراسي للاستلقاء تحت الشمس. كان غيبسون والنجم يستمتعان بشمس ما بعد الظهر!

فكرت وهي تبتسم في سرّها: لا أمانع في مشاطرة أي منهما الفراش. شعرت بثقة أكبر، برغم أن قلبها يطرق بأسرع من المعتاد.

ميّزها النجم من فوق إلى تحت، وقابلها بابتسامة ودّية ومطمئنة. صافحها غيبسون بقوة، ونهض، وتناول كرسياً من أقرب طاولة وطلب منها الجلوس.

ثم اتصل بشخص ما وطلب رقم غرفة في أحد الفنادق. كرّر الرقم بصوت مرتفع، وهو ينظر إليها.

الأمر كما تخيلت: غرفة في فندق.

أغلق هاتفه.

«بمغادرتك من هنا، توجهي مباشرة إلى هذا الجناح في الهيلتون. فهناك تُعرض ثياب حميد حسين. وأنت مدعوة إلى حفلة الليلة في الكاب دانتيب».

ليس الأمر أبداً كما تخيلّته. الدور لها. وستذهب إلى حفلة في الكاب دانتيب... حفلة في الكاب دانتيب!

التفتَ إلى النجم:

- ما رأيك؟

- أعتقد أنه علينا ان نسمع ما لديها لتقوله.

هز غيبسون برأسه موافقاً، وأشار إليها بما معناه، «أَخبريني القليل عنك». بدأت غابرييلا بمقرَّر الدراما الذي درسته، والإعلانات التي ظهرت فيها. لاحظت أن الرجلين لم يعودا يُصغيان إليها. لا بد

من أنهما استمعا إلى الرواية ذاتها آلاف المرات. وبرغم ذلك لم تتمكن من التوقف، وأخذت تتحدث بأسرع وأسرع، شاعرة بأنه لم يعد لديها المزيد مما تقوله، وأن فرصة العمر هذه تعتمد على العثور على الكلمة المناسبة وحسب، وهو ما اتضح أنها فشلت فيه. أخذت نَفَساً عميقاً، وحاولت الظهور بمظهر المطمئنة. أرادت أن تبدو ظريفة فأخبرت نكتة، لكنها لم تتمكن من الخروج عن النص الذي علّمها وكيلها اتباعه في مثل هذه المقابلات.

قاطعها غيبسون، بعد دقيقتين:

- هذا عظيم، لكننا نعرفه كله من سيرتك الذاتية. لماذا لا تحدثينا عن نفسك؟

انهار حاجز ما في داخلها. وبدلاً من أن تهلع، أخذ صوتها يصبح أكثر هدوءاً وثباتاً.

«أنا مجرد واحدة من ملايين الأشخاص الذين طالما حلموا بأن يكونوا على متن يخت كهذا، ينظرون إلى البحر، والحديث عن العمل على الأقل مع واحد منكما أيها السيدان. وكلاكما يعرف ذلك. وأشك في وجود أي شيء آخر يمكنني قوله من شأنه أن يغير كثيراً في أي شيء. هل أنا عزباء؟ نعم. لكن، كما هي الحال مع جميع النساء العازبات، ثمة رجل في الديار يحبني بجنون وينتظرني الآن بالذات في شيكاغو، وهو يأمل أن تسير الأمور كلها هنا في شكل خاطئ جداً».

ضحك الرجلان، واسترخت هي أكثر قليلاً.

«أريد الوصول إلى أبعد ما يمكنني الوصول إليه، برغم أنني أعرف أنني أكاد أشارف حدود ما هو ممكن نظراً إلى أن عمري بات يلعب ضدي في عالم السينما. أعرف أنه يوجد في الخارج

الكثير من الاشخاص، لهم ما لي من موهبة أو أكثر، لكن تم اختياري - ولا أدري لماذا -، وقررت السير مع الأمر. قد تشكّل هذه فرصتي الأخيرة، وواقع أنني أقول ذلك الآن قد يُبخس من قدري، إلا أنني لا أملك خياراً. فأنا طوال حياتي تخيّلت لحظة كهذه: إجراء الاختبار. أن يتم اختياري، والتمكن من العمل مع محترفين حقيقيين. وها إنها تحصل أخيراً. وإذا لم يذهب الأمر إلى ما هو أبعد من هذا الاجتماع وعدت إلى دياري خالية الوفاض، فإنني سأعرف على الأقل أنني بلغت هذا الحد بسبب ميزتين: الاستقامة والمثابرة.

«أنا أفضل صديق لنفسي وأفضل عدو. كنت، قبل أن آتي إلى هنا، أفكّر في أنني لا أستأهل ذلك، وأنني لن أتمكن من إرضاء توقعاتكما، وأنكما ربما اخترتما المرشحة غير المناسبة. إلا أن قلبي أخذ في الوقت ذاته يُنبئني بأنني أكافأ لأنني لم أستسلم، ولكوني حاربت حتى النهاية».

أشاحت بوجهها. شعرت فجأة برغبة قوية في البكاء، لكنها سيطرت على نفسها، لأنه قد يُنظر إلى الأمر على أنه ابتزاز عاطفي. لكن صوت النجم اللطيف كسر أخيراً الصمت.

«يوجد أناس صادقون في عالم السينما، أناس يقدّرون الاحتراف، تماماً كما في أي صناعة من الصناعات. وهذا ما أوصلني إلى حيث أنا اليوم، والأمر ذاته ينطبق على مخرجنا هنا. ولقد مررت تماما بما أنت تمرّين به اليوم. نعرف كيف تشعرين».

مرّت حياتها كلها أمام ناظريها. كل سنوات البحث تلك بدون نتيجة، وقرع الأبواب التي لم تُفتح، أو السؤال وعدم الحصول أبداً على جواب، أو ملاقاتها بلا مبالاة تامة كما لو أنها غير موجودة. كل اللاءات التي سمعتها عندما لم يلحظ أحد حتى أنها حية تُرزق وتستحق جواباً على الأقل.

«لا يجب أن أبكي».

فكّرت في جميع الناس الذين أبلغوها على مر السنين، أنها تطارد حلماً مستحيلاً، والذين من المؤكد، في حال جرت الأمور كما يجب، سيقولون: لطالما عرفنا أن لديك الموهبة! أخذت شفتاها ترتجفان. بدا كما لو أن هذه الافكار كلها تنساب من قلبها فجأة. وهي سعيدة لأنها تمتعت بجرأة إظهار أنها بشرية وضعيفة، وأن اختيارها قد أحدث فرقاً هائلاً في روحها. وفي وسعها، إذا قرر غيبسون الآن تغيير رأيه في شأنها، أن تأخذ الزورق عائدة إلى الشاطئ بدون أي أسف. فلقد أظهرت شجاعة حقيقية وقت المعركة.

إنها تعتمد على أناس آخرين. استغرقها تعلّم الأمثولة وقتاً طويلاً، لكنها اقتنعت في النهاية بأن ذلك صحيح. تعرف أناساً فخورين باستقلالهم العاطفي، بينما الحقيقة أنهم سريعو العطب مثلها، وينتحبون سرّاً ولا يطلبون المساعدة أبداً. يؤمنون بالقاعدة غير المكتوبة، ومفادها أن العالم للأقوى، وأن المؤهلين وحدهم يبقون. ولو أن هذا صحيح لما بقي الجنس البشري أبداً، لأننا كأجناس نتطلب الرعاية والحماية على مدى سنوات عدة. أبلغها والدها مرة بأننا لا نستحصل على قدرة البقاء وحدنا إلا في سن التاسعة، بينما لا تتطلب الظرافة أكثر من خمس ساعات، وتحقق النحلة استقلالها في أقل من خمس دقائق.

«فيمَ تفكّرين؟»، سألها النجم.

«في أنني لا أحتاج إلى الادعاء أنني قوية، وهو ما يشكّل راحة كبرى. اعتدت على أن أواجه الكثير من المشاكل في علاقاتي لأنني اعتقدت أنني أعرف أفضل من أي كان، كيف أحصل على

ما أريد. كرهني جميع خلّاني بسبب هذا، ولم يمكنني أن أفهم لماذا. إلا أنني أُصبت بنزلة برد رهيبة في إحدى جولاتي المسرحية، ولم أتمكن من مغادرة غرفتي، برغم أنني ارتعبت من أن شخصاً آخر سيأخذ دوري. لم أستطع تناول الطعام، وأخذت أهلوس من شدة الحرارة. اتصلوا في نهاية الأمر بطبيب أمرني بالعودة إلى دياري. اعتقدت أنني خسرت معاً وظيفتي واحترام زملائي. لكن الحالة لم تكن على هذا الوجه أبداً: أمطروني بالأزهار وبالاتصالات الهاتفية. أرادوا جميعهم معرفة كيف أصبحت. أدركت فجأة أن الأناس الذين اعتقدتهم مناوئين لي، وينافسونني على الموقع ذاته تحت الأضواء، مهتمون فعلا بي. وأرسلت إلى واحدة من الممثلات بطاقة بريدية كتبت عليها كلمات طبيب سافر للعمل في إحدى البلدان النائية. كتب:

سمعنا جميعنا بمرض في أفريقيا الوسطى يدعى مرض النوم، وما يجب أن نعرفه أيضاً هو وجود مرض مشابه يصيب الروح. وهو خطر جدا، لأنه لا تتم ملاحظته في سن مبكرة. خذوا ملاحظة به عند أول إشارة إلى اللامبالاة أو النقص في الحماسة! والوقاية الوحيدة من هذا المرض هي في الإدارك أن الروح تتعذب، وتتعذب كثيراً، عندما نجبرها على العيش على نحو سطحي. الروح تحب كل ما هو جميل وعميق.

كلمات. فكّر النجم في بيت الشعر المفضّل لديه من قصيدة تعلّمها وهو لا يزال في المدرسة، وهو بيت لا يزال يُخيفه باطّراد مع مرور الزمن: «عليك أن تتخلى عن أي شيء آخر، لأنني أتوقّع أن أكون مقياسك الأوحد والحصري». فالاختيار هو ربما أصعب أمر

على كل كائن بشري أن يقوم به. ورأى أمامه، بينما الممثلة تخبر قصتها، انعكاس تجاربه الخاصة.

تذكّر فرصته الكبيرة الأولى التي فاز بها بفضل موهبته كممثل مسرحي. تذكّر كيف أن حياته تغيرت من دقيقة إلى أخرى، والشهرة التي استحوذت عليه بسرعة كبيرة بحيث لم يتسع له الوقت الكافي للتأقلم، وانتهى به الأمر بالقبول بدعوات إلى أمكنة ما كان عليه أن يقصدها، ورفضه الاجتماع بأناس في وسعهم أن يساعدوه أكثر في تقدّم حياته المهنية. ثم تذكّر المال الذي جناه، وهو لم يكن كثيراً جداً في الواقع، لكنه أعطاه شعوراً بأنه في إمكانه القيام بأي شيء. تذكر الهدايا الثمينة، والتغلغل في عالم غير مألوف، والطائرات الخاصة، ومطاعم الخمس نجوم، وأجنحة الفنادق التي تشبه غرف قصور الملوك والملكات الموجودة في مخيلة الطفل. ثم المقالات النقدية المليئة بالاحترام والثناء والكلمات التي لامست قلبه وروحه، والرسائل التي انهالت من كافة أنحاء العالم، واعتاد على الرد عليها شخصياً، كل واحدة بمفردها، بل حتى شطحت ذاكرته إلى حادثة تدبير لقاء مع بعض النساء اللواتي أرسلن إليه صورهن، إلى أن أدرك أنه ليس في وسعه وحسب الاستمرار بهذا الإيقاع، وقد خوّفه وكيله بتحذيره من أنه قد يسقط، على نحو سهل، فريسة شَرَك ما. وبرغم ذلك فإنه، حتى الآن، يستلذ على نحو خاص بلقاء المعجبين به الذين يتابعون كل خطوة من خطى حياته المهنية، وقد أسسوا موقعاً على الانترنت مكرساً لعمله، ويوزعون مجلات صغيرة تحكي عن كل ما يدور في حياته - الأمور الإيجابية، طبعاً - ويدافعون عنه في وجه كل هجوم يتعرض له من الصحافة عندما لا يحصل أي أداء له على الثناء الذي يستحقه.

وبمرور السنين، فإن ما بدا أنه معجزة، أو الفرصة الأكثر حظاً، التي قطع عهداً على نفسه بألا تستعبده أبداً، أصبح تدريجاً السبب الوحيد لاستمراره في الحياة. ثم إنه يتطلّع قُدُماً ويشعر بحسرة وقلق من أن ذلك كله قد ينتهي في يوم من الأيام. فثمة دوماً ممثلون أصغر سنّاً مستعدون للقبول بمبالغ مالية أقل في مقابل المزيد من العمل والإطلالة. لاحظ أن الناس يتكلّمون فقط على الأفلام الرائعة التي دفعته إلى الشهرة، والتي يعرف الجميع بها، برغم أنه مثّل من يومها في ٩٩ فيلماً لا يتذكّرها أحد حقاً.

لم تعد الظروف المالية ذاتها، لأنه ارتكب الخطيئة الأصلية بالاعتقاد أنه سيحصل دوماً على عمل وإجبار وكلائه على إبقاء أجره مرتفعاً جداً. وأصبح، نتيجة لذلك، يتلقى الأقل والأقل من العروض برغم أنه يطلب الآن نصف ما يتقاضاه عادة للظهور في فيلم. أخذت مشاعر اليأس تحزك عالماً ارتكز بكليّته حتى الآن، على الأمل في أنه سيمضي دوماً إلى ما هو أبعد، إما إلى أعلى وإما حتى بسرعة أكبر. لا يمكنه أن يسمح لنفسه بخسارة تقديره بهذا الشكل. وبات الآن، كلما بلغه نص، مهما كانت جودته، يضطر إلى القول إنه أحب حقيقة الدور المعروض عليه، وإنه على استعداد للعبه حتى ولو لم يتمكنوا من أن يعرضوا عليه أجره المعتاد. ويدّعي المنتجون أنهم صدّقوه، ويزعم وكيله أنه تمكن من إزالة الغشاوة عن أعينهم، لكنه يعلم بأن منتوجه يحتاج إلى أن يُشاهَد في مهرجانات كهذا المهرجان، دائم الانشغال، والتهذيب، ومتباعداً بعض الشيء، على غرار ما يجب أن تكون عليه أساطير السينما.

اقترح مستشاره الصحافي أن يتم تصويره وهو يقبّل ممثلة مشهورة، بحيث يمكن الصورة أن تظهر في واحدة من صحف

الفضائح. وقد اتصلوا بالفعل بالممثلة المذكورة التي تحتاج بدورها إلى القليل من الدعاية، ولم يبق الآن إلا اختيار التوقيت المناسب في خلال حفل عشاء هذه الليلة. ويجب على بت المسألة أن يبدو ابن ساعته، مع تأكدهما من وجود مصور في الجوار وبدون أن يبدُوَا، طبعاً، أنهما مدركان وجود من يراقبهما. سيحتلان العناوين من جديد، عندما يتم نشر الصور لاحقاً، وينفيان وجود أي علاقة حب بينهما، معلنين أن الصورة تشكل انتهاكاً للخصوصية، ويشرع المحامون في الإجراءات القانونية ضد المجلات، وسيبذل الملحقون الصحافيون لكل فريق من الفرقاء ما في وسعهم لإبقاء المسألة حيّة لأطول وقت ممكن.

برغم سنوات عمله الطويلة، وبغض النظر عن شهرته العالمية، فإن وضعه لا يختلف كثيراً عن وضع هذه الممثلة الشابة.

عليك أن تتخلى عن أي شيء آخر، لأنني أتوقّع أن أكون مقياسك الأوحد والحصري.

قاطع غيبسون صمت الثواني الثلاثين الذي خيّم على هذا المشهد المثالي: اليخت، الشمس، الشراب المثلّج، صيحات النوارس، النسيم العليل:

«أفترض أنك تريدين أخذ فكرة عن الدور الذي ستلعبينه لأن عنوان الفيلم قد يتغير من الآن وحتى العرض الأول. حسناً، أنت ستمثلين قبالته».

وأشار إلى النجم.

«يعني هذا أنك ستلعبين واحداً من الأدوار الرئيسية. ومن المنطقي

أن يصبح سؤالك التالي هو: لماذا أنا وليس نجمة سينمائية تحمل اسماً كبيراً؟».

«بالتحديد»، أجابت

«المال. لدينا ميزانية محدودة جداً للنص الذي طُلب مني إخراجه، وهو الفيلم الأول الذي يُنتجه حميد حسين، ونصفها سيذهب إلى التسويق بدلاً من المنتج النهائي. لذا، نحتاج إلى اسم كبير لجلب الجمهور، وممثلة مغمورة كلّياً، لن تكلّف كثيراً، لكنها ستحظى بالكثير من الانتباه من الإعلام. وهذا ليس بجديد. فمنذ أن أصبح لصناعة السينما شأن في العالم، والاستوديوهات تقوم بهذا من أجل الإبقاء على فكرة أن الشهرة والمال مترادفان. أذكر، عندما كنت فتى، رؤيتي تلك القصور العظيمة في هوليوود، واعتقادي أن جميع الممثلين لا بد من أنهم يجنون ثروة.

«هذه، في الحقيقة، كذبة. يوجد ربما عشرة أو عشرون نجماً في العالم يمكنهم الادعاء صدقاً أنهم يجنون ثروة، والباقون يعيشون على المظاهر: في منزل يستأجره الاستوديو، يرتدون ثياباً وحلياً يعيرهم إياها الخياطون والجوهريون. يقودون سيارات بقروض متوسطة الأمد من شركات تريد لأسمائها أن ترتبط بالحياة الراقية. الاستوديو يدفع لقاء كل هذه البهرجة، ويحصّل الممثلون القليل جداً. وهذه، طبعاً، ليست حال صديقنا هنا، لكنها ستكون حالتك».

لا يعلم النجم إذا كان غيبسون صادقاً، ويعتبره حقاً من بين النجوم الرئيسيين، أم أنه يتهكّم وحسب. الأمر ليس مهماً ما داموا

يوقّعون على العقد، ولا يغير المنتج رأيه في الدقيقة الأخيرة، ويتمكن كاتبو السيناريو من تسليم النص في الوقت، وما داموا يلتزمون تماماً بالموازنة، ويشرعون في حملة علاقات عامة ممتازة. فقد سبق له ورأى المئات من المشاريع تنتهي إلى لاشيء، وهذا واقع من وقائع الحياة وحسب. لكن فيلمه الأخير مرّ بدون أن يلاحظه الجمهور، وهو يحتاج يائساً إلى نجاح سهل. وغيبسون في موقع يخوله القيام بذلك بالتحديد.

«أوافق»، قالت المرأة الشابة.

«سنناقش كل شيء مع وكيلك، وستوقعين عقداً حصرياً معنا. ستتقاضين عن فيلمك الأول خمسة آلاف دولار في الشهر لمدة سنة، وسيكون عليك حضور حفلات، ويقوم قسم العلاقات العامة عندنا بتسويقك، فتذهبين أينما نرسلك، وتقولين ما نريد منك قوله، وليس ما تعتقدينه. أهذا واضح؟»

هزت غابرييلا برأسها موافقة. فما الذي يمكنها قوله؟ يمكن سكريتيرة في أوروبا أن تجني خمسة آلاف دولار في الشهر، والمسألة تتعلق بالقبول أو بالرحيل، وهي لا تريد أن تبدو مترددة ولو في شكل بسيط. إنها تدرك قواعد اللعبة.

«هكذا»، قال غيبسون، «ستعيشين كالمليونيرات وتتصرفين كنجمة كبيرة، لكن عليك أن تتذكري دوماً أنه ليس أي شيء من هذا صحيحاً. وإذا سارت الأمور كلها على ما يرام، فسنضاعف أجرك إلى عشرة آلاف دولار في الفيلم المقبل. وعندها سنجري حديثاً آخر لأنك ربما تفكرين في أنه: «يوماً ما سآخذ بثأري»، وطبيعي أن وكيلك أخذ علماً بشروطنا ويعرف ما يجب توقعه... أم أنك لم تدركي ذلك»

«لا يهم، ولا نية لي في السعي إلى الثأر».

ادعى غيبسون أنه لم يسمع:

«لم أستدعك إلى هنا للتحدث عن اختبارك؛ فقد كان رائعاً، وهو أفضل ما رأيته منذ فترة طويلة. وتعتقد مديرة المسرح الأمر ذاته. أستدعيتك للتأكد، منذ البداية، من أنك تفهمين ما أنت آيلة إليه. فكثر من الممثلات والممثلين يسعون إلى تغيير القواعد بعد فيلمهم الأول، عندما يشعرون بأن العالم بات تحت أقدامهم. إلا أنهم وقعوا على عقود، ويعرفون أن ذلك مستحيل، فيسقطون في نوع من الكآبة السوداء، ويمضون في طريق دمار الذات، وهذا النوع من الأمور. لذا، فإن سياستنا الآن تقضي بأن نحدد على نحو واضح ما سيكون عليه الأمر. وسيكون عليك، في حال نجاحك، أن تتعلمي الحياة مع امرأتين: واحدة منهما ستكون معبودة الجماهير حول العالم، بينما تبقى الأخرى مدركة دائما أنها لا تملك أي سلطة على الإطلاق.

«لذا، عليك، قبل ذهابك إلى الهيلتون لاستلام ثيابك لهذا المساء، أن تفكّري طويلاً وبقوة في شأن العواقب. وستجدين، بدخولك جناح الفندق ذلك، أربع نسخ من عقد طويل في انتظارك. وقبل توقيعه، سيظل العالم ملكاً لك، ويمكنك أن تفعلي ما تشائين بحياتك، لكن في اللحظة التي توقعينه، لن تعودي سيّدة أي شيء. سنسيطر على كل شيء، من طريقة قصك شعرك إلى أين تتناولين طعامك، حتى لو لم تشعري بالجوع. ومن الواضح أنه في إمكانك استخدام شهرتك المكتسبة حديثاً لجني المال من الدعاية، وهو السبب الذي يجعل الناس يقبلون بهذه الشروط».

نهض الرجلان. وسأل غيبسون النجم:

- هل تعتقد أنك ستستمتع بالتمثيل معها؟

«ستكون رائعة. فقد أظهرت مشاعر حقيقية في وضع يسعى فيه معظم الناس إلى الظهور بمظهر المتمَع بالأهلية».

«آه، في المناسبة، لا يذهبنَّ بك الأمر إلى الاعتقاد أنني صاحب هذا اليخت»، قال غيبسون بعد اتصاله بأحد ليرافقها إلى الزورق وإعادتها إلى الشاطئ.

فهمت الرسالة.

٣:٤٤ ب.ظ.

«لنصعد إلى الشرفة ونشرب القهوة»، قالت إيوا.

- لكن العرض يبدأ بعد ساعة من الآن، وأنت تعرفين كيف هي حال السير على الطريق.

- لا يزال أمامنا متسع من الوقت للقهوة.

صعدا الدرج، واستدارا يمنة ويساراً حتى نهاية الممر. يعرفهما الحارس الأمني هنا، وبالكاد استعلم عنهما. مرّا أمام صناديق زجاجية مليئة بالجواهر المطعَّمة بالماس، والياقوت، والزمرد، وخرجا إلى ضوء الشمس على شرفة الطابق الأول. تستأجر مؤسسة الجواهر الشهيرة ذاتها هذه المساحة في كل عام لاستقبال الأصدقاء، والمشاهير، والصحافيين. وهي مفروشة بأفضل الأثاث، وثمة دوماً طاولة تعج بأصناف الحلويات التي يعاد ملؤها في شكل مستمر. جلسا إلى طاولة تظللها شمسية. جاءهما النادل فطلبا مياهاً معدنية فوّارة وإكسبريسو. سألهما إذا كانا يرغبان في شيء من المقصف،

رفضا قائلين إنه سبق لهما أن تناولا الطعام. وعاد بعد أقل من دقيقتين بطلبهما.

«هل كل شيء على ما يرام؟»، سألها.

- نعم، أشكرك، كل شيء ممتاز.

كلا، فكّرت إيوا، لا يمكن إلى الأمور أن تكون أكثر سوءاً، برغم أن القهوة جيدة.

يعلم حميد أن ثمة أمراً غريباً يحصل لزوجته، لكنه فضّل ترك المحادثة إلى وقت آخر. لا يريد التفكير في الأمر. لا يود الآن أن يخاطر في أن يسمع، بين السطور، شيئاً مثل: سأهجرك. وهو يتمتع بما يكفي من الانضباط للسيطرة على عواطفه.

جلس إلى واحدة من الطاولات الأخرى، واحد من أكثر مصممي الأزياء شهرة في العالم، وكاميرته إلى جانبه، يحدّق في الفضاء، كما لو أنه يأمل الإيضاح أنه لا يريد أن يتم إزعاجه. لا يقترب منه أحد. وفي كل مرة يحاول شخص، عن غير دراية منه، القيام بذلك، تأتي سيدة العلاقات العامة في الفندق، وهي امرأة رضيّة في الخمسين من عمرها، وتطلب منه بتهذيب تركه وشأنه؛ فهو يحتاج إلى فرجة من التدافع المستمر عليه من العارضات، والصحافيين، والزبائن، ومدراء الحفلات.

استذكر حميد لقاءهما الأول، منذ سنوات طويلة مضت تبدو الآن كأنها منذ الأزل. كان قد مضى عليه أحد عشر شهراً في باريس، وأصبح له بضعة أصدقاء في عالم الموضة. قرع مختلف الأبواب، وحظي، بفضل الاتصالات التي وفّرها له الشيخ (الذي ربما لا يعرف أحداً في هذا العالم بالتحديد، لكن لديه أصدقاء أصحاب نفوذ في المواقع الرفيعة)، بوظيفة مصمم أزياء في واحدة من أكثر

الدور اعتباراً في مجال الخياطة الراقية. وبدلاً من وضع الرسوم استنادا إلى القماش الذي أُعطي له، اعتاد البقاء في الاستوديو حتى وقت متأخر من الليل يعمل على الأقمشة التي جاء بها من بلده. استُدعي في تلك الفترة مرتين إلى الديار. الأولى عندما علم بأن والده مات وترك له عمل العائلة الصغير. وقبل أن يتاح له الوقت للتفكير في الأمر، أبلغه أحد مبعوثي الشيخ أن شخصاً آخر سيتولى الأعمال ويقوم بالاستثمار اللازم لضمان ازدهاره، لكن ملكية العمل ستبقى باسمه.

سأل عن السبب، بما أنه ليست للشيخ معرفة بالموضوع ولا اهتمام به.

وسمع الجواب: يقوم صانع أمتعة فرنسي بتأسيس عمل له هنا. وأول ما قام به هو البحث عن أنسجة محلية الصنع وعد بأنه سيستخدمها في بعض من منتجاته الكمالية. لذا، لم يصبح لدينا وحسب زبون واحد، بل سنتمكن أيضاً من تشريف تقاليدنا، ونحتفظ بالسيطرة على المواد الأولية.

عاد حميد إلى باريس متيقناً من أن روح والده في الجنة، وأن ذكراه باقية في الأرض التي أحبها كثيراً. استمر في العمل حتى وقت متأخر من الليل، يضع التصاميم ذات المواضيع البدوية، ويُجري التجارب بالأقمشة التي عاد بها معه. ولو أن تلك الشركة الفرنسية - المعروفة بتصاميمها التجديدية وذوقها الرفيع - تُظهر اهتماماً بالمنتجات المحلية، فسرعان ما سيبلغ الخبر عاصمة الأناقة، ومن المؤكد أن الطلب سيكون كبيراً. الأمر ليس إلا مسألة وقت، خصوصا أن الأخبار تسافر سريعاً.

استُدعي في صبيحة أحد الأيام لرؤية المدير. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها هذا الحرم الداخلي: مكتب المصمم الكبير. دُهش

لرؤية كم أنه قليل الترتيب. الصحف منتشرة في كل مكان، وأكوام الأوراق ترتفع على المكتب الأثري، كميات كبرى من الصور الملتقطة له مع مختلف المشاهير، غلافات مجلات تم إبرازها، وعيّنات من الأقمشة، وإناء مليء بالريش الأبيض من جميع الأحجام.

«أنت تتقن جيداً ما تقوم به. جعلتُ الجميع ينظرون إلى رسماتك التي تركتها في المكان. ولو أنني مكانك لاعتمدت الحرص، فأنت لا تعرف متى يغير أحدهم عمله، ويسرق أي أفكار جيدة يتلقطها من هنا».

لم يحب حميد التفكير في أنه يتم التجسس عليه، لكنه لم يقل شيئاً، وتابع الخياط الكبير:

لماذا أعتقد أنك جيّد؟ لأنك جئت من بلد يلبس الناس فيه بطريقة مغايرة جداً، وأنت أخذت تفهم كيفية ملاءمة هذه الأزياء مع الغرب. إلا أنه توجد مشكلة واحدة: لا يمكننا شراء هذه الأقمشة من هنا. كذلك فإن تصاميمك تحتوي على دلالات دينية، والموضة تتعلق، فوق كل شيء، بإلباس الجسد، برغم أنها تعكس حتماً الكثير مما يدور في النفس أيضاً.

مشى إلى كومة من المجلات كما لو أنه يعرف تماماً ماذا فيها، واختار نسخة محددة يمكن أن يكون اشتراها من بائعي الكتب الذين يعرضون حاجياتهم على ضفاف نهر السين منذ أيام نابليون. عدد قديم من مجلة «باري ماتش» تحمل على غلافها صورة كريستيان ديور.

«ما الذي يجعل من هذا الرجل أسطورة؟ سأقول لك: إنها مقدرته على فهم البشر. فمن بين جميع ثورات عالم الأزياء، توجد واحدة تستحق إشارة خاصة. بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، عندما

واجهت أوروبا نقصاً في الإمدادات بالثياب وما وُجد يكاد لا يكفي لصنع أي منها، شرع في تصميم ملابس تتطلب كميات كبرى من الأقمشة. وهو بقيامه بذلك، لم يُظهر امرأة جميلة ترتدي ثياباً جميلة وحسب، بل كان أيضاً يبيع حلماً بأننا سنعود من جديد إلى زمن الأناقة، والوفرة والبحبوحة. هوجم وأُهين لقيامه بذلك، لكنه عرف أنه يسلك الاتجاه الصحيح الذي يعاكس دوماً اتجاهات الآخرين جميعاً».

أعاد المجلة إلى مكانها تماماً، وعاد ممسكاً بواحدة أخرى.

«وهذه هي كوكو شانيل. تخلى عنها أهلها، فأصبحت مغنية في كباريه، وهي بالتحديد ذلك النوع من النساء الذي لا يمكنه أن يتوقع من الحياة إلا الأسوأ. لكنها اقتنصت الفرصة التي أتيحت لها - وهي في حالتها سلسلة من العشاق الأثرياء - وحوّلت نفسها إلى أهم مصممة أزياء في عصرها. ما الذي فعلته؟ حررت النساء من عبودية المشدات: آلات التعذيب تلك التي تسجن الجذع وتمنع أي حركة طبيعية. ارتكبت خطأً واحداً فقط: أخفت ماضيها في وقت كان سيساعدها على أن تصبح أسطورة أكبر مما هي عليه: المرأة التي استمرّت برغم كل شيء».

أعاد هذه المجلة إلى موضعها أيضاً. وتابع:

- قد تسأل: لماذا لم يفعلوا ذلك من قبل؟ لن نعرف أبداً. لا شك في أن الناس حاولوا. خياطون نسيهم التاريخ كلّياً لأنهم فشلوا في أن يعكسوا في مجموعاتهم روح العصور التي عاشوا فيها. احتاجت شانيل إلى أكثر من مهارة خلّاقة وأكثر من عشاق أثرياء، لتحدث الوقع الذي أحدثته. فقد اقتضى الأمر استعداداً من المجتمع للثورة النسائية الكبرى التي حدثت في الوقت ذاته.

توقف الخياط قليلاً.

إنه دور الشرق الأوسط الآن، والسبب بالتحديد هو التوتر والخوف الآتيان من بلادك، واللذان يُبقيان العالم في المطهر. أعرف هذا لأنني مدير هذه الشركة. فكل شيء يبدأ، في الأساس، باجتماع للمزودين الرئيسيين بالصباغ.

استرق حميد من جديد النظر إلى المصمم الجالس وحده على الشرفة، وكاميرته موضوعة على الكرسي إلى جانبه. ربّما لاحظ وصول حميد، وهو يتساءل الآن من أين حصل على المال الذي مكّنه من أن يصبح منافسه الأكبر.

بذل الرجل الذي يحدّق الآن في الفضاء ويصطنع عدم الاهتمام، كل ما في وسعه لمنع قبول عضوية حميد في الاتحاد. اعتقد أن تمويله يأتي من أموال النفط، وشعر بأن هذا يشكّل منافسة غير عادلة. لم يعرف أن مدير الماركة الذي كان حميد يعمل عنده حينها، قد عرض عليه وظيفة أفضل (ليست أفضل تعني أن اسمه سيظهر في أي مكان، فلقد تعاقدت المؤسسة مع مصمم آخر ليبرز تحت أضواء ممر العرض). كما أنه لم يعرف أنه بعد شهرين من هنا، وثمانية أشهر على وفاة والده، استُدعي حميد إلى لقاء وجهاً لوجه مع الشيخ.

عندما بلغ حميد الديار، وجد صعوبة في التعرف إلى المدينة التي كانت في ما سبق مدينته. امتدت هياكل ناطحات السحاب على الجادة الوحيدة فيها، حركة السير لا تطاق، المطار القديم في

حالة تقارب الفوضى، لكن فكرة الشيخ شرعت تأخذ شكلها. ستكون المدينة واحة سلام وسط الحرب، جنة الاستثمارات وسط أسواق مالية مضطربة، والوجه الظاهر لأمة تلذذ الكثيرون من الناس في انتقادها وإذلالها ومعاداتها. وشرعت دول أخرى في المنطقة الآن في الاعتقاد بتلك المدينة التي تُبنى وسط الصحراء، والتي أخذت الأموال تتدفق إليها، قليلاً قليلاً في البداية، إلى أن أصبحت كالنهر الجارف.

لكن القصر بقي ذاته، برغم أنه يتم بناء واحد أكبر منه بكثير على مسافة ليست بعيدة من هناك. وصل حميد الى الاجتماع في أفضل مزاج، قائلا إنه قد حصل على عرض بوظيفة ممتازة ولم يعد في حاجة إلى معونة الشيخ المالية، بل إنه سيعمد بالتأكيد إلى استرداد كل قرش استُثمر فيه.

«قدّم استقالتك»، قال الشيخ.

لم يستوعب حميد. عرف أن العمل الذي تركه له والده يجري في شكل جيد، لكنه يمتلك أحلاماً أخرى لمستقبله. إلا أنه لا يمكنه تحدّي هذا الرجل الذي فعل الكثير لمساعدته... ليس مرّة ثانية.

«أمكنني في الاجتماع الأول أن أقول لا لسموّك لأنني كنت أدافع عن حقوق والدي التي تأتي دوماً في الطليعة. إلا أنه علي الآن الانحناء لمشيئتك. إذا اعتقدت أنك خسرت المال باستثمارك في عملي، فسأفعل كل ما تطلبه. سأعود إلى دياري وأدير ميراثي. وإذا كان علي التخلي عن حلمي احتراماً منّي لقانون قبيلتي، فسأفعل».

تلفّظ بهذه الكلمات بدون ارتعاش. لم يجرؤ على إظهار أي ضعف أمام رجل يحترم إلى حد كبير قوة الرجال الآخرين.

«أنا لا اطلب منك العودة إلى الديار. فترقيتك إشارة إلى أنك على استعداد لإنشاء شركتك الخاصة. وهذا ما أريد منك فعله».

«أن أنشئ شركتي الخاصة؟»، فكّر حميد. «هل سمعته جيداً؟».

«المزيد والمزيد من أصحاب شركات الأزياء الكبرى ينشئون أعمالاً لهم هنا»، قال الشيخ. «وهم ليسوا بالحمقى. فقد أخذت نساؤنا في تبديل نمط تفكيرهن وملابسهن. بل إن للموضة وقعاً أكبر بكثير على منطقتنا من الاستثمار الأجنبي. سبق وتحدثت إلى رجال ونساء يعرفون بهذه الأمور. وأنا لست إلا مجرّد بدوي اعتقد، عندما رأى سيارة للمرة الأولى، أنه يتم إطعامها كالجمال».

- أود أن يقرأ الأجانب شعراءنا، ويستمعوا إلى موسيقانا، ويغنوا ويرقصوا على أنغام الأغاني التي مررها أجدادنا إلينا من جيل إلى جيل، لكن لا يبدو أن أحداً مهتماً بذلك. وثمة طريقة وحيدة فقط يتعلّمونها لاحترام تقليدنا، وهي من خلال العالم الذي تعمل أنت فيه. إذا استطاعوا أن يفهموا من نحن من طريقة ملابسنا، فسيفهمون في النهاية كل شيء آخر.

التقى حميد في اليوم الثاني بمجموعة مستثمرين من بلدان مختلفة. وضعوا في تصرفه مبلغاً ضخماً من المال، وحددوا له موعداً لردّه. سألوه إذا كان جاهزاً ومستعداً لقبول التحدي.

طلب حميد وقتاً للتفكير. مضى إلى قبر والده وصلّى طوال بعد الظهر والمساء. مشى تلك الليلة في الصحراء، وشعر بالريح تجمّد عظامه، ثم عاد إلى الفندق الذي يقيم فيه المستثمرون الأجانب. ويقول المثل العربي «مبارك هو الذي يعطي أبناءكم أجنحة وجذوراً».

احتاج إلى جذوره. يوجد مكان في العالم نولد فيه، ونتعلم فيه

لغتنا الأم، ونكتشف كيف تغلّب أجدادنا على المشاكل التي واجهوها. ويأتي دوماً وقت نشعر فيه بالمسؤولية عن ذلك المكان.

احتاج أيضاً إلى الأجنحة، فهي تكشف لنا عن آفاق من المخيلة لا حد لها تحملنا إلى أحلامنا وإلى أمكنة بعيدة. إن اجنحتنا هي التي تسمح لنا بمعرفة جذور رفاقنا البشر والتعلم منهم.

طلب الإيحاء من الله وشرع في الصلاة. وتذكّر بعد ذلك بساعتين، محادثة استمع إليها بين والده وصديق له في متجره:

«طلب مني ابني هذا الصباح مالاً ليشتري خروفاً. هل تعتقد أن عليّ مساعدته؟».

- بما أن الأمر ليس مستعجلاً كثيراً، أُمهِلْ نفسك أسبوعاً قبل إعطائه الجواب.

- لكن لدي القدرة على مساعدته الآن. ما الفرق الذي سيُحدثه أسبوع؟

- فارق كبير جداً بالفعل. علّمتني التجربة أن الناس يفون أمراً حق قدره إذا لم يتأكدوا، عند حد ما، من أنهم سيحصلون عليه.

ترك حميد المستثمرين ينتظرون أسبوعاً، ثم قبل التحدي. احتاج إلى أناس يهتمون بالمال ويستثمرونه كما يشاء. احتاج إلى موظفين، ومن المفضل أن يكونوا من أبناء قريته. يحتاج إلى البقاء سنة أخرى في العمل الذي يقوم به حاليا ليتعلّم ما لا يزال يحتاج إلى معرفته. وهذا كل شيء.

كل شيء يبدأ باجتماع للمزوّدين الرئيسيين بالصباغ.

في الحقيقة، ليس ذلك صحيحاً تماماً: كل شيء يبدأ عندما تلاحظ الشركات المولجة دراسة اتجاه السوق، الأمور المختلفة - ومن بينها الموضة - التي تهتم بها في الوقت الحاضر كل طبقة من طبقات المجتمع. يستند هذا البحث إلى مقابلات مع الزبائن، ومراقبة العينات عن كثب... لكن، فوق ذلك كله، ثمة ملاحظة دقيقة لجماعة معينة من الناس - تتراوح أعمارها في العادة بين ٢٠ و٣٠ - تقصد الملاهي الليلية، وتتسكع في الشوارع، وتقرأ يوميات الانترنت. وهؤلاء لا ينظرون أبدا إلى ما في واجهات المحلات، وحتى الماركات المعروفة، لأن الموجود هناك كله قد بلغ الجمهور بالفعل، وهو بالتالي محكوم عليه بالموت.

يريد موائمو الموضة معرفة ما هو الشيء التالي الذي سيأسر مخيلة المستهلك؟ لا يملك الشبان ما يكفي من المال لشراء البضائع الكمالية، لذا عليهم اختراع طرائق جديدة للملبس. وبما أنهم يعيشون مسمرين إلى شاشات حواسيبهم، فإنهم يتشاركون في الاهتمامات مع الآخرين الذين يفكرون مثلهم. وهذه الاهتمامات قد تصبح في الغالب نوعية الفيروس الذي يصيب الجماعة بأسرها. يؤثّر الشبان في وجهات نظر أهاليهم في السياسة والأدب والموسيقى، وليس العكس كما يعتقد البالغون الألمعيون. إلا أن للأهل تأثيراً في نظام القيم لدى الشبان. قد يكون المراهقون بطبيعتهم متمردين، لكنهم يعتقدون دوماً أن العائلة على حق. قد يرتدون ثيابهم بطريقة غريبة ويحبون الاستماع إلى مغنين «يعوون» ويكسرون الغيتارات، لكن هذا أقصى ما يصلون إليه. لا يملكون الجرأة على الذهاب إلى ما هو أبعد، واستثارة ثورة حقيقة في السلوك.

فعلوا ذلك في الماضي، ولحسن الحظ تكسّرت الموجة وعادت إلى البحر.

تُظهر دراسات اتجاه السوق هذه كلها، أن المجتمع يتجه إلى أسلوب أكثر محافظة، بعيداً عن الخطر الذي شكّلته النساء اللواتي قاتلن في مطلع القرن العشرين من أجل حقهن في الاقتراع وفزن به، أو الخنافس الهبيون الطليقو الشعر غير النظيفين (مجموعة من المجانين يعتقدون أن السلام والحب المجاني يشكلان احتمالاً حقيقياً).

علق العالم في ١٩٦٠، على سبيل المثال، في حروب دموية في ما بعد الحقبة الاستعمارية. ولأن التهديد بالحرب النووية أرعبنا، وبرغم أننا كنا لا نزال نمر في مرحلة من البحبوحة الاقتصادية، احتجنا جميعنا يائسين إلى بعض من الفرح. وكما أن كريستيان ديور أدرك أن الأمل في الوفر المستقبلي يمكن التعبير عنه من خلال الثياب باستخدام ياردات من القماش، مضى مصممو الستينيات يبحثون عن تركيبة ألوان ترفع من معنويات الناس، وانتهوا إلى نتيجة بأن الأحمر والبنفسجي هما في الوقت ذاته مهدّئان ومحفّزان.

تغيرت النظرة الجماعية كلياً بعد أربعين سنة على ذلك: لم يعد العالم تحت التهديد بالحرب، بل أضحى يمر في مشاكل بيئية خطيرة. اختار المصممون ألواناً مأخوذة من العالم الطبيعي: رمول الصحراء، الأدغال، البحر. وظهرت بين هاتين الفترتين اتجاهات مختلفة أخرى - التخيلية، المستقبلية، الأرستقراطية، الحنينية - واختفت.

تُستخدم دراسات تحولات السوق هذه لإعطاء صورة عن الحالة الذهنية للعالم قبل التحديد النهائي لمجموعات المصمم الكبير. ويبدو الآن برغم الحروب، والمجاعة في أفريقيا، وانتهاك حقوق الإنسان، والموقف الصلفة لبعض الدول المتطورة، أن انشغالنا الرئيسي

هو في إنقاذ كوكبنا الأرضي المسكين من التهديدات الكثيرة التي ولّدها المجتمع الانساني.

علم البيئة، إنقاذ الكوكب. يا للسخرية.

يعرف حميد برغم ذلك أنه لا فائدة من محاربة اللاوعي الجماعي. الألوان، الأكسسوارات، الأقمشة، وما يُسمى المناسبات الخيرية التي تحضرها الطبقة الأرفع، وما يُنشر من كتب، والموسيقى التي تُذاع على الراديو، والأفلام الوثائقية التي يضعها سياسيون سابقون، والافلام الجديدة، ومواد صنع الأحذية، والفيول العضوي الجديد، والالتماسات المرفوعة إلى أعضاء مجلسي النواب والشيوخ، والسندات التي يبيعها أكبر مصارف العالم... كلّ شيء يبدو أنه يركّز على أمر واحد: إنقاذ الكوكب. وتُصنع الثروات بين ليلة وضحاها، وتعطي الصحافة مساحات واسعة للمتعددة الجنسيات لأنها تقوم بعمل ما غير ذي صلة كليّاً، وتضع منظمات غير حكومية عديمة الضمير إعلانات على القنوات التلفزيونية الرئيسة، وتحصل على تبرّعات بمئات الملايين من الدولارات لأن الجميع يبدو مهووساً بمصير كوكب الأرض.

وهو، في كل مرة يقرأ مقالات في الصحف أو المجلات كتبها سياسيون يستخدمون الانحباس الحراري العالمي أو دمار البيئة قاعدة لحملتهم الانتخابية، يفكّر:

كيف يمكننا أن نصبح على هذا القدر من الصلف؟ فالأرض كانت، وستبقى، أقوى منّا جميعاً. لا يمكننا تدميرها، وإذا ما تجاوزنا الحدود فستمحونا وحسب عن وجهها، وتستمر هي في الوجود. لماذا لا يشرعون في الحديث عن عدم ترك الأرض تدمّرنا؟

لأن «إنقاذ الكوكب» يعطي شعوراً بالقوة والعمل والنبل، بينما

،عدم ترك الأرض تدمرنا، قد يؤدّي إلى مشاعر من اليأس والعجز، وإلى إدراك مدى المحدودية الكبرى لقدراتنا.

لكن هذا ما تشير إليه الاتجاهات، وعلى الموضة أن تتكيّف مع رغبات الزبائن. وها إن معامل الصباغ منشغلة في إنتاج ما تعتبر أنها الألوان الفضلى للمجموعة المقبلة. وصانعو الاقمشة يفتّشون عن الخيوط الطبيعية، ومبتكرو الأكسسوارات، مثل الأحزمة والحقائب والنظارات وساعات اليد، يبذلون أفضل ما في وسعهم للتكيّف من خلال توزيع مناشير مطبوعة على ورق أعيد تدويره شارحين فيها ما بذلوه من جهود كبيرة من أجل الحفاظ على البيئة. هذا كلّه سيُعرض على المصممين الرئيسيين في أكبر معارض الأقمشة - غير المخصصة للجمهور -، التي تحمل الاسم الموحي: العرض الأول.

بعد ذلك، يشرع كل مصمم في تطبيق إبداعه على المجموعة الجديدة، ويشعر بأن الخياطة الراقية تشكّل إبداعاً وابتكاراً، وأمراً مختلفاً، ملهماً. وهذا ليس صحيحاً. إنهم يكادون يتبعون بعبودية ما تفرضه اتجاهات السوق. وكلما كانت الماركة مهمة، كلما قلّ الاستعداد لركوب المخاطر نظراً إلى أن وظائف مئات الأشخاص حول العالم تعتمد على قرارات مجموعة صغيرة من الناس، الطبقة الأرفع للخياطة الراقية في العالم، التي بدأت بالفعل تجهد، كل ستة أشهر، في ادعاء وجود شيء مختلف لديها للبيع.

التصاميم الأولى وضعها عباقرة أُسيء فهمهم. حلموا بالحصول في يوم من الأيام، على ماركتهم الخاصة. عملوا لنحو ستة شهور، وأحياناً ثمانية أشهر، بالقلم الرصاص والورق أولاً، ثم بنماذج أولى مصنوعة من القماش الرخيص ويمكن تصويرها والعارضات

يرتدينها، ويقوم المدراء بتحليلها. ومن أصل نحو مئة نموذج أول، يتم اختيار نحو عشرين للعرض للمقبل. وتُدخَل التعديلات؛ أزرار جديدة، قصة مختلفة للكمين، أو بعض الحياكة غير المعتادة.

ثم يتم التقاط المزيد من الصور، هذه المرة مع العارضة جالسة، أو متمددة، أو تمشي، ويُضاف أيضاً المزيد من التعديلات، لأن ملاحظات مثل «مناسب» فقط لمر العرض، قد تدمّر المجموعة بكاملها، وتضع صيت ماركة محددة على المحك. ويتم في خلال هذه العملية، على نحو اعتباطي، طرد بعض العباقرة الذين أُسيء فهمهم بدون أن يحق لهم أي تعويض، لأنهم وُجدوا هنا فقط بوصفهم متدربين. وعلى الأكثر موهبة من بين الذين بقوا، أن يعيدوا التفكير مرات عدة في ابتكاراتهم، وهم يدركون أنه مهما كان التصميم ناجحاً، فلن تتم الإشارة إلا إلى اسم الماركة فقط.

يقسمون جميعهم على الانتقام، في يوم من الأيام. يقولون لأنفسهم إنهم سيفتحون متجرهم الخاص ويحصلون على التقدير الذي يستحقونه. إلا أنهم، في غضون ذلك، يبتسمون كما لو أنهم يستطيرون فرحاً لأنه تم اختيارهم. وبينما يتم انتقاء آخر العارضات، يُسرَّح المزيد من الناس ويؤخذ المزيد غيرهم (للمجموعة المقبلة). وفي النهاية تُستخدم أقمشة أصلية لصنع الثياب التي ستظهر في العرض كما لو أنها المرة الأولى التي تُعرض فيها على الجمهور. وهذا، طبعاً، جزء من الأسطورة، لأن بائعي المفرق في العالم باتوا يملكون صوراً للتصاميم المختلفة مأخوذة من كل زاوية يمكن تصوّرها، إضافة إلى التفاصيل عن الأكسسوارات، وحياكة القماش، والسعر الموصى به للبيع بالمفرق، وعناوين المزودين. وها إن المجموعة الجديدة، بحسب حجم الماركة وأهميتها، قد بدأ إنتاجها بكمية كبيرة في بلدان مختلفة حول العالم.

ثم يأتي اليوم الكبير، أو بالأحرى الأسابيع الثلاثة التي تحدد بداية حقبة جديدة (التي، كما يعرفون جميعهم، لن تستمر سوى ستة أشهر). يبدأ في لندن، ثم يذهب إلى ميلانو، وينتهي في باريس. دُعي الصحافيون من مختلف أصقاع الأرض، وتدافع المصورون لاحتلال أفضل المراكز، وتمت معالجة كل شيء في أقصى قدر من السرية. كرّست الصحف والمجلات الصفحات تلو الصفحات لآخر التصاميم، وبهرت النساء، ونظر الرجال بنوع من الاحتقار إلى ما يعتقدون أنه مجرّد مادة على الموضة، وفكّروا بمرارة كيف أنهم سيضطرون إلى صرف بضعة آلاف من الدولارات على أمر لا يشكل أي أهمية لهم، لكن نساءهم يعتبرنه شعاراً للطبقة الأرفع.

بعد أسبوع من ذلك، يصبح الأمر الذي وُصف بالحصري، متوافراً في المتاجر حول العالم. ولا يطرح أحد السؤال عن كيف أمكنه السفر بمثل هذه السرعة، وكيف سُوّق إنتاجه في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن. لكن الاسطورة تبقى أكثر أهمية من الواقع.

لم يدرك المستهلكون أن هذه الموضة الجديدة ابتدعها أولئك الذين إنما يتبعون الأزياء الموجودة، وأن كلمة «حصرياً» هي مجرّد كذبة اختاروا تصديقها، وأن الكثير من المجموعات التي نوّهت بها الصحافة المختصة تخص كبار مصنعي الكماليات الذين يدعمون هذه المجلات والصحف ذاتها، من خلال صفحات كاملة من الإعلان. وهناك، بالتأكيد، استثناءات. وقد أصبح حميد حسين، بعد سنوات من الكفاح، واحداً منها، ومن هنا مصدر قوته.

لاحظ أن إيوا تتحقق من جديد من هاتفها المحمول، وهو أمر لا

تفعله في العادة. والواقع أنها تكره هذا الشيء، ربما لأنه يذكّرها بعلاقتها السابقة، وهي فترة من حياتها يعرف القليل عنها أو لاشيء لأنه ما من أحد منهما يشير إليها. نظر إلى ساعته. أمامهما متسع من الوقت لإنهاء قهوتهما بدون استعجال. تطلّع من جديد إلى المصمم الآخر. لو أن الأمر أبتدأ فعلاً باجتماع لصانعي الصباغ وانتهى على ممر العرض، لكن الأمر ليس على هذا المنوال.

التقى للمرة الأولى والرجل الجالس وحده الآن ويحدّق في الأفق في أحد العروض الأولى. كان حميد لا يزال يعمل لدى مؤسسة الأزياء الكبرى التي استخدمته كمصمم، برغم أن الشيخ شرع، حينها، في تنظيم جيش صغير من أحد عشر شخصاً سيعلمون على تنفيذ فكرة استخدام الموضة نافذة تُطلّ على عالمهم ودينهم وثقافتهم.

قال حميد: نقف هنا معظم الوقت نستمع إلى شرح حول كيفية تقديم أبسط الأمور على نحو أكثر تعقيداً.

كانا يسيران أمام أكشاك تعرض آخر الاقمشة، وآخر التقنيات الثورية، والألوان التي ستُستخدم في غضون السنتين المقبلتين، بل حتى الأكسسوارات الأكثر تطوراً: إبزيمات بلاتينية للأحزمة، حاملات لبطاقات الاعتماد تعمل بضغطة زر، سوارات ساعات يمكن التحكم في حجمها بدقة بواسطة قرص مطعّم بالماس.

ميّزه الخياط من فوق إلى تحت.

«لطالما كان العالم معقداً، وسيبقى، كذلك».

- لا أعتقد ذلك، وإذا ما تركتُ أبداً المؤسسة التي أعمل فيها الآن،

فسيكون ذلك من أجل إنشاء عملي الخاص الذي سيسير في اتجاه معاكس لهذه الاعتقادات.

ضحك الخياط.

- تعرف كيف هو عالم الموضة. لا بد من أنك سمعت بالاتحاد، ولا بد من أنك تعرف أن قبول الأجنبي فيه يستغرق وقتاً طويلاً، وطويلاً جداً.

واتحاد الخياطة الفرنسي واحد من أكثر الأندية حصرية في العالم. فهو يقرر من يشارك ومن لا يشارك في أسابيع الموضة في باريس، إضافة إلى تحديد القواعد التي على المشاركين اتباعها. وقد أنشئ للمرة الأولى في ١٨٦٨، ويمتلك سلطة هائلة. وقد حوّل عبارة الخياطة الراقية إلى ماركة مسجلة لا يمكن أي أحد خارج الاتحاد استخدامها بدون مواجهة خطر ملاحقته قانونياً. وهو ينشر النسخ العشرة آلاف من الكاتالوغ الرسمي للحدثين السنويين الكبيرين، ويقرر من يحصل من الصحافيين على بطاقات المرور الألفين، ويختار كبار الشارين، ويحدد مكان كل عرض استناداً إلى أهمية المصمم.

«نعم، أعرف كيف هو عالم الموضة»، قال حميد مُنهياً المحادثة. شعر بأن الرجل الذي يتحدث معه سيصبح في المستقبل مصمماً كبيراً، لكنه عرف أيضاً أنهما لن يصبحا صديقين أبداً.

بعد ذلك بستة أشهر، بات كل شيء جاهزاً لمغامرته الكبرى. استقال من عمله، وفتح أول متجر له في سان جيرمان ديبريه، وشرع في القتال بأفضل ما يمكنه. خسر الكثير من المعارك، لكنه أدرك أمراً واحداً: لا يمكنه الانصياع لاستبداد الشركات التي تحدد اتجاهات الموضة. عليه أن يبتكر، وقد نجح لأنه جلب معه

بساطة البدوي، ومعرفته بالصحراء، وكل ما تعلّمه في المؤسسة التي عمل فيها ما يفوق السنة، إضافة إلى نصيحة بعض الخبراء الماليين، إلى جانب الأقمشة الجديدة كليّاً، والمبتكرة.

افتتح بعد ذلك بسنتين خمسة أو ستة متاجر كبرى في فرنسا، وتم قبوله في الاتحاد، ليس بسبب موهبته وحسب، بل أيضاً بفضل اتصالات الشيخ الذي يقرر مبعوثوه من هي الشركة الفرنسية التي يمكنها فتح فروع لها في بلادهم.

عبرت أمور كثيرة. بدّل الناس آراءهم. انتُخب رؤساء وتنحى آخرون. ازدادت شعبية التكنولوجيا الجديدة، فأخذت الانترنت تسيطر على الاتصالات العالمية، وأصبح الرأي العام أكثر تأثيراً في جميع مجالات النشاط الإنساني، واستعادت الرفاهية والبهرجة مكانتهما التي خسرتاها. كبر عمله وتوسع، ولم يعد يتعاطى في الموضة وحسب، بل في الأكسسوارات، والتجهيزات، ومستحضرات التجميل، والساعات، والأقمشة الحصرية.

أصبح حميد الآن سيّداً على امبراطورية، وقد كافأ بوفرة جميع الذين استثمروا في حلمه من خلال حصص توزّع على حاملي الأسهم. استمر في الإشراف على معظم ما ينتجه عمله، وحضر جلسات التصوير الأكثر أهمية، وبقي يصمم معظم الملابس، ويزور الصحراء ثلاث مرات في السنة للصلاة قرب قبر والده، لروحه، ولتقديم محضر بنشاطاته إلى الشيخ. وها إنه يسير في تحدّ جديد، فهو سينتج فيلماً.

نظر إلى ساعته، وقال لإيوا إن وقت الذهاب قد حان. فسألته إذا كان الأمر حقيقة على هذا القدر من الأهمية.

«لا، ليس كذلك، لكنني أحب أن أكون هناك».

وقفت إيوا. نظر حميد مرة أخيرة إلى الخياط الجالس وحيداً يتأمل في البحر المتوسط، غافلاً عن أي شيء

٧:٤٠ ب.ظ

للشبان جميعهم الحلم ذاته: إنقاذ العالم. إلا أنه سرعان ما ينسى البعض منهم هذا الحلم، مقتنعين بوجود أمور أكثر أهمية يقومون بها، مثل تأسيس عائلة، وكسب المال، والسفر، وتعلّم لغة أجنبية. لكن آخرين يقررون أنه يمكن فعلاً إحداث فارق في المجتمع وتغيير شكل العالم الذي سنسلمه إلى الأجيال المقبلة.

يبدأون باختيار مهنتهم: سياسيون (ينبع حافزهم الأول دائماً من الرغبة في مساعدة مجتمعهم المحلي)، ناشطون اجتماعيون (يعتقدون أن جذور جميع الجرائم تقع في الفروقات الطبقية)، فنانون (يؤمنون بأنه ما من أمل يُرجى، وتجب إعادة كل شيء من الصفر)... ورجال شرطة.

تأكد سافوا من قدرته على أن يصبح عضواً نافعاً في المجتمع. وتصوّر، كونه قرأ الكثير من الروايات البوليسية، أنه ما إن يتم وضع جميع الأشرار خلف القضبان، سيتمكن الصالحون من التمتع بحياتهم تحت الشمس إلى الأبد. قصد معهد الشرطة حيث اجتهد

في الدرس، وحصل على علامات ممتازة في امتحاناته النظرية، وحضّر نفسه جسمانياً للأوضاع الخطرة، وتدرّب على الرماية آملاً ألا يضطر إلى قتل أحد.

شعر في سنته الأولى، بأنه يتعلّم أسس المهنة. اشتكى زملاؤه من المرتبات المتدنية، ومن القضاة غير الكفوئين، ومن الأفكار المسبقة التي للآخرين عن الوظيفة، والغياب شبه التام لأي حركة حقيقية في منطقتهم الخاصة. وبمرور الوقت، استمرت حياة رجل الشرطة والشكاوى بالدرجة ذاتها تقريباً، في ما عدا أمراً إضافياً واحداً: الورق.

لا نهاية لها عن كيف، ولماذا وقع حادث محدّد. فحادثة بسيطة، مثل رمي أحدهم بعض النفايات، تتطلب تفتيش النفايات المعنية بدقّة بحثاً عن دليل على هوية الطرف المذنب (توجد دوماً أدلة مثل المغلفات أو بطاقات السفر)، بعد ذلك يجب تصوير المنطقة، ورسم خريطة، وتحديد المرتكب، فيُوجَّه إليه إنذار وَدّي، يتبعه إنذار أقل ودّية، وفي حال رفض المرتكب أخذ المسألة جدّياً، يُحال على المحكمة حيث تؤخذ إفادته وتنزل فيه العقوبة. وذلك كلّه يتطلّب، بالتأكيد، خدمات محامين أكفياء. وقد تمر على المسألة سنتان كاملتان قبل أن تحال القضية أخيراً على الملف، بدون أي عواقب حقيقية لأي من الطرفين.

أما جرائم القتل فنادرة للغاية. وقد أظهر آخر الإحصاءات أن معظم الجرائم في «كان» تتضمن عراكاً بين شبان أغنياء في نواد ليلية باهظة الكلفة، واقتحام شقق العطلة، ومخالفات قانون السير، والسوق السوداء، والخلافات العائلية. وعلى هذا أن يُسعده بالتأكيد. فجنوب فرنسا، في هذا العالم المضطرب، يشكّل واحة سلام حتى في خلال المهرجان، حيث يغزو «كان» آلاف الأجانب الذين يقصدون

الشاطئ أو يبيعون الأفلام ويشترونها. واضطر في العام الماضي إلى التعامل مع أربع حالات انتحار (تضمنت هذه نحو ١٥ رطلاً من ورق العمل) وهجومين عنيفين انتهيا بالموت. وها قد حدثت الآن حالتا وفاة في غضون ساعات. فما الذي يحصل؟

اختفى الحارسان الشخصيان قبل أن يتسنى لهما حتى إعطاء إفادتيهما، وسجل سافوا في ذاكرته أنه عليه أن يرسل توبيخاً خطّياً - ما إن تتسنى له الوقت - إلى الضباط المولجين بالقضية. فهم، في النهاية، سمحوا بأن يفلت منهم الشاهدان الوحيدان على ما حصل، لأنه من الواضح ان المرأة الموجودة في غرفة الانتظار لا تعرف شيئاً. لم يستغرقه الأمر كثيراً ليقرر أنها كانت تقف في مكان ما بعيد عندما تم الحقن بالسم، وكل ما أرادته هو استغلال الوضع للتقرب من موزع أفلام شهير. كل ما بقي عليه القيام به الآن، هو قراءة المزيد من الأوراق.

جلس في غرفة الانتظار في المستشفى وأمامه تقريران: الأول وضعه طبيب الخدمة، ويتألف من صفحتين من التفاصيل التقنية المضجرة التي تحلل الأضرار اللاحقة بالأعضاء الحيوية للرجل الموجود الآن في غرفة العناية الفائقة: تسمم بمادة مجهولة (يتم درسها الآن في المختبر)، وقد تم حقنها في مجرى الدم بواسطة إبرة ثقبت المنطقة القطنية اليسارية. والعامل الوحيد في لائحة السموم الذي يمكنه أن يؤدي إلى مثل رد الفعل السريع والعنيف هنا، هو الستريكنين، إلا أنه يصيب الجسم بالتشنجات. وبحسب رجال الأمن في الصيوان، وقد أكد ذلك المسعفون والمرأة في غرفة الانتظار أيضاً، لم تحصل مثل هذه الأعراض. بل لاحظوا، على العكس من ذلك،

شللاً فورياً في العضلات وتصلّباً في الصدر، وأمكن نقل الضحية من الصيوان بدون لفت انتباه الضيوف الآخرين.

التقرير الأطول الثاني جاء من القوة المنتدبة لرؤساء الشرطة الأوروبيين واليوروبول الذين تعقّبوا جميع تحركات الضحية منذ أن وطئت قدماه الأرض الأوروبية. وقد تناوب العملاء بالدور على المراقبة. وفي وقت الحادثة، كانت الضحية تحت مراقبة عميل أسود أصله من الغواديلوب، لكنه يبدو كجمايكي.

وبرغم ذلك، لم يتمكن الرجل المكلّف مراقبته من ملاحظة شيء. بل بالأحرى، ففي تلك اللحظة بالتحديد، حجب نظره جزئياً رجل يمر حاملاً كوباً من عصير الأناناس.

وبرغم أنه ليس للضحية ملف لدى الشرطة، ومعروف في عالم الأفلام بأنه واحد من قلّة من موزعي الأفلام الثوريين في الجوار، فإن عمله لم يكن في الواقع سوى مجرّد واجهة لعملية أكثر ربحاً بكثير. فبحسب اليوروبول، لم يكن جافيتس سوى منتج آخر للأفلام من الدرجة الثانية، ثم إنه، منذ خمسة أعوام، استخدمه كارتيل متخصص في توزيع الكوكايين في الأميركتين لمساعدته على تبييض الأموال.

بدأ الأمر يصبح مثيراً للاهتمام.

للمرة الأولى يشعر سافوا بأنه مسرور بما يقرأه. وربما في يده قضية مهمة، بعيدة جداً عن روتين رمي النفايات بطريقة غير مشروعة، والخلافات المنزلية، وسرقة شقق العطلة، وقضيتي القتل تينك اللتين تحصلان مرة في السنة.

يعرف كيف تعمل هذه الأمور. يعرف ما الذي يتحدّث عنه التقرير. يجني المهربون ثروات من بيع بضائعهم، إلا أنهم، بسبب

عدم قدرتهم على إظهار مصدر المال، لا يستطيعون فتح الحسابات المصرفية، وشراء الشقق والسيارات والجواهر، أو تحويل كميات كبرى من المال من بلد إلى آخر، لأنه من المؤكد أن الحكومة ستسأل: كيف أصبح هذا الفتى على هذا القدر من الثراء، ومن أين جنى هذا المال كله؟

يستخدمون، لتجاوز هذه العقبة، آلية مالية تُعرَف بتبييض الأموال، أي من خلال تحويل المال الذي تم جمعه بالوسائل الإجرامية إلى أصول مالية محترمة يمكن أن تصبح جزءاً من منظومة اقتصادية، وتجني أيضاً المزيد من المال. ويقال إن التسمية مصدرها آل كابوني، رجل العصابات في شيكاغو الذي اشترى سلسلة من مصابغ التبييض، عُرفت بمحلات التنظيف الصحية، واستخدم من ثم هذه المحلات واجهة للمال الذي يجنيه من المبيعات غير المشروعة للكحول إبان فترة المنع. وبالتالي، في حال سأله أحدهم كيف أصبح على هذا القدر من الثراء، أمكنه دائما القول: الناس يغسلون الثياب أكثر من ذي قبل. وتبين أن هذا النوع من العمل يشكل استثماراً جيداً جداً.

فعل كل شيء بالطريقة الصحيحة، فكّر سافوا، ما عدا تعبئة أوراق الضرائب.

لا يُستخدم تبييض الأموال في المخدرات وحسب، بل في أمور كثيرة أخرى أيضاً: سياسيون يتقاضون عمولات على فواتير أعمال البناء المبالغ فيها، وشركات تحاول إخفاء الأرباح والخسائر عن حاملي الاسهم، وأفراد يعتبرون الضريبة على الدخل اختراعاً غير مقبول. وجل ما كان عليك القيام به، في الماضي، هو فتح حساب في إحدى الجنات الضريبية، لكن الحكومات شرعت في إبرام سلسلة

من الاتفاقات الثنائية، وبات على مبيضي الأموال التكيف مع هذه الأزمنة الحديثة.

إلا أنه يوجد أمر مؤكّد واحد، هو أن المجرمين يسبقون دائماً السلطات ومفتشي الضرائب بخطوات عدة.

وكيف يسير الأمر الآن؟ يعمل في الحقيقة بطريقة أكثر أناقة، وحنكة، وإبداعاً. عليهم وحسب أن يتبعوا ثلاث مراحل واضحة، الإيداع، الاتّلاد، والدمج. فلنأخذ برتقالات عدة، نستخرج منها العصير ونقدّمه، لا يحتاج أحد أبداً إلى التشكيك في المصدر الذي جاءت منه الفاكهة.

صُنع عصير البرتقال سهل نسبياً، تنشأ سلسلة من الحسابات ويُشرع في نقل كميات صغيرة من المال من مصرف إلى آخر، غالباً باستخدام أنظمة يولّدها الحاسوب، والهدف هو إعادة جمع هذه الأموال من جديد في تاريخ مقبل ما. والطرق التي يتم سلوكها كثيرة التعرّج، إلى درجة أنه يستحيل تقفي الأثر الذي تتركه النبضات الالكترونية لأنه ما إن يتم إيداع المال حتى يكفّ عن كونه أوراقاً نقدية. ويتحول إلى رموز رقمية مؤلفة من رقمين وحسب، صفر وواحد.

فكّر سافوا في حسابه المصرفي الخاص، فالقليل الذي له فيه يقع تحت رحمة رموز تسافر صعوداً ونزولاً عبر الأسلاك. وماذا لو قرر المصرف، بين لحظة وأخرى، تغيير المنظومة برمتها؟ وماذا لو لم يعمل البرنامج الجديد؟ كيف يمكنه أن يثبت أنه يملك كمية المال التي يقول إنها له؟ كيف يمكنه أن يحوّل هذه الأرقام إلى شيء ملموس أكثر يشبه المنزل أو الطعام الذي يشتريه من السوبرماركت؟

لا يستطيع شيئاً لأنه واقع في قبضة المنظومة. وبرغم ذلك، قرر أنه ما إن يغادر المستشفى حتى يتوجه إلى صندوق سحب ويستخرج بياناً برصيده. سجّل ملاحظة في مفكّرته تقضي بالقيام بالأمر أسبوعياً، فبهذه الطريقة سيمتلك إثباتاً على الورق في حالة تعرض العالم لفاجعة.

الورق: تلك الكلمة من جديد. كيف بلغ هذا الموضوع المقام الأول؟ آه، نعم، تبييض الأموال.

عاد إلى ما يعرفه في خصوص تبييض الأموال. والمرحلة الأخيرة هي الأسهل بينها كلها: يتم إيداع المال في حساب محترم، مثل حساب يخص شركة عقارية أو صندوق استثمار. وإذا سألت الحكومة: من أين مصدر هذا المال؟، فالجواب سهل كفاية: من مستثمرين صغار يؤمنون بما نحن نبيعه. ويمكن بعد ذلك استثماره في المزيد من الأسهم، والمزيد من الأرض، وفي الطائرات وغيرها من الكماليات، وفي منازل تضم أحواضاً للسباحة، وبطاقات اعتماد مفتوحة. والشركاء في هذه الشركات هم الأناس أنفسهم الذين مولوا في المقام الأول شراء المخدرات، أو الأسلحة، أو أي بضائع أخرى ممنوعة. على أن المال يصبح نظيفاً، وفي النهاية يمكن أي شركة أن تجني الملايين من الدولارات من المضاربة في سوق الأسهم أو العقارات.

يبقى أنه توجد حاجة إلى التبصر في المرحلة الأولى، وهي الأصعب من بينها: من هم هؤلاء المستثمرون الصغار؟

هنا يأتي دور النشاطات الجرمية. فالبرتقالات تمثل الأناس الذين يتسكعون في الكازينوهات، في بلدان يعمّ فيها الفساد ولا توجد فيها قيود على المراهنة، مستخدمين أموالاً أقرضهم إياها صديق. وثمة دوماً حظ في ان يكسب امرؤ ما ثروة. وتوجد، إذا ما فعلوا،

ترتيبات قائمة مع المالكين الذين يحتفظون بنسبة مئوية من المال الذي يمر عبر طاولاتهم. ويمكن لاعب القمار - وهو شخص صاحب مدخول منخفض - تبرير المبلغ الضخم الذي يودعه في حسابه المصرفي بقوله إنه ضربة حظ.

وسيحوّل في اليوم التالي كل المال إلى الصديق الذي أقرضه إياه، ويحتفظ وحسب بنسبة مئوية صغيرة.

كانت الطريقة المفضلة هي في شراء مطاعم تبيع أطباقها بمبالغ مرتفعة وإيداع المكاسب في حساب ما بدون إثارة الشبهات. وحتى لو جاء مفتش ما ووجد الطاولات فارغة كلّياً، فلن يستطيع أن يثبت أنه ما من أحد تناول الطعام طوال اليوم. لكن نمو صناعة الكماليات اليوم، فتح الباب أمام خيار أكثر إبداعاً. إنه بازار الفن غير المحسوس، والاعتباطي، الذي لا يمكن إدراك كنهه!

لنقل إن زوجين من الطبقة المتوسطة، يملكان القليل من المال، يأتيان إلى المزاد بقطعة ثمينة جداً، زاعمين أنهما وجداها في علّية منزل الجدّين. تباع القطعة بالكثير من المال، ثم يعاد بيعها في الأسبوع التالي لغاليري متخصص بعشر أو عشرين مرة ضعف سعرها الأصلي. تسعد البرتقالات وتشكر الآلهة على كرمها، وتودع المال في حساباتها المشتركة وتصمم على الاستثمار في بلد أجنبي ما، مراعية دوماً ترك مبلغ صغير - نسبتها المئوية - في ذلك الحساب الأول. والآلهة في هذه الحال، تمثل المالكين الحقيقيين للوحة الذين سيعيدون شراءها من الغاليري ويعرضونها للبيع من جديد، لكن مع بائعين مختلفين هذه المرة.

يبقى، برغم ذلك، أنه توجد منتجات أكثر كلفة، مثل المسرح وإنتاج الأفلام وتوزيعها. وهنا، في الحقيقة، تحقق الأيدي الخفية لمبيضي الأموال المكاسب السريعة.

وها إن سافوا يقرأ عن الرجل الموجود حالياً في العناية الفائقة محاولاً ملء بعض الفراغات في مخيلته الخاصة.

فالرجل كان ممثلاً يحلم بان يصبح نجماً كبيراً. لم يستطع العثور على أي عمل - برغم أنه لا يزال يهتم كثيراً بمظهره الخارجي كما لو أنه نجم سينمائي -، لكنه اطلع على الصناعة. أمكنه، وهو في منتصف العمر، أن يجمع مالاً من بعض المستثمرين، ويصنع فيلمين فشل كلاهما فشلاً ذريعاً لأنهما لم يحصلا على التوزيع المناسب. إلا أن اسمه ظهر في قائمة العاملين على الفيلم، وأصبح يُعرف في المجلات المتخصصة بوصفه شخصاً حاول على الأقل القيام بشيء مختلف عن الأفلام المستخرجة من الاستوديوهات الكبرى.

كان على حافة اليأس، غير متأكد مما يفعله في حياته، وليس من يرغب في إعطائه فرصة أخرى، وقد أعياه استجداء المال من أناس لا يهتمون إلا بالاستثمار في مشاريع أكيدة الربح، حين قاربته مجموعة من الناس، بعضها أنيس، بينما التزم البعض الآخر بالصمت المطبق.

قدّموا إليه عرضاً. سيبدأ العمل كموزّع للأفلام، ويضمن أن تكون أول عملية شراء له شيئاً يبلغ الجمهور الأوسع. ستعرض الاستوديوهات الكبرى مبالغ كبيرة من المال لقاء الفيلم، ويجب ألا يصيبه هنا بالقلق. فأي ثمن يُعرض سيقابله أصدقاؤه الجدد بمثله. سيُعرض الفيلم في دُور كثيرة للسينما، ويجني ثروة. وسيحصل جافيتس على ما يسعى إليه أكثر ما يكون، السمعة. ومن غير المرجح أن ينبش أحد في حياة منتج محبط، لكن السلطات ستشرع، بعد فيلمين أو ثلاثة من ذلك، في السؤال عن مصدر ذلك المال كله. وبحلول ذلك الوقت، سيكون قد تم إخفاء المرحلة الأولى

بأمان خلف السنوات الخمس التي تحدد عمليات التحقيقات الضريبية.

هكذا، بدأ جافيتس حياة مهنية عظيمة. عادت عليه أفلامه الأولى كموزّع بالربح الوفير، وشرع مقيمو المعارض يؤمنون بقدرته على اختيار أفضل الأفلام في السوق. وسرعان ما اصطف المخرجون والمنتجون للعمل معه. وحرص دوماً، من أجل الحفاظ على المظاهر، على القبول، كل ستة أشهر، بمشروعين أو ثلاثة ذات موازنة منخفضة، وما بقي أفلام ذات موازنات ضخمة، تضم كبار النجوم، ويعمل فيها تقنيون مقتدرون، ويوزِّع الكثير من المال لصرفه على التسويق، وهو مال مصدره مجموعات مستقرة في الجنات الضريبية. ويتم إيداع مداخيل شبابيك التذاكر في صناديق استثمار عادية، فوق الشبهات، تمتلك حصصاً في الفيلم.

حسنٌ. هكذا يتم تحويل المال الوسخ إلى عمل فني رائع لم يجن، طبعاً، مقدار المال المأمول منه، لكنه لا يزال قادرا على إنتاج ملايين الدولارات التي سيستثمرها فوراً أحد الشركاء في المؤسسة.

إلا أنه، عند حد ما، قد يلاحظ محقق ضريبي ذو عين ثاقبة - أو مخبر ما في واحد من الاستوديوهات - واقعة واحدة بسيطة: ما السبب الذي يدفع بمنتجين غير معروفين سابقاً إلى استخدام نجوم كبار، وأكثر المخرجين موهبة، وينفقون ثروة على الدعاية، ولا يستخدمون إلا موزعاً واحداً لأفلامهم؟ الجواب: الاستوديوهات الكبرى غير مهتمة إلا بإنتاجاتها الخاصة، بينما جافيتس هو البطل، الرجل الذي يواجه احتكار الشركات الكبرى: داود في مواجهة غوليات، يحارب منظومة غير عادلة.

لكن مفتشاً ضريبياً أكثر ضميراً مهنياً قرر السير في التحقيق برغم جميع الشروحات المعقولة ظاهرياً. بدأ يعمل بسرية تامة،

وعلم بأن جميع الشركات التي استثمرت في أكبر نجاحات شباك التذاكر، هي دوماً شركات محدودة مستقرة في البهاماس، وفي بنما أو سنغافورة. وقام جاسوس في مكتب الضرائب (يوجد دوماً جاسوس) بتحذير داعمي جافيتس، بأنه من الافضل لهم، من الآن وصاعداً، العثور على موزع آخر لتبييض الأموال.

أصيب جافيتس باليأس. فلقد اعتاد على نمط حياة أصحاب الملايين، وعلى أن يُعامَل كما لو أنه نصف إله. وهو قد سافر إلى «كان»، التي توفر واجهة ممتازة لحل المسائل مع داعميه، كي يسلم بنفسه رموز الحسابات المرقّمة المختلفة. لم يملك أي فكرة عن أنه مُلاحَق، ومن شبه المؤكد أنه ستصدر في حقه عقوبة بالسجن، وأن الأمر منوط برجال يضعون ربطات عنق في مكاتب سيئة الإنارة، قد يتركونه يستمر لبعض الوقت من أجل الحصول على مزيد من الإثباتات، أو يضعون حداً فورياً للموضوع.

بيد أن داعميه لا يركبون أبداً مخاطر غير محسوبة. فيمكن توقيف رجلهم في أي لحظة، ويعقد صفقة مع المحكمة ويعطي تفاصيل حول كيفية عمل الخديعة كلها، إضافة إلى إعطاء أسماء هويات أشخاص، وتحديدها في صور التُقطت بدون علمه.

وثمة طريقة واحدة لحل المشكلة: سيكون عليهم أن يقتلوه.

لا يمكن الأمور أن تكون أكثر وضوحاً، وأمكن سافوا أن يرى بالتحديد كيف تطورت الأمور. وها إنه يحتاج الآن إلى القيام بما يقوم به دائماً: تعبئة المزيد من الإضبارات، وضع تقرير وتسليمه إلى اليوروبول، وترك بيروقراطييها يعثرون على القتلة لأنها قضية قد تؤدي إلى ترقيات، وتعيد إحياء سيرة مهنية راكدة. على التحقيق أن يطلع بنتيجة، ولن يعتقد أي من رؤسائه أن مفتشاً في مدينة فرنسية صغيرة سيقدر على القيام بأي اكتشافات كبرى

(لأنه مهما تكن ،كان، بزاقة ومبهرجة في خلال المهرجان، فهي، في الأيام الـ٣٥٠ الباقية من السنة، ليست سوى مدينة ريفية صغيرة).

شك في أن يكون المنفّذ واحداً من الحارسين الشخصيين عند الطاولة، لأنه لا يمكن حقن السم إلا من شخص يقف على مسافة قريبة جداً. إلا أنه لن يذكر ذلك. عبأ المزيد من الأوراق حول الأشخاص العاملين في الصيوان، ولم يعثر على المزيد من الشهود، ثم أقفل الملف، بعدما أمضى أول بضعة أيام في تبادل الفاكسات والبريد الالكتروني مع أقسام أخرى أكثر أهمية من قسمه.

سيعود إلى جريمتيه السنويتين، إلى العراك ومحاضر الضبط، وقد اقترب على نحو وثيق منَ شيء قد تكون له ارتدادات دولية. فحلمه المراهق بتحسين العالم، والمساهمة في خلق مجتمع أكثر أمْناً وعدلاً، والحصول على ترقية، وضمان وظيفة في وزارة العدل، وتوفير حياة أكثر رفاهاً لزوجته وأولاده، والمساعدة في تغيير نظرة الجمهور إلى القانون وإظهار أنه لا يزال يوجد بعض رجال الشرطة الشرفاء... انحصرت كلّها في أمر واحد: المزيد من العمل المكتبي.

٤:١٦ ب.ظ.

اكتظت الشرفة خارج الحانة بالناس، وشعر إيغور بالاعتزاز بقدرته على التخطيط للأمور، لأنه برغم أنه لم يسبق له أن جاء إلى «كان» من قبل، فقد استبق هذا الوضع بالتحديد وحجز لنفسه طاولة. طلب الشاي والخبز المحمص، وأشعل سيجارة ونظر من حوله إلى المشهد ذاته الذي تُمكن رؤيته في أي مكان مرموق في أي مطرح في العالم؛ نساء إما مصابات بمرض فقدان الشهية، وإما يستخدمن الكثير من البوتوكس؛ سيدات مزدانات بالجواهر ويتناولن المثلجات، رجال مع رفيقات أصغر منهم سناً بكثير، أزواج ضجرون، شابات مبتسمات يرتشفن المشروبات القليلة السعرات الحرارية زاعمات أنهن ينصتن إلى ما يقوله أصدقاؤهن، بينما كل ما يبتغين هو البحث عن شخص أكثر إثارة للاهتمام يطل أمام نواظرهن.

ثمة استثناء واحد: ثلاثة رجال وامرأة يجلسون إلى طاولة تفترشها الأوراق وعلب البيرة، يناقشون أمراً ما بأصوات خفيضة،

ويدققون على نحو دائم بالأرقام على آلة حسابية. بدوا أنهم الوحيدون فعلاً المنخرطون في مشروع ما، إلا أن هذا ليس صحيحاً تماماً، فكل واحد هنا يعمل، بطريقة ما، جاهداً، بحثاً عن أمر واحد: الظهور، الذي في حال سار كل شيء كما يجب، سيتحول إلى شهرة، ستتحول بالتالي بدورها، إذا مضى كل شيء مرة أخرى كما يجب، إلى سُلطة، تلك الكلمة السحرية التي تحوّل أي بشري إلى نصف إله، إلى أيقونة بعيدة لا يمكن بلوغها تعوّدت على الحصول على كل ما ترغب فيه، وتلاحقها نظرات الغيرة لدى عبورها بسيارة الليموزين ذات الزجاج المطلي، أو بالسيارة الرياضية الغالية... وتحيله شخصاً لم يعد في حاجة إلى تسلّق الجبال أو القيام بغزوات مستحيلة.

واضح ان الأناس الموجودين على الشرفة قد قفزوا بالفعل من فوق بعض الحواجز؛ فهم ليسوا خارجاً مع المصوّرين، خلف الحواجز المعدنية ينتظرون من يخرج من المدخل الرئيسي ويملأ عالمهم نوراً. ها إنهم قد نجحوا في الدخول إلى بهو الفندق، وكل ما يحتاجون إليه الآن هو الشهرة والسُلطة، ولا يهمهم حقاً الشكل الذي قد تأخذانه. يعرف الرجال أن السن ليست المشكلة، وكل ما هم في حاجة إليه هو الاتصالات المناسبة. والشابات - اللواتي يبقين عيناً يقظة على الشرفة مثل أي حارس شخصي متدرّب - يعرفن أنهن يبلغن سناً خطيرة يمكن أن تتلاشى فيها فجأة أي حظوظ في أن يحقق لهن جمالهن شيئاً. أما النساء المتقدمات في السن، هناك، فيحببن أن يتم تقديرهن واحترامهن على هداياهن وذكائهن، إلا أن الماسات اللتي يضعنها تجعل من غير المحتمل اكتشاف مواهبهن. ينتظر الرجال الواقفون إلى جانب زوجاتهم، مرور شخص ما لإلقاء التحية عليه، فيستدير الجميع وينظرون ويفكرون: لا بد من أنه معروف جداً، أو ربما مشهور، من يدري؟

الأعراض الملازمة للشهرة، في وسعها أن تدمّر حياة مهنية، وزواجاً، وقيماً مسيحية، ويمكنها ان تصيب الحكيم والجاهل معاً بالعمى. وهاكم بعض الامثلة: علماء كبار يتخلون، ما إن يحصلوا على إحدى الجوائز الكبرى، عن بحث كان يمكن أن يساعد الإنسانية، ويقررون بدلاً من ذلك أن يجنوا رزقهم من محاضرات تغذّي كلاً من أنانيتهم ورصيدهم المصرفي. الهندي في أدغال الأمازون الذي يقرر، ما إن يتناوله مُغن شهير، أنه يتعرّض للاستغلال بسبب فقره: من يقوم بحملة من أجل العدالة، ويعمل جاهداً دفاعاً عن حقوق الأقل حظوة، ويقرر أن يرشح نفسه لمنصب عام ويفوز بالانتخاب، ويعتبر نفسه بالتالي أنه فوق القانون إلى أن يُكتشف في أحد الأيام في نزل مع مومس دفع لها من أموال الضرائب.

الأعراض الملازمة للشهرة. عندما ينسى الناس من هم ويبدأون بتصديق ما يقوله أناس آخرون عنهم. الطبقة الأرفع، حلم الجميع، عالم بدون ظلال أو ظلام، حيث النَّعَم هي الجواب الوحيد الممكن لأي طلب.

إيغور رجل ذو سلطة. حارب كل حياته للوصول إلى حيث هو الآن. ولتحقيق هذه الغاية، شارك في ولائم عشاء مضجرة، وفي محاضرات لا نهاية لها، واجتماعات مع أناس يمجّهم، ووزّع الابتسامات حيث كان حرياً به أن يوجه الإهانات، والشتائم حين شعر حقيقة بالأسى على الكائنات المسكينة التي تم استفرادها للعقاب لتشكّل أمثولة للآخرين. عمل ليلا ونهاراً، وفي عطلات نهاية الاسبوع أيضاً، غارقاً في نقاشات مع المحامين، والإداريين، والمسؤولين، والناطقين الصحافيين. بدأ من لاشيء غداة انهيار النظام الشيوعي، وبلغ القمة. وهو، فوق ذلك كله، تمكّن من تمرير جميع العواصف السياسية والاقتصادية التي اجتاحت بلاده في خلال العقدين الأولين على

النظام الجديد. لماذا؟ لأنه يخاف الله، ويعرف أن الطريق التي سلكها في حياته تشكل نعمة يجب احترامها، وإلا فإنه سيخسر كل شيء.

توجد بالتأكيد أوقات يقول له فيها شيء ما إنه ينسى الجزء الأهم من تلك النعمة: إيوا. إلا أنه، لسنوات طويلة، أقنع نفسه بأنها ستفهم أنها مرحلة موقتة وحسب، وستقبل بها، وستدرك أنهما سيتمكنان قريباً من أن يمضيا معاً كل ما يرغبان فيه من وقت. خططا لأمور عظيمة: رحلات، سفرات بحرية، منزل بعيد في الجبال مع موقدة يشتعل فيها الحطب، والمعرفة المؤكدة بأنه يمكنهما البقاء هناك ما يشاءان بدون الحاجة إلى القلق في شأن المال أو الديون أو المتوجبات. سيجدان مدرسة للأطفال الكثيرين الذين خططا معا لإنجابهم، وسيمضيان فترات بعد الظهر كلها يسيران عبر الغابات المحيطة بهما، وسيتناولان العشاء في مطاعم محلية صغيرة ودفيئة.

سيتسع لهما الوقت لأعمال الحديقة، والقراءة، والذهاب إلى السينما، والقيام بالأمور البسيطة التي يحلم كل واحد بالقيام بها، الأمور الوحيدة القادرة على ملء حياة أحدهما. وكان عندما يعود إلى المنزل ويداه محمَّلتان بالأوراق التي ينشرها على السرير، يطلب منها المزيد من الصبر. وعندما رن جرس هاتفه في اليوم بالذات الذي اختارا فيه الخروج للعشاء معاً، واضطر إلى قطع حديثهما وقضاء وقت طويل يتحدث مع المتصل، عاد وطلب منها أن تصبر. عرف أن إيوا تبذل كل ما في وسعها لتسهيل الأمور عليه، برغم أنها تشتكي بين الفينة والأخرى، بعذوبة تامة، وتقول إن عليهما الاستفادة من الحياة ما داما لا يزالان شابين. فهما، في النهاية، يملكان ما يكفي من المال للأجيال الخمسة المقبلة.

ويقول إيغور: حسناً، سأتوقف اليوم. تبتسم إيوا، وتمسد بيديها على خدّه، فيتذكر عندها أمراً مهماً نسي القيام به، ويمضي إلى الهاتف ليتصل بشخص ما، أو إلى الحاسوب لإرسال بريد الكتروني.

وقف رجل في العقد الرابع من العمر. نظر من حول الشرفة، وصرخ وهو يشهر صحيفة بيده:

«عنف ورعب في طوكيو»، يقول العنوان. «سبعة أشخاص قُتلوا في متجر للألعاب الالكترونية».

نظر إليه الجميع.

- العنف! إنهم لا يعرفون ما الذي يتحدثون عنه. فهنا تحصلون على العنف الحقيقي!

أخذت إيغور رعدةٌ في عموده الفقري.

- إذا قام مجنون بطعن بضعة أشخاص أبرياء، يُصاب العالم كله بالصدمة، لكن من يهتم بالعنف الفكري الذي يُمارَس في «كان»؟ مهرجاننا يُقتل باسم الديكتاتورية. ليست المسألة في اختيار أفضل فيلم، بل في ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، بإجبار الناس على شراء منتوجات لا يريدونها، ووضع الموضة فوق الفن، واختيار الذهاب إلى غداء أو عشاء، بدلاً من مشاهدة فيلم. إنه لأمر مشين. فأنا هنا لـ...

«اصمت»، قال أحدهم. «لا يهتم أحد بسبب وجودك هنا».

- أنا هنا للتنديد باستعباد رغبات الإنسان، لأننا توقفنا عن استخدام ذكائنا للقيام بالخيارات، وسمحنا، بدلاً من ذلك، لأنفسنا، بأن تتلاعب فينا الدعاية والأكاذيب! تثور ثائرة الناس جميعهم على

علميات الطعن تلك في طوكيو، لكنهم لا يكترثون أبداً للموت من آلاف الطعنات، الذي يعانيه جيل كامل من صانعي الأفلام.

توقف الرجل بعض الشيء، متوقعاً وقوف الحضور للتصفيق، فلم يحصل حتى على وقفة للتفكير. استأنف الجميع أحاديثهم، غير مبالين بعالمه. أما هو فعاود الجلوس، محاولاً الظهور بمظهر الوقار، لكنه كان ممزق القلب لأنه جعل من نفسه سخرية.

«الظهور»، فكّر إيغور. المشكلة هي في أن أحداً لم يبال.

جاء دوره للنظر من حوله. فإيوا تنزل في الفندق ذاته، وأبلغته حاسة سادسة نتجت عن خبرة سنوات طويلة من الزواج، أنها تجلس في مكان ليس ببعيد على الشرفة ذاتها. لا بد من أنها تلقّت رسائله وهي ربما تبحث عنه الآن عارفة أنه هو أيضاً لا بد من أن يكون في الجوار.

لم يتمكن من رؤيتها، ولا من التوقف عن التفكير فيها: هي هاجسه. تذكّر الليلة التي كان سائقه وحارسه الشخصي - حاربا معاً في أفغانستان، لكن الحظ ابتسم لهما بطريقتين مختلفتين جداً - يوصله إلى منزله في سيارته الليموزين المستوردة. وتذكّر أنه طلب منه التوقف خارج فندق كامبينسكي. ترك هاتفه المحمول وأوراقه في السيارة، وصعد إلى بار الشرفة. وعلى عكس شرفة «كان»، وجد المكان فارغاً وعلى وشك الإقفال. قدّم إكرامية سخيّة إلى الندلاء. وطلب منهم إبقاء المكان مفتوحاً لساعة أخرى، فقط من أجله.

وعندها فهم. ليس صحيحاً أنه سيتخلى عن العمل في الشهر

المقبل أو السنة المقبلة، أو حتى في العقد المقبل. لن يحصلا أبداً على المنزل في الريف وعلى الاولاد الذين حلما بهم. وسأل نفسه في تلك الليلة لماذا يستحيل ذلك، وكان لديه جواب واحد.

ما من عودة إلى الوراء في الطريق إلى السلطة. سيبقى عبداً إلى الأبد للطريق التي اختارها، وهو لو حقق حلمه بالتخلي عن كل شيء، فسيسقط فوراً في اكتئاب شديد.

لمَ هو على هذا الشكل؟ هل بسبب الكوابيس التي تنتابه عن الخنادق، متذكّراً الشاب الخائف الذي كانه عندما ينفّذ مهمة لم يخترها. وقد تم إجباره على القتل؟ أهو لأنه لا يستطيع نسيان ضحيته الأولى، وهو فلاح ضل الطريق إلى خط النار عندما كان الجيش الأحمر يقاتل رجال حرب العصابات الأفغان؟ هل إنه بسبب جميع أولئك الناس الذين لم يؤمنوا به، وأذلّوه عندما أخذ يبحث عن مستثمرين لعمله في مجال الهاتف النقال؟ هل لأنه اضطر في البداية إلى مشاركة بعض الظلال، المافيا الروسية الحريصة على تبييض المال الذي كسبته من الدعارة؟

تدبّر إعادة دفع هذه القروض المشكوك فيها بدون أن يصاب هو نفسه بالفساد، وبدون ان يكون لأحد جميل عليه. أمكنه التفاوض مع الظلال مع إبقاء نوره الخاص مشتعلاً. عرف أن الحرب تخصّ الماضي البعيد، وأنه لن يطأ أبداً من جديد أرض معركة. وجد حب حياته. وهو يقوم بنوع العمل الذي طالما أراد القيام به. إنه غني، وغني جداً، وأبقى على معظم ثروته في الخارج تحسباً، في حال عودة النظام الشيوعي في الغد. حافظ على علاقة جيدة مع جميع الاحزاب السياسية. التقى بمشاهير من جميع أنحاء العالم، وأسس جمعية للاهتمام بأيتام الجنود الذين قُتلوا في خلال الغزو السوفياتي لأفغانستان.

لكنه لم يفهم الأمر تماماً إلا وهو جالس في شرفة المقهى قرب الساحة الحمراء، مدركاً أنه يملك ما يكفي من السلطة والمال ليدفع للندلاء للعمل الليل بطوله إذا تطلّب الأمر ذلك.

فهم لأنه رأى الأمر ذاته يحصل لزوجته. فإيوا أيضاً في سفر دائم، وإنها، حتى وهي في موسكو، تصل إلى المنزل متأخرة، وتتوجه، بمجرد دخولها الباب، إلى حاسوبها مباشرة. وهو قد فهم، خلافاً لما يعتقده معظم الناس، أن السلطة المطلقة تعني عبودية مطلقة. وعندما تصل إلى هذا الحد، لا تعود تريد التخلي عن الأمر. فثمة دوماً جبل جديد يجب تسلّقه. ويوجد دوماً منافس يجب إقناعه أو سحقه. وقد شكّل، إلى جانب ألفي شخص آخرين، جزءاً من النادي الأكثر حصرية في العالم، الذي يلتقي مرة واحدة فقط في السنة في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس في سويسرا. جميع الأعضاء من الأثرياء، أصحاب الملايين، وجميعهم يعملون من الفجر وحتى ساعة متأخرة من الليل، ويريدون دوماً المضي إلى ما هو أبعد، ولا يغيّرون المسار أبداً: المكاسب، البورصة، اتجاهات السوق، والمال ثم المال. يعملون ليس لأنهم يحتاجون إلى العمل، بل لأنهم يعتبرون أنفسهم ضروريين. يشعرون بأن آلاف العائلات تعتمد عليهم، وأن لديهم مسؤوليات هائلة تجاه حكوماتهم وشركائهم. وهم يعتقدون حقيقة أنهم يساعدون العالم، وهو ما قد يكون صحيحاً، إلا أنه عليهم أن يدفعوا لقاء ذلك من حياتهم.

قام في اليوم التالي بعمل كَرِهَ أن يُضطر إلى الإقدام عليه: قصد طبيباً نفسياً. لا بد من وجود ما ليس على ما يرام، واكتشف حينها أنه يعاني مرضاً شائعاً إلى حد ما في أوساط من حققوا شيئاً

بعيداً عن متناول الأناس العاديين. إنه يجبر نفسه على العمل. مدمن على العمل. وبحسب الطبيب النفسي، فإن المدمنين على العمل يخاطرون بالإصابة بالاكتئاب إذا لم ينغمسوا في تحديات إدارة شركة ما ومشاكلها.

لا نعرف بعد أصل المرض، لكنه مرتبط بانعدام الشعور بالأمان، وبمخاوف الطفولة، وبالرغبة في حجب الواقع. وهو إدمان خطير كالإدمان على المخدرات. لكن المدمن على العمل، على عكس المخدر الذي يقلّل من الإنتاجية، يساهم مساهمة كبرى في ثروة بلده. وبالتالي ليس من مصلحة أحد البحث عن علاج.

وما هي العواقب؟

لا بد من أنك تعرف، بما أنني أفترض أن هذا هو سبب مجيئك لرؤيتي: العاقبة الأخطر هي الضرر الذي يلحقه بالحياة العائلية. وفي اليابان، وهي أحد البلدان حيث المرض أكثر انتشاراً، وحيث العواقب تصبح أحياناً مميتة، تم تطوير وسائل مختلفة للسيطرة على هذا الهوس.

لم يقدر إيغور على أن يتذكّر استماعه إلى أي كان في العامين الماضيين بمثل الاحترام والانتباه هذين اللذين استمع فيهما إلى الرجل صاحب النظارتين والشاربين أمامه.

ثمة مهرب إذاً، أليس كذلك؟

عندما يطلب المدمن على العمل، مساعدة من الطبيب النفسي، فهذا يعني أنه مستعد للعلاج. فواحد فقط، من بين ألف حالة، يدرك حاجته إلى المساعدة.

«آه، أحتاج إلى المساعدة، ولديّ ما يكفي من المال.

- هذا ما يقوله جميع المدمنين على العمل. نعم، أعرف أن لديك ما يكفي من المال، جميعكم هكذا. وأعرف أيضاً من أنت. رأيت صورك في الحفلات الخيرية، وفي المؤتمرات، وفي لقاءات خاصة مع رئيسنا، الذي، في المناسبة، يُظهر الأعراض نفسها. المال ليس كافياً. ما أريد معرفته هو: هل تريد حقاً التغيير؟

فكّر إيغور في إيوا، في المنزل في الجبال، في العائلة التي يحب الحصول عليها، وفي مئات ملايين الدولارات التي له في المصرف. فكّر في مركزه الاجتماعي، وفي السلطة التي يملكها، وكم أنه يصعب التخلي عن ذلك كله.

«لا أقول إنه عليك التخلي عما تقوم به»، قال الطبيب النفسي، كما لو أنه قرأ أفكاره. أنا أقترح وحسب أن تستخدم العمل كمصدر للسعادة، وليس كعمل إكراهي.

نعم، يمكنني القيام بالأمر

وما هو دافعك الأساسي إلى القيام بالأمر؟ فجميع مدمني العمل يعتقدون أنهم سعداء في القيام بما يقومون به، ولا يرى أي من أصدقائهم، الذين في مثل موقعهم، لماذا عليهم طلب المساعدة.

أطرق إيغور بناظريه.

هل علي أن أقول لك ما هو دافعك الأكبر؟ فأنت، كما قلت لك من قبل، تدمّر عائلتك.

لا، الوضع أسوأ من ذلك. فقد أخذت زوجتي تظهر الأعراض ذاتها. أخذت تنأى بنفسها عني منذ تلك الرحلة التي قمنا بها إلى بحيرة بايكال. وإذا كان ثمة أي واحد في الأرض يمكنني أن أقتله من جديد من أجل...

أدرك إيغور أنه تفوّه بالكثير، لكن الطبيب النفسي بدا غير متأثر أبداً.

«إذا كان ثمة أحد في العالم أقوم بأي شيء، أي شيء على الإطلاق، من أجله، فهذا الشخص هو زوجتي».

استدعى الطبيب النفسي مساعِدته، وطلب منها تعيين سلسلة مواعيد. لم يستشر مريضه ليرى إذا كان غير منشغل في أوقات تلك المواعيد؛ وهذا جزء من العلاج أن يوضح جيداً انه يمكن تأجيل أي التزام آخر مهما بلغت أهميته.

- أيمكنني طرح سؤال؟

هزّ الطبيب النفسي برأسه علامة الإيجاب.

- ألا تُعتبر المبالغة في العمل بالأحرى أمراً نبيلاً؟ إثباتاً على احترامي الشديد للفرص التي منحني إياها الله في هذه الحياة؟ أو وسيلة لوضع المجتمع في الطريق القويم، حتى لو اضطررت أحياناً إلى استخدام أساليب هي بعض الشيء...

صمت.

- بعض الشيء ماذا؟

- آه، لا شيء.

غادر إيغور غرفة المعاينة وهو يشعر بالارتباك والارتياح معاً. ربما فشل الطبيب النفسي في فهم جوهر ما قام به. فللحياة أسبابها. ونحن جميعنا مرتبطون ببعضنا البعض، ومن الضروري في الغالب استئصال الأورام السرطانية ليستمر ما بقي من الجسم صحيحاً. فالناس مسجونون داخل عوالمهم الأنانية الصغيرة، يضعون خططاً لا تتضمن رفاقهم البشر، ويؤمنون بأن كوكب الأرض مجرّد أرض

يجب استغلالها، ويتبعون غرائزهم ورغباتهم ولا يهتمون البتة برفاه المجتمع العام.

وهو لا يدمر عائلته، بل يريد وحسب ترك العالم مكاناً أفضل للأولاد الذين حلم بانجابهم؛ عالماً بدون مخدرات أو حروب أو متاجرة بالبشر، عالماً يشكل في الحب قوة عظمى تجمع بين جميع الأزواج، والناس، والأمم، والأديان. ستفهم إيوا هذا، برغم أن زواجهما يمر حالياً في أزمة... أزمة من فعل الشرير بلا شك.

طلب في اليوم التالي من سكريتيرته إلغاء جميع مواعيده اللاحقة مع الطبيب النفسي، فلديه أمور أكثر أهمية يقوم بها. إنه يضع مخططاً عظيماً لتنقية العالم، مخططاً يحتاج فيه إلى المساعدة، وهو اتصل بالفعل بمجموعة مستعدة للعمل معه.

هجرته زوجته التي يحبها، بعد ذلك بشهرين، بسبب الشرير الذي تملّكها، لأنه لم يتمكن من فهم مشاعرها.

أعاده جذب أحد الكراسي إلى واقع «كان»، وقد جلست قبالته امرأة تحمل كأساً من الويسكي بيد وسيجارة باليد الأخرى. أنيقة الملبس، لكن من الواضح أنها سكرى.

- أيمكنني الجلوس هنا؟ الطاولات الأخرى كلها مشغولة.

- أنت قد جلست هنا بالفعل.

«هذا غير ممكن وحسب» قالت المرأة كما لو أنها تعرفه منذ سنين. «إنه ببساطة غير ممكن. أجبرتني الشرطة على مغادرة المستشفى. والرجل الذي سافرت من أجله لما يقارب اليوم الكامل

بالقطار، واستأجرت من أجله غرفة في فندق بضعفي السعر العادي، معلّق الآن بين الموت والحياة. اللعنة!».

اهي من الشرطة؟ أم أنه ليس لما تقوله علاقة بما يعتقد أن له علاقة به؟

- على أي حال، ما الذي تفعله هنا، إذا لم تمانع أن أسأل؟ ألا تشعر بالحر؟ ألن تشعر ببعض البرودة بدون ارتدائك سترتك، أم انك تحاول التأثير في أحد ما بأناقتك؟

الناس، كالعادة، يختارون قدرهم الخاص، وهذه المرأة تفعل ذلك بالتحديد.

- أرتدي دوما سترة بغض النظر عن الحرارة. هل أنت ممثلة؟

ضحكت المرأة ضحكة شبه هستيرية.

- نعم، لنقل إنني ممثلة، نعم أنا ممثلة. ألعب دور امرأة ينتابها الحلم ذاته منذ المراهقة، وكبر معها، وحاربت على مدى سبع سنوات لعينة من حياتها لتحقيقه، وقد رهنت منزلها، وعملت بدون توقف...

- آه، أعرف كيف هو الأمر.

- كلا، أنت لا تعرف. يعني ذلك التفكير في شيء واحد فقط، ليلاً ونهاراً، الذهاب إلى أمكنة بدون دعوة، ومصافحة أناس تحتقرهم، والاتصال هاتفياً مرة، ومرتين وعشر مرات، إلى أن تحظى بانتباه أناس لا يساوون نصف ما تساويه أنت، ولا يتمتعون بنصف شجاعتك، لكنهم بلغوا موقعاً ما وقد صمموا على التنفيس عن كل إحباطاتهم المنزلية من خلال جعل حياتك مستحيلة...

- ... يعني ذلك إيجاد اللذة فقط في متابعة حلمك، بدون أن

يُلهيك شيء عنه، وإيجاد كل شيء آخر مملاً حتى الموت، وينتهي بك الأمر وقد دمّرت عائلتك.

نظرت إليه المرأة، وقد أخذتها الدهشة. لم يعد يبدو عليها الشكُر.

- من أنت؟ كيف تعرف ما أفكّر فيه؟

- كنت أفكّر في الأمر ذاته تقريباً عندما وصلت. وأنا لا أمانع أبداً في أن تسأليني ما الذي أفعله هنا. أعتقد أنه تمكنني مساعدتك.

- ما من أحد تمكنه مساعدتي. الرجل الوحيد الذي يستطيع موجود الآن في وحدة العناية الفائقة. ومن خلال ما أمكنني التقاطه قبل وصول الشرطة، فهو ربما لن ينجو. يا إلهي!

شربت ما بقي من ويسكي في كأسها. أشار إيغور إلى النادل الذي تجاهله ومضى ليخدم طاولة أخرى.

- لطالما فضلت المجاملة الاستهكامية على القليل من الانتقاد البناء. أرجوك قل لي إنني جميلة وإنني أتمتع بما يلزم...

ضحك إيغور.

- كيف تعرفين أنه لا تمكنني مساعدتك؟

- هل أنت بالصدفة موزع أفلام؟ هل لديك اتصالات بسلسلة من دُور السينما حول العالم؟

ربما هما يشيران إلى الشخص ذاته. إذا كان الأمر كذلك، وكان فخا، فقد فات الأوان على الفرار. واضح أنه مُراقَب، وما إن يقف حتى يتم توقيفه. شعر بانقباض في بطنه، لكن لماذا عليه

أن يخاف؟ فهو منذ فترة قصيرة وحسب، حاول، بدون جدوى، تسليم نفسه إلى الشرطة. اختار الشهادة. قدّم حريته كتضحية، لكن الله رفض هذه العطية. ومن الواضح الآن أن السماء أعادت النظر في قرارها.

عليه أن يفكر في أفضل طريقة للتعامل مع ما يتبع؛ تم تحديد المشتبه فيه، أرسلت امرأة تدّعي الشُكر مسبقاً لتأكيد الوقائع، ومن ثم، فإن رجلاً ما سيسير إليه بكل هدوء ويطلب منه المجيء معه لإجراء بعض الحديث. وسيكون هذا الرجل شرطياً. حمل إيغور ما بدا أنه قلم في جيب سترته، وهو لن يثير أي شبهة، بينما مسدس البيريتا سيفضحه. شاهد شريط حياته كلها يمر من أمامه.

أيمكنه استخدام المسدس للدفاع عن نفسه؟ فالشرطي الذي من المؤكد ظهوره، ما إن يتم التعرّف إليه سيكون معه رفاق له يراقبون المشهد، وسيموت إيغور قبل أن يقدم على خطوة كهذه. وهو، من جهة أخرى، لم يأت إلى هنا لقتل أناس أبرياء بطريقة بربرية وبدون تمييز. لديه مهمة، وضحاياه - أو شهداء الحب كما يحب أن يدعوهم - يخدمون غاية أكبر.

«كلا، لست موزّعاً»، قال. «ليس لدي على الإطلاق أي علاقة بعالم السينما، أو الموضة أو البهرجة. أعمل في مجال الاتصالات».

- جيد، قالت المرأة. لا بد من أنك تملك المال. لا بد من أنه راودتك أحلام في حياتك. لذا، أنت تعرف ما الذي أتحدث عنه.

شرع يفقد خيط المحادثة. أشار إلى نادل آخر. جاء النادل هذه المرة وطلب إيغور فنجانين من الشاي.

- ألا ترى أنني أشرب الويسكي؟

- نعم، لكن كما سبق وقلت، أعتقد أنه في وسعي مساعدتك. لكن للقيام بذلك عليك أن تكوني صاحية ومدركة ما تقومين به.

أحست مورين بتغيير ينتابها. فمنذ أن أثبت هذا الغريب قدرته على قراءة أفكارها، وهي تشعر بأنها تُعاد إلى أرض الواقع. ربما تمكنه فعلاً مساعدتها. مرّت سنوات على محاولة أي كان إغواءها بأكثر العبارات ابتذالاً، المستخدمة في أعمال السينما: «لدي بعض الاصدقاء النافذين». فما من شيء أكثر ضماناً في تغيير حالة المرأة النفسية أكثر من معرفتها أن شخصاً من الجنس المغاير يرغب في وصالها. شعرت بشيء يغريها بالنهوض والذهاب إلى الحمام لتفقّد تبرجها في المرآة. إلا أنه يمكن ذلك أن ينتظر. عليها أولاً أن ترسل بعض الإشارات الواضحة التي تدل على اهتمامها.

نعم، إنها تحتاج إلى الرفقة، وهي منفتحة على أي مفاجأة قد يخبئها لها القدر. وعندما يغلق الله باباً، فإنه يفتح نافذة. لماذا، من بين جميع الطاولات على تلك الشرفة، هذه الطاولة يحتلها شخص واحد وحسب؟ يوجد معنى في هذا، إشارة خفية: إنه مُقدّر لهما أن يلتقيا.

ضحكت من نفسها. ففي حالتها اليائسة الراهنة، كل شيء يشكّل إشارة، ومخرجاً، وجزءاً من أخبار سارة.

«أولاً، قولي لي ما الذي تحتاجين إليه»، قال الرجل.

- أحتاج إلى المساعدة. لدي فيلم تم فيه اختيار أرفع الممثلين جاهز وينتظر، يُفترض أن يوزّعه واحد من الأناس القلة في الصناعة ممن لا يزالون يؤمنون بمواهب الناس من خارج منظومة الاستوديو. كنت سألتقي في الغد. بل إنني كنت في الغداء ذاته

الذي كان فيه اليوم، عندما أحسست فجأة بأنه لا يشعر بأنه بخير.

شرع إيغور في الاسترخاء. ربما الأمر صحيح، الواقع حقاً أغرب من الخيال.

- تركتُ الغداء، وعرفت أي مستشفى تم نقله إليه، وذهبت إلى هناك. أخذت، وأنا في الطريق، أتخيل ما سأقوله، حول أنني صديقة له، وسنعمل معاً. أنا لم يسبق لي أن تحدّثت معه، لكنني أعتقد أن أي شخص في مثل هذا الوضع سيشعر بالراحة لمعرفة أن شخصاً ما، أي شخص، موجود قربه.

«بعبارات أخرى»، فكّر إيغور، «تحويل مأساة شخص ما إلى منفعة لك».

- الناس جميعهم سواء.

سأل: وما هو بالتحديد اختيار أرفع الممثلين؟

- هل يمكنك أن تعذرني؟ احتاج إلى الذهاب إلى الحمام.

وقف إيغور تهذيباً. وضع نظارتيه السوداوين وحاول، وهي تبتعد، أن يحافظ على ما أمكن من مظهر الهدوء. شرب الشاي، وهو يمسح في الوقت ذاته، الشرفة بعينيه. بدا، من النظرة الأولى، أنه لا يوجد تهديد مباشر، إلا أنه لا يزال من الحكمة أن يغادر الشرفة ما إن تعود المرأة.

تأثرت مورين بالسلوك الرفيع لصديقها الجديد. فقد مرّت سنوات منذ أن رأت شخصاً ما يتصرف بحسب أصول آداب السلوك التي يعلّمنا إياها آباؤنا وأمهاتنا. لاحظت، وهي تغادر الشرفة، أن بعض النساء الجميلات إلى الطاولة المجاورة ينظرن إليه ويبتسمن. لا شك في أنهن سمعن جزءاً من حديثهما. لاحظت أيضاً أنه وضع نظارتيه

السوداوين، ربما ليتمكن من مراقبة الشابات بدون أن يلاحظن ذلك. وربما، بعودتها، ستجدهم يشربون الشاي جميعهم معاً.

ثم إن الحياة هي على هذا الشكل: عدم الشكوى، وعدم توقع الكثير أيضاً.

نظرت إلى وجهها في المرآة. لماذا قد يهتم رجل بها؟ فهي، على عكس ما أوحى، لا تحتاج إلى أن تتمسك بالواقع من جديد. بدت عيناها فارغتين ومتعبتين. إنها مُنهَكة على غرار كل من يشارك في المهرجان، لكنها تعلم بأن عليها الاستمرار في القتال. مهرجان «كان» لم ينته بعد، وجافيتس قد يتعافى، أو قد يظهر شخص ما يمثل شركته. لديها بطاقات لحضور أفلام أناس آخرين، ودعوة إلى حفلة تقيمها «غالا»، وهي واحدة من اكثر المجلات أهمية في فرنسا، وقد يمكنها استخدام الوقت المتوفر لترى مدى الاستقلالية التي يذهب إليها المنتجون والمخرجون الأوروبيون في شان توزيع أفلامهم. تحتاج إلى أن تستعيد حالتها سريعاً بعد النكسة.

أما الغريب الوسيم، فلا يجب أن تتملكها التوهمات في شأنه. عادت إلى الطاولة مقتنعة بأنها ستجد اثنتين من النساء الجميلات تجلسان هناك، لكنه كان لا يزال وحده. ووقف مرة أخرى احتراماً، وسحب لها كرسيها لتتمكن من الجلوس.

- عفواً، لم أعرّفك بنفسي، أنا مورين.

- وأنا إيغور. سررت بالتعرف إليك. كنت تقولين إن لديك الممثلين المثاليين.

قررت أن تضايق الفتيات الجالسات إلى الطاولة المجاورة. وتحدثت بصوت أكثر ارتفاعا بعض الشيء من العادة:

- يتم هنا في «كان»، أو بالفعل في أي مهرجان آخر، وفي كل

سنة اكتشاف ممثلات جديدات، وفي كل سنة تفشل ممثلة كبيرة بالفعل في الحصول على دور كبير لأن الصناعة تعتقد أنها أصبحت أكبر سناً مما يلزم برغم أنها لا تزال شابة وملأى بالحماسة. ومن بين الاكتشافات الجديدة (وفكّرت، آمل وحسب أن الفتيات بالقرب منا يستمعن)، ثمة من يخترن طريق الرونق المحض. لا يكسبن الكثير من الأفلام التي يعملن فيها - جميع المخرجين يعرفون هذا ويستغلون الوضع استغلالاً تاماً -، وبالتالي يستثمرن في الأمر الوحيد الذي لا يجب عليهن الاستثمار فيه.

- وهو...

- جمالهن. يصبحن شهيرات، يطلبن المال لحضور الحفلات، ويُطلب منهن الظهور في الإعلانات وتسويق منتجات مختلفة. وينتهي بهن الأمر بلقاء الرجال الأكثر سلطة والممثلين الأكثر جاذبية جنسية في العالم. يكسبن كمية كبيرة من المال لأنهن شابات وجميلات، ولأن وكلاءهن يحصلون لهن على كمية كبيرة من العقود.

وهن، في الواقع، يسمحن لأنفسهن بالانقياد التام لوكلائهن الذين يغذون غرورهن باستمرار. وتصبح ممثلة من هذا الصنف حلم ربات المنزل، والفتيات المراهقات، واللواتي يُردن أن يصبحن ممثلات ولا يملكن ما يكفي من المال للسفر إلى أقرب مدينة، واللواتي يعتبرنها صديقة ويحببن أن تكون لهن التجارب ذاتها التي مرت بها. وهي تواصل القيام بالافلام وكسب القليل، برغم أن المسؤول الإعلامي لديها يصور الأمر كأنها تتقاضى مرتباً هائلاً، وهنا كذب محض لا يصدقه حتى الصحافيون أنفسهم، لكنهم ينشرونه لأنهم يعرفون أن الجمهور يفضّل الأخبار على المعلومات.

«وما الفارق؟»، سأل إيغور، الذي أخذ يشعر باسترخاء أكبر، لكنه استمر في فتح عينه على ما يدور من حوله.

لنقل إنك تريد أن تشتري حاسوباً مطلياً بالذهب من مزاد في دبي، وقررت أن تضع كتاباً مستخدماً هذه الأعجوبة التكنولوجية. وعندما يعرف صحافي ما في شأن الحاسوب، يتصل بك ويسأل: «إذاً، كيف حال حاسوبك المطلي بالذهب؟». هذا هو الخبر. أما المعلومة - طبيعة الكتاب الجديد الذي تضعه - فليست لها أي أهمية من أي نوع.

ربما إن إيوا تحصل على الخبر بدلاً من المعلومة، فكّر إيغور. لم يسبق أن خطرت له هذه الفكرة من قبل.

- تابعي.

- يمر الوقت، أو بالأحرى تمر سبع أو ثماني سنوات. وفجأة تجف عروض الأفلام. وتأخذ الإيرادات من الحفلات والإعلانات في التناقص. ويبدو وكيلها فجأة أكثر انشغالاً من قبل، ولا يعيد دائماً الاتصال بها. تتمرّد النجمة الكبيرة: كيف يمكنهم أن يفعلوا هذا بها، هي رمز الجنس، وأيقونة البهرجة الكبرى؟ تضع اللوم على وكيلها، وتقرّر إيجاد بديل منه. وهو، لدهشتها، لا يبدو أنه يمانع أبداً. بل على العكس، يطلب منها أن توقّع على بيان يفيد كم أن علاقتهما معا كانت دائماً جيدة، ثم يتمنى لها الحظ السعيد، وتلك تكون نهاية العلاقة بينهما.

نظرت مورين في أنحاء الشرفة كما لو أنها تبحث عن مثال لما تصفه: نساء لا يزلن شهيرات، لكنهن اختفين عن المشهد ويبحثن يائسات عن فرصة جديدة ما. وهن لا يزلن يتصرفن كأنهن المغنية الأولى في الأوبرا، ويحتفظن بالمظهر المتباعد ذاته، لكن قلوبهن ملأى بالمرارة، وبشرتهن معبّأة بالبوتوكس، وتغطيها الآثار غير المرئية التي تتركها الجراحة التجميلية. أمكنها رؤية الكثير من الأدلة إلى البوتوكس والجراحة التجميلية، لكن لم تر شهيرات من

العقد السابق. فربما لا يملكن حتى ما يكفي من المال الآن لحضور مهرجان كهذا، لكنهن يظهرن بدلاً من ذلك ضيفات خاصات في حفلات رقص في المدن الريفية، أو يتصدرن إطلاق ماركة جديدة من الشوكولا أو البيرة، ولا يزلن يتصرفن كما لو أنهن لا يزلن الشخص الذي كنّ عليه في ما سبق، مع معرفتهن بأنه لسن كذلك.

- أشرت إلى نوعين من الناس.

- نعم. تواجه المجموعة الثانية من الممثلات المشكلة ذاتها تماماً، مع وجود فارق واحد مهم. ومرة أخرى أخذ صوتها يرتفع لأن فتيات الطاولة المجاورة مهتمات بوضوح بما لدى شخص عارف أن يقوله. يعرفن أن الجمال أمر عابر. لا يظهرن في الإعلانات أو على غلافات المجلات لأنهن مشغولات في شحذ مواهبهن الفنية يستمررن في الدراسة والقيام بالاتصالات التي تفيدهن في المستقبل. يعطين أسماءهن ومظهرهن لبعض المنتجات، ليس بوصفهن عارضات، بل شريكات. يجنين، طبعاً، مالاً أقل، لكن ذلك يعني دخلاً لمدى الحياة.

ثم تأتي إلى جانب ذلك واحدة مثلي، لديها نص جيد وما يكفي من المال، أضف إلى أنني أريدهن في فيلمي. يوافقن، ولديهن ما يكفي من الموهبة للعب الأدوار التي أعطيهن إياه، وما يكفي من الذكاء لمعرفة أنه حتى لو لم يحقق الفيلم نجاحاً ساحقاً، فهن سيحتفظن على الأقل بوجود لهن على الشاشة، ويشاهدن يعملن بوصفهن ممثلات بالغات، ومن يدري، ربما يثرن اهتمام منتج آخر.

أدرك إيغور أيضاً أن الفتيات يستمعن إلى حديثهما.

قال بهدوء: ربما علينا الخروج للنزهة. فنحن نفتقر إلى

الخصوصية هنا. أعرف مكاناً يمكننا فيه أن نكون وحدنا ونشاهد الشمس تغيب. إنه مكان جميل.

ذلك ما تحتاج إليه بالضبط في هذه اللحظة: دعوة إلى التنزه! مشاهدة المغيب، برغم أنه سيمر بعض الوقت قبل غياب الشمس! إنه ليس واحداً من أولئك الاشخاص السوقيين الذين يقولون: لنذهب إلى غرفتي للحظة، أحتاج إلى تبديل حذائي ولن يحصل شيء، أعدك. وهو ما إن يصبحا في غرفته، سيقول وهو يحاول الإمساك بها: لدي اتصالات، وأنا أعرف بالضبط الأناس الذين تحتاجين إلى التحدث معهم.

ولتكون صادقة، فإنها لا تمانع في أن يقبلها هذا الرجل الذي يظهر عليه أنه ساحر. هي لا تعرف عنه أي شيء أبداً، إلا أن الأناقة التي يستميلها بها هي أمر لن تنساه لوقت طويل.

نهضا عن الطاولة، وطلب وضع ثمن الشراب على حسابه (هكذا إذاً، فكرت، إنه ينزل في المارتينيز!). عندما بلغا جادة لاكروازيت، اقترح أن يستديرا يساراً.

يوجد عدد أقل من الناس في هذا الاتجاه، ثم إن المنظر يجب أن يكون أفضل مع الشمس تغيب وراء التلال.

- من أنت، يا إيغور؟

«سؤال جيد»، قال. «أود أن أعرف، أنا نفسي، الجواب عنه».

نقطة أخرى في مصلحته. فهو لم ينطلق فوراً في نوع من الدهلزة حول مدى ثروته وذكائه وموهبته. يريد وحسب مشاهدة غياب الشمس معها، وهذا كل شيء. سارا بصمت حتى نهاية الشاطئ، وهما يمزان في جميع انواع الأناس المختلفين: أزواج كبار في السن يبدو أنهم يقيمون في عالم آخر، غافلين كلياً عن

المهرجان، شبان على آلات التزحلق يرتدون ثياباً ضيقة ويستمعون إلى الآي-بود، بائعي الشوارع مع بضائعم المفروشة على سجادة تنتهي عند جوانبها بخيطان متداخلة فيها، بحيث إنهم، عند أول إشارة إلى اقتراب رجل شرطة ما، يحوّلون واجهة محلهم إلى كيس، بل إن ثمة منطقة يبدو أن الشرطة تضرب طوقاً حولها لسبب ما، وهو، بعد كل شيء، ليس إلا مقعداً. لاحظت أن رفيقها يستمر في التطلع إلى الوراء، كما لو أنه يتوقع أحداً، إلا أنه ربما وقع نظره وحسب على أحد معارفه.

سارا على طول رصيف حيث أخفت المراكب الشاطئ جزئياً عن النظر، إلى أن وجدا أخيراً موقعاً منعزلاً. جلسا على مقعد مريح ذي متكئ للظهر. انهما وحدهما تماماً. وفي الحقيقة لماذا سيأتي أحدهم إلى مكان ليس فيه ما يفعله؟ إنها في مزاج ممتاز.

"يا له مكن مكان رائع! هل تعرف لماذا قرر الله أن يستريح في اليوم السابع؟».

لم يفهم إيغور السؤال، لكنها شرعت في الشرح على أي حال:

- لأنه في اليوم السابع، قبل أن يُنهي عمله ويترك العالم في حالة ممتازة للكائنات البشرية، جاءته مجموعة منتجين من هوليوود وقالت: «لا تقلق في شأن الباقي! سنهتم بتوفير غيابات الشمس المتعددة الألوان، والتأثيرات الخاصة للعاصفة، والإضاءة الممتازة، وتجهيزات الصوت المناسبة، بحيث إن الانسان، في كل مرة يسمع فيها صوت الموج، يعتقد أنه البحر الحقيقي!».

ضحكت وحدها. وقد بدا الرجل الجالس إلى جانبها أكثر جدّية الآن.

«سألتني عمّن أنا»، قال.

- لا فكرة لي عمّن تكون، لكن من الواضح أنك تعرف المدينة جيداً. وعليّ أن أقول إنه من الحظ الجيد أن ألتقي بك على هذه الحال. فأنا، في يوم واحد وحسب، اختبرت الأمل، واليأس، والوحدة، ومتعة العثور على رفيق جديد. وهذا كثير من الانفعالات.

أخرج شيئاً من جيبه، بدا كأنه أنبوب خشبي بطول أقل من ستة إنشات.

«العالم مكان خطر»، قال. «لا يهم أين أنت، فأنت تخاطرين دوماً في أن يقاربك أشخاص لا يتورعون عن الهجوم، والدمار، والقتل. ولا نتعلم أبداً كيف ندافع عن أنفسنا. فجميعنا تحت رحمة من هم أقوى منّا».

- أنت محق. أفترض ان الأنبوب الخشبي هو طريقتك في الدرء منهم.

فتل الجزء الأعلى من الأنبوب. ورفع الغطاء بالرقة ذاتها التي يعتمدها الفنان في وضع اللمسة الأخيرة على تحفة فنية. وهو في الواقع ليس غطاء، بل رأس ما يبدو أنه ظفر طويل. تلألأت الشمس على النصل المعدني.

«لن تمرّ عبر أمن المطار وأنت تحمل هذه في حقيبتك»، قالت ذلك وضحكت.

- كلا، لن أفعل.

شعرت مورين بأنها مع رجل مهذب، وسيم، ثري بلا شك، لكنه قادر أيضا على حمايتها من جميع الأخطار. وهي لا تملك أي فكرة عن إحصاءات الجريمة في «كان»، لكنه من الجيد التفكير في كل شيء. هذا هو سبب وجود الرجال: التفكير في كل شيء.

- تحتاجين، طبعاً، إلى معرفة دقيقة بكيفية استخدامها. وهي ربما مصنوعة من الفولاذ، لكن، لأنها رقيقة جداً، فهي أيضاً هشة وأصغر من أن تحدث ضرراً حقيقياً. وإذا لم تستخدميها بدقة متناهية، فلن تعمل.

وضع مستوى الشفرة عند أذن مورين. رد فعلها الأول كان الخوف، الذي سرعان ما تحوّل إلى إثارة.

- سيكون هنا، على سبيل المثال، واحداً من الأماكن المثالية. أعلى بعض الشيء، وسترد عظام الجمجمة الضربة، وأسفل بعض الشيء، وسيُقطع العرق في العنق، قد يموت الشخص، لكنه سيتمكن من المقاومة. ويمكنه، إذا كان مسلحاً، أن يطلق النار علي، وبخاصة من مثل هذا المدى القريب.

زحل النصل ببطء نزولاً على جسمها. مر من فوق ثديها. أدركت مورين أنه يحاول أن يصدمها ويثيرها معاً.

- لم أملك أي فكرة عن أنه في وسع شخص يعمل في الاتصالات أن يعرف هذا القدر عن القتل. لكن، من خلال ما تقول، فإن قتل أحد ما بهذا النصل عملية معقدة.

إنها طريقتها في القول: أنا مهتمة بما تخبرني إياه. وأجدك فاتناً حقاً. لكن أرجوك، خذ بيدي وحسب، ودعنا نذهب ونشاهد غياب الشمس معاً.

زحل النصل على ثديها، لكنه لم يتوقف هناك. إلا أن ذلك كان كافياً لإثارتها، وتوقف تحت ذراعها تماماً.

- هنا، أنا على مستوى قلبك. إنه محمي بحاجز طبيعي هو القفص الصدري. ومن المستحيل، في قتال، جرح أحد ما بهذا النصل. فمن شبه المؤكد أنه سيصطدم بأحد الأضلاع، وحتى لو ثقب

الجسم فإن الجرح لن ينزف بما يكفي لإضعاف عدوك. بل إنه قد لا يشعر حتى بالضربة. إلا أنها، هنا بالذات، ستكون قاتلة.

ما الذي تفعله في هذه البقعة المنعزلة مع غريب كلّي عنها يتحدث عن مثل هذا الموضوع المروّع؟ عند هذا الحد، شعرت بما يشبه الصدمة الكهربائية التي تركتها مشلولة. فقد أدخلت يده النصل داخل جسمها. شعرت أولاً كما لو أنها تختنق وحاولت التنفس، لكنها سرعان ما فقدت الوعي.

وضع إيغور يده من حولها، كما فعل مع ضحيته الأولى. إلا أنه هذه المرة وضع الجسم في حالة يبقى معها جالساً. ثم وضع قفازين وجعل رأسها يسقط إلى الأمام على صدرها.

لو ان أحداً ما غامر بالقدوم إلى هذه الزاوية من الشاطئ، فإن جل ما يراه هو امرأة نائمة، وقد أرهقها ربما لحاقها بالمنتجين والموزعين في المهرجان.

انشغل الفتى المختبئ وراء أحد المستودعات - حيث يختبئ في الغالب ويستمني وهو يشاهد الأزواج يتعانقون - في الاتصال العاجل بالشرطة. لقد رأى كل شيء. اعتقد في البداية أن في الأمر مزحة ما، لكن الرجل طعن المرأة فعلا بالنصل! عليه ان ينتظر وصول الشرطة قبل مغادرة مخبئه، إذ يمكن الرجل المعتوه أن يعود في أي لحظة وتدور الدوائر عليه.

رمى إيغور بالنصل في البحر، ومشى إلى الفندق. ضحيته، هذه المرة، هي التي اختارت الموت. فهو، عندما انضمت إليه، كان يجلس

وحيداً على الشرفة يتساءل عما يقوم به تالياً ويفكّر في الماضي. لم يتصوّر أبداً أنها ستوافق على الذهاب في نزهة إلى مثل هذه البقعة المعزولة مع شخص غريب كلياً عنها، لكنها فعلت. أمكنها الهرب عندما أخذ يُظهر لها الأماكن المختلفة التي يمكن النصل أن يسبب فيها جرحاً قاتلاً، لكنها لم تفعل.

مرّت سيارة شرطة، تسير على طول الطريق المقفلة أمام العامة. قرر مراقبة إلى أين تذهب. ورأى، لدهشته، أنها تسير إلى الرصيف الذي لا يبدو أن أحداً يقصده في خلال فترة المهرجان. كان خالياً ذلك الصباح كما هو خال بعد هذا الظهر، برغم أنه المكان الأفضل لمراقبة غياب الشمس. مرّت بعد ذلك بثوان سيارة إسعاف وزعيق صفارة إنذارها يصم الآذان وأضواؤها تومض. وهي أيضاً توجهت صوب الرصيف.

استمر في السير وهو متأكد من أمر واحد: لا بد من أن أحداً ما شاهد الجريمة. لكن كيف يمكن هذا الواحد أن يصفه؟ رجل ذو شيب، يرتدي جينزاً وقميصاً أبيض وسترة سوداء. سيساعد هذا الشاهد المحتمل الشرطة على رسم صورة تقريبية، وهي عملية لن تستغرق وقتاً وحسب، بل ستؤدي بهم إلى استنتاج أن ثمة العشرات، أو ربما الآلاف من الرجال الذين يشبهونه.

وهو، منذ أن حاول تسليم نفسه إلى ذلك الشرطي الذي طلب منه العودة إلى فندقه، متأكد من عدم قدرة أحد على عرقلة مهمته. لكن الشكوك التي يشعر بها الآن هي من طبيعة مختلفة: هل تساوي إيوا التضحيات التي يقدّمها إلى الكون؟ وهو، عندما وصل إلى «كان»، حمل شعوراً مؤكداً بأنها تساوي؛ إلا أن ثمة شيئاً آخر الآن يملأ نفسه: روح بائعة الشارع الصغيرة بحاجبيها الأسودين وابتسامتها البريئة.

بدا أنها تقول، إننا جميعنا جزء من شرارة إلهية. لدينا جميعنا قصد في الخليقة، وهذا القصد اسمه الحب. إلا أنه ليس على ذلك الحب أن يتركّز على شخص واحد وحسب، بل يجب نشره عبر العالم في انتظار اكتشافه. استيقظ على هذا الحب. ما فات مات. تجب معرفة ما الذي سيحصل.

كافح ضد فكرة أننا ربما نكتشف وحسب أن المخطط خاطئ عندما نصل به إلى عواقبه الغائية، أو عندما يقودنا الله الكلّي الرحمة في اتجاه آخر.

نظر إلى ساعته: لا تزال أمامه ١٢ ساعة أخرى في «كان»، وهو وقت كاف قبل أن يصعد إلى الطائرة مع المرأة التي يحب ويعود إلى...

...يعود إلى ماذا؟ إلى عمله في موسكو بعد كل ما اختبره، وعاناه، وفكّر فيه، وخطط له؟ أو للعثور على الانبعاث عبر ضحاياه واختيار الحرية المطلقة، واكتشاف شخصه الذي لم يعرف من هو، ومن هناك وصاعداً، القيام بكل الأمور التي حلم بها عندما كان لا يزال مع إيوا؟

٤:٣٤ ب.ظ.

جلست ياسمين محتقة في البحر، تدخن سيجارة وتفكر في لاشيء. وهي، في مثل هذه اللحظات، تشعر برابط عميق مع اللامنتهى، كما أنها ليست هي الموجودة هناك، بل شيء أكثر قوة، شيء قادر على أمور خارقة.

تذكرت قصة قديمة قرأتها من قبل:

ظهر نصر الدين مرة في البلاط يضع عمامة رائعة، ويطلب التصدق عليه بالمال.

سأله السلطان: تأتي إلى هنا طلباً للمال، وأنت تضع على رأسك عمامة غالية الثمن. فكم كلفك هذا الغرض العجاب؟

«إنه هدية من شخص شديد الثراء. وأعتقد أنه يساوي خمسمئة قطعة ذهبية»، أجابه الصوفي الحكيم.

تمتم وزير السلطان، مستحيل. لا يمكن عمامة أن تساوي ذلك القدر.

أصر نور الدين:

- لم آت إلى هنا لاستعطي وحسب، بل جئت لتصريف الأعمال. أعرف أن عاهلاً حقيقياً فقط، يقدر على شراء هذه العمامة بستمئة قطعة ذهبية، بحيث أعطي الفائض للفقراء.

اغتبط السلطان ودفع له ما طلبه. وقال نور الدين للوزير وهو في طريقه خارجاً:

قد تعرف ثمن عمامة ما، لكنني أعرف إلى أي مدى يمكن زهو الرجل أن يوصله.

هنا ما هو عليه العالم من حولها. ليس لديها شيء ضد مهنتها، وهي لا تحكم على الناس من خلال رغباتهم، لكنها تعرف ما هو المهم حقيقة في الحياة، وتريد أن تُبقي رجليها على الأرض، برغم وجود الإغراءات عند كل مفترق.

فتح أحدهم الباب وقال إنه لم يبق إلا نصف ساعة على بدء العرض. وقد شارف الجزء الأسوأ من النهار، المرحلة الطويلة من الملل التي تسبق أي عرض للأزياء، على النهاية. تخلت الفتيات الأخريات عن أجهزتهن الموسيقية المحمولة وهواتفهن، وقامت اختصاصيات التبرج والتجميل بوضع اللمسات الأخيرة الضرورية، ومصففة الشعر تعيد أي بكلة تائهة إلى مكانها.

جلست ياسمين أمام مرآة غرفة ملابسها وتركتهن يقمن بعملهن.

،لا تتوتري لمجرد أنها ،كان،، قالت اختصاصية التجميل.

- لست متوترة.

ولماذا عليها أن تكون؟ وهي على العكس، تشعر، في كل مرة تسير في ممر العرض، بنوع من النشوة، ومن ارتفاع الأدرينالين. بدت اختصاصية التجميل في مزاج جيد للحديث، وأخذت تحكي عن عدد التجاعيد التي ملّستها لدى الكثيرات من الشهيرات، وتقترح كريماً جديداً للوجه، وتقول إنها تعبت من عملها، وتسأل ياسمين إذا كانت لديها تذكرة إضافية لحلفة تلك الليلة. استمعت ياسمين إلى ذلك كله بصبر لامتناه، وقد عادت بذهنها إلى شوارع أنتويرب في اليوم الذي قرّرت فيه الاتصال بالمصورين اللذين قارباها في وقت سابق. واجهتها صعوبة طفيفة في البداية، لكن الأمور كلها سارت في النهاية على ما يرام.

كما اليوم، كما الأمس، عندما - برفقة والدتها التي وافقت، وهي حريصة على أن تشفى ابنتها من الاكتئاب بأسرع ما يمكن، على الذهاب معها - رنت جرس المصوّر الأول، ذلك الذي أوقفها في الشارع. فتح الباب ليكشف عن غرفة صغيرة فيها طاولة شفافة مغطاة بنيغاتيف الصور، وطاولة أخرى عليها حاسوب وما يشبه لوحاً للرسم، تتكدّس عليه الأوراق. كانت مع المصور امرأة في حوالى الأربعين، نظرت إليها طويلاً متفحصة قبل أن تبتسم وتعرّف عن نفسها بأنها منسقّة الأحداث. وجلسوا، أربعتهم.

«أنا متأكدة من أنه لابنتك مستقبل عظيم كعارضة»، قالت المرأة.

- «آه، ما أنا هنا إلا لأرافقها»، قالت والدة ياسمين. «لو أن لديك ما تقولينه، فتحدثي إليها مباشرة».

توقّفت المرأة، التي أخذتها الدهشة بعض الشي، لبضع ثوان، ثم التقطت بطاقة وشرعت تدون التفاصيل والقياسات، قائلة:

- ليس اسم كريستينا، بالتأكيد، اسماً جيداً لعارضة. فهو عادي جداً. الأمر الأول الذي نحتاج إليه هو تغيير ذلك.

أخذت ياسمين تفكر في أنه يوجد سبب آخر لعدم صلاحية اسم كريستينا، لأنه اسم فتاة لم تعد موجودة عندما شهدت على جريمة قتل ونفت ما ترفض عيناها حتى الآن نسيانه. وعندما قررت تغيير كل شيء، بدأت باعتماد الاسم الذي أُطلق عليها منذ طفولتها. فهي تحتاج إلى تغيير كل شيء، كل شيء على الإطلاق. لذا، امتلكت جواباً جاهزاً.

- اسمي الاحترافي هو ياسمين تايغر (النمر). تركيبة من الحلاوة والخطر.

بدا أن المرأة أحبت الاسم.

- مهنة العرض ليست سهلة، وستكونين محظوظة إذا تم اختيارك للقيام ببضع خطوات. من الواضح أن الكثير من الأمور يحتاج إلى التمحيص، لكننا هنا لمساعدتك على الذهاب إلى حيث تريدين أن تكوني. سنأخذ لك صوراً، ثم نرسلها إلى الوكالات المعنية. وستحتاجين أيضاً إلى «تركيبة».

انتظرت أن تسأل كريستينا: ما هي التركيبة؟ إلا أنها لم تفعل ومرة أخرى أصيبت المرأة بدهشة موقتة.

- التركيبة، كما أنا متأكدة من أنك تعرفين، هي ألبوم توجد في جانب منه أفضل صورة لك إلى جانب مقاييسك، وفي الجانب الآخر المزيد من الصور في وضعيات مختلفة: مثلاً في البكيني، وأنت ترتدين ثياب الدراسة، وربما واحدة لوجهك فقط، وأخرى تُظهرك وأنت تضعين المزيد من التبرج حتى لا يستبعدوك بالضرورة في حال احتاجوا إلى من هي أكبر سناً. إن صدرك...

توقفت مرة أخرى، ثم قالت:

- ... ربما صدرك كبير قليلاً بالنسبة إلى عارضة.

استدارت صوب المصور، وقالت:

- سجّل أننا نحتاج إلى تمويه ذلك.

وضع المصور الملاحظة كما يجب. وشرعت كريستينا - التي أخذت تصبح سريعاً ياسمين تايغر - في التفكير: لكنهم عندما يرونني سيرون أن لدي صدراً أكبر مما يتوقعون!

التقطت المرأة حقيبة جلدية أنيقة وأخرجت لائحة منها.

- نحتاج إلى الاتصال باختصاصية تجميل وحلاق للشعر. ليست لديك أي خبرة على منصة العرض، أليس كذلك؟

- ولا واحدة.

حسناً، أنت لا تمتطين منصة العرض كما لو أنك تسيرين في الشارع. فلو فعلت فستزلين القدم لأنك تتحركين بسرعة، أو ستتعثرين بكعبك العالي. عليك أن تضعي رجلا أمام الأخرى، على غرار الهرة. ولا يجب أن تبتسمي كثيراً أيضاً. والأهم من ذلك كله، وضعية الجسم.

وضعت علامة على ثلاثة أمور في اللائحة.

وسيكون عليك استئجار بعض الثياب.

علامة أخرى.

أعتقد أن هنا كل شيء الآن.

ثم دست يدها من جديد في داخل الحقيبة، وأخرجت آلة

حساب. استعرضت اللائحة، وضغطت على بضعة أرقام، ثم قامت بالجمع. لم يجرؤ أحد في الغرفة على التفوّه بكلمة.

«أعتقد ان الأمر سيتطلب نحو ألفي يورو. لن نضمن ثمن الصور، لأن ياسر»، واستدارت صوب المصور، «يتلقى أجراً مرتفعاً جداً، لكنه مستعد للقيام بالعمل مجاناً ما دمت ستسمحين له باستخدام المادة. يمكننا الإتيان بخبيرة التبرج ومصففة الشعر إلى هنا صباح غد، وسأتصل بالأناس الذين يديرون المساق الدراسي لأرى إذا كانت توجد أماكن شاغرة. أنا متأكدة من وجودها، تماماً كما أنا متأكدة من أنك إذا اشتغلت على نفسك فستخلقين إمكانات جديدة لمستقبلك، وسرعان ما ستستعيدين ما دفعته من تكاليف أولية».

- تقولين أن عليّ أن أدفع.

مرة أخرى بدا أن منسقة الأحداث تعتريها الدهشة. فالفتيات اللواتي يأتين إلى هنا في العادة حريصات على نحو جنوني على تحقيق حلم جيل بأكمله - اعتبارهن أكثر النساء جاذبية جنسية في العام -، بحيث إنهن لا يطرحن أسئلة غير لائقة كهذا.

- اسمعي، كريستينا...

- ياسمين. فمن اللحظة التي ولجتُ فيها هذا الباب أصبحتُ ياسمين.

رنّ جرس هاتف المصور المحمول. أخرجه من جيبه وتوجه بعيداً إلى آخر طرف الغرفة الذي كان، حتى الآن، مظلماً. وعندما سحب واحدة من الستائر، رأت ياسمين جداراً مغطى بالأقمشة السوداء، وسيباً تعلوها الفلاشات، وعلباً ذات أنوار تومض، وأضواء ساطعة عدة متدلّية من السقف.

- اسمعي، ياسمين. توجد الآلاف والملايين من الناس الذين يودون

أن يكونوا في موقعك. لقد اختارك واحد من أفضل مصوّري أنتويرب، وستحصلين على مساعدة من محترفين، وسأقوم شخصياً بإدارة مهنتك. وعليك أنت، من جهة أخرى، كما في كل شيء في الحياة، أن تؤمني بأنك ستنجحين. وعليك، ليحصل ذلك، أن تستثمري مالاً. أعرف أنك تملكين ما يكفي من الجمال لتتمتعي بنجاح كبير كعارضة، لكن ذلك لا يكفي في هذا العالم حيث المنافسة شديدة جداً. عليك أن تكوني الأفضل، وهذا يكلف مالاً، على الأقل في البداية.

- لكن، إذا كنت تعتقدين أنني أتمتع بهذه المزايا، فلماذا لا تستثمرين مالك فيّ؟

- سأفعل ذلك لاحقاً. أما الآن فنحتاج إلى معرفة مدى التزامك. أريد أن أتأكد من أنك تريدين فعلاً أن تصبحي عارضة محترفة أو مجرد امرأة أخرى يثير حماستها إمكان السفر، ورؤية العالم، والعثور على زوج ثري.

ازداد صوت المرأة قساوة، وعاد المصور من الاستوديو في آخر الغرفة:

- إنها خبيرة التبرج، تريد أن تعرف في أي وقت عليها أن تصل غداً.

شرعت والدة ياسمين في القول: «إذا كان المال أساسياً، فربما أمكنني... إلا أن ياسمين نهضت وشرعت في التوجه صوب الباب بدون أن تصافح أياً من المرأة أو المصور.

- شكراً جزيلاً لكما، لكنني لا أملك هذا النوع من المال، وحتى لو امتلكته فسأصرفه على شيء آخر.

- لكنه مستقبلك!

- تماماً. هو مستقبلي وليس مستقبلكما.

انفجرت ياسمين بالبكاء بعد ذلك. فهي ذهبت أولاً إلى ذلك المتجر الغالي الأسعار، حيث لم يكونوا فظّين معها وحسب، بل ألمحوا ضمناً إلى أنها تكذب عندما قالت إنها قابلت المالك. ثم إنها، حينما اعتقدت أنها على وشك البدء في حياة جديدة واكتشفت اسمها المثالي الجديد، علمت بأن مجرد سلوك الخطوة الأولى سيكلف ألفي يورو!

شقت الأم وابنتها طريقهما إلى المنزل بصمت. رن هاتف ياسمين مرات عدة، لكنها اكتفت بالنظر إلى رقم المتصل وأعادت الهاتف إلى جيبها.

- لماذا لا تجيبين عليه؟ لدينا موعد آخر بعد الظهر، أليس كذلك؟

- لأننا لا نملك ألفي يورو.

أمسكت الوالدة بكتف ياسمين. عرفت كم أن حالة ابنتها هشّة وعليها القيام بشيء.

- نعم نملك. فأنا أعمل في شكل يومي منذ وفاة والدك، ولدينا ألفا يورو. لدينا أكثر من ذلك إذا احتجت. من يقوموا بأعمال التنظيف يجنوا أموالاً جيدة هنا في أوروبا. لأنه ما من أحد يريد تنظيف أوساخ الآخرين. ثم إننا نتحدث عن مستقبلك. لا تمكننا العودة إلى المنزل الآن.

رن الهاتف من جديد، وعادت ياسمين لتصبح كريستينا، وفعلت ما طلبته منها أمها. إنها المرأة التي هي على موعد معها بعد الظهر

تتصل لتعتذر بأن التزاماً آخر فرض عليها التأخر لنحو ساعتين على اجتماعهما.

«لا بأس»، قالت كريستينا. «لكن قبل أن تضيعي المزيد من الوقت، أحب أن أعرف كم سيكلّفني الأمر».

- كم سيكلّف؟

- نعم، لقد عقدت للتو اجتماعاً مع مصور آخر، وكان هو وزميلته سيجعلانني أدفع ألفي يورو للصور، والتبرج...

ضحكت المرأة على الطرف الآخر من الخط.

- لا، لن يكلفك شيئاً. إنها خدعة قديمة. يمكننا التحدث في الأمر عندما نلتقي.

الاستوديو الخاص بها، شبيه بالذي زارته ذلك الصباح، لكن المحادثة التي أجرياها اختلفت كلّياً. سألت كريستينا لماذا تبدو أكثر حزناً مما بدت عليه عندما التقيا أولاً. واضح أنها لا تزال تتذكر مقابلتهما الأولى. أبلغتها كريستينا بما حصل مع المصور الآخر، وشرحت المرأة أن هذه ممارسة شائعة، وأن السلطات تحاول التضييق عليها. ففي هذه اللحظة بالذات تتم، في أماكن كثيرة حول العالم، دعوة فتيات ذوات جمال نسبي إلى الكشف عن كامل إمكاناتهن الجمالية، ويجعلونهن يدفعن مبالغ كبيرة لقاء الامتياز. وتستأجر الوكالات، بحجة البحث عن موهبة جديدة، غرفاً في فنادق فخمة، تملأها بمعدات التصوير، وتَعِد من سيصبحن عارضات بعرض أزياء واحد على الأقل في السنة، أو تُعاد إليهن أموالهن، وتجعلهن يدفعن ثروة لقاء كل صورة يتم التقاطها لهن، وتستدعي

ممتهنين فاشلين للعمل كخبراء تبرج أو مصففي شعر، وتقترح عليهن الانضمام إلى مدارس معينة للعرض، ومن ثم، تختفي، في غالب الأحيان، بدون أن تترك أثراً. والاستوديو الذي زارته كريستينا، هو في الواقع استوديو حقيقي، وبرغم ذلك فهي محقة في رفض العرض.

إنهم يتوسلون غرور الاناس. وليس بالضرورة ما هو خاطئ في ذلك ما دام الشخص المعني يعرف ما هو آت إليه. وهذا لا يحصل في عالم الموضة وحدها وحسب، بل في مجالات أخرى أيضاً: كالكتبة الذين ينشرون كتبهم الخاصة، والفنانين الذين يرعون معارضهم، ومخرجي الافلام الذين يقعون في الديون لشراء مكان لهم تحت الشمس في واحد من كبار الاستوديوهات، وفتيات من عمرك يتركن ديارهن ويمضين إلى المدينة الكبيرة للعمل كنادلات، آملات أن يكتشفهن في يوم من الأيام منتج يدفعهن إلى النجومية.

لا، لن تُلتقط أي صور الآن. عليها أن تزيد من معرفتها بكريستينا. والضغط على زر الكاميرا هو المرحلة الأخيرة من عملية طويلة تبدأ بالكشف عن روح الشخص المعني.

- سيكون عليك أن تختاري اسماً.

- إنه ياسمين تايغر.

نعم، لقد عاد إليها حب الحياة.

دعتها المصورة إلى قضاء نهاية الأسبوع في منزلها على الشاطئ بالقرب من الحدود الهولندية، حيث أمضتا ثماني ساعات في اليوم يختبرن مع الكاميرا.

توقعت من ياسمين الكشف عن مجال كامل من الانفعالات التي توحي بها كلمات مثل: نار، إغواء، ماء. عليها أن تحاول إظهار وجهي روحها، الجيد والسيىء. عليها أن تنظر إلى أسفل، إلى الأمام، إلى جانبيها، وأن تحدّق في الفراغ. عليها أن تتخيل نوارس وشياطين. عليها أن تتخيل أنها هوجمت من مجموعة رجال أكبر منها سناً تركوها في حمام إحدى الحانات، وقد اغتصبها أكثر من واحد منهم. عليها أن تكون خاطئة وقديسة، منحرفة وبريئة.

تم التقاط بعض الصور خارجاً في العراء، وأمكنها، برغم أن جسمها يتجمد من البرد، أن تتفاعل مع كل حافز، وتطيع كل إيحاء. استخدمتا أيضاً استوديو صغيراً مجهزاً في إحدى الغرف حيث يمكن المصورة أن تتلاعب في بضعة أنواع من الموسيقى والضوء. ووضعت ياسمين تبرجها بنفسها في حين صففت المصورة شعرها.

«أجيدة أنا بعض الشيء؟» تسأل ياسمين. «لماذا تصرفين مثل هذا الوقت الكثير عليّ؟».

لكن جلّ ما تقوله المصورة هو: سنتحدث عن ذلك لاحقاً، ومن ثم تمضي معظم الأمسية تنظر إلى العمل الذي قامتا به في ذلك اليوم، وهي تفكر وتدون الملاحظات، لكنها لا تعلّق أبداً حول رضاها عن النتائج أو خيبتها منها.

لم تحصل ياسمين (إذ إن كريستينا ماتت نهائياً الآن) على رأي إلا في صبيحة يوم الاثنين. كانتا تنتظران في محطة بروكسل لأخذ القطار إلى أنتويرب، عندما قالت المصوّرة فجأة:

- أنت أفضل عارضة عملت معها أبداً.

- أنت تمزحين.

نظرت إليها المرأة متفاجئة، ثم قالت:

- كلا، أنت في الحقيقة كذلك. فأنا أعمل في هذا الحقل منذ عشرين سنة. التقطت صوراً لعدد لا يحصى من الناس، وعملت مع عارضات محترفات وممثلي أفلام، وجميعهم يتمتعون بخبرة عالية، لكن أيّاً منهم لم يمتلك قدرتك على التعبير عن الانفعال. أوَتعرفين ماذا يدعى ذلك؟ الموهبة. يسهل كثيراً، في بعض المهن، قياس الموهبة: مدراء إداريون يمكنهم قلب مسيرة شركة على حافة الإفلاس وإعادتها مؤسسة من جديد، رياضيون يكسرون الأرقام القياسية، فنانون تستمر أعمالهم حية لجيلين على الأقل، وبالتالي كيف يمكنني أن أتأكد في شأنك كعارضة؟ ذلك أنني محترفة. أمكنك إظهار ملائكتك وشياطينك عبر عدسة الكاميرا، وذلك ليس سهلاً. وأنا لا أتحدث عن شبان يهوون ارتداء أزياء مصاصي الدماء ويقصدون حفلات موسيقية؛ ولا أتحدث عن فتيات يتصنعن هيئة البراءة في محاولة لإثارة حب الولدين في الرجل. أنا أتحدث عن شياطين وملائكة حقيقيين.

المحطة ملأى بالناس الذين يسيرون جيئة وذهاباً. نظرت ياسمين إلى جدول مواعيد القطار واقترحت الذهاب إلى الخارج. فهي مائتة على سيجارة، والتدخين ممنوع داخل حرم المحطة. وأخذت تتساءل هل عليها أم لا أن تقول ما تهجس به الآن تماماً في داخلها.

- قد يكون أنني أملك الموهبة. وإذا صح ذلك، فثمة سبب واحد مكّنني من إظهار تلك الموهبة. تعرفين أنه طوال الوقت الذي أمضيناه معاً لم تقولي شيئاً عن حياتك الخاصة، ولم تسأليني أبداً عن حياتي. وبالمناسبة، أتريدينني أن أساعدك بالأمتعة. فالتصوير في الأساس مهنة للرجال، أليس كذلك؟ عليك دوماً جر الكثير من المعدات معك.

ضحكت المرأة.

- في الحقيقة، ليس ثمة الكثير لأقوله سوى أنني أعبد عملي. أنا في الثامنة والثلاثين، مطلقة، بدون أولاد، لكنني أملك ما يكفي من العلاقات الجيدة لكسب معيشة مريحة، لكن ليس للعيش برفاه كبير. وثمة أمر آخر يجب أن أضيفه إلى ما سبق أن قلته لك: إذا سار كل شيء كما هو مخطط له، فلا يجب أبداً أن تتصرفي كواحدة تعتمد على مهنتها للبقاء، حتى ولو أن هذا صحيح. وإذا لم تتبعي نصيحتي، فستتلاعب فيك المنظومة بسهولة. واضح أنني سأستخدم صورك وأكسب منها المال، إلا أنني أقترح عليك، من الآن وصاعداً، أن تحصلي لنفسك على وكيل.

أشعلت ياسمين سيجارة أخرى. عليها أن تحكي الآن أو تصمت إلى الأبد.

- أتعرفين لماذا أمكنني إظهار موهبتي؟ إنه بسبب أمر لم أتخيل أبداً أن يحصل في حياتي: لقد وقعت في حب امرأة، امرأة أحبها أن تكون إلى جانبي تقود كل خطوة علي أن أخطوها، امرأة تمكنت، بلطفها وتشددها، من الولوج إلى داخل روحي وإطلاق الأفضل والأسوأ القابعين معاً في تلك الأعماق الدفينة. وهي لم تفعل ذلك من خلال التدرب الطويل على تقنيات التأمل ومن خلال التحليل النفسي - وهو ما تعتقد والدتي أنني أحتاج إليه - بل استخدمت...

توقّفت قليلا. شعرت بالخوف، لكن عليها أن تستمر، فلم يعد لديها الآن ما تخسره.

- استخدمتْ كاميرا.

توقّف الوقت. توقف الأناس الآخرون خارج المحطة عن الحركة، توقفت كل ضجة. سقطت الريح، وعلق دخان سيجارتها في الهواء،

وانطفأت الأنوار. بات يوجد زوجان من الأعين يشعّان أسطع من قبل، وكل عين منهما مسمرة في الأخرى.

«أنت جاهزة»، قالت خبيرة التبرج.

نظرت ياسمين وشاهدت شريكتها تخطو ذهاباً وإياباً في غرفة الملابس المرتجلة. لا بد من أنها تشعر بالتوتر. ففي النهاية، هذا أول عرض أزياء لها في «كان»، وإذا سار على ما يرام، فقد تحصل على عقد مهم مع الحكومة البلجيكية.

شعرت ياسمين بأن عليها الذهاب إليها وطمأنتها، وتقول لها إن كل شيء سيكون على ما يرام شأنه دائماً من قبلُ. وقد تحصل على جواب مثل: أنت فقط في التاسعة عشرة، فما الذي تعرفينه عن الحياة؟

وستجيب: أعرف ما هي قدراتك، تماماً كما تعرفين قدراتي. أعرف بشأن العلاقة التي، في يوم من الأيام منذ ثلاثة أعوام، غيّرت حياتنا خارج محطة القطار عندما لامست خدي بلطف. أتذكرين كم شعرت كلتانا بالخوف؟ إلا أننا تجاوزنا ذلك الشعور الأول بالخوف. وأنا هنا الآن بفضل هذه العلاقة، وأنت أيضاً، إضافة إلى كونك مصورة ممتازة، تفعلين ما حلمت دائماً بفعله: تصميم الثياب وصنعها.

عرفت أنه من الأفضل لها ألا تقول شيئاً. فالطلب من شخص الهدوء لا يجعله إلا أكثر توتراً.

مضت إلى النافذة وأشعلت سيجارة أخرى. إنها تدخن كثيراً. ولماذا لا تفعل ذلك؟ فهذا أول عرض أزياء رئيسي لها في فرنسا.

٤:٤٣ ب.ظ.

فتحت الباب أمرأة ترتدي بزة سوداء وقميصاً أبيض. سألتها عن اسمها، تحققت من القائمة، وقالت إنه عليها أن تنتظر قليلا لأن الجناح مشغول في الوقت الراهن. وثمة رجلان وامرأة أخرى، ربما أصغر منها سناً، ينتظرون أيضاً.

انتظر كلٌّ دوره بصمت. «كم سيستغرق الأمر؟ وماذا أفعل هنا بالضبط؟»، سألت غابرييلا نفسها وسمعت جوابين.

ذكّرها الأول بأن عليها المتابعة. غابرييلا، المتفائلة، الإنسانة التي عملت بمواظبة من أجل بلوغ النجومية، وهي تحتاج الآن إلى التفكير في العرض الأول... في الدعوات، والرحلات في الطائرة الخاصة، والملصقات الموضوعة في جميع عواصم العالم، والمصورين الذين يراقبون منزلها في صفة دائمة، والمهتمين بما ترتديه ومن أين تشتري ثيابها، وفي هوية الأشقر الوسيم الطلعة الذي شوهد معها في أحد النوادي الليلية. ثم لا تنسى العودة الظافرة إلى البلدة التي وُلدت فيها، والأصدقاء المدهوشين الذين ينظرون إليها بعين الغيرة، والمشاريع الخيرية التي تنوي مساندتها.

وذكّرها الجواب الثاني بأن غابرييلا المتفائلة، الإنسانة التي عملت بمواظبة من أجل بلوغ النجومية، هي كمن يسير الآن على حد سكين يسهل الانزلاق منه والغوص في الهوة السحيقة. فحميد حسين لا يعرف حتى بوجودها، ولم يسبق لأحد أن شاهدها أبداً، وقد تهندمت استعداداً لحفلة. قد لا يطابق الفستان حجمها، وقد يحتاج إلى تصحيح، ومن ثم تصل متأخرة إلى اجتماعها في المارتينيز. إنها في الخامسة والعشرين الآن، ومن يدري، فهم ربما يقابلون مرشحة أخرى الآن بالذات على اليخت ذاته، أو أنهم ربما بدّلوا رأيهم، وقد تكون الفكرة في الواقع هي: التحدّث إلى مرشحتين محتملتين أو ثلاث لرؤية من منهن تبرز وسط الحشد. وربما تمت دعوتهن ثلاثتهن إلى الحفلة من غير أن تدري أي منهن بوجود الأخرى.

جنون الارتياب.

لا، ليس جنون الارتياب، بل هي واقعية وحسب. بل إن واقع أن غيبسون والنجم يشاركان في مشاريع كبرى، لا يشكل ضمانة بالنجاح. وإذا ما ساء أي أمر، فسيكون الخطأ منها. لا يزال شبح ماد هاتر، من «آليس في بلاد العجائب»، حاضراً هنا. ربما هي ليست موهوبة بالقدر الذي تظنّه، بل مجرد إنسانة تعمل بجهد كبير. وهي لم تكن محظوظة مثل بعض الآخرين. لم يحصل في حياتها أي أمر ذي شأن برغم أنها قاتلت نهاراً وليلاً، وليلاً ونهاراً. لم تتوقف منذ وصولها إلى كان: توزيع كتابها المرتفع الكلفة جداً على مختلف شركات اختيار الممثلين، وحصولها على جلسة اختبار واحدة فقط. ولو أنها حقيقة تلك المتميزة لوجب عليها الآن أن تقرر أياً من مختلف الأدوار ستنتقي. إنها تصل إلى ما هو أكبر منها، وسرعان ما ستذوق طعم الهزيمة، وسيكون أكثر مرارة لأنها

اقتربت كثيراً حتى لامست بأصابع قدميها بحر الشهرة... لكن لتفشل.

أنا أجتنب إشارات سيئة. أعرف أنها هناك في الخارج. يجب أن أتمالك نفسي.

لم يمكنها القيام بأي تمارين يوغا أمام تلك السيدة صاحبة البزة والأشخاص الثلاثة الآخرين الذين ينتظرون بصمت. من أين بالضبط تأتي هذه الأفكار السلبية التي تحتاج إلى إبعادها؟ استناداً إلى ما قد قرأت - وقد قرأت الكثير عن الموضوع في وقت شعرت فيه بأنها تفشل في تحقيق ما يمكنها تحقيقه بسبب حسد الآخرين - فمن المرجح أن ممثلة أخرى رُفضت، تركّز في هذه اللحظة كل طاقاتها على استعادة الدور. نعم، يمكنها الشعور بالأمر. إنه صحيح! المفر الوحيد هو في جعل ذهنها يهرب من ذلك الرواق، ويمضي بحثاً عن ذاتها العليا المرتبطة بكل قوى الكون.

تنفست بعمق، ابتسمت وقالت لنفسها:

إنني أنشر طاقة الحب من حولي، وهي أقوى بكثير من قوى الظلمة. والله الذي في داخلي يُحيي الله الذي يعيش في جميع سكان الأرض، حتى أولئك الذين...

تناهى إليها صوت أحد يضحك. فُتح باب الجناح، وخرجت منه مجموعات مبتسمة من الشبان السعداء، من الجنسين، برفقة اثنتين من الشهيرات، وتوجهوا صوب المصعد. دخل الرجلان والمرأة الغرفة، جمعوا دزينات الأكياس المتروكة إلى جانب الباب، وانضموا إلى المجموعة التي تنتظرهم قرب المصعد. لا بد من أنهم من المساعدين، والسائقين، والسكريتيرات.

«إنه دورك»، قالت المرأة صاحبة البزة.

فكّرت غابرييلا في أن التأمل لا يفشل أبداً.

ابتسمت بثقة لعاملة الاستقبال، لكن الجناح بحد ذاته كاد يُفقدها أنفاسها. هو أشبه بمغارة علي بابا... مليء بسكك فوق سكك من الثياب، وجميع أنواع النظارات، وحقائب اليد، والجواهر، ومستحضرات التجميل، والساعات، والأحذية، والأثواب التحتية الضيقة، والمعدات الالكترونية. جاءت امرأة شقراء لملاقاتها، تحمل قائمة في يد، وبالأخرى هاتفاً نقّالاً معلّقاً بسلسلة في عنقها. أخذت اسم غابرييلا وقالت:

- اتبعيني. ليس لدينا الكثير من الوقت، لذا فلنبدأ فوراً بالعمل.

دخلتا واحدة من الغرف الأخرى. رأت غابرييلا المزيد من الكنوز الفاخرة والساحرة. أمور لم تر مثلها إلا في واجهات المحلات، ولم تتسن لها رؤيتها عن كثب إلا عندما يرتديها شخص آخر.

نعم، هذا كلّه ينتظرها. وعليها أن تُسرع وتقرر بالضبط ما الذي سترتديه.

- هل يمكنني البدء بالجواهر؟

- ليس عليك اختيار أي شيء، فنحن نعرف بالضبط ما الذي يريده ح. ح.، وعليك أن تعيدي الثوب إلينا في الغد.

ح. ح. حميد حسين يعرف ما الذي يريدها أن ترتديه!

اجتازتا الغرفة، وقد تبعثرت المنتجات على السرير وغيره من الأثاث: تي - شيرتات، أطايب وتوابل، صورة لماكينة صنع قهوة معروفة جداً، وقد لفّ عدد منها كهدايا. سارتا في ممر واجتازتا أبواباً إلى غرفة أكثر اتساعاً. لم تراودها أي فكرة بأن أجنحة الفنادق يمكنها أن تكون بهذا الحجم.

هنا هو المعبد.

وُضع ملصق أنيق أبيض يحمل شعار المصمم فوق السرير المزدوج الكبير. وقد انتظرهما هناك كائن خنثوي - لم تتمكن غابرييلا من معرفة هل هو ذكر أم أنثى - بصمت. الكائن نحيل للغاية، وذو شعر أغبر متبدّد، حليق الحاجبين، أصابعه ملأى بالخواتم، ويرتدي سروالا ضيقاً مزيناً بسلاسل مختلفة.

- انزعي ثيابك.

نزعت غابرييلا قميصها وجينزها، وهي لا تزال تحاول أن تحزر جنس الكائن الذي مضى الآن إلى واحدة من سكك الثياب، واختار ثوباً أحمر.

- انزعي صدريتك أيضاً، فهي تسبب نتوءات تحت الثوب.

توجد مرآة كبيرة في الغرفة، إلا أنها موجهة بعيداً عنها بحيث لا ترى كيف يبدو عليه الثوب.

علينا أن نسرع. فحميد قال إنه عليها، بالإضافة إلى الذهاب إلى الحفلة، أن تصعد الدرجات.

أن تصعد الدرجات!

إنها الكلمات السحرية.

الثوب ليس مناسباً أبداً. شرعت المرأة والخنثوي في القلق. طلبت المرأة جلب ثوبين آخرين أو ثلاثة، لأنه على غابرييلا أن تصعد على الدرجات مع النجم الذي ارتدى ثيابه وهو على أهبة الاستعداد.

تصعد الدرجات مع النجم! لا بد من أنها تحلم!

استقر الرأي على ثوب ذهبي طويل يلتصق بالجسم، وله عقد

يغطس حتى الخصر. وهناك، على مستوى الثديين، سلسال يمنع الفتحة من الاتساع بأكثر مما تتحمله مخيلة الإنسان.

المرأة متوترة جداً. خرج الخنثوي وعاد ومعه خياطة أجرت التعديلات الضرورية على حاشية الثوب. ولو أنه أمكن غابرييلا قول شيء في تلك اللحظة، لطلبت منهما التوقف. فخياطة الثوب الذي ترتديه، تعني أن قدرها يُخاط ويُعترض. إلا أن الوقت ليس وقت تطيُّر، ولا بد من أن الكثير من الممثلات المشهورات يواجهن الموقف ذاته في كل يوم بدون أن يحصل لهن شيء.

وصل شخص ثالث، يحمل حقيبة كبيرة الحجم، ومضى إلى إحدى زوايا الغرفة الواسعة، وشرع في تفكيك الحقيبة التي ليست إلا نوعاً من استوديو التجميل المحمول، وفيه مرآة محاطة بالأضواء. يركع الخنثوي أمامها، أشبه بمريم المجدلية التائبة، وهو يقيس الحذاء تلو الحذاء على قدمها.

إنها سندريلا التي ستلتقي قريباً بأميرها، وتصعد الدرجات معه!

«هذان مناسبان»، قالت المرأة.

شرع الخنثوي في إعادة الأحذية الأخرى إلى علبها.

- حسناً، انزعيه. سنضع اللمسات الأخيرة على الثوب بينما يتم تبريجك وتصفيف شعرك.

شعرت غابرييلا بالراحة لأنهم كفّوا عن خياطة الثوب وهو على جسمها. وانفتح قدرها من جديد.

اقتيدت، وهي ترتدي سروالاً تحتيا فقط، إلى الحمام. وقد سبق تركيب أداة محمولة لغسل الشعر وتنشيفه، وانتظرها هناك رجل حليق الرأس. طلب منها الجلوس وأرجع رأسها صوب نوع من الحوض

الفولاذي. استخدم أنبوباً موصولاً بالصنبور لغسل شعرها، وهو، شأنه شأن الجميع، مضطرب للغاية. اشتكى من الصوت المنبعث من الخارج، يحتاج إلى الهدوء ليقوم بعمل محترم، لكن أحداً لا يُعيره انتباهاً. ثم إنه لا يحظى أبداً بالوقت الكافي، فكل شيء يتم بعجالة كبيرة.

وقال، ما من أحد يدرك المسؤولية العظمى الملقاة على كاهلي.

بدا أنه لا يحدّثها، بل يحدّث نفسه. وتابع:

إنهم، لا ينظرون إليك، عندما تصعدين الدرجات، كما تعرفين. ينظرون إلى عملي، وكيفية تبريجي لك وتصفيفي شعرك. فأنت لست إلا القماشة التي ألوّن عليها أو أرسم، والطين الذي أكوّن منه منحوتاتي. ما الذي يقوله الآخرون لو أنني ارتكبت غلطة؟ قد أخسر عملي.

شعرت غابرييلا بالإهانة. لكن من الواضح أنه عليها أن تعتاد على هذا النوع من الأمور. هذا ما هو عليه عالم الروعة. وهي في وقت لاحق، عندما تصبح أحداً ما، ستختار أناساً لطفاء ومهذبين للعمل معها. أما الآن، فهي تركّز على الفضيلة الأساسية: الصبر.

قطع هدير مجفف الشعر الحديث، وهو أشبه بصوت الطائرة وهي تنطلق. فعل ذلك، وهو كان لتوه قد اشتكى من الضجة في الخارج!

قام، بخشونة، بترتيب شعرها ليأخذ شكله، وطلب منها الانتقال مباشرة إلى استوديو التبرج النقال. تبدّل مزاجه كلّياً: وقف صامتاً، متأملاً وجهها في المرآة، كما لو أنه في حالة غيبوبة ذهنية. خطا إلى الأمام والوراء، مستخدماً المجفف والفرشاة كما استخدم مايكل أنجلو المطرقة والإزميل في نحت تمثال موسى. أما هي فكانت

تحاول الاستمرار في النظر أمامها، وتتذكر بعض أبيات أحد الشعراء البرتغاليين:

تعكس المرآة الصورة تماماً، لا تخطئ لأنها لا تفكّر. أن يفكّر المرء يعني أن يرتكب الأخطاء.

عاد الخنثوي والمرأة. ستصل الليموزين بعد عشرين دقيقة فقط لتأخذها إلى المارتينيز، وتقلّ النجم. «ما من مكان لركن السيارة هناك، لذا عليهم أن يكونوا في الوقت المحدد تماماً»، تمتم مصفف الشعر لنفسه، كما لو أنه فنان غير مفهوم، لكنه يعرف أنه عليه أن ينتهي في الوقت. شرع في العمل على وجهها كما لو أنه استساغ أن ينتحل دور أنجلو، لكن هذه المرة كما لو أنه يرسم كنيسة السيستين.

الليموزين! الدرجات! النجم!

تعكس المرآة الصورة تماماً. لا تخطئ لأنها لا تفكّر.

عليها ألا تفكّر أيضاً لأنها لو فعلت فستصيبها عدوى القلق والمزاج السيئ السائدين، وستعود تلك الذبذبات السلبية. تحب أن تعرف وحسب كيف هو جناح الفندق هذا المكنّس بمختلف أنواع الأشياء، إلا أنه عليها أن تتصرف كما لو أنها معتادة على التردد على مثل هذه الأماكن. وشرع مايكل أنجلو، تحت نظرة المرأة القاسية وناظري الخنثوي اليائس، في وضع اللمسات الأخيرة على تبرجها. ثم وقفت غابرييلا، حيث تم إلباسها ثوبها وحذاءها. الحمد لله، فكل شيء في مكانه.

تناولوا من مكان ما في الغرفة، حقيبة جلدية صغيرة ماركة حميد حسين. فتحها الخنثوي، وانتزع منها حشوتها من الورق،

وتأمل النتيجة بالمظهر الناهل نفسه، وعندما بدا أنها تطابق توقعاته سلّمها إياها.

أعطتها المرأة أربع نسخ من عقد كبير الحجم، على أطرافه علامات حمراء تحمل كلمتين: وقّعي هنا.

في وسعك إما أن توقّعيه بدون قراءته، وإما أن تأخذيه معك إلى المنزل وتتصلي بمحاميك وتقولي إنك تحتاجين إلى مزيد من الوقت للتفكير قبل أن تتخذي قرارك. ومهما يكن فإنك ستصعدين تلك الدرجات لأنه فات الأوان على تغيير أي شيء الآن. إلا أنه، إذا لم يعد العقد إلى هنا بحلول صباح غد، فسيكون عليك إعادة الثوب وينتهي الأمر.

تذكّرت كلمات وكيلها: اقبلي بكل شيء. أخذت غابرييلا القلم الذي ناولتها إياه المرأة، قلبت الصفحات التي تحمل العلامات، ووقعت على كل شيء. ليس لديها ما تخسره. وفي حال وجود بنود غير عادلة، فقد يمكنها الذهاب لاحقاً إلى المحكمة لتقول إنه تم الضغط عليها للتوقيع. لكن عليها أن تقوم أولاً بما طالما حلمت بالقيام به.

أخذت المرأة العقد الموقَّع منها، واختفت بدون وداع. وها إن مايكل أنجلو يفكك من جديد طاولة التبرج وهو غارق في عالمه الصغير الذي يحكمه الظلم ولا يتم فيه الاعتراف أبداً بعمله، وحيث لا يملك ما يكفي من الوقت للقيام بالعمل كما يجب. وإذا لم يسر أي شيء كما يجب، يصبح هو المخطئ كلّيا. طلب منها الخنثوي مرافقته إلى باب الجناح. استشار ساعته - التي لاحظت غابرييلا أنها تحمل رأس الموت - وتحدث معها للمرة الأولى منذ التقيا.

- لا يزال أمامنا ثلاث دقائق أخرى. لا يمكنك النزول فيراك أناس آخرون، وعلي مرافقتك إلى الليموزين.

عاد التوتّر. لم تعد تفكّر في الليموزين، وفي النجم، أو في صعود تلك الدرجات. إنها تحتاج إلى الكلام.

لم هذا الجناح؟ لماذا يحتوي على هذه الأغراض كلها؟

«توجد حتى رحلة سافاري إلى كينيا»، قال الخنثوي وهو يشير إلى إحدى الزوايا. لم تلاحظ اللافتة الإعلانية المتحفّظة لشركة خطوط جوية، والرزمة الصغيرة من المغلفات على الطاولة. إنها مجانية كما كل شيء هنا، ما عدا الثياب والأكسسوارات في الهيكل.

آلات قهوة، أدوات الكترونية، ثياب، حقائب يد، ساعات، مجوهرات ورحلة إلى كينيا.

كل هذا مجاني مئة في المئة؟

«أعرف ما تفكرين فيه»، قال الخنثوي بصوته الذي هو لاذكوري ولاأنثوي، بل صوت كائن آت من بين الكواكب. «كله مجاني، أو بالاحرى يقدّم في عملية تبادل عادل، لأنه ما من شيء مجاني في هذا العالم. هذه واحدة من غرف هدايا كثيرة تجدينها في «كان»، إبان المهرجان. تأتي قلة من المختارين إلى هنا، ويأخذون ما يشاؤون. إنهم الأناس الذين سيُشاهَدون في الجوار يرتدون تي - شيرتاً صممها «كيت» من الناس، أو نظارة ما صممها «كيت» آخر، يستقبلون بعض الضيوف في منزلهم. وعندما ينتهي المهرجان يمضون إلى المطبخ، ويحضّرون القهوة بآلة جديدة كلّياً. وسينقلون معهم حاسوبهم المحمول في حقيبة من صنع فلان، وينصحون أصدقاءهم باستخدام مرطّب على وشك إطلاقه في السوق من صنع

فلان آخر. ويشعرون بأهمية القيام بذلك لأنهم سيتملكون شيئاً حصرياً لم يبلغ بعدُ المتاجر المتخصصة. سيرتدون حلياً من تصميم فلان للذهاب إلى السباحة، وتُلتقط لهم الصور وهم يضعون زناراً من صنع علتان آخر، وأي منهما غير متوفر للعامة بعدُ. وعندما تنزل المنتجات إلى السوق، تكون الطبقة الأرفع قد أنهت بالفعل من الإعلان عنها، ليس لأنها تريد ذلك، بل لكونها الواحدة التي تستطيع. ثم إن الفنانين المجردين سينفقون جميع مدخراتهم على شراء المنتجات ذاتها. هل ثمة ما هو أكثر سهولة، يا عزيزتي؟ يستثمر المصنّعون في بعض العينات المجانية، وتتحوّل القلة من المختارين إلى دعايات متنقلة. لكن لا تتحمسي كثيراً، فانت لم تبلغي هذه المستويات بعد.

- لكن، ما علاقة رحلة السافاري إلى كينيا بذلك كله؟

- هل توجد دعاية أفضل من زوجين متوسطي العمر يعودان وكلهما حماسة من ،مغامرتهما في الأدغال. وفي كاميرتهما حمولة من الصور، وهما يوصيان الجميع بالذهاب في هذه العطلة الحصرية؟ سيرغب جميع أصدقائهما في تجربة الأمر ذاته. وكما سبق وقلت، لا شيء مجانياً في هذا العالم. بالمناسبة، انتهت الدقائق الثلاث، ومن الأفضل أن نذهب.

كانت سيارة مايباخ بيضاء اللون في انتظارهما. فتح سائق، بالقفازين والقبعة، الباب. وأعطاها الخنثوي التعليمات الأخيرة:

- انسي أمر الفيلم، ليس هو سبب صعودك الدرجات. عندما تبلغين أعلى الدرجات حيّي مدير المهرجان ورئيس البلدية، ثم، توجهي بولوجك قصر المؤتمرات، إلى المستراح في الطابق الأول. اذهبي إلى نهاية الممر، انعطفي يساراً واخرجي من الباب الجانبي. سيكون أحد ما في انتظارك هناك، سيعرفون كيف يلبسونك

وسيعملون بعض الشيء على تبزجك وتصفيف شهرك، ومن ثم يمكنك أن تستريحي بعض الوقت على الشرفة. وسأوافيك إلى هناك، وأصطحبك إلى حفل العشاء.

- ألن ينزعج المخرج والمنتجون؟

هزّ الخنثوي كتفيه وعاد إلى الفندق بمشية متمايلة غريبة. ليست للفيلم أدنى أهمية. ما يهم هو صعود الدرجات المفروشة بالسجاد الأحمر إلى قصر المؤتمرات، وعلى طول ممر الشهرة الغائي، المكان الذي تلتقط فيه صور جميع مشاهير عالم السينما، والفن والحياة الراقية، ويتم توزيع هذه الصور على الوكالات في أصقاع العالم الأربعة، ليتم نشرها في المجلات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

- هل جهاز التكييف مناسب لك يا سيدتي؟

هزّت برأسها للسائق موافقة.

- إذا رغبت في شراب، توجد زجاجة شامبانيا مثلجة في الخزانة إلى يسارك.

فتحت غابرييلا الخزانة، وتناولت كوباً، ثم أمسكت بالزجاجة بعيداً جداً عن ثوبها، وأطلقت السدادة وصبّت لنفسها كأساً من الشامبانيا التي ابتلعتها دفعة واحدة وأعادت تعبئة الكأس فوراً. وفي الخارج، حاول المتفرجون الفضوليون رؤية من في داخل السيارة الواسعة ذات النوافذ السوداء، التي تسير على طول المسلك الذي ضرب عليه النطاق. قريباً ستصبح هي والنجم معاً، ليس في بداية حياة مهنية جديدة وحسب، بل في قصة حب لا تُصدَّق، جميلة، وحادة.

إنها رومانسية، وهي فخورة بذلك.

تذكّرت أنها تركت ثيابها وحقيبة يدها في غرفة الهدايا. وهي

لا تحمل مفتاح الشقة التي استأجرتها، وليس لديها مكان تذهب إليه عند انقضاء الليل. ولو أنها لتكتب أبداً قصة حياتها، فكيف يمكنها أن تروي حكاية ذلك اليوم بالذات: الإفاقة من النوم مخمورة، عاطلة عن العمل وبمزاج سيئ، في شقة تنتشر فيها الثياب والفرش على الأرض، وتقلّها، بعد ست ساعات من ذلك، سيارة ليموزين بينما هي على وشك السير على السجادة الحمراء أمام حشد من الصحافيين إلى جانب واحد من أكثر الرجال إثارة في العالم.

أخذت يداها ترتجفان. فكّرت في شرب كوب آخر من الشامبانيا، لكنها قررت عدم المخاطرة في أن تصاب بالسُّكر على درج الشهرة.

استريحي، يا غابرييلا. لا تنسي من أنت. لا تنجرفي في كل ما يحدث الآن. كوني واقعية.

كررت هذه الكلمات مرات ومرات، وهما يقتربان من المارتينيز. وهي، سواء أأحبت ذلك أم لا، لن تتمكن من العودة لتصبح الإنسانة التي كانتها من قبل. ما من مخرج سوى ذلك الذي أبلغها عنه الخنثوي، والذي يقود، برغم ذلك، إلى جبل أكثر ارتفاعاً.

٤:٥٢ ب.ظ.

حتى ملك الملوك، يسوع المسيح، تعرض للتجربة كما يتعرض إيغور لها الآن؛ من الشرير. عليه أن يتمسك بإيمانه، وبكل ما أوتي من قوة، حتى لا يضعف ويحجم عن تحقيق المهمة المكلّف بها.

يطلب منه الشيطان التوقف، والغفران، والتخلي عن مهمته. والشيطان محترف من الطراز الأول. يعرف كيف يعبّئ الضعيف بالمشاعر الباعثة على الذعر، مثل الخوف، والقلق، والعجز، واليأس.

وهو، عندما يتعلّق الأمر بتجربة القوي، يستخدم حيلاً أكثر حنكة: النيات الطيبة. وهو ما فعله تماماً مع يسوع عندما شاهده يهيم في البرّية. وسأله لماذا لا يطلب من الحجارة أن تتحول إلى خبز، بحيث لا يُشبع جوعه وحسب، بل أيضاً جميع الأناس الآخرين الذين يتوسّلونه الطعام؟ لكن يسوع تصرّف بالحكمة التي يتوقعها المرء من ابن الله. وأجابه بأنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الرب.

ثم، أين هي بالضبط النيات الطيبة، والفضيلة، والاستقامة؟ اعتقد الناس الذين بنوا معسكرات الاعتقال النازية، أنهم، بإطاعتهم أوامر الحكومة، يُظهرون الاستقامة. والأطباء، الذين صدّقوا أن المفكرين الذين عارضوا النظام السوفياتي مجانين، وتم نفيهم إلى سيبيريا، كانوا على قناعة بأن الشيوعية نظام عادل. والجنود الذين يخوضون الحرب، قد يُقتلون باسم مثال أعلى لا يفهمونه كما ينبغي، لكنهم، هم أيضاً، مليئون بالنيات الطيبة، والفضيلة، والاستقامة.

لا، هذا ليس صحيحاً. إذا حققت الخطيئة شيئاً جيداً فهي فضيلة، وإذا تم نشر الفضيلة لتسبب الشر، فهي خطيئة.

وفي هذه الحال، يحاول الشرير استخدام الصفح وسيلة لزرع الاضطراب في روحه. يقول: أنت لست الشخص الوحيد الذي يمر بهذا. الكثيرون من الناس تخلّى عنهم الشخص الذي يحبونه أكثر ما يكون، وتمكنوا برغم ذلك من تحويل المرارة إلى سعادة. تخيل عائلات الأشخاص الذين سببت فراقهم الحياة، ستملأهم الضغينة والحقد والرغبة في الانتقام. أهكذا تنوي تحسين العالم؟ أهذا ما تريد تقديمه إلى المرأة التي تحب؟

لكن إيغور أكثر حكمة من التجربة التي بدا أنها تستحوذ على روحه. ولو أمكنه أن يحتمل لفترة أطول قليلاً فسيصاب ذلك الصوت بالتعب، ويختفي. وهو يفكر على هذا النحو، في شكل كبير، لأن واحدة من الأناس الذين أرسلهم إلى الجنة أخذت تحتلّ أكثر فأكثر وجوداً دائماً في حياته. تقول له الفتاة صاحبة الحاجبين السوداوين، إن كل شيء بخير، ويوجد فارق كبير بين

الصفح والنسيان. فهو لا يحمل في قلبه حقداً، وهو لا يقوم بهذا للانتقام من العالم.

يمكن الشيطان أن يصرّ قدر ما يشاء، وما عليه إلا أن يثبت في موقعه، ويتذكر سبب وجوده هنا.

توجه إلى أقرب مطعم بيتزا، وطلب صنف مارغريتا وكوكا كولا. من الأفضل له أن يأكل الآن لأنه لن يتمكن - وهو لا يمكنه أبداً - تناول الطعام كما يجب عند العشاء بوجود الكثير من الناس حول الطاولة. فالجميع يشعر بأن عليه القيام بنقاش نشط ومسترخ أيضاً، ويبدو أنه يوجد دائماً من يقاطعه، وهو يحاول تناول قضمة من الطعام اللذيذ الموجود أمامه.

طريقته المعتادة في تفادي هذا، هي في قصف جلسائه إلى الطاولة بالأسئلة، ثم يتركهم ليأتوا بالأجوبة الذكية بينما يتناول طعامه بهدوء. لكنه لا يشعر الليلة بالميل إلى أن يكون مفيداً وأنيساً، بل سيكون كريهاً ومتباعداً. يمكنه دوماً الادعاء أنه لا يتحدث لغتهم.

يعرف أن التجربة، في الساعات القليلة المقبلة، ستصبح أكثر قوة من قبل، وتطلب منه التوقف والتخلي عن كل شيء، بيد أنه لا يريد التوقّف. ولا تزال غايته هي إنجاز مهمته حتى لو تغير سبب هذه المهمة.

لا فكرة لديه إذا كانت ثلاث مِيتات عنيفة في يوم واحد تُعتبر أمراً عادياً في «كان». فإذا كانت، فلن تشك الشرطة في حصول أمر غير عادي. وستواصل إجراءاتها البيروقراطية،

وسيتمكن من الطيران كما هو مقرر في الساعات الأولى من الغد. وهو لا يعلم كذلك، إذا كان قد تم تحديد هويته؛ فثمة الزوجان اللذان مرّا به وبالفتاة هذا الصباح، كما يوجد واحد من رجلي حراسة الرجل الميت، إضافة إلى الشخص الذي شهد مقتل المرأة الأخرى.

وها إن التجربة تغيّر أساليبها: تريد إفزاعه، تماماً كما تفعل مع الضعيف. يبدو كأن الشيطان لا يملك فكرة عمّا مرّ به، ولا يعرف أنه خرج من الاختبار الذي أجراه له القدر، رجلاً أقوى.

التقط هاتفه النقال، وأرسل نصّاً جديداً.

تخيّل رد فعل إيوا عندما تقرأه. شيء يقول له إنها ستشعر بمزيج من الخوف واللذة. إنه متأكد من أنها آسفة كثيراً على الخطوة التي اتخذتها منذ عامين: ترك كل شيء وراءها، بما في ذلك ثيابها وجواهرها، والطلب من محاميها الاتصال به في ما يتعلق بإجراءات الطلاق. والأسباب: عدم التجانس. كما لو أن الاشخاص المثيرين للاهتمام، يفكّرون أبداً في الطريقة ذاتها، أو لديهم الكثير من الأمور المشتركة. هذه كذبة واضحة: لا بد من أنها وقعت في حب شخص آخر.

الهوى. من منا يمكنه القول صادقاً إننا، بعد أكثر من خمس سنوات من الزواج، لم نشعر بالرغبة في العثور على شريك آخر؟ من منا يمكنه القول صادقا إننا لم نخن عهد الزواج أقله مرة في حياتنا، ولو في مخيلتنا وحسب؟ وكم من الرجال والنساء هجروا المنزل بسبب ذلك، ثم اكتشفوا أن الهوى لا يستمر، وعادوا إلى شركاء حياتهم الحقيقيين؟ القليل من التفكير الناضج ويتم نسيان كل شيء. إنه أمر طبيعي في المطلق، جزء من البيولوجيا الإنسانية.

كان عليه أن يتعلم هذا ببطء شديد. أعطى، في البداية، التعليمات للمحامين بالمضي في أقصى شدّة. إذا أرادت هجره، فعليها عندها أن تتخلى عن أي مطلب لها بالثروة التي جمعاها معاً على مدى نحو عشرين عاماً، ولن تحصل على أي قرش منها. بقي مخموراً طوال أسبوع وهو ينتظر جواباً منها. هو لا يبالي بالمال، لكنه فعل ذلك لأنه يريدها أن تعود، وهي الطريقة الوحيدة التي يعرفها للضغط عليها.

لكن إيوا امرأة نزيهة. وقد وافق محاموها على شروطه.

ولم يعرف بشريك زوجته السابقة إلا عندما أمسكت الصحافة بالقضية. إنه واحد من أكثر الخياطين نجاحاً... شخص، مثله، بنى نفسه من لاشيء... رجل، مثله، في عقده الرابع ومعروف، مثله، بعدم صلفه وعمله الشاق.

لم يتمكن من فهم ما حصل. فقد أمضى مع إيوا، قبل وقت قصير من مغادرتها إلى عرض للأزياء في لندن، عطلة رومانسية نادرة، عاشاها وحدهما في مدريد. سافرا إلى هناك بطائرة الشركة، ونزلا في فندق يحتوي على كل وسائل الراحة الممكنة، وقد قررا إعادة اكتشاف العالم معاً. لم يحجزا طاولات في مطاعم مكلفة، بل انتظرا بالصف خارج المتاحف، وركبا التاكسي بدلاً من سيارات الليموزين مع سائق. سارا لأميال وضاعا عن حق. أكلا الكثير وشربا أكثر منه، وكانا يعودان إلى الفندق منهكين وراضيين، ويمارسان الحب، كعادتهما، في كل ليلة.

تطلّب الأمر من كليهما مجهوداً حقيقياً لعدم فتح حاسوبيهما المحمولين، أو هاتفيهما النقالين، لكنهما تمكنا من ذلك. وعادا إلى موسكو تملأ قلبيهما الذكريات الجميلة. وتعلو ثغريهما الابتسامة.

غرق من جديد في عمله، وقد تفاجأ بأن كل شيء سار على

خير ما يرام في غيابه. وهي غادرت إلى لندن في الأسبوع التالي، ولم تعد أبداً.

استخدم إيغور واحدة من أفضل شركات المراقبة الخاصة، تُستخدم عادة في عمليات التجسس الصناعي أو السياسي. عنى ذلك ببساطة أن عليه النظر إلى مئات الصور التي تظهر فيها زوجته يداً بيد مع رفيقها الجديد. وتدبّر المحققون، استناداً إلى معلومات زودهم بها زوجها السابق، من أن يوفّروا لها صديقة على القياس. التقت بها إيوا صدفة في أحد المتاجر الكبرى، وهي من روسيا، قالت إن زوجها تخلّى عنها، ولا تستطيع الحصول على عمل في بريطانيا لأنها لا تملك الأوراق اللازمة، وبالكاد تملك ما يكفي من المال لتقي نفسها الجوع. ارتابت إيوا في البداية، ثم صممت على مساعدتها. تحدّثت إلى حبيبها الجديد الذي قرر المخاطرة بتوفير وظيفة للصديقة في واحد من مكاتبه برغم أنها تعمل بصفة غير شرعية.

إنها صديقة إيوا الوحيدة التي تتكلم الروسية. وهي، بحسب عالم النفس الذي تستخدمه شركة المراقبة، في موقع مثالي للحصول على المعلومات المطلوبة. علم بأن إيوا لم تتأقلم بعدُ مع حياتها الجديدة، وبالتالي ليس ثمة أمر طبيعي أكثر من أن تتشارك في أفكارها الخاصة مع امرأة أخرى تعيش ظروفاً مماثلة، ليس بغرض إيجاد حل، بل من أجل تفريغ ما في النفس.

سجلت الصديقة جميع المحادثات، وانتهت الأشرطة على مكتب إيغور حيث احتلت الأسبقية على الأوراق التي تتطلب توقيعه، والدعوات التي تستوجب حضوره، والهدايا التي تنتظر إرسالها إلى الزبائن والمزودين والسياسيين ورفاقه من رجال الأعمال.

كانت الأشرطة أكثر إفادة بكثير، وأشد إيلاماً من أي صور.

اكتشف أن علاقتها بالخياط الشهير بدأت قبل عامين من أسبوع الموضة في ميلانو، حيث التقيا لأسباب مهنية. قاومت إيوا في البداية، وهو، في النهاية، يعيش محاطاً بأجمل نساء العالم، وهي كانت، في ذلك الوقت، في الثامنة والثلاثين. وبرغم ذلك انتهى بهما الأمر في سرير واحد، في الاسبوع التالي في باريس.

عندما سمع إيغور ذلك، أدرك أنه يشعر بالإثارة الجنسية، ولم يتمكن من فهم سبب رد فعل جسمه بهذا الشكل. لماذا أدى به الواقع المجرد لتخيل زوجته وقد أفرجت ساقيها ليدخلها رجل آخر، إلى الحصول على انتصاب بدلاً من الشعور بالنفور؟

إنها المرة الوحيدة وحسب، التي خشي فيها أنه ربما يفقد عقله، وقرر أن يقوم باعتراف علني في محاولة للتخفيف من شعوره بالذنب. وفي محادثة مع زملاء له، أشار إلى صديق اختبر اللذة الجنسية لدى علمه بأن زوجته تقيم علاقة من خارج الزواج، ثم جاءت المفاجأة.

في البداية، أعرب زملاؤه، ومعظمهم من المدراء أو من السياسيين من مختلف الطبقات الاجتماعية والجنسيات، عن استفظاعهم الفكرة. ثم إنهم، بعد الكأس العاشرة من الفودكا، اعترفوا بأن هذا من الأمور الأكثر إثارة التي يمكن أن تحصل في الزواج. وكان أحدهم يسأل زوجته دائماً أن تخبره عن جميع التفاصيل القذرة، والكلمات التي تستخدمها مع عشيقها. وأعلن آخر أن أندية تبادل الزوجات - أماكن يقصدها الأزواج المهتمون بالجنس الجماعي - هي العلاج المثالي للزواج العليل. ربما في الأمر بعض من المبالغة، إلا أن إيغور سُرّ لمعرفته أنه ليس الرجل الوحيد الذي يجد إثارة في معرفة ان زوجته نامت مع شخص غيره. وشعر بالقَدْر ذاته من السعادة لمعرفته هذا الكم القليل عن الكائنات البشرية، وبخاصة

ذكور الأنواع. فمحادثاته تركّز في العادة على مسائل العمل، ونادراً ما تتطرق إلى المجال الخاص.

إنه يفكّر الآن في شأن ما هو موجود على أشرطة التسجيل تلك. فقد أعلن الخياط عن حبه لها في خلال أسبوعهما في لندن (أسابيع الموضة تقام بالتتابع لتسهيل الحياة على المحترفين أصحاب العلاقة). وكانت إيوا، من جهتها، لا تزال ملأى بالشكوك. فحسين هو ثاني رجل فقط في حياتها تمارس معه الحب: يعملان في الصناعة ذاتها، لكنها تشعر بأنها أقل منه شأناً بكثير. وسيكون عليها التخلي عن حلمها بالعمل في مجال الموضة لأنه سيستحيل عليها منافسة زوجها المستقبلي، وستعود لتصبح مجرّد ربة منزل.

والأسوأ أنها لا تستطيع أن تفهم سبب اهتمام شخص على هذا القدر من السلطة، بامرأة روسية في منتصف العمر.

أمكن إيغور أن يشرح لها الأمر، لو أنها أعطته الفرصة؛ فحضورها المجرّد يضيء أنوار جميع من حولها. إنها تجعل كل واحد يريد أن يعطي أفضل ما عنده وينهض من رماد الماضي مفعماً بالأمل المتجدد. وهذا ما حصل له وهو شاب عائد من حرب دموية لا معنى لها.

عادت التجربة. يقول له الشيطان إن ذلك ليس صحيحاً تماماً. فهو بنفسه تغلّب على جروحه النفسية بالغرق في العمل. وربما يعتبر الأطباء النفسيون أن العمل الشاق جداً يشكل اضطراباً نفسياً، إلا أن شكل بالنسبة إليه سبيلاً لشفاء جراحه عبر المسامحة

والنسيان. لم تكن إيوا في الحقيقة على هذه الدرجة من الأهمية. وعليه التوقف عن تركيز جميع انفعالاته على علاقة غير موجودة.

«لست الأول»، قال الشيطان. «يتم دفعك إلى القيام بأفعال شريرة من خلال الاعتقاد الخاطئ أن ذلك سيؤدي، بطريقة ما، إلى أفعال جيّدة».

أخذ إيغور يشعر بالتوتر. إنه رجل صالح، وهو كلما اضطر إلى التصرف بخشونة، فإنما يفعل ذلك باسم قضية أكبر: خدمة بلاده، إنقاذ المهمشين من معاناة غير ضرورية، اتباع مثله الأعلى الوحيد في الحياة، يسوع المسيح، فيقوم على غراره باستخدام تركيبة من إدارة الخد الآخر واستخدام السَّوْط.

رسم إشارة الصليب أملاً أن تتركه التجربة. أجبر نفسه على تذكر شرائط التسجيل وما قالته إيوا: مهما قد تصبح تعيسة مع رفيق حياتها الجديد، فلن تعود أبداً إلى الماضي لأن زوجها غير متزن.

يا للسخف. يبدو أن محيطها الجديد غسل دماغها. لا بد من أنها في صحبة سيئة. وهو متأكد من أنها كذبت عندما أبلغت صديقتها الروسية بأنها لم تتزوج من جديد إلا لأنها تخشى أن تبقى وحدها.

لقد شعرت دوماً، وهي في صباها، بأن الآخرين يرفضونها، ولم تتمكن أبداً من أن تكون نفسها، واضطرت دوماً إلى الادعاء أنها مهتمة بالأمر ذاته الذي يهتم به أصدقاؤها. تلعب اللعب ذاتها، تذهب

إلى الحفلات، وتبحث عن رجل وسيم ما ليصبح زوجاً مخلصاً ويوفر لها الأمان والمنزل والاولاد. وقالت على الشريط إن ذلك كلّه كان كذبة.

وهي لطالما حلمت بالمغامرة والمجهول. ولو أمكنها أن تختار مهنة، وهي لا تزال في سن المراهقة، لاختارت أن تكون فنانة. كانت، وهي طفلة، تحب أن تصنع الكولاج من صور تقصّها من المجلات الشيوعية، كرهت الصور، لكنها استمتعت بتلوين الرسوم الغبراء. وكان من الصعب جداً العثور على ثياب للدمى، بحيث إن والدتها اضطرت إلى أن تصنعها من أجلها، وقد أحبت إيوا هذه الألبسة وقالت لنفسها إنها، في يوم من الأيام، ستصنع الثياب أيضاً.

لم يوجد في الاتحاد السوفياتي أمر اسمه الموضة. وهم لم يكتشفوا ماذا يحصل في ما بقي من العالم إلا بعد سقوط جدار برلين وإغراق البلاد بالمجلات الأجنبية. تمكنت في سن المراهقة من استخدام المجلات لصنع كولاجات أكثر إشراقاً وإثارة للاهتمام. ثم قررت في أحد الأيام أن تخبر عائلتها بأنها تحلم بأن تصبح مصممة أزياء.

ما إن أنهت الدراسة حتى أرسلها أهلها إلى كلية الحقوق. سعدوا كثيراً بالحرية التي اكتسبوها حديثاً، لكنهم شعروا بأن بعض الأفكار الرأسمالية يهدد بتدمير البلاد، وبإلهاء الناس عن الفن الحقيقي، وباستبدال تولستوي وبوشكين بروايات التجسس، وإفساد الباليه الكلاسيكي بالانحرافات الحديثة. يجب إبقاء ابنتهم الوحيدة في منأى عن التدهور الأخلاقي الذي وصل إلى جانب الكوكا كولا والسيارات الخلابة.

التقت في الجامعة بشاب جميل، طموح، يفكّر مثلها تماماً في

أنه عليهما التخلي عن فكرة أن النظام القديم سيعود في يوم من الأيام. فهو ولّى إلى غير رجعة، وقد حان الوقت للبدء بحياة جديدة.

أحبت فعلاً هذا الشاب. وشرعا يخرجان معاً. رأت أنه ذكي وسيقطع شوطاً بعيداً في الحياة، وما زادها تعلقاً به أنه يبدو أنه يفهمها. وهو، بالطبع، قد حارب في أفغانستان، وجُرح في المعركة، لكن جرحه ليس بالخطير جداً. لم يشتك أبداً من الماضي، ولم يُظهر أبداً أي علامات إلى أنه غير متزن، أو يعاني حالة نفسية.

جاءتها في أحد الأيام بطاقة ورد، وأبلغها أنه يترك الجامعة لبدء عمله الخاص، ثم عرض عليها الزواج، فوافقت، برغم أنها لم تشعر نحوه إلا بالإعجاب والصداقة. اعتقدت أن الحب سينمو مع الوقت، مع تقاربهما أكثر من بعضهما البعض. ثم إن الشاب هو الوحيد الذي فهمها فعلاً، ووفّر لها الحافز الفكري الذي تحتاج إليه. ولو أنها تركت هذه الفرصة تفلت، فقد لا تجد شخصاً آخر على استعداد للقبول بها كما هي.

تزوجا بدون جلبة كبيرة وبدون مساندة من عائلتيهما. حصل على قروض من أناس اعتبرتهم خطيرين، لكنها لم تستطع شيئاً لوقف ذلك. وأخذت الشركة التي أسسها بالنمو تدريجاً. وقامت، بعد أربع سنوات من العيش معاً - وهي ترتعش من الخوف - بطرح أول مطلب لها: أن يدفع للأناس الذين أقرضوه المال في الماضي، والذين بدوا مهتمين على نحو يدفع إلى الريبة في استرداده. تبع نصيحتها، وغالباً ما توفّرت له الأسباب لشكرها لاحقاً على ذلك.

مرت السنون، وحلّت الإخفاقات التي لا مفر منها وليالي الأرق، ثم أخذت الأمور تتحسن، ومنذ ذلك الوقت، شرعت البطة الصغيرة البشعة تسير وفق النص المكتوب في قصص الأطفال: كبرت لتصبح أوزة جميلة، محط إعجاب الجميع.

اشتكت إيوا من أنها عالقة في دَور ربة المنزل. وعلى عكس ردود فعل أزواج صديقاتها الذين يرون في عمل المرأة مرادفاً للنقص في الأنوثة، اشترى لها متجراً في واحدة من أكثر المناطق إقبالا عليها في موسكو. وشرعت في بيع الملابس التي يصنعها كبار خياطي العالم، لكنها لم تحاول أبداً ابتكار تصاميمها الخاصة. كان لعملها تعويضات أخرى: زارت جميع دُور الأزياء الكبرى، والتقت بأناس مثيرين للاهتمام، وكان عندها أن التقت بحميد للمرة الأولى. وهي لا تزال لا تعرف هل أنها تحبه أم لا - ربما لا - لكنها شعرت بالراحة معه. وعندما أبلغها أنه لم يسبق له أن التقى بأحد مثلها، واقترح عليها الاقامة معاً، شعرت بأنه ليس لديها ما تخسره. ليس لديها أولاد، وزوجها متزوج إلى درجة أنه ربما لن يلاحظ حتى أنها رحلت.

«تركت ورائي كل شيء»، قالت إيوا في واحد من الأشرطة. و«ليست لدي أي ذرة من الندم. ولكنت فعلت الأمر ذاته لو أن حميد - خلافاً لرغباتي - لم يشتر ذلك العقار الجميل في إسبانيا ويكتبه باسمي. ولكنت اتخذت القرار إياه أيضاً، لو أن إيغور، زوجي السابق، عرض علي نصف ثروته. لكنت اتخذت القرار ذاته لأنني أعرف أنني أحتاج إلى الحياة بعيداً عن الخوف. وإذا أراد واحد من أكثر الرجال إثارة في العالم، أن يبقى إلى جانبي، فمن الواضح أنني إنسانة أفضل مما ظننت».

وعلّقت في شريط آخر بالقول إنه من الواضح أن زوجها يعاني مشاكل نفسية خطيرة.

«زوجي فقد عقله. ولا فكرة لي إذا نبع ذلك من تجاربه في الحرب، أم من مبالغته في العمل، لكنه يعتقد أنه يعرف ما ينوي عليه الله. وأنا، قبل أن أرحل، طلبت النصيحة من طبيب نفسي في

محاولة مني لفهمه بطريقة أفضل، وأرى إذا كان من الممكن إنقاذ علاقتنا. لم أخض في التفاصيل حتى لا أضعه في موضع الريبة، ولن أفعل ذلك معك الآن، لكنني أعتقد أنه قادر على القيام بأمور رهيبة إذا اعتقد أنه يعمل الصلاح.

«شرح لي الطبيب النفسي أنه يمكن الكثيرين من الأناس الكرماء والرحيمين أن يتغيروا كلّياً بين لحظة وأخرى. وقد أُجريت دراسات على هذه الظاهرة، وأُطلق على هذا التغيير اسم تأثير لوسيفوروس، على اسم الشيطان الذي كان ملاكاً أحبه الله أكثر ما يكون، لكن انتهى به الأمر محاولاً منافسة الله نفسه».

«لكن، لماذا حصل ذلك؟»، سأل صوت نسائي آخر.

انتهى الشريط عند هذا الحد.

ودّ لو أنه سمع جوابها، لأنه يعرف أنه لا يعتبر نفسه على سوية واحدة مع الله، ولأنه واثق من أن محبوبته تقوم بتلفيق الأمر برمّته لأنها تخاف أن يتم نبذها لو أنها عادت. نعم، لقد قتل بدافع الحاجة، لكن، ما علاقة ذلك بزواجهما؟ قتل لما كان جندياً، بتصريح رسمي. وقتل زوجين آخرين من الناس أيضاً، لكن من أجل مصلحة أفضل لهما، لأنهما لا يملكان سبل عيش حياة كريمة. وهو في «كان» يقوم وحسب بتنفيذ مهمة.

سيقتل امرأة يحبها إذا رأى أنها جُنّت، وأضاعت طريقها بالكامل، وشرعت في تدمير حياتها الخاصة. لن يسمح أبداً لفساد الذهن بأن يدمّر ماضياً متألّقاً كريماً. سيقتل فقط إنسانة يحبها لينقذها من عملية طويلة ومضنية من دمار الذات.

نظر إيغور إلى المزيراتي التي توقفت قبالته للتو في منطقة ممنوع الوقوف فيها. إنها سيارة سخيفة وغير مريحة. وهي برغم

محركها القوي - الخفيف القوة، أكثر من اللازم في الطرق الثانوية، والشديد القوة أكثر من اللازم في الطرق السريعة - عليها أن تتلكأ لتسير بالسرعة ذاتها مع السيارات الأخرى.

فتح رجل في حوالى الخمسين - لكنه يحاول أن يظهر في الثلاثين - الباب وصارع للخروج لأن الباب واطئ وقريب جداً من الأرض. دخل مطعم البيتزا، وطلب تلك المزدانة بأربعة أنواع من الجبن ليأخذها معه.

لا تتماشى المزيراتي مع البيتزا، إلا أنها أمور تحدث.

عادت التجربة. وهي لا تتحدث إليه الآن عن السماح والكرم، ولا عن نسيان الماضي والمضي قُدماً، بل تحاول صوغ خطة مختلفة وتزرع في ذهنه شكوكاً حقيقية. وماذا لو أن إيوا كانت تعيسة بالكامل؟ وماذا لو أنها، برغم حبها له، كانت في عمق حفرة من القرار السيئ لا قعر لها، كما حل بآدم في اللحظة التي قبل فيها التفاحة، وحكم على كل الجنس البشري؟

قال لنفسه للمرة المئة، إنه خطط لكل شيء. أراد لهما أن يعودا إلى بعضهما البعض من جديد. ولا يسمحا لكلمة صغيرة مثل الوداع بأن تمحو حياة ماضية بكاملها. يعرف أنه لكل الزيجات أزماتها، خصوصا بعد ثماني عشرة سنة. لكنه يعرف أيضاً أنه على الاستراتيجي الجيد أن يكون مرناً. بعث برسالة مكتوبة أخرى، للتأكد فقط من أنها تحصل عليها، ثم. وقف وتلا صلاة طالباً أن تُرفع عنه كأس التخلّي.

روح بائعة الحرف الصغيرة إلى جانبه. يعرف الآن أنه ارتكب ظلماً؛ لَما تأذى لو أنه انتظر للعثور على غريم أكثر مساواة له، مثل الرياضي المزيف ذي الشعر المحنّى، أو لو استطاع الانتظار إلى أن

يتمكن من إنقاذ أحد من المزيد من المعاناة، كما كانت حالة المرأة على الشاطئ.

يبدو أن الفتاة صاحبة الحاجبين الداكنين تحوم من فوقه كالقديسة، تطلب منه عدم الندم. لقد قام بما يجب، وأنقذها من المعاناة والألم المستقبليين. وشرعت روحها الطاهرة بالتدريج في إبعاد التجربة، ومساعدة إيغور على فهم أن سبب وجوده في «كان» ليس إحياء حب ضائع؛ فهذا مستحيل. إنه هنا لإنقاذ إيوا من المرارة والفساد. وهي ربما جارت في معاملته، لكن الأمور الكثيرة التي فعلتها لمساعدته تستحق مكافأة.

أنا رجل صالح.

توجه إلى الصندوق، دفع حسابه وطلب قنينة صغيرة من المياه المعدنية. وأفرغ، بمغادرته، محتواها على رأسه.

يحتاج إلى التمكن من التفكير بوضوح. حلم طويلاً بهذا اليوم، وها إنه يصبح مشوشاً.

٠٦:٠٥ ب.ظ.

قد تجدد الموضة ذاتها كل ستة أشهر، إلا أن أمراً واحداً لا يتغير: حراس الملاهي يرتدون دوماً اللون الأسود.

فكّر حميد في بدائل لعروضه - إلباس الحراس الأمنيين بزات ملونة مثلاً، أو جعلهم يرتدون جميعهم الأبيض - لكنه عرف أنه لو قام بأي شيء من هذا القبيل، فسيكتب النقّاد أكثر عن تلك التحديثات التي لا معنى لها مما يكتبون عمّا يهم فعلاً: المجموعة الجديدة. ثم إن الأسود هو اللون المثالي: محافظ، غامض، ومحفور في اللاوعي الجماعي، بفضل أفلام رعاة البقر القديمة تلك كلّها. الخيرون يرتدون دوماً الأبيض، والسيئون الأسود.

تخيّل لو أن البيت الأبيض دُعي البيت الأسود، لاعتقد الجميع أنه مسكون بالأرواح الشريرة.

لكل لون غايته، برغم أن الناس قد يعتقدون أنه يتم انتقاؤه عشوائياً. فالأبيض يعني الطهارة والكمال. الأسود يُرهب. الأحمر

يصدم ويشلّ. الأصفر يسترعي الانتباه. الأخضر يهدئ كل شيء، ويعطي إشارة الانطلاق. الأزرق يسكّن. البرتقالي يُربك.

على حراس الملهى أن يرتدوا الأسود. الأمر هكذا منذ البداية، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

توجد كالعادة ثلاثة مداخل مختلفة. الأول هو للصحافة على نحو عام: بضعة صحافيين والكثير من المصورين المحملين بالكاميرات. يبدون مهذبين للغاية، لكنهم لا يتورعون عن لكز زملائهم بمرافقهم، ليبعدوهم عن طريق التقاط الزاوية الأفضل، أو عن لقطة غير معهودة، أو الوقت المثالي، أو خطأ ما فاضح. المدخل الثاني هو للجمهور العام، وبهذا المعنى فإن أسبوع الموضة في باريس لم يكن مختلفاً عن العرض في هذا المنتجع البحري في جنوب فرنسا: الأناس الذين يمرون عبر المدخل الثاني يُسيئون دوماً ارتداء ثيابهم، ومن شبه المؤكد أنه ليس في وسعهم شراء أي شيء سيُعرض بعد هذا الظهر. وبرغم ذلك، ها إنهم هنا بجينزاتهم الممزعة، وتي - شيرتاتهم السيئة الذوق، وبالطبع بزات التمرين ذات الماركة، وهم مقتنعون بأنهم يبدون مسترخين وعلى راحتهم، وهو ما ليسوا عليه بالتأكيد. وبعضهم معه ما قد يبدو جليّاً على أنه حقائب يد أو أحزمة باهظة الثمن، لكن ذلك يبدو في شكل من الأشكال أكثر إثارة للشفقة، وأشبه بوضع لوحة لفيلاسكيز في إطار بلاستيكي.

وأخيراً. ثمة مدخل الشخصيات المهمة جداً. ولا يملك الحراس الأمنيون أي فكرة عن هوية كل منهم. يقفون هناك ببساطة، وأيديهم مكتفة. منظرهم يوحي بالتهديد، كما لو أنهم المالكون

الحقيقيون. تأتي صوبهم امرأة مهذبة، تدربت على حفظ الأوجه الشهيرة، وبيدها قائمة.

«أهلاً بالسيد والسيدة حسين. أشكركما كثيراً على وجودكما هنا».

يذهبون إلى الأمام مباشرة. يسير الجميع عبر الممشى ذاته، لكن حاجزاً من الأعمدة المعدنية المربوطة إلى بعضها البعض بشريط من المخمل الاحمر، يحدد من هم الأشخاص الأكثر أهمية هناك. إنها لحظة المجد الصغير، أن يتم اختيار الأشخاص من بين الجميع على أنهم مميزون، وأنه برغم كون هذا العرض ليس جزءاً من الروزنامة الرسمية - لا يجب أن ننسى أن «كان» هي في النهاية مهرجان للسينما - يجب الالتزام على نحو صارم بالبروتوكول. ولأن لحظة المجد الصغيرة هذه ستحصل في كل المناسبات المشابهة (مآدب عشاء وغداء، حفلات كوكتيل)، يُمضي الرجال والنساء ساعات أمام المرآة، مقتنعين بأن الضوء الاصطناعي أقل ضرراً بالبشرة من الشمس التي يضعون في مواجهتها الكثير من كريمات الوقاية. وهم على بعد خطوتين من الشاطئ، لكنهم يفضلون استخدام آلات برونزاج متطورة في صالونات التجميل التي توجد على مسافة تقل شارعاً من المكان الذي ينزلون فيه. ولو أنهم تمشوا على طول جادة لاكروازيت، لأمكنهم التمتع بمنظر رائع، لكن هل سيخسرون الكثير من السعرات الحرارية؟ كلا. ولهذا، فإنهم في حال أفضل كثيراً. وهم يستخدمون آلات المشي في الأندية الصغيرة للفنادق.

وبهذه الطريقة يحسنون من حالتهم للمشاركة في مآدب الغداء المجانية التي يرتدون لها ثياباً عادية مدروسة، حيث يشعرون بالأهمية لمجرد أنهم مدعوون، أو في حفلات العشاء التي عليهم أن

يدفعوا لحضورها الكثير من المال في حال لم تكن لديهم اتصالات نافذة، أو في حفلات ما بعد العشاء التي تستمر حتى ساعات الفجر الأولى، أو في تناول آخر فنجان قهوة أو كأس ويسكي في حانة الفندق... وهذه كلها تتضمن زيارات متكررة إلى الحمام لتصحيح التبرج، وتعديل ربطة العنق، وإزالة أي آثار للقشرة عن أكتاف السترات، والتأكد من أن أحمر الشفاه ممتاز.

ويعودون في النهاية إلى غرف فنادقهم الفخمة حيث يجدون السرير قد سُوّي، وقائمة الفطور منتظرة، والتوقعات الجوية لليوم التالي، وقطعة من الشوكولا (التي يتم رميها فوراً لأنها تحتوي على الكثير من السعرات الحرارية)، ومغلّفاً كُتبت أسماؤهم عليه بصورة أنيقة (لا يُفتح المغلف أبداً لأن كل ما يحتوي عليه هو رسالة الترحيب النموذجية من مدير الفندق)، إلى جانب سلّة من الفاكهة (يتم التهامها بشره لأنها مصدر للألياف، وهي بدورها جيدة للجسم وطريقة ممتازة لتفادي زيادة الوزن). ينظرون إلى المرآة ويُزيلون التبرج، وربطة العنق، الثوب أو سترة العشاء، ويقولون لأنفسهم: لم يحصل أي شيء ذي أهمية كبيرة اليوم. ربما غداً، يكون أفضل.

ارتدت إيوا ثياباً جميلة من تصميم ح. ح.، وهي في الوقت ذاته رصينة وأنيقة. سير بهما إلى مقعدين امام منصة الاستعراض مباشرة، على مقربة من المنطقة المخصصة للمصورين الذين أخذوا في الوصول وفي تركيب معداتهم.

تقدم صحافي وطرح السؤال المعتاد:

سيد حسين، أي فيلم تقول إنه الأفضل حتى الآن؟

فيجيب كالعادة: من السابق جدا لأوانه الإدلاء برأي. شاهدت الكثير من الأمور المثيرة للاهتمام. وأفضّل، قبل أن أعطي حكمي، الانتظار حتى نهاية المهرجان.

وهو في الواقع لم يشاهد فيلماً واحداً. وسيتحدث في وقت لاحق إلى غيبسون، ليسأله أي الأفلام يعتبره الأفضل في المهرجان.

أبعدت الشقراء المهذبة، الأنيقة الملبس، الصحافي بلطف. وسألتهما إذا كانا يخططان للذهاب إلى حفلة الكوكتيل التي تقيمها الحكومة البلجيكية بعد العرض فوراً. وقالت إن أحد الوزراء الحاضرين يود كثيراً التحدث معه. درس حميد الدعوة، لأنه يعرف أن البلجيكيين قد صرفوا الكثير من المال ليوفّروا إطلالة أكبر لخياطيهم على الساحة الدولية، ويستعيدوا بالتالي بعضاً من المجد الذي كان لهم بوصفهم قوة استعمارية في أفريقيا.

وقال: نعم، قد أذهب لتناول كأس من الشامبانيا.

«ألن نلتقي غيبسون بعد هذا مباشرة؟»، سألت إيوا.

فهم حميد الرسالة. اعتذر من المرأة الشابة. لقد نسي أن لديه التزاماً سابقاً، لكنه سيتصل بالوزير في وقت لاحق.

وقع نظر بعض المصورين عليهما، وشرعوا في التقاط الصور. وهما حتى هذه اللحظة، الشخصان الوحيدان اللذان يثيران اهتمام الصحافة. وانضمت إليهما لاحقاً بضع عارضات، كن في ما مضى، يملكن الساحة ويتوقفن ويبتسمن، ووقّعن بخط أيديهن لبعض الاشخاص السيئي الملبس من الجمهور، وقمن بكل ما في وسعهن لتتم ملاحظتهن أملاً في ظهور وجوههن من جديد في الصحف. أدار المصورون عدساتهم صوبهن، مدركين أنهم إنما يقومون بالحركة لإرضاء محرريهم، فلن يتم نشر أي من الصور. الموضة

تتعلق بالحاضر، ولا يتذكّر عارضات السنوات الثلاث الماضية - في ما عدا أولئك اللواتي يستطعن إبقاء أنفسهن في العناوين، إما من خلال فضائح مفبركة بعناية، وإما لأنهن يُبرزن حقيقة بين الحشود - إلا الجمهور القابع وراء الحواجز المعدنية خارج الفنادق أو السيدات اللواتي لا يستطعن اللحاق بقافلة التغيير.

تدرك العارضات الأكبر سناً هنا (ونعني، طبعاً، بالأكبر سناً من تجاوزن الخامسة والعشرين)، لكن سبب وجودهن بين الحضور ليس العودة إلى منصة العرض، بل لأنهن يأملن الحصول على دور في فيلم، أو مهنة مقدمة برامج في أحد عروض الكابل التلفزيوني.

من أيضاً سيسير على منصة العرض اليوم إلى جانب ياسمين: السبب الوحيد لوجود حميد هنا؟

بالتأكيد، ليست واحدة من العارضات الأربع أو الخمس الأُوَل في العالم، لأنهن يقمن فقط بما يردن القيام به، ويتقاضين دوماً ثروة، ولا يحلمن أبداً بالظهور في «كان» لمجرد إضفاء مكانة على عرض لأناس آخرين. قدّر حميد أنه سيرى عارضتين أو ثلاثاً من الفئة الأولى، مثل ياسمين، سيكسبن حوالى ١٥٠٠ يورو لقاء عمل هذه الليلة، على المرء أن يتمتع بالكثير من السحر، إضافة إلى مستقبل في هذه الصناعة، وربما توجد عارضتان أو ثلاث أخريات من الفئة الثانية، محترفات لامعات على ممر العرض، ويتمتعن بالمظهر المناسب، لكنهن لسن محظوظات كفاية للمشاركة في أي مناسبة موازية بوصفهن ضيفات شرف في حفلات يُحييها التجمع الكبير، وسيحصلن على ما بين ٦٠٠ و٨٠٠ يورو. أما الباقيات فهن عارضات

الفئة الثالثة: فتيات دخلن حديثاً عالم الموضة المجنون ويحصلن على ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ يورو لمجرد اكتساب الخبرة.

يعرف حميد ماذا يدور في خُلد فتيات هذه المجموعة الثالثة: سأكون رابحة. سأُظهر للجميع ماذا يمكنني بالضبط أن أفعله. سأصبح واحدة من أشهر العارضات في العالم، ولو عنى ذلك أنه علي النوم مع بضعة رجال أكبر سناً.

لكن الرجال الأكبر سناً ليسوا حمقى بالقدر الذي يعتقدنه: غالبية هؤلاء البنات تحت السن، وبحسب القانون، في معظم بلدان العالم، فإن كل من يرتكب أعمالاً جنسية مع قاصر قد ينتهي في السجن. والأسطورة تختلف كثيراً عن الواقع: لا تصل أي عارضة إلى القمة بسبب سخائها الجنسي؛ الأمر يتطلب أكثر من ذلك.

السحر. الحظ. الوكيل المناسب. الوجود في المكان المناسب وفي الوقت المناسب. وليس الوقت المناسب، استناداً إلى موائمي الاتجاه، ما تعتقد هؤلاء الفتيات الجديدات أنه ما هو قائم عليه عالم الموضة. فكل شيء يشير، استناداً إلى آخر الابحاث، إلى أن الجمهور تعب من رؤية مخلوقات غريبة مصابات بالأنيروكسيا، ومن أعمار غير محددة، لكنهن يمتلكن عيوناً مثيرة. تبحث الوكالات التي تختار العارضات عن أمر يبدو أنه يصعب للغاية العثور عليه: «ابنة الجيران»، أي فتاة عادية بالمطلق تبث إلى كل اللواتي يرينها على الملصقات أو في مجلات الموضة، الشعور بأنها مثلهن تماماً. ويكاد يكون العثور على هذه الفتاة الاستثنائية، التي تبدو عادية جداً، أمراً مستحيلاً.

ولّت منذ زمن بعيد الأيام التي كانت فيها العارضات مجرد علاّقات للثياب، برغم أنه يجب القول إنه من الاسهل كثيراً إلباس

من هي نحيلة، تعلّق الثياب في شكل أفضل. وولت كذلك أيام الشبان الوسيمين الذين يعلنون عن الثياب الرجالية الغالية الثمن. نجح ذلك جيداً في حقبة أناقة أرباب المهن قرابة نهاية الثمانينيات، لكن ليس بعد ذلك. لا يوجد نموذج محدد للجمال الرجالي، وعندما يشتري الرجال منتجاً ما، فإنهم يريدون رؤية شخص يمكنهم أن يربطوه بزميل لهم في العمل أو برفيق شرب.

من سبق لهم أن رأوا ياسمين تسير على منصة العرض، اقترحوها على حميد بوصفها الوجه المثالي لمجموعته الجديدة. قالوا أموراً مثل: لديها ملء حقائب من السحر، وبرغم ذلك لا يزال يمكن النساء التماهي معها. تسعى عارضة من الفئة الثالثة دوماً بحثاً عن اتصالات ورجال يدعون أنهم يمتلكون ما يكفي من السلطة لتحويلها إلى نجمة، لكن دعاية يمكن المرء أن يحصل عليها في عالم الموضة - وربما في جميع العوالم الأخرى أيضاً - هي توصيات من أصحاب المعرفة. وبرغم ما يبدو عليه الأمر من اللامنطق، ما إن تصبح إنسانة ما على وشك أن يتم اكتشافها، يبدأ الجميع في المراهنة على نجاحها أو فشلها. أحياناً يفوزون وأخرى يخسرون، إلا أن هذا ما هي السوق عليه.

أخذت الغرفة تمتلئ. مقاعد الصفوف الأمامية كلها محجوزة، وتحتل بعضها مجموعة نساء أنيقات الملبس ورجال بالبزات الرسمية، وما بقي من مقاعد لا يزال شاغراً. يجلس الجمهور العام في الصفوف الثانية والثالثة والرابعة. وتركز اهتمام المصورين الآن على عارضة مشهورة متزوجة بلاعب كرة قدم، وقد أمضت الكثير من الوقت

في البرازيل لأنها تعبدها وحسب، على حد قولها. ويعرف الجميع هنا أن رحلة إلى البرازيل، هي التعبير الرمزي للجراحة التجميلية، لكن لا يقولها أحد صراحة. وما يحصل هو أنه بعدما يُمضي الزائر بضعة أيام هناك، يسأل بتحفّظ إذا كان في الإمكان إدخال زيارة إلى جراح التجميل بين الرحلات السياحية إلى جمال السلفادور ورقص كارنفال الريو. يتم تبادل سريع لبطاقات الزيارة، وتنتهي المكالمة عند هذا الحد.

تنتظر الشقراء اللطيفة إلى أن ينتهي المصورون من عملهم (وهم أيضاً يسألون العارضة رأيها حول أفضل فيلم شاهدته حتى الآن)، ثم تسير بها إلى واحد من المقاعد الشاغرة قرب حميد وإيوا. يتجمهر المصورون من حولهم ويلتقطون الصور لثلاثتهم: الخياط العظيم وزوجته والعارضة التي أصبحت ربة منزل.

سأل بعض الصحافيين حميد عن رأيه في عمل مصممة الأزياء البلجيكية. أجاب، وقد اعتاد على مثل هذه الأسئلة:

هذا ما جئت لاكتشفه، وقد سمعت أنها موهوبة جداً.

أصرّ الصحافيون، كما لو أنهم لم يسمعوا الجواب. ويكادون جميعا يكونون من البلجيكيين؛ فالصحافة الفرنسية ليست مهتمة كثيراً. طلبت منهم الشقراء أن يدعوا الضيوف بسلام.

ابتعدوا. جلست العارضة السابقة إلى جانب حميد، وحاولت الشروع في الحديث قائلة إنها تحب عمله وحسب. شكرها بتهذيب. وإذا كانت تنتظر منه أن يقول لها «لنتحدث بعد العرض»، فسوف يكون أملها قد خاب.

وبرغم ذلك شرعت في إخباره عن كل ما جرى معها في حياتها: الصور، الدعوات، السفرات إلى الخارج.

استمع حميد بصبر، لكن ما إن سنحت له الفرصة (بينما العارضة تتحدث بإيجاز إلى شخص آخر)، استدار صوب إيوا وطلب منها أن تنقذه من حوار الطرشان هذا. لكن زوجته تتصرف بغرابة أكثر الآن، وترفض الكلام. وبقي خياره الوحيد في قراءة النشرة التي تشرح العرض.

المجموعة هي للإشادة بذكرى آن سالنز، التي تُعتبر رائدة الموضة البلجيكية. شرعت في التصميم في الستينيات وفتحت متجراً صغيراً، لكنها رأت فوراً الإمكانات الهائلة التي ابتكرها الهيبيون (الخنافس) الشبان الذين توافدوا إلى أمستردام من جميع أنحاء العالم. تحدت - وانتصرت على - الموديلات الرزينة السائدة في أوساط بورجوازية تلك الأيام، ورأت ثيابها وقد ارتدتها أيقونات مختلفة، بمن فيهن الملكة باولا والمغنية جولييت غريكو، الملهمة الكبرى للحركة الوجودية في فرنسا. وهي من بين أول من ابتكروا عرضاً للأزياء، دمج الثياب على منصة العرض مع الضوء والموسيقى والفن. وبرغم ذلك، فهي لم تُعرف كثيراً خارج بلدها. فقد كانت عرضة لخوف رهيب من الإصابة بالسرطان. وعلى حد قول أيوب في الكتاب المقدس، فإن الأمر الذي خشيت منه أكثر ما يكون أصابها. ماتت من ذلك المرض الرهيب، ورأت أعمالها تنهار بسبب عدم كفاءتها المالية.

وقد ذهبت كليّاً طي النسيان، كما كل الأمور في عالم يقوم بتجديد نفسه مرّة كل ستة أشهر. والمصممة التي هي على وشك عرض مجموعتها الخاصة تظهر شجاعة فائقة في البحث عن الإلهام في الماضي بدلاً من محاولة اختراع المستقبل.

وضع حميد النشرة في جيبه. وإذا لم تكن ياسمين كل ما يأمله، فسيذهب، على أي حال، ويتحدث مع المصممة بعد العرض ليرى إذا كانت ثمة مشاريع يمكنهما العمل عليها معاً. فهو منفتح دوما على الأفكار الجديدة ما دام منافسوه يعملون تحت إشرافه.

تطلّع من حوله. الأضواء الكاشفة في مكانها المناسب، وثمة، لدهشته، عدد كبير من المصورين الحاضرين. ربما من الجدير رؤية المجموعة، وربما استخدمت الحكومة البلجيكية نفوذها مع الصحافة، وقدمت بطاقات السفر جواً والمسكن. وثمة شرح محتمل آخر لهذا القدر من الاهتمام، إلا أن حميد يأمل أنه مخطئ. السبب هو ياسمين. إنه يحتاج إليها إلى أن تكون غير معروفة كلياً من الجمهور العريض، إذا أراد الشروع في مخططاته. وهو، حتى الآن، لم يسمع تعليقات إلا من أناس آخرين يعملون في الأزياء. وإذا ظهر وجهها في الكثير من المجلات، فسيصبح اعتمادها مضيعة للوقت. أولاً، لأن ذلك يعني وجود من وصل إليها قبله، وثانياً لا معنى لربطها بشيء مبتكر وجديد.

أجرى حميد بعض الحسابات. لا بد من أن إقامة هذا الحدث قد كلّفت الكثير، لكن الحكومة البلجيكية، على غرار الشيخ، محقة تماماً: الأزياء للنساء، الرياضة للرجال، والمشاهير للجنسين... تلك هي الأمور الوحيدة التي قد تعطي بلداً ما صورة معترفاً بها على الساحة الدولية. وفي حالة الأزياء، غالباً ما تدور مفاوضات طويلة مع الاتحاد للتعامل معه أولاً. إلا أنه لاحظ أن واحداً من مدراء الاتحاد يجلس إلى جانب السياسيين البلجيكيين، ومن الواضح أنهم لا يضيعون الوقت.

يصل المزيد من الشخصيات المهمة، وجميعهم تقودهم الفتاة الشقراء اللطيفة. بدوا ضائعين بعض الشيء، كما لو أنهم ليسوا متأكدين تماماً مما يفعلونه هنا. بالغوا في ارتداء ملابسهم، ولا بد

إذاً، من أنه عرض الأزياء الأول الذي يحضرونه في فرنسا، وقد جاؤوا مباشرة من بلجيكا. وليسوا بالتأكيد من الكائنات التي تجتاح المدينة حالياً لحضور مهرجان الافلام.

حصل تأخير مدته خمس دقائق. وعلى عكس أسبوع الموضة في باريس حيث لا يبدأ أي عرض تقريباً في وقته المحدد، ثمة الكثير من الأمور الأخرى التي تحصل في «كان» في هذا الأسبوع، ولا يمكن الصحافة أن تبقى طويلاً في الجوار. ثم أدرك أنه على خطأ: معظم الصحافيين الموجودين هنا يتحدثون ويجرون المقابلات مع وزراء، جميعهم تقريباً من الأجانب ومن البلد ذاته. فقط في وضع كهذا، تلتقي السياسة مع الأزياء.

مضت الشقراء اللطيفة إلى المصورين وطلبت منهم اتخاذ أماكنهم. أوشك العرض أن يبدأ. لم يتبادل حميد وإيوا أي كلمة. لم تبدُ لا سعيدة ولا غير سعيدة، وهذا يُنذر بشر مستطير أكيد. لو أنها تستطيع فقط أن تشتكي أو تبتسم أو تقول شيئاً! لكنها لم تُبد أي إشارة إلى ما يعتمر في داخلها.

من الأفضل التركيز على الشاشة في آخر ممر العرض، التي ستُظهر العارضات من ورائها. فعروض الأزياء أمر يمكنه أن يفهمه.

لا بد من أن العارضات قد خلعن، منذ بضع دقائق، جميع ثيابهن التحتية، لأن الصدريات والسراويل التحتية قد تترك آثارا ظاهرة تحت الثياب التي سيلبسنها. ارتدت العارضات بالفعل الأشياء الأولى التي سيعرضنها، وهن في انتظار خفوت الضوء، وبدء الموسيقى، وأن يربت احد ما - امرأة في العادة - على أكتافهن لتحديد الوقت الدقيق لخروجهن إلى تحت الأضواء أمام الحضور.

تعاني مختلف فئات العارضات - الأولى والثانية والثالثة - درجات مختلفة من التوتر، والأقل خبرة فيهن هن الأكثر إثارة. منهن من يتلين صلاة، ومنهن من يحاولن استراق النظر عبر الستائر ليرين هل يوجد من يعرفنه هناك، أو إذا تمكنت والدتهن أو والدهن من تدبر الحصول على مقعد جيّد. لا بد من أن عددهن هو بين عشر أو إحدى عشرة، وصورة كل واحدة منهن ملصقة فوق المكان الذي علّقت فيه بترتيب الثياب التي سيرتدينها فيه، بحيث يمكنهن التبديل في ثوان، ويعدن إلى ممر العرض وقد بدا عليهن الاسترخاء التام، كما لو أنهن كن يرتدين هذه الملابس طوال فترة بعد الظهر. توضع اللمسات الأخيرة على التبرج والشعر. وتكرر العارضات لأنفسهن:

«لا يجب أن أزلّ قدمي. لا يجب أن أتعثّر بحافة الفستان. اختارني المصمم شخصياً من بين ستين عارضة أخرى. أنا في «كان». ربما توجد شخصية مهمة بين الحضور. أعرف أن ح. ح. هنا، وقد يختارني لماركته. يقولون إن المكان يعجّ بالمصورين والصحافيين.

«لا يجب أن أبتسم، لأن هذا مناف للقوانين. على قدميَّ أن تسيرا على خط غير مرئي. وعليَّ بهذين الكعبين العاليين أن أمشي كالعسكر. ولا يهم إذا كان هذا النوع من المشي اصطناعياً أو غير مريح. يجب أن أتذكر ذلك.

«عليّ أن أبلغ العلامة، أستدير إلى جهة وأتوقف لثانيتين، ثم أعود مباشرة بالسرعة ذاتها، عارفة أنني ما إن أغادر ممر العرض حتى يكون ثمة من ينتظرني لنزع ثيابي ووضع المجموعة الثانية، ولن يتنسى لي برغم ذلك كله الوقت حتى لإلقاء نظرة على المرآة! يجب أن أثق بأن كل شيء سيسير على ما يرام. عليّ أن أُظهر،

ليس جسمي وحسب، ولا الثياب وحدها، بل القوة الموجودة في ناظري».

تطلّع حميد سريعاً إلى السقف: إنها الإشارة. ضوء ساطع أكثر من الأنوار الاخرى. إذا قطعت العارضة تلك العلامة أو توقفت قبلها، فلن يمكن أخذ صورتها كما يجب، ومن ثم فإن محرري المجلات - أو بالأحرى محرري المجلات البلجيكية - سيختارون نشر صورة لعارضة أخرى. أما الصحافة الفرنسية فمخيّمة حالياً خارج الفنادق وعلى طول السجادة الحمراء، أو في حفلة كوكتيل مسائية ما، أو أن محرريها يأكلون ساندويشاً قبل بدء حفل العشاء الرئيسي لهذه الليلة.

انطفأت أنوار الغرفة، وأضيئت المصابيح فوق ممر العرض.

إنها اللحظة الكبرى.

ملأ نظام موسيقي قوي الجو بألحان من الستينيات والسبعينيات. نُقل حميد إلى عالم لم يعرفه أبداً، لكنه سمع أناساً يتحدثون عنه. شعر ببعض الحنين إلى ما لم يعرفه أبداً، بوخزة غضب: لماذا لم تسنح له فرصة اختبار الحلم الأكبر لجميع هؤلاء الشبان الذين يجوبون العالم؟

خرجت العارضة الأولى، وانصهر الصوت مع الرؤية. ذات الألوان المتوهّجة، الضاجة بالحياة والطاقة، تروي قصة حدثت منذ زمن بعيد، لكنها قصة لا يزال العالم يحب أن يسمعها. سمع إلى جانبه أصوات آلات التصوير. الكاميرات تسجّل كل شيء. أتت العارضة الأولى على نحو ممتاز. سارت حتى العلامة، استدارت يميناً، توقفت لثانيتين، ثم سارت عائدة. أمامها ١٥ ثانية تقريباً للوصول إلى الجناحين، وعندها ستتخلى عن وضعيتها وتهرع إلى التعليقة حيث ينتظرها الثوب الثاني، تخلع ثيابها بسرعة، وتلبس بسرعة أكبر،

وتأخذ مكانها في الصف، وها هي جاهزة لظهورها الثاني. ستراقب المصممة كل شيء من خلال شبكة تلفزيونية داخلية، وهي تعض على شفتها، وتأمل ألا تتعثر إحداهن، وأن يفهم الحضور ما تحاول قوله، وتحصل على موجة من التصفيق في النهاية، ويثار إعجاب مبعوث الاتحاد كما يجب.

يستمر العرض. أمكن كلاً من كاميرات التلفزيون وحميد، من حيث يجلس، رؤية كم أن العارضات يسرن بأناقة، وكم أن خطواتهن ثابتة. أما الأناس الجالسون عند الجانب - الذين على غرار غالبية الشخصيات المهمة الموجودة، غير معتادين على عروض الأزياء - فيتساءلون عن سبب قيام الفتيات بالمشية العسكرية بدلاً من السير في شكل طبيعي. هل تحاول هذه المصممة أن تبتكر؟

كلاّ، فكّر حميد. السبب هو الكعوب العالية. فقط بالسير على هذا المنوال، تتأكد الفتيات من أنهن لن يتعثّرن. وما تُظهره الكاميرات - لأنها تصور من الأمام - لا يشكّل في الحقيقة عرضاً حقاً لما يجري.

المجموعة أفضل من المتوقع. رحلة عودة في الزمن مع بعض اللمسات المبدعة المعاصرة. ما من شيء فوق الحد، لأن سرّ الموضة الجيدة، كما مع المطبخ الجيد، هو في معرفة كمية المكونات التي يجب استخدامها. فالأزهار والبراعم تشكّل تذكيراً بتلك السنوات المجنونة، لكنها استخدمت بطريقة بدت معها معاصرة بالكامل. ظهرت ست عارضات حتى الآن على الممر، ولاحظ أن لواحدة منهن جرح إبرة صغيراً على ركبتها، لا يمكن التبرج إخفاؤه. لا بد من أنها، قبل دقائق من ذلك، حقنت نفسها بالهيروين لتهدئة أعصابها وقطع شهيتها.

فجأة، ظهرت ياسمين. ترتدي بلوزة بيضاء طويلة الكمين،

مطرزة كلها باليد، وتنورة بيضاء تصل إلى ما تحت الركبة. تمشي بثقة. لكن جذيتها، على عكس العارضات الأخريات، ليست مصطنعة، بل طبيعية، طبيعية في شكل مطلق. استرق حميد النظر إلى الحضور الآخرين. أُخذ كل من في الغرفة بياسمين إلى درجة أنه ما من أحد تطلّع حتى إلى العارضة المغادرة أو الداخلة، بعدما أنهت دورها وسارت عائدة إلى غرفة الثياب.

ممتاز!

درس، لدى ظهوريها التاليين على المر، كل تفصيل من تفاصيل جسمها، ورأى أنها تشع بشيء أكثر من مجرد الجمال الجسدي. كيف يمكن المرء تحديدها؟ أهو تزاوج بين الجنة والنار؟ أم أن الحب والكره يسيران يداً بيد؟

وكما في كل عرض للأزياء، لم يستغرق الأمر برمته أكثر من ١٥ دقيقة، برغم أنه تطلّب اشهراً من التخطيط والتحضير. وفي النهاية، جاءت المصممة إلى منصة العرض لتتلقى التصفيق. أضيئت الأنوار، وتوقفت الموسيقى، عندها فقط أدرك كم أنه استمتع بالموسيقى. اقتربت منهما الفتاة الشقراء اللطيفة، وقالت إن شخصاً من الحكومة البلجيكية يودّ كثيراً التحدث معه. أخذ حقيبة جيبه الجلدية وقدّم إليها بطاقته شارحاً أنه ينزل في فندق المارتينيز، وأنه سيكون مسروراً بأن يتدبّر لقاءً في اليوم التالي.

لكنني أود التحدث إلى المصممة وإلى العارضة السوداء. هل حصل أنك تعرفين إلى أي عشاء ستذهبان الليلة؟ سأنتظر الجواب هنا.

أمل ان الفتاة اللطيفة الشقراء لن تستغرق الكثير من الوقت. شرع الصحافيون يتجمعون ليطرحوا عليه الاسئلة المعتادة، أو بالأحرى السؤال ذاته الذي يكرره صحافيون مختلفون:

- ما رأيك في العرض؟

،مثير جداً للاهتمام، قال، وهو الجواب الذي يعطيه دائماً.

- وماذا يعني ذلك؟

وبرهافة المحترف المحنّك، انتقل حميد إلى الصحافي التالي. عليه أن يبقى دائماً مهذباً مع الصحافة، وألا يعطي جواباً مباشراً، أو يقول ما يبدو مناسباً في حينها.

عادت الفتاة الشقراء اللطيفة. لا، لن تحضرا حفل العشاء الليلة. سياسات مهرجان الأفلام تفرضها سلطة من نوع آخر برغم وجود جميع هؤلاء الوزراء.

قال حميد إنه سيرسل إليهما الدعوات الضرورية، وقد تم قبول عرضه فوراً. لا شك في أن المصممة توقّعت هذا الرد لمعرفتها بقيمة المنتج الذي بين يديها.

ياسمين.

نعم، إنها المطلوبة. وهو لن يستخدمها في عرض إلا في ما ندر، لأنها أقوى بكثير من الثياب التي ترتديها، بل ستصبح الواجهة العامة لحميد حسين، ولا توجد من هي أفضل منها.

أشعلت إيوا هاتفها النقال وهما يغادران. بعد ثوان، طار مغلّف عبر السماء الزرقاء، وحط عند أسفل الشاشة وفتح، وذلك كله ليقول: لديك رسالة جديدة.

يا لهذه الرسوم المتحركة السخيفة، فكّرت إيوا.

مرّة أخرى، تم حجب اسم المتصل. ليست متأكدة هل عليها أن تفتح الرسالة أم لا، لكن فضولها تغلّب على خوفها.

«يبدو أن معجباً ما قد عثر على رقم هاتفك»، قال حميد مازحاً. «أنت لا تتلقين في العادة هذا الكم من الرسائل».

- ربما أنت على حق.

وما تود حقيقة قوله هو: ألا تفهم؟ ألا يمكنك أن ترى، بعد سنتين لنا معاً، أنني مرعوبة، أم أنك تعتقد وحسب أنني أعاني فترة الطمث؟

ادعت قراءة الرسالة بشكل عارض:

لقد دمّرت عالماً آخر بسببك. وبدأت أتساءل هل يستحق الأمر حقيقة ذلك، حيث يبدو أنك لم تفهمي رسالتي. مات قلبك.

- ممن هو؟

- ليست لدي أي فكرة. فهو لا يعطي الرقم، إلا أنه من اللطيف أن يكون للمرء معجب سرّي.

٥:١٥ ب.ظ.

ثلاث جرائم قتل. لقد تم قلب الإحصاءات كلها رأساً على عقب، في مدى بضع ساعات فقط؛ لتظهر زيادة نسبتها خمسون في المئة.

مضى إلى سيارته وضبط جهاز اللاسلكي على موجة خاصة.

«أحدس بوجود قاتل متسلسل في المدينة».

تمتم صوت شيئاً في الطرف الآخر. قطع صوت الخشخشة بعض الكلمات، لكن سافوا فهم ما يُقال.

- لا، لا يمكنني التأكد، كما لا تنتابني الشكوك في هذا الشأن.

المزيد من التعليقات، والمزيد من الخشخشة.

- أنا لست معتوهاً، يا سيدي، ولا أناقض نفسي. فلا يمكنني مثلاً التأكد من أن معاشي سيودع في حسابي آخر الشهر، لكنني لا أشك في الواقع في ذلك. هل ترى ما أعنيه؟

المزيد من الخشخشة، والكلام الغاضب.

- لا سيدي، أنا لا أطالب بزيادة على المعاش، أقول وحسب إنه يمكن اليقين والشك أن يتعايشا، وبخاصة في مهنة كمهنتنا. نعم، حسناً، لندع ذلك جانباً ونتحرك إلى ما يهم فعلاً. الرجل في المستشفى مات للتو، ومن الممكن بالتالي أن تتم الإفادة عن ثلاث جرائم قتل في أخبار الليلة. كل ما نعرفه هو أن كلاً من الجرائم الثلاث ارتكبت باستخدام طريقة مختلفة، لكن متطورة جداً، ولهذا، لن يشك أحد في أنها مترابطة، إلا أنه سيتم النظر فجأة إلى كان، على أنها مدينة خطرة. وإذا ما استمر ذلك، فسيميل الناس في الواقع إلى التكهن بوجود مجرم واحد. ما الذي تريدني فعله؟

المزيد من التعليقات الغاضبة من المفوّض.

- نعم، إنهم هنا. الصبي الذي شهد على الجريمة يُطلعهم على كل ما يعرفه. المكان يعج الآن بالمصورين والصحافيين. افترضتُ أنهم متجمعون الآن وينتظرون عند السجادة الحمراء، لكنني كنت مخطئاً. المشكلة مع المهرجان هي وجود الكثيرين من المخبرين الصحافيين، وما من شيء يُخبرون عنه.

المزيد من الملاحظات الغاضبة. أخذ مفكرة من جيبه ودوَّن فيها عنواناً.

- حسناً، سأتوجه إلى مونتي كارلو فوراً، وأتحدث إليه.

توقفت الخشخشة. أقفل الشخص عند الطرف الآخر الجهاز.

سار سافوا حتى آخر الرصيف. وضع صفارة الإنذار على سطح سيارته، ورفع الصوت إلى حده الأعلى، وانطلق يسابق كالمجنون أملاً منه في استدراج المراسلين إلى جريمة لم تحصل. إلا أنهم أدركوا حيلته، فبقوا في مكانهم، واستمروا في إجراء المقابلات مع الصبي.

بدأ سافوا يشعر بالإثارة. يمكنه أخيراً ترك أحد مرؤوسيه يقوم

بجميع هذه الأعمال المكتبية، ليكرّس نفسه لما حلم دوماً بالقيام به: حل ألغاز جرائم قتل تتحدّى كل منطق. أمل أنه محقّ وأنه توجد حقيقة قاتل متسلسل في المدينة ينشر الرعب بين السكان. ونظراً إلى السرعة التي تنتشر فيها الأخبار هذه الأيام، سيجد نفسه سريعاً تحت الأضواء شارحاً أنه لم يتم بعدُ إثبات أي شيء، وسيفعل ذلك بطريقة لن يصدّقه أحد فيها، ضامناً بهذا أن التركيز سيبقى عليه إلى أن يتم العثور على المجرم. فـ «كان» برغم بهرجتها كلها، ليست سوى مدينة ريفية صغيرة، يعرف فيها الجميع كل ما يحصل، وبالتالي لن يكون من الصعب إيجاد القاتل.

السمعة والشهرة.

أهو يفكر وحسب في نفسه بدلاً من التفكير في حسن رفاه مواطني «كان»؟ لكن، من جديد، ما الضير في البحث عن قليل من المجد، وهو الذي أُجبر في كل سنة، على مدى سنوات، على تحمل ١٢ يوماً من الأناس الذين يحاولون أن يظهروا أكثر أهمية مما هم عليه؟ إنه لأمر يصيب بالعدوى. ومن، في النهاية، لا يريد كسب التقدير العام على عمله، أشرطياً كان أم مخرج أفلام.

كفَّ عن التفكير في المجد الآتي. سيأتي ذلك وحده إذا قمت بعملك كما يجب. ثم إن الشهرة أمر نزوي جداً. ماذا لو تبين أنك عاجز عن القيام بالمهمة؟ فستتعرض أيضاً للإذلال العام. ركّز.

وهو، بعد حوالى العشرين عاماً في سلك الشرطة قائماً فيها بجميع أنواع الأعمال، ومستحقاً ما ناله من ترقية، وقارئاً أعداداً لا تحصى من التقارير والوثائق، توصّل إلى نتيجة أنه عندما يتعلّق الأمر بالعثور على المجرمين، يلعب الحدس دوراً يعادل في أهميته دور المنطق. الخطر الآن، وهو يقود سيارته إلى مونتي كارلو، ليس القاتل - الذي يجب أن يشعر حالياً بالإنهاك بسبب الكمية الهائلة

من الأدرينالين التي تُضَخ عبر شرايينه، ناهيك بالتوجس لأن أحداً شاهده بالجرم المشهود -. كلا، الخطر الكبير الآن هو الصحافة. فالصحافيون أيضاً يخلطون بين المنطق والحَدْس. ولو تمكنوا من إقامة رابط، مهما يكن دقيقاً، بين جرائم القتل الثلاث، فستفقد الشرطة السيطرة على الوضع وسيسقط المهرجان في الفوضى، فيخاف الناس السير في الشوارع، وسيغادر الزوار الأجانب أبكر من المقرر، ويتهم التجار الشرطة بعدم الفاعلية، إضافة إلى عناوين الصحف حول العالم. وفي النهاية، فإن القاتل المتسلسل، في الحياة الحقيقية، هو دائماً أكثر تشويقاً من أي نسخة عنه في فيلم.

لن يبقى المهرجان على حاله في السنوات التي ستلي: ستتجذر أسطورة الخوف، وسيختار عالم الرفاه والبهرجة مكاناً آخر مناسباً أكثر لعرض حاجاته، وسيصبح المهرجان تدريجاً، بعد ست سنوات، حدثاً صغيراً بعيداً جداً عن الأضواء الساطعة والمجلات.

لديه مسؤولية كبيرة، وفي الواقع مسؤوليتان كبيرتان: الأولى هي اكتشاف من يرتكب هذه الجرائم ووقفه قبل أن تسقط جثة أخرى في طريقه، والثانية هي في إبقاء الإعلام تحت السيطرة.

يحتاج إلى التفكير منطقياً. فكم من بين هؤلاء الصحافيين، ومعظمهم جاء من أماكن بعيدة جداً، يمكن أن يعرفوا بإحصاءات الجريمة في «كان»؟ كم منهم سيتكبّد عناء الاتصال بالحرس الوطني والسؤال؟

الجواب المنطقي؟ لا أحد منهم. أذهانهم تركّز على ما قد حدث الآن. أثيروا لأن منتجاً رئيسياً أصيب بنوبة قلبية في واحدة من مآدب غداء المهرجان. لم يعرفوا أنه تسمم: تقرير طبيب التشريح موجود على المقعد الخلفي لسيارته. لم يعرفوا بعدُ - وربما لن يعلموا أبداً - أنه متورط أيضاً في عملية خداع ضخمة لغسل الأموال.

الجواب غير المنطقي هو أنه ثمة من يفكّر دوماً في شكل جانبي. وتوجد بالتالي ضرورة عاجلة للدعوة إلى مؤتمر صحافي وتقديم رواية كاملة، لكن فقط عن مقتل مخرجة الأفلام على الشاطئ؛ وبهذه الطريقة سيتم، موقتاً، نسيان الحادثين الآخرين.

لقد قُتلت شخصية مهمة في عالم صناعة السينما، فمن الذي سيهتم بموت امرأة شابة نكرة؟ توصلوا جميعهم إلى الاستنتاج ذاته الذي توصل إليه لدى بدء التحقيق: لقد ماتت بسبب جرعة زائدة من المخدر. حُلّت المشكلة.

أما مخرجة الأفلام، فلربما ليست بالشخصية المهمة التي يعتقدها، ولو أنها كذلك لكان مفوض الشرطة يطلبه الآن على هاتفه المحمول. والوقائع هي كالتالي: شوهد رجل أنيق الملبس في حوالى الأربعين، ذو شعر أخذ يضرب فيه الشيب، يتحدث معها وهما يشاهدان غروب الشمس، وقد راقبهما شاب صغير مختبئ في الجوار. وهو، بعدما حزّ فيها نصلاً بدقّة الجراح، ابتعد على مهل، ولا بد من أنه اختلط الآن بمئات وآلاف الأناس الآخرين الذين يُحتمل أن أوصافه تنطبق على الكثيرين منهم.

أطفأ صفارة الإنذار للحظة، واتصل بنائبه الذي بقي في مسرح الجريمة، وهو ربما يتعرض الآن للاستجواب على أيدي الصحافيين بدلاً من أن يقوم هو بالاستجواب. وطلب منه إبلاغ الصحافيين، الذين غالباً ما توقعهم استنتاجاتهم المتسرعة في المشاكل، أنه يكاد يكون متأكداً من أنها جريمة عاطفية.

- لا تقل نحن متأكدون، بل قل إن الظروف قد تشير إلى ذلك، نظرا إلى أنهما كانا جالسين متلاصقين كعاشقين. ومن الواضح أنها ليست سرقة أو ثأراً، بل ربما تسوية درامية لحسابات شخصية.

- احذر الكذب، فكلامك يُسجَّل، وقد يُستخدم مَمسَكاً عليك.

- لكن، لماذا أحتاج إلى قول هذا؟

- لأن هذا ما تشير إليه الظروف. وكلما أبكرنا في إعطائهم شيئاً يلوكونه كلما كان أفضل.

- يسألون عن السلاح المستخدم.

- قل لهم إن كل شيء يشير إلى أنه سكين، كما قال الشاهد. لكنه ليس متأكداً.

- إذا كان حتى الشاهد لا يعرف ما الذي رآه، فماذا يمكن أن تقول غير أن «كل شيء يشير إلى... الخ. الخ». أخِف الفتى؛ قل له إن كلامه يُسجل، وقد يُستخدم ضده لاحقاً.

أقفل الخط قبل أن يسأله مرؤوسه المزيد من الأسئلة المحرجة.

كل شيء يشير إلى أنها جريمة حب، برغم أن الضحية وصلت للتو إلى «كان» من الولايات المتحدة، وبرغم أنها تنزل في فندق وحدها، وأنها، مما أمكنهم تسقّطه، حضرت فقط اجتماعاً تافهاً في الصباح في سوق الفيلم على مقربة من قصر المؤتمرات. إلا أن الصحافيين لن يصلوا إلى هذه المعلومات.

بل يوجد أمر أكثر أهمية لا يعرفه أحد غيره في الفريق، لا بل في العالم.

الضحية كانت في المستشفى. وقد تحدّث معها قليلاً، ومن ثم أرسلها من هناك... إلى حتفها.

شغّل صفارة الإنذار من جديد، بحيث يمكن صوتها الذي يصم الآذان، أن يُبعد عنه أي شعور بالذنب. ففي النهاية، ليس هو من طعنها بالسكين.

أمكنه، طبعاً، أن يفكّر: واضح أنها كانت هناك في غرفة الانتظار، لأن لها علاقة ما بمافيا المخدرات، ولتتأكد وحسب من أن الجريمة نجحت. هذا منطقي، ولو أنه أبلغ رئيسه حول لقاء الصدفة هذا، فسيبدأ على الفور بتحقيق في هذا الشأن. وربما يكون ذلك صحيحاً؛ لقد قتلت باستخدام طريقة متطورة جداً، كما حصل مع الموزع الهوليوودي. كلاهما أميركي. كلاهما قُتل بآلة حادة. ويبدو أن كل شيء يشير إلى أن المجموعة ذاتها تقف وراء عمليات القتل، وأنه يوجد رابط حقيقي بينها.

ربما هو مخطئ، ولا يوجد قاتل متسلسل طليق. فلربما أن المرأة الشابة التي وجدت ميتة على المقعد، وقد خنقها على ما يبدو قاتل محترف، قد التقت في الليلة السابقة مع شخص من المجموعة التي جاءت لرؤية موزع الأفلام. وربما أنها ايضاً تروّج المخدرات إلى جانب التحف التي تبيعها.

تخيَّل المشهد: مجموعة من الأجانب تصل إلى تصفية الحسابات. وفي واحدة من حانات «كان» الكثيرة، يقوم الموزع المحلي بتعريفهم إلى الفتاة الجميلة ذات الحاجبين الداكنين، ويقول إنها تعمل معهم. ينتهي الأمر بالذهاب معاً إلى الفراش. لكن الأجنبي الذي يشعر باسترخاء غريب في الأرض الأوروبية، يشرب أكثر مما يلزم من الكحول، والشراب يحل عقدة لسانه فيتفوّه أيضاً بأكثر مما يفترض به قوله. يدرك في صبيحة اليوم التالي خطأه، ويطلب من القاتل المحترف - لدى كل عصابة واحد منهم - تصفية الأمور.

كل شيء يتطابق في شكل تام، بحيث إن عليه أن يكون صحيحاً.

كل شيء متطابق تماماً بحيث إنه لا معنى له على الإطلاق. فلا يعقل وحسب أن كارتيل كوكايين يقرر عقد اجتماع في

مدينة تعج، في خلال المهرجان، بقوة شرطة إضافية، جيء بها من جميع أنحاء البلاد، وبحراس شخصيين، وحراس أمنيين استخدمهم مختلف الاطراف وبتحريين مكلفين، على مدار الساعة، بإبقاء عين يقظة على الجواهر التي لا تُقدَّر بثمن، والتي يتم ارتداؤها في الشارع وغيره.

ولو أن ذلك يصح، فسيكون له كذلك مردود جيد على سيرته المهنية. فتصفية الحسابات بين رجال المافيا يستجلب الدعاية أكثر من القاتل المتسلسل.

في وسعه أن يسترخي؛ فسيحصل أخيراً على السمعة التي طالما شعر بأنه يستحقها مهما هي حقيقة الأمر.

أطفأ صفارة الإنذار. استغرقه الأمر نصف ساعة عبر الطريق السريع وعبر الحاجز غير المرئي الذي يدخل منه بلداً آخر، وبات على مسافة دقائق فقط من مقصده. إلا أن ذهنه آخذ في تقليب ما يشكل نظرياً أفكاراً محزمة.

ثلاث جرائم قتل في يوم واحد. صلواته ترتفع إلى أهالي الضحايا، كما يقول السياسيون دوماً. هو يعرف أن الدولة تدفع له للحفاظ على النظام، وليس للقفز فرحاً كلما تصدّع هذا النظام بطريقة عنيفة. فلا بد من أن المفوض، في هذه اللحظة بالذات، يذرع مكتبه جيئة وذهاباً، مدركاً أن أمامه الآن معضلتين تحتاجان إلى حل: العثور على القاتل (أو القتلة، لأنه قد لا يقبل بنظرية سافوا) والسيطرة على الصحافة. الجميع قلق جداً، تم إنذار مخافر الشرطة الأخرى في المنطقة وأُرسلت صور تقريبية للقاتل عبر الإنترنت إلى سيارات الشرطة في المحيط. وربما تم قطع الاستراحة التي يستحقها

جيداً أحد السياسيين، لأن رئيس الشرطة يعتقد أن المسألة من الدقة بمكان، بحيث إنه شعر بضرورة تمرير المسؤولية إلى شخص أرفع مكانة في سلسلة القيادة.

من غير المرجح أن يبتلع السياسي الطعم، فيبلغ رئيس الشرطة بضرورة ضمان عودة المدينة إلى وضعها الطبيعي في أسرع ما يمكن، لأن الملايين من اليورو أو حتى مئات الملايين من العملة الأوروبية، تعتمد على ذلك. لا يريد أن يتورط. لديه مسائل أكثر أهمية تحتاج إلى حل، مثل نوع النبيذ الذي يجب تقديمه الليلة إلى بعثة أجنبية زائرة.

أأنا على الطريق الصحيح؟ سأل سافوا نفسه.

عادت الأفكار المحزمة. شعر بالفرح. إنها قمة حياة مهنية أمضاها في تعبئة الإضبارات والتعامل مع التوافه. لم يخطر في باله قطُّ أن موقفاً كهذا سيؤدي به إلى هذا النوع من الغبطة: يمكنه أخيراً أن يكون تحرّياً حقيقياً، الرجل صاحب النظرية التي تعاكس كل منطق، والذي سينتهي به الأمر بالحصول على ميدالية لأنه الأول الذي رأى ما لم يستطع أحد غيره رؤيته. لن يعترف بهذا لأحد، ولا حتى لزوجته التي سترتعب وتفترض أنه فقد عقله موقتاً تحت وطأة ضغط العمل في مثل هذه القضية الخطرة.

وفكّر: أنا سعيد، ومتحمّس.

ربما ترتفع صلواته إلى عائلات الموتى، لكن قلبه، بعد سنوات من التوقف، يعود إلى عالم الأحياء.

تخيل سافوا مكتبة كبيرة تمتلىء بالكتب المغبرة، وأكواماً من المجلات، وطاولة مليئة بالأوراق، لكن المكتب مطلي في الواقع باللون الأبيض النقي. ومجهز ببضعة مصابيح حسنة الذوق، وبكرسي مريح بذراعين، وبطاولة زجاجية عليها شاشة حاسوب كبيرة، ولا شيء غيرها سوى لوحة مفاتيح تعمل عن بعد، ودفتر ملاحظات صغير، وقد وُضع عليه قلم باهظ الثمن من نوع «مونتيغرابا».

«امسح هذه الابتسامة عن وجهك، وحاول أن تبدو على الأقل بمظهر المهتم»، قال الرجل صاحب اللحية البيضاء، الذي يرتدي سترة صوفية، برغم الحر، وربطة عنق، وسروالاً مفضلاً على جسمه، وهي بزة لا تتناسب أبداً مع الديكور ولا حتى مع موضوع النقاش.

ماذا تعني يا سيدي؟

أعرف ما تشعر به. هذه أكبر قضية لك في حياتك المهنية، في مدينة لا يحصل فيها في العادة شيء. سبق وعشت مثل هذا الاضطراب الداخلي عندما قطنت وعملت في بينيسي، في سوانسي. ولم يتم نقلي إلى سكوتلانديارد، إلا بفضل قضية مشابهة تماماً.

«حلمي العمل في باريس»، فكّر سافوا، لكنه لم يقل شيئاً، بينما دعاه الرجل إلى الجلوس.

- آمل أن تسنح لك الفرصة أيضاً في تحقيق حلمك المهني. وبالمناسبة، تشرفت بمعرفتك، أنا ستانلي موريس.

قرر سافوا تغيير الموضوع.

يخشى المفوض أن تبدأ الصحافة في التكهن حول وجود قاتل متسلسل طليق.

يمكنهم التكهن قدر ما يريدون، فهنا بلد حر. هنا هو نوع الأمور الذي يهم الصحف ويجعل مبيعاتها خيالية، ويجلب بعض الإثارة إلى الحياة الرتيبة للمتقاعدين الذين سيتابعون كل وسائل الإعلام بحثاً عن أي حكاية عن الموضوع، ويتملكهم مزيج من الخوف واليقين بأن ذلك لن يحصل لهم أبداً.

- آمل أنك تلقيت وصفاً مفصلاً عن الضحايا. هل الدليل المتوفر حتى الآن يوحي لك بوجود قاتل متسلسل، أو أننا نتعامل هنا مع نوع من الانتقام القاتل بين كارتيلات المخدرات؟

- نعم، حصلت على الأوصاف. وبالمناسبة، لقد أرادوا، بحق السماء، أن يرسلوها إليّ بالفاكس. يا للدّقة القديمة! طلبت منهم إرسال المعلومات بالبريد الالكتروني. هل تعرف ماذا قالوا؟ «نحن لا نستخدم ذلك في العادة». تصوّر! واحدة من أفضل قوات الشرطة في العالم تجهيزاً، تعتمد كلياً على آلة الفاكس!".

تزحزح سافوا بشيء من التململ والضجر في كرسيه. فهو ليس هنا لمناقشة التكنولوجيا الحديثة، بما لها وما عليها.

«لندخل في صلب الموضوع»، قال الدكتور موريس الذي كان صاحب سمعة جيدة في سكوتلانديارد، لكنه قرر التقاعد في جنوب فرنسا، وهو ربما على القدر ذاته من السرور الذي ينتاب سافوا للخروج من الروتين. وهو في ما يختص بموريس، روتين يدور حول القراءة، وحفلات الموسيقى والشاي الخيرية، ومآدب العشاء.

وبما أنها المرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذه القضية، فقد يمكنك أن تبلغني هل توافق أم لا مع نظريتي بوجود قاتل واحد وحسب، فقط لأعرف أين أقف.

شرح الدكتور موريس أنه نعم يعتبره، من الناحية النظرية،

محققاً: ثلاث جرائم قتل لها بعض الصفات المشتركة، هي في العادة كافية للإشارة إلى قاتل متسلسل. وينحصر مثل عمليات القتل هذه في العادة في منطقة جغرافية واحدة (وفي هذه الحال مدينة كان) و...

والحال، أن قاتلاً جماعياً...

قاطعه الدكتور موريس، وطلب منه عدم إساءة استخدام التعابير. القتلة الجماعيون هم إرهابيون أو مراهقون غير ناضجين، يذهبون إلى مدرسة ما، أو إلى مطعم وجبات سريعة، ويطلقون النار على كل من يرونه، ومن ثم إما تقتلهم الشرطة وإما ينتحرون. يفضلون استخدام الأسلحة النارية والقنابل التي تُحدث أكبر قدر من الضرر في فترة زمنية قصيرة، هي في العادة دقيقتان أو ثلاث دقائق على أبعد تقدير. لا يبالي مثل هؤلاء الناس بعواقب أعمالهم، لأنهم يعرفون تماماً كيف سينتهي بهم الأمر.

يسهل في اللاوعي الجماعي القبول بمفهوم القاتل الجماعي، لأنه يتضح أنه غير متزن عقلياً، وبالتالي يسهل تمييزه «عنّا». أما القاتل المتسلسل فيمس أموراً أكثر تعقيداً بكثير: الغريزة التدميرية التي نحملها جميعاً في دواخلنا.

توقّف قليلاً.

- هل قرأت رواية «الدكتور جكيل والسيد هايد» لروبرت لويس ستيفنسن؟

شرح سافوا أن لديه من العمل ما لا يعطيه وقتاً للقراءة. أصبحت نظرة موريس جليدية.

- أَوَتعتقد أنه ليس لدي عمل أقوم به؟

- كلا، كلا، لم أعن ذلك. اسمع، يا دكتور موريس، أنا هنا في مهمة طارئة. لست مهتماً بمناقشة التكنولوجيا أو الأدب. أريد أن أعرف وحسب، ما هي الاستنتاجات التي طلعت بها من التقارير.

- آسف، لكنني أخشى في هذه الحال، أننا لن نتمكن من تحاشي الأدب. فالقضية الغريبة لـ «الدكتور جكيل والسيد هايد»، هي قصة شخص طبيعي في الظاهر، هو الدكتور جكيل، اكتشف، وهو يسعى إلى معرفة اندفاعاته العنيفة، طريقة لتحويل نفسه بصورة دورية إلى مخلوق خال تماماً من الأخلاق: السيد هايد. لدينا جميعنا هذه الاندفاعات، أيها المفتش. فالقاتل المتسلسل لا يتهدد وحسب أمننا الحسي، بل صحتنا العقلية أيضاً. لأننا جميعنا، سواء أأحببنا ذلك أم لا، نحمل في دواخلنا قوة تدميرية كبيرة، وقد تساءلنا جميعنا، عند حد ما، كيف سيكون الأمر لو أننا أطلقنا العنان لأكثر المشاعر كبتاً: الرغبة في انتزاع حياة شخص آخر.

- توجد أسباب كثيرة لهذا: إرادة تصحيح العالم، الانتقام من أمر حصل في طفولتنا، التنفيس عن الحقد المكتوم على المجتمع، إلا أن الجميع، بطريقة واعية أو غير واعية، شعر بهذه الرغبة في وقت أو آخر، ولو في فترة الطفولة وحسب.

صمت معبّر آخر.

- اتخيل، بغض النظر عن المهنة التي اخترتها، أنك اختبرت هذا الشعور بلا شك: ربما إزعاج قطة، أو تعذيب حشرة غير مؤذية أبداً.

جاء دور سافوا الآن في توجيه نظرة جليدية إلى موريس، بدون أن يقول شيئاً. لكن موريس فسر صمته بأنه موافقة، وواصل الكلام بالنبرة السهلة والمتفوقة ذاتها:

- لا تتوقع رؤية شخص يبدو عدم الاتزان ظاهراً على وجهه،

وفي شعره المنفوش ومظهره المليء بالحقد. وإذا ما تسنى لك أبدأ الوقت للقراءة - برغم أنني أعرف أنك رجل مشغول - فأنصحك بقراءة كتاب حنة أرندت، «إيخمان في القدس». فهي تحلل فيه محاكمة واحد من أسوأ القتلة المتسلسلين في العالم. ومن الواضح أن إيخمان احتاج إلى المساعدة لتنفيذ المهمة الهائلة الموكلة إليه، وهي: تطهير الجنس البشري. لحظة فقط.

مضى إلى حاسوبه. يعرف أن الرجل الذي معه يريد نتائج، لكن ذلك مستحيل وحسب. عليه أن يثقّفه ويحضّره للأيام الصعبة التي تنتظره.

- ها هو. قامت أرندت بتحليل مفصّل لمحاكمة أدولف إيخمان، المسؤول عن القضاء على ستة ملايين يهودي في ألمانيا النازية. تقول إن نصف دزينة من أطباء النفس المكلفين فحصه، توصلوا جميعهم إلى نتيجة بأنه طبيعي. حياته النفسية وموقفه من الزوجة والاطفال والأم والأب، يقعان ضمن متوسط الحد الاجتماعي المتوقع من رجل مسؤول. وتتابع أرندت:

المشكلة مع إيخمان هي بالتحديد وجود الكثيرين مثله، وأن هؤلاء الكثيرين ليسوا منحرفين ولا ساديين، وأنهم كانوا، ولا يزالون، طبيعيين على نحو مرعب. ومن وجهة نظر مؤسساتنا القانونية ومقاييسنا الأخلاقية للحكم، فإن هذه الطبيعية كانت أكثر إرهاباً من جميع الفظاعات المجموعة معاً.

الآن، يمكنه الشروع في العمل.

لاحظت من التشريح عدم وجود إشارة إلى اعتداء جنسي...

دكتور موريس، لديّ مشكلة تحتاج إلى حل، وأحتاج إلى القيام بذلك في أسرع ما يمكن. أريد أن أعرف هل نحن نتعاطى مع

قاتل متسلسل أم لا. لا يمكن أحداً اغتصاب رجل وسط حفلة غداء أو فتاة في مقعد عام في وضح النهار.

تجاهله موريس كلّياً، كما لو أنه لم يقل شيئاً، وتابع:

- ... وهو ميزة شائعة لدى الكثيرين من القتلة المتسلسلين. فلدى البعض منهم ما يمكنك تسميته الدوافع «الإنسانية»: المرضون الذين يقتلون المرضى المصابين بداء قاتل؛ الأناس الذين يقتلون المتسولين في الشارع، العمال الاجتماعيون الذين يشعرون بالأسى على بعض الحالين على المعاش؛ أو المعوقين، ويصلون إلى نتيجة بأنهم سيصبحون في حال أفضل في العالم الآخر. وقد حدثت حالة مشابهة أخيراً في كاليفورنيا. وثمة أيضاً الأناس الذين يميلون إلى تقويم المجتمع، وفي هذه الحالة تتجه الضحايا إلى أن تكون من المومسات.

- دكتور موريس، لم آت إلى هنا...

هذه المرة رفع موريس صوته بعض الشيء:

- وأنا لم أوجه إليك الدعوة. أفعل هذا بمثابة خدمة. إذا أردت المغادرة، فأرجوك افعل، أما إذا أردت البقاء فأرجوك أن تكف عن مقاطعة حجتي مرة كل دقيقتين. فللقبض على شخص ما علينا أن نفهم طريقة تفكيره.

- أنت تعتقد إذاً، أننا نتعامل مع قاتل متسلسل؟

- لم أنته بعد.

سيطر سافوا على نفسه. وفي النهاية لماذا هو على هذا القدر من العجلة؟ أليس من الممتع أكثر ترك الصحافة تربط ذاتها بالعقد، ويأتي هو من ثم ويقدم إليها الحل؟

- تابع، أرجوك.

حرّك موريس الشاشة ليتمكن سافوا من الرؤية بوضوح أكبر. يوجد نقش على الشاشة الكبيرة، ربما من القرن التاسع عشر.

- هذا أكثر القتلة المتسلسلين شهرة: جاك السفاح. نشط في لندن في النصف الثاني من ١٨٨٨، وهو مسؤول عن مقتل خمس سيدات، أو ربما سبع نساء في أماكن عامة أو شبه عامة. كان يشق بطونهن ويُفرغها من أحشائها. لم يُعثر عليه أبداً. أصبح أسطورة. وثمة أناس لا يزالون، حتى اليوم، يحاولون الكشف عن هويته الحقيقية.

تغيّرت الصورة على الشاشة لتكشف عما يشبه الخارطة الفلكية.

- هذا توقيع قاتل البروج. يُعرف أنه قتل خمسة أزواج في كاليفورنيا في فترة عشرة أشهر، ومعظمهم من الأزواج الذين يتبادلون الغرام، وقد أوقفوا سياراتهم في أماكن منعزلة. اعتاد أن يرسل إلى الشرطة رسائل تحمل رمزه الذي يشبه الصليب الكلتي. لكن، لم يتمكن أحد من اكتشاف هويته.

يعتقد الباحثون أن جاك السفاح وقاتل البروج، شخصان يحاولان إعادة النظام الأخلاقي والحشمة إلى مناطقهما المحددة. لديهما، إذا شئت، مهمة ينفذانها. وخلافاً لما تريدنا الصحافة أن نصدقه من خلال الأسماء الرهيبة التي تخترعها، مثل «خانق بوسطن» وقاتل الأطفال في تولوز، فهؤلاء أناس عاديون يلتقون بجيرانهم في عطلات نهاية الاسبوع، ويكدّون في العمل لكسب معيشتهم. ولم يستفد أي منهم أبداً مالياً من أعماله الجرمية.

أخذ الحديث يثير اهتمام سافوا.

- وهكذا، يمكن أن يكون أي شخص جاء إلى «كان» لحضور مهرجان الأفلام...

- نعم، بعدما اتخذ أولاً القرار المدرك بخلق جو من الرعب لسبب مناف كلّياً للمعقول، مثل «الإطاحة بديكتاتورية الموضة»، أو «وضع حد لإنتاج أفلام تثير العنف». وستطلق عليه الصحافة بعض الألقاب التي تقشعرّ لها الأبدان، وتشرع في البحث عن مختلف الخيوط. وتُنسب إلى القاتل جرائم لا علاقة له بها. سيعقب ذلك ذعر لن ينتهي إلا إذا تم بالصدفة - وأكرر بالصدفة - القبض على القاتل. ينشط هؤلاء القتلة في العادة لفترة قصيرة فقط من الوقت، ومن ثم يختفون كلّياً وقد تركوا بصماتهم في التاريخ. وربما يكتبون يومياتهم التي لن يتم اكتشافها إلا بعد مماتهم، وليس غير ذلك.

توقف سافوا عن النظر إلى ساعته. رن هاتفه، لكنه قرر عدم الإجابة. فالموضوع أكثر تعقيداً بكثير مما اعتقد.

- أنت توافق معي إذاً؟

«نعم»، قال خبير السكوتلانديارد، الرجل الذي أصبح أسطورة لحله خمس قضايا تخلى الجميع عنها.

«لماذا تعتقد أننا نتعامل مع قاتل متسلسل؟»، سأله سافوا.

رأى موريس ما يشبه البريد الالكتروني يومض على حاسوبه، وابتسم. ها إن المفتش أخذ أخيراً يُظهر بعض الاحترام لما عليه أن يقوله.

- بسبب الغياب التام للدافع. فلمعظم هؤلاء المجرمين ما نسميه الـ «توقيع». يختارون نوعاً معيناً من الضحايا، لنقل مثليي الجنس، أو المومسات، أو الشحاذين، أو الأزواج الذين يتبادلون الغرام. وثمة آخرون يُعرفون بالـ «قتلة غير المتناظرين»: يقتلون لأنهم لا يستطيعون

السيطرة على اندفاعهم إلى القتل. وعندما يبلغون حداً يُشبعون معه اندفاعتهم، يتوقفون إلى أن تتملكهم الرغبة التي لا تُحتمل في القتل من جديد. أعتقد أن هذا هو القاتل الذي لدينا هنا.

ثمة نقاط عدة يجب النظر فيها في هذه القضية. فالمجرم محنّك كثيراً. اختار في كل مرة سلاحاً مختلفاً: يديه العاريتين، السم، وخنجراً دقيق النصل. ولا تحركه الأمور المعتادة: الجنس، الكحول، أو نوع من الخلل العقلي الواضح. يعرف علم التشريح الإنساني، وهذا هو، حتى الآن، توقيعه الوحيد. لا بد من أنه خطط مسبقاً للجرائم، لأن السم المستخدم لا يمكن الحصول عليه بسهولة، وبالتالي يمكننا وضعه في خانة القاتل صاحب المهمة، لكنه لا يزال لا يعرف تماماً ما هي طبيعتها. وأنا، مما أعرفه من عملية قتل الفتاة الشابة، وهذا هو الدليل الوحيد الذي في حوزتنا حتى الآن، فإنه استخدم نوعاً من فنون قتال السلاح الأبيض الروسية، يدعى سامبو.

يمكنني المضي قُدُماً والقول إن جزءاً من توقيعه يقضي بالتقرب من ضحيته المختارة، والتودد إليه أو إليها فترة، لكن هذه النظرية لا تتماشى مع عملية القتل المرتكبة وسط حفل غداء على أحد شواطئ «كان». يبدو أن الضحية كانت برفقة اثنين من حراسه الشخصيين، ومن المؤكد انهما لانفعلا لو أن القاتل اقترب في شكل من الأشكال من رب عملها، أضف إلى ذلك أن الأنتربول كان أيضاً يراقب الضحية.

«روسي». فكّر سافوا في استخدام هاتفه ليطلب تفتيشاً عاجلاً في جميع فنادق «كان» عن رجل في حوالى الأربعين، حسن الهندام، ذي شعر أخذ يدب فيه الشيب... وروسي.

«إن واقع استخدامه تقنية قتال روسية بالسلاح الأبيض، لا يعني

أنه نفسه روسي»، قال موريس، قارئاً أفكار سافوا، وهو الشرطي الجيد السابق. «تماماً كما أنه لا يمكننا افتراض أنه هندي أميركي جنوبي لأنه استخدم الكوراري».

- وماذا نفعل إذاً؟

- علينا وحسب أن ننتظره ليرتكب جريمته التالية.

٦:٥٠ ب.ظ.

سندريلا!

لو أن الناس آمنوا أكثر بالقصص الخرافية بدلاً من الاستماع إلى ازواجهم وأهلهم - الذين يعتقدون أن كل شيء مستحيل - لاختبروا ما تختبره هي الآن، وهي تُنقل في واحدة من الليموزينات التي لا تُحصى المتوجهة ببطء لكن بتأكيد، إلى الدرجات والسجادة الحمراء، وهي أكبر منصة عرض في العالم.

النجم إلى جانبها، يبتسم ويرتدي البزة التي لا بدّ منها، والمفضلة بإتقان. يسألها إذا كانت متوترة. بالتأكيد لا: فلا وجود للتوتر، والأعصاب، والقلق، والخوف في الأحلام. كل شيء مثالي، تماماً كما في الأفلام: تعاني البطلة، وتكافح، وتحقق في النهاية كل ما أرادته دائماً.

- لو أن حميد حسين قرر المضي في المشروع، وحقق الفيلم النجاح الذي يأمله، فحضّري نفسك عندها للحظات كهذه.

لو أن حميد حسين قرر المضي في المشروع؟ أليس كل شيء موقعاً عليه ومنتهياً؟

- لكنني وقعت على العقد عندما ذهبت لأخذ ملابسي في غرفة الهدايا.

- اسمعي، انسي ما قلت. لا أريد أن أفسد عليك لحظتك الاستثنائية.

- لا، أرجوك، أكمل.

توقع النجم بالضبط من الفتاة الحمقاء أن تقول ذلك، وشعر بلذة كبيرة في القيام بما طلبته منه.

- سبق أن انخرطت في الكثير من المشاريع التي تبدأ ولا تنتهي أبداً إلى شيء. هذا كله جزء من اللعبة، لكن، كما سبق وقلت، لا تقلقي في شأن ذلك الآن.

- لكن العقد...

- العقود موجودة ليتجادل المحامون في شأنها بينما يكسبون المال. أرجوك، انسي ما قلت. تمتعي باللحظة.

اللحظة تقترب. ويمكن الناس، بسبب السير البطيء، رؤية من في داخل السيارات برغم الزجاج الداكن الذي يفصل الفنانين العاديين عن المختارين. لوّح النجم بيده، طرقت القبضات على النافذة طالبة منه أن يفتحها ولو للحظة، ليعطيهم توقيعه، أو ليأخذوا له صورة.

استمر النجم في التلويح كما لو أنه لم يفهم ما يريدونه، فابتسامة منه كافية لتُغرق العالم بالنور.

يوجد جو من الهستيريا الحقيقية في الخارج. نساء مع كراسيهن العالية المحمولة التي لا بد من أنهن يجلسن عليها ويحبكن منذ الصباح؛ رجال ذوو بطون منفوخة من البيرة، ضجرون حتى الموت، لكنهم مُجبَرون على مرافقة زوجاتهم المتوسطات العمر المتزينات بأحسن لباس لهن كأنهن من سيصعدن الدرجات إلى السجادة الحمراء، أولاد لا فكرة لهم عما يجري، لكن يمكنهم الإحساس بأنه أمر مهم. وخلف الحواجز المعدنية التي تفصلهم عن خط الليموزينات، يقف أناس من جميع الأعمار والألوان، وكلّ منهم يريد أن يصدّق أنه يقف على مسافة مترين فقط من كبار الأساطير، بينما تفصل بينهما في الواقع آلاف الأميال. فليس الحاجز المعدني ونوافذ السيارات هي ما يفصل بينهم وحسب، بل أيضاً الحظ، والفرصة، والموهبة.

الموهبة؟ نعم، هي تريد أن تعتقد أن للموهبة دوراً أيضاً، لكنها تعرف أن الأمر في الحقيقة نتيجة لعبة نرد تدور بين الآلهة التي تختار أناساً معينين، وتضع الآخرين في الجانب الآخر في هوة لا خروج منها، وحيث لا يمكنهم سوى التصفيق، والعبادة، والإدانة عندما ينقلب الدهر على الآلهة.

ادعى النجم أنه يتحدث إليها، لكنه لا يقول في الواقع شيئاً، يكتفي بالنظر إليها وتحريك شفتيه، وهو الممثل الكبير الذي يجيد ذلك. لا يفعل هذا انطلاقاً من الرغبة أو المتعة. أدركت غابرييلا أنه لا يريد أن يبدو مجافياً للمعجبين به في الخارج، لكنه لا يريد في الوقت ذاته أن يُزعج نفسه بالتلويح والابتسام وإطلاق القبلات.

نطق أخيراً: لا بد من أنك تعتقدين أنني شخص صلف ومتهكم، وقلبه من حجر. لكنك، إذا وصلت يوماً إلى حيث

تريدين الوصول، فستفهمين ما أشعر به: ما من مفرّ. النجاح هو إدمان واستعباد في آن. وفي آخر النهار، عندما تستلقين في السرير مع رجل جديد أو امرأة جديدة ما، فستسألين نفسك: أيستحق الأمر ذلك حقيقة؟ لماذا أردت هذا في الأساس؟

توقّف قليلاً.

«تابع»، قالت له.

- لا أدري لماذا أقول لك هذا.

- لأنك تريد حمايتي. لأنك رجل صالح. تابع، أرجوك.

ربما أن غابرييلا ماهرة في أمور عدة، إلا أنها تبقى برغم ذلك امرأة، وتعرف كيف تستخرج كل ما تريده تقريباً من الرجل. والزر الذي يجب الضغط عليه في هذه الحالة، هو الغرور.

«لا أعلم لماذا أردت هذا دوماً»... وقع النجم في الفخ وهو يكشف الآن عن جانبه الأكثر عرضة، بينما المعجبون في الخارج يواصلون التلويح. «كثيراً ما أقف تحت مرذاذ الحمام عندما أعود إلى الفندق بعد يوم مرهق من العمل، وأستمع وحسب إلى صوت الماء يتساقط على جسمي. وتتصارع قوتان متعارضتان في داخلي: الأولى تقول إنه علي أن أشكر ربّي، والثانية تحرّضني على التخلي عن كل شيء ما دامت الفرصة سانحة».

«أشعر، عند تلك اللحظة، بأنني الشخص الأكثر جحوداً في العالم. لدي المعجبون بي، لكن لا يمكنني أن أُضجر نفسي بهم. تتم دعوتي إلى حفلات يحسدني عليها العالم بأسره، وكل ما أريده هو المغادرة فوراً والعودة إلى غرفتي لأجلس بهدوء وأطالع كتاباً جيداً. يقدم إلي رجال ونساء حسنو النية الجوائز، وينظمون المناسبات ويفعلون كل شيء لإسعادي، ولا أشعر بأي شيء سوى

بالإنهاك والإحراج. لأنني لا أعتقد أنني أستحق هذا كله، ولا أشعر بأنني استأهل نجاحي. أتفهمين؟».

لأقل من لحظة، شعرت غابرييلا بالأسف على الرجل الذي إلى جانبها. تخيّلت عدد الحفلات التي عليه أن يحضرها في كل سنة، وكيف أنه يوجد دوماً من يطلب منه صورته أو توقيعه، وثمة شخص يخبره رواية طويلة مملة يدّعي أنه يستمع إليها؛ أو آخر يحاول أن يسوّق لديه مشروعاً جديداً أو يُحرجه بالسؤال الكلاسيكي: هل تتذكّرني؟ وشخص يُخرج هاتفه النقال ويطلب منه أن يقول بضع كلمات لابنه أو زوجته أو شقيقته. وعليه دوماً أن يكون ذلك المحترف المكتمل، السعيد، المنتبه، ذا الحس بالفكاهة، والمهذّب.

- هل تفهمين؟

- نعم، أفهم، لكنني لا أمانع في مواجهة مثل هذه المشاكل في يوم من الأيام، برغم أنني أعرف أن أمامي طريقاً طويلاً قبل الوصول إلى ذلك.

لم يبقَ أمامهما للوصول سوى أربع ليموزينات. يطلب منهما السائق الاستعداد. أنزل النجم مرآة صغيرة من سقف السيارة وسوّى ربطة عنقه؛ وفعلت غابرييلا الأمر ذاته ورتّبت شعرها. أصبح في إمكانها الآن رؤية جزء من السجادة الحمراء، لكن الدرجات لا تزال بعيدة عن متناول النظر. اختفت الهستيريا كما السحر، وبات الحشد مؤلفاً من أناس يحملون بطاقات تعريف حول أعناقهم، يتحدثون مع بعضهم البعض ولا يلاحظون من في السيارات لأنهم تعبوا من رؤية الأمر ذاته يتكرر المرة تلو الأخرى.

لم تبق إلا سيارتان. ظهر بعض الدرجات إلى يسارها. يقوم رجال

يرتدون سترات رسمية وربطات عنق بفتح الأبواب، واستُبدلت الحواجز المعدنية العدائية بحبال من المخمل على أعمدة من البرونز والخشب.

«اللعنة!»، صرخ النجم، ما جعل غابرييلا تقفز.

«اللعنة! انظري من هناك، تخرج للتو من السيارة!».

شاهدت غابرييلا نجمة كبيرة ترتدي أيضا ثوباً من أثواب حميد حسين، وقد وطأت للتو السجادة الحمراء. أدارت النجمة الكبرى ظهرها لقصر المؤتمرات، وعندما تابعت غابرييلا نظرتها رأت المنظر الأكثر عجباً: جداراً بشرياً، يكاد يكون بارتفاع تسع أقدام، مليئاً بومضات من الضوء التي لا حد لها.

«جيّد!»، قال النجم. «إنها تنظر في الاتجاه الخاطئ».

لم يعد مهذباً ولا ساحراً، ونسي همومه الوجودية كلها. ليسوا المصورين المعتمدين. ليسوا مهمّين.

- لماذا قلت «اللعنة»؟

لم يتمكن النجم من إخفاء حنقه. لم تبق أمامهما سوى سيارة واحدة قبل أن يأتي دورهما.

- ألا تمكنك الرؤية؟ من أي كوكب أنت أيتها الطفلة؟ فعندما نطأ السجادة الحمراء، سيصوب جميع المصورين المعتمدين، المتمركزين في منتصف المسافة، آلات تصويرهم علينا!

استدار إلى السائق، وقال:

- تمهّل!

أشار السائق إلى رجل باللباس العادي، يضع أيضاً بطاقة تعريف، ويشير إليهم بالاستمرار في التحرك وعدم عرقلة السير.

تنهّد النجم بقوّة. هذا ليس حقاً يوم سعده. لماذا قال هذه الأشياء كلها لهذه المبتدئة المجرّدة إلى جانبه؟ صحيح أنه تعب من الحياة التي يعيشها، وبرغم ذلك فهو لا يمكنه تصوّر أي شيء غيرها.

«لا تستعجل»، قال. «سنحاول البقاء هنا أطول ما يمكن. لنترك مسافة كبيرة بينها وبيننا».

ويعني بـ «بينها» النجمة الكبيرة.

بدا أن الزوجين في السيارة التي تسبقهما لا يستجلبان الكثير من الانتباه، برغم أنهما بلا شك من المهمّين حيث لا يمكن أحداً أن يبلغ هذه الدرجات ما لم يكن قد تسلّق الكثير من الجبال في الحياة.

بدا أن رفيق غابرييلا أخذ يسترخي بعض الشيء، وبدأ دورها الآن في الشعور بالتوتر، وهي لا تعرف تماماً كيف عليها أن تتصرف. أخذت يداها في التعزق. أمسكت بحقيبة اليد المحشوة بالورق، وأخذت نَفَساً عميقاً، وتلت صلاة.

«سيري على مهل»، قال النجم، «ولا تقفي قريبة جداً مني».

اصطفت سيارتهما الليموزين في محاذاة الدرجات. تم فُتح البابان من الخارج.

بدا، فجأة، أن هديراً هائلاً يملأ الكون، وصيحات تأتي من جميع الاتجاهات. لم تدرك حتى الآن أنها كانت في سيارة عازلة للصوت ولا يمكنها سماع شيء. خرج النجم مبتسماً، كما لو أن فورة غضبه منذ دقيقتين لم تحصل أبداً، وكما لو أنه لا يزال محور الكون، برغم ما اعترف به لها في السيارة، وبدا حقيقيا. إنه رجل في نزاع مع نفسه، بين عالمه وماضيه، ولم يعد يستطيع الآن العودة إلى الوراء.

«ما الذي أفكّر فيه؟»، قالت غابرييلا في نفسها. «عليّ أن أركّز على اللحظة، على صعود الدرجات!».

لوّح كلاهما للمصوّرين غير المهمّين وأمضيا بعض الوقت هناك. مد إليه الناس قصاصات من الورق، وقّع عليها وشكر المعجبين به. وغابرييلا ليست متأكدة هل يجب أن تبقى إلى جانبه، أم تواصل الصعود إلى السجادة الحمراء لتصل إلى مدخل قصر المؤتمرات. وأنقذتها، لحسن الحظ، فتاة تحمل قلماً وورقة طلبت منها توقيعها.

كم تمنت لو أنه يتم بث هذه المراسم بثاً حياً إلى العالم كله. وتمكن والدتها رؤيتها تصل بهذا الثوب الباهر يرافقها ممثل مشهور حقيقة (أخذت تراودها الشكوك في شأنه. لكن لا، عليها إبعاد مثل هذه الأفكار السلبية)، وتشاهدها تعطي أهم توقيع لها في سنواتها الخمس والعشرين في الحياة! لم تستطع فهم اسم المرأة، فتبسمت وكتبت أمراً يشبه «مع محبتي».

جاء النجم صوبها.

«هيا، الطريق أمامنا مفتوح الآن».

قرأت المرأة التي وجهت إليها غابرييلا للتو رسالة، ونية ما كتبت، وقالت بغضب:

لا أريد توقيعك! أردت اسمك وحسب كي أعرف عنك في الصورة.

ادعت غابرييلا أنها لم تسمع؛ لا يمكن أي شيء في العالم أن يدمّر هذه اللحظة السحرية.

شرعا في صعود الدرجات، بينما رجال الشرطة يشكلون نوعاً من الطوق الأمني، برغم أن الحشد أصبح بعيداً الآن. وإلى جانبي

واجهة المبنى تُظهر شاشات بلازما عملاقة للفنانين المساكين في الخارج، ما يحصل في الحرم الموجود في العراء. وأمكن من بعيد سماع الصيحات الهستيرية والتصفيق. وبوصولهما إلى درجة أكثر اتساعاً، كما لو أنهما بلغا الطابق الأول، لاحظت حشداً آخر من المصورين، لكنهم هذه المرة يرتدون ثياباً لائقة وينادون النجم باسمه طالبين منه الاستدارة إلى هذه الناحية، لا إلى تلك، «وصورة أخرى بعد»، من فضلك، اقترب أكثر، انظر إلى فوق، انظر إلى تحت»! مر بهما أناس آخرون وواصلوا صعودهم الدرجات، لكن المصورين لم يهتموا بهم. لم يفقد النجم أياً من رونقه، بدا كما لو أنه لا يهتم. ويطلق النكات ليُظهر كم أنه مسترخ وعلى راحته برغم هذا كله.

لاحظت غابرييلا أن المصورين مهتمون بها أيضاً، إلا أنهم، طبعاً، لا يصرخون باسمها (ليست لديهم فكرة عمّن هي)، متصوّرين أنها خليلته الجديدة. طلبوا منهما الوقوف معاً، بحيث يمكنهم التقاط صورة لهما معاً. تكرّم عليهم النجم لبضع ثوان، لكنه أبقى على مسافة حذرة لتفادي أي اتصال جسدي.

نعم، لقد تمكنا بنجاح من تفادي النجمة الكبرى التي وصلت الآن إلى باب قصر المؤتمرات، حيث يستقبلها رئيس مهرجان الأفلام وعمدة «كان».

أشار إليها النجم بالاستمرار في صعود الدرجات، وانصاعت.

تطلّعت أمامها. رأت شاشة عملاقة أخرى تحتل مكاناً استراتيجياً، بحيث يمكن الناس أن يروا أنفسهم. وأذاع مكبّر للصوت:

والآن لدينا...

وأعطى الصوت اسم النجم وسمّى أشهر أفلامه. وقال لها شخص ما لاحقاً إن جميع من في الغرفة يشاهدون الأمر ذاته المعروض على شاشة البلازما في الخارج.

صعدا ما بقي من الدرجات، وبلغا الباب. حييا رئيس المهرجان والعمدة، ودخلا. استغرق الأمر كلّه أقل من ثلاث دقائق.

ها إن الناس يحيطون بالنجم، يريدون التحدث معه، والإطراء عليه والتقاط الصور (نعم، المختارون يلتقطون صوراً لأنفسهم مع المشاهير). الحرارة خانقة في الداخل، وأخذت غابرييلا تقلق من أن تبرّجها قد يفسد...

تبرجها!

لقد نسيت تماماً. كان يفترض بها سلوك الباب إلى اليسار حيث ينتظرها شخص ما في الخارج. نزلت تلقائياً بعض الدرجات ومرت باثنين من الحراس الأمنيين. سألها أحدهما إذا كانت خارجة لتدخين سيجارة وتنوي العودة من أجل الفيلم. فأجابت بالنفي، وتابعت سيرها.

عبرت سلسلة أخرى من الحواجز المعدنية، لم يسألها أحد شيئاً لأنها تغادر ولا تحاول الدخول. أمكنتها رؤية ظهر الحشود التي لا تزال تلوّح وتصرخ لليموزينات المستمرة في الوصول. اقترب منها رجل، سألها عن اسمهما، وطلب منها اللحاق به.

«أيمكنكَ الانتظار دقيقة وحسب؟».

بدا الرجل مندهشاً، لكنه أومأ برأسه موافقاً. سمّرت غابرييلا عينيها على أرجوحة دائرية بدا أنها موجودة في المكان منذ بداية القرن الماضي، وهي لا تزال تدور والأطفال الذين يمتطونها يعلون ويهبطون.

«أيمكننا الذهاب الآن؟»، سألها الرجل بتهذيب.

- دقيقة واحدة أخرى بعد.

- سنتأخر.

لم تعد غابرييلا تتمكن من الإمساك بدموعها، وبالتوتر والخوف والرعب التي عاشتها في الدقائق الثلاث التي انتهت للتو. اختلجت بالبكاء، غير حافلة بتبرّجها الذي سيُصلحه لها أحد ما على أي حال. مدَّ إليها الرجل ذراعه لتتكئ عليها حتى لا تتعثر بكعبيها العاليين، وشرعا في السير عبر الساحة صوب جادة لاكروازيت. أُخذ ضجيج الجمهور يصبح أكثر بعداً، وشهقات بكائها أكثر ارتفاعاً. إنها تسكب كل دموع اليوم، والأسبوع، والأعوام التي أمضتها، وهي تحلم بتلك اللحظة التي انتهت حتى قبل أن تستوعب ما قد حصل.

«آسفة»، قالت للرجل الذي يواكبها.

ربت على شعرها. وكشفت ابتسامته عن العاطفة والتفهّم والشفقة.

٧:٣١ ب.ظ.

فهم أخيرا أنه لا يمكن البحث عن السعادة بأي ثمن. أعطته الحياة كل في وسعها أن تعطيه، وأخذ يدرك فعلاً كم أنها كانت دوماً سخيّة معه. وهو منذ الآن، حتى آخر أيامه، سيكرّس نفسه لنبش الكنوز المخبأة في معاناته، ويستمتع بكل لحظة سعادة كما لو أنها آخر لحظة له.

لقد تغلّب على التجربة. تحميه روح الفتاة التي تفهم مهمته تماماً، وشرعت الآن في فتح عينيه على السبب الحقيقي لرحلته إلى «كان».

فلبضع لحظات، في مطعم البيتزا ذاك وهو يتذكّر ما قد سمعه على أشرطة التسجيل تلك، اتهمته التجربة بأنه غير متزن ذهنياً، ويؤمن بأن كل شيء مسموح باسم الحب. أصبح أكثر أوقاته صعوبة وراءه الآن، والحمد لله.

هو إنسان سويّ يتطلب، عمله الانضباط، والروتين، والمهارة في التفاوض، والتخطيط. يقول الكثيرون من أصدقائه إنه أخذ يصبح

أكثر توحّداً. ما لا يعرفونه هو أنه لطالما كان متوحّداً. فالذهاب إلى الحفلات، والأعراس والعمادات، والادعاء بالاستمتاع بلعب الغولف أيام الآحاد، ليسا إلا جزءاً من استراتيجيته المهنية. فهو لطالما مقت الدوامة الاجتماعية، حيث يُخفي الناس وراء ابتساماتهم الحزن الحقيقي لنفوسهم. لم يستغرقه الأمر طويلاً ليرى أن للطبقة الأرفع تبعية لنجاحها تماثل تبعية المدمن لمخدراته، ولا تقارب في سعادتها ولو قليلاً سعادة أولئك الذين لا يريدون أكثر من منزل، وحديقة، وطفل يلعب، وطبق طعام على المائدة، ونار للشتاء. هل هؤلاء الآخرون مدركون محدودياتهم، وهل يعرفون أن الحياة قصيرة، ويتساءلون عن القصد من المتابعة؟

تحاول الطبقة الأرفع تسويق قيمها. يشتكي الأناس العاديون من الظلم الإلهي، ويحسدون السلطة، وتؤلمهم رؤية الآخرين يستمتعون. لا يفهمون أنه ما من أحد يستمتع، وأن الجميع قلق ولا يشعر بالأمان، وأن ما تخفيه الجواهر والسيارت والمحفظات الملأى بالمال، ليس إلا عقد نقص هائلة.

إيغور رجل أذواق بسيطة. وقد اشتكت إيوا دائماً بالفعل من طريقته في ارتداء ثيابه. لكن، ما القصد من شراء قميص غال على نحو سخيف ما دام أنه ما من أحد سيتمكن من رؤية علامتها على أي حال؟ ما النفع من ارتياد مطاعم على الموضة إذا لم يصدر أي قول مثير للاهتمام فيها؟ اعتادت إيوا القول إنه لا يتحدّث كثيراً في الحفلات وغيرها من المناسبات التي لها علاقة بالعمل. حاول تغيير سلوكه، وأن يصبح أكثر أنساً، إلا أن أياً من ذلك لم يثر اهتمامه فعلاً. كان يتطلع إلى الناس من حوله وهم يتحدّثون ويتحدّثون، يقارنون بين أسعار الأسهم، يتفاخرون بيخوتهم الجديدة الرائعة، وينخرطون في خطابات طويلة حول اللوحات التعبيرية

(وهم لا يفعلون سوى تكرار ما قاله لهم الدليل السياحي في زيارة لأحد متاحف باريس)، ويعلنون بجرأة ان كاتباً ما هو أفضل بكثير من كاتب آخر (مستندين كلّياً إلى المراجعات التي قرأوها، لأنه من الطبيعي أنه ليس لديهم أبداً الوقت لقراءة الروايات).

إنهم مثقفون جداً، وأغنياء للغاية، وساحرون إلى أقصى حد. وهم، في نهاية كل يوم، يسألون أنفسهم: هل حان الوقت لأتوقّف؟ ويجيبون كلّهم: لو فعلت، فلن يبقى من معنى لحياتي.

كما لو أنهم يعرفون فعلاً ما هو معنى الحياة.

خسرت التجربة المعركة. أرادته أن يعتقد أنه مجنون: فالتخطيط للتضحية ببعض الناس أمر، وحيازة القدرة والشجاعة على التنفيذ أمر آخر تماماً. تقول التجربة إننا نحلم جميعاً بارتكاب جرائم، إلا أن غير المتزنين فقط يحوّلون هذه الفكرة المروعة إلى واقع.

إيغور متزن جداً وناجح. لو أراد لأمكنه استخدام قاتل مأجور، الأفضل في العالم، لتنفيذ مهمته وإرسال الرسائل المطلوبة إلى إيوا... أو لأمكنه استخدام أفضل وكالة علاقات عامة في العالم، فيصبح، مع انتهاء العام، ليس حديث المجلات الاقتصادية وحسب، بل أيضاً الشغل الشاغل للمجلات التي لا تهتم إلا بالنجاح والرونق. وعند هذا الحد ستزن زوجته السابقة عواقب قرارها الخاطئ، وهو سيعرف متى يأتي الوقت المناسب تماماً ليرسل إليها الزهور، ويسألها العودة، ويصفح عن كل شيء. لديه اتصالات بجميع مستويات المجتمع، من رجال الأعمال الذين بلغوا القمة من خلال العمل الدؤوب والشاق، إلى

المجرمين الذين لم تسنح لهم أبداً فرصة إظهار جانبهم الأكثر إيجابية.

إنه ليس في «كان» لأنه يأخذ لذّة مَرَضيّة في رؤية النظرة في عيني الشخص، وهو، أو وهي، يواجه المحتوم. قرر أن يضع نفسه على خط النار، في الوضع الخطير الذي يجد نفسه فيه الآن، لأنه متأكد من أن كل خطوة يأخذها في هذا اليوم الذي يبدو أنه لا ينتهي حيوية في إثبات هل الإيغور المتجذّد الموجود في داخله سيولد من جديد من رماد هذه المأساة.

أمكنه دوماً اتخاذ القرارات الصعبة وتحقيق الأمور، برغم أنه ما من أحد - ولا حتى إيوا - عرف ابداً ما يحصل في أروقة نفسه المظلمة. تحمّل بصمت، على مدى سنوات طويلة، التهديدات التي وجهها أفراد مختلفون ومجموعات، وقام بردّ فعل متكتم عندما شعر بأنه يملك ما يكفي من القوة للتخلص من الأشخاص الذين يهددونه. تعلّم ممارسة أقصى حد من السيطرة على الذات حتى لا يخرج متأثراً بالاختبارات السيئة. لم يأخذ أبداً مخاوفه إلى البيت معه، لشعوره بأن إيوا تستحق حياة هادئة، وبأن عليها البقاء في جهلها الأهوال التي تُطْبق على أي رجل أعمال. اختار إنقاذها من ذلك، بيد أنه لم يحصل على شيء في المقابل، ولا حتى على التفهم.

بهذه الفكرة سكَنت روح الفتاة جأشه، ثم أضافت أمراً لم يخطر في باله حتى حينها: هو ليس هنا لاستعادة الإنسانة التي هجرته، بل ليرى، في النهاية، أنها لا تستأهل سنوات الألم تلك كلها، ولا جميع أشهر التخطيط، وهذه القدرة الهائلة على الغفران والسخاء والصبر.

لقد أرسل حتى الآن رسالة، رسالتين، ثلاث رسائل، ولم تُبدِ أيوا أي رد فعل. من السهل عليها كفاية معرفة مكان نزوله، برغم

أنه، لا ينكر، أن الاتصال هاتفياً بالفنادق الرئيسية الخمس أو الست نجوم، لن يُجدي لأنه أعطى، عندما تسجل، اسماً ووظيفة مختلفين. وبرغم ذلك، فمن تقرر أن تبحث تجد.

قرأ الإحصاءات. عدد سكان «كان» ٧٠ ألف نسمة فقط، إلا أن هذا العدد يتضاعف ثلاث مرات في خلال مهرجان الأفلام، كما أن المواظبين عليه يقصدون جميعهم الأماكن ذاتها. فأين تنزل؟ نظراً إلى أنه شاهدهما في الليلة السابقة معاً، فهي على الارجح تنزل في الفندق ذاته، وتقصد الحانة عينها. وبرغم ذلك، فإن إيوا لا تتجول في جادة لاكروازيت بحثاً عنه. وهي لا تتصل هاتفياً بأصدقاء مشتركين في محاولة لمعرفة مكانه. وثمة واحد على الأقل من هؤلاء الأصدقاء يملك المعلومات كلها، لأن إيغور افترض أن المرأة التي اعتقد أنها حب حياته ستتصل بذلك الصديق ما إن تدرك أن زوجها موجود في «كان». ولدى الصديق تعليمات بإبلاغها أين يمكنها أن تجده... وبرغم ذلك ما من خبر حتى الآن.

خلع ثيابه ودخل تحت المرذاذ. إيوا لا تستأهل هذه الجلبة كلها. وهو شبه متأكد من أنه سيراها الليلة، برغم أن هذا أخذ يصبح أقل فأقل أهمية مع كل لحظة تمر. ربما أن مهمته تتعلق بأمر أكثر أهمية بكثير من مجرد استعادة حب المرأة التي خانته، وتتحدث عنه بالسوء أمام أشخاص آخرين. ذكّرته روح الفتاة ذات الحاجبين الداكنين، برواية أخبرها أفغاني عجوز في استراحة خلال المعركة:

«بعد قرون من الاضطرابات وسوء الحكم، اصاب اليأس سكان مدينة تقع على ارتفاع كبير في جبال منطقة هيرات الأفغانية

الصحراوية. لا يمكنهم القضاء على النظام الملكي، ولا يقدرون كذلك على تحمّل المزيد من أجيال الملوك الصلفين الأنانيين، فقرروا أن يدعوا اللويا جيرغا، كما يسمى مجلس الحكماء محليّاً، إلى الاجتماع.

قرر اللويا جيرغا أن عليهم انتخاب ملك مرّة كل أربع سنوات، وعلى هذا الملك أن يتمتع بسلطة مطلقة. وتمكنه زيادة الضرائب، والمطالبة بالطاعة التامة، وأن يختار في كل ليلة امرأة مختلفة يأخذها إلى سريره، وأن يأكل ويشرب شبعه. يمكنه ارتداء أفضل الثياب، وركوب أفضل الخيل. باختصار، فإن أي أمر يصدره، مهما يكن منافياً للمعقول، سيطاع، ولن يشكك أحد في منطقيته وعدالته.

إلا أنه، في نهاية فترة السنوات الأربع، سيُجبَر على التخلي عن العرش ومغادرة المدينة مصطحباً معه عائلته والثياب التي على ظهره فقط. عرف الجميع أن ذلك يعني الموت المحتم في غضون ثلاثة أو أربعة أيام، لأنه لا يوجد ما يأكله أو يشربه في تلك الصحراء الواسعة التي تتجمد شتاءً، وتصبح كانون النار صيفاً.

افترض حكماء اللويا جيرغا أنه ما من أحد سيخاطر في السعي إلى منصب الملك، وسيتمكنون من العودة إلى نظام الانتخابات الديموقراطية القديم. تم الإعلان عن قرارهم، وبات منصب الملك شاغراً. تقدّم في البداية اشخاص عدة. قبل رجل طاعن في السن مصاب بالسرطان التحدي، ومات في خلال فترة حكمه والابتسامة تعلو وجهه. وخلفه رجل مجنون، لكنه رحل بعد أربعة أشهر (أساء فهم الشروط)، واختفى في الصحراء. وأخذت الشائعات تسري بأن العرش مصاب باللعنة، ولم يجرؤ حينها أحد على التقدّم بطلب للموقع. تُركت المدينة بدون حاكم، وساد الارتباك، وأدرك السكان أن عليهم ضرب الصفح عن تقليد النظام الملكي برمته، والاستعداد لتغيير وسائلهم. شعر اللويا جيرغا بالسرور لأن أعضاءه قد أخذوا مثل هذا القرار الحكيم. لم يجبروا الناس على الاختيار، بل تخلصوا وحسب من

أولئك الذين يريدون السلطة بأي ثمن. ثم إن شاباً متزوجاً وله ثلاثة أولاد تقدّم.

«أقبل بالمنصب»، قال.

حاول الحكماء أن يشرحوا له المخاطر. ذكّروه بأن لديه عائلة، وشرحوا له أن قرارهم ليس إلا مجرد وسيلة لتبريد همّة المغامرين والطغاة. لكن الشاب تشبث بموقفه، وبما أنه يستحيل على اللويا جيرغا العودة عن قرارهم، لم يبق أمامهم من خيار إلا الانتظار لأربع سنوات أخرى قبل تطبيق ما قرروه من عودة إلى الانتخاب.

أثبت الشاب وأفراد عائلته أنهم حاكمون ممتازون. حكموا بعدل، وأعادوا توزيع الثروة، وخفضوا أسعار المواد الغذائية، ونظموا المهرجانات الشعبية للاحتفال بتغير الفصول، وشجعوا الصناعات الحرفية والموسيقى. غير أنه، في كل ليلة، أخذت قوافل كبرى من الأحصنة تغادر المدينة، تجر عربات ثقيلة مغطاة بقماش الجوت، بحيث لا يمكن أحداً رؤية ما في داخلها. وكانت هذه العربات لا تعود أبداً.

ظن حكماء اللويا جيرغا في البداية أنه لا بد من أن الملك يخرج الكنوز من المدينة، لكنهم عزّوا أنفسهم بواقع أن الشاب نادراً ما غامر بالخروج إلى ما وراء أسوار المدينة، ولو أنه حاول تسلّق أقرب جبل لأدرك أن الجياد ستموت قبل أن تذهب بعيداً جداً. فهنا، في النهاية، واحد من الأماكن الأكثر نبواً بالإنسان في العالم. قرروا أنهم، ما إن تنتهي فترة حكمه، حتى يتوجهوا إلى المكان الذي نفقت فيه الجياد من الإنهاك ومات راكبوها من العطش، ويستعيدوا الكنز كله.

توقّفوا عن القلق، وانتظروا بصبر.

وعند نهاية السنوات الأربع، غادر الشاب العرش والمدينة. ضج الناس، فلقد مر عليهم وقت طويل ولم يحظوا فيه بمثل هذا الحاكم الحكيم والعادل!

إلا أنه يجب احترام قرار اللويا جيرغا. ذهب الرجل إلى زوجته وأولاده وطلب منهم الرحيل معه.

«سأفعل»، قالت الزوجة، «لكن، على الأقل، دع أولادنا يبقوا. فسيظلّون عندها أحياء ليرووا قصتنا».

قال: ثقي بي.

القوانين القبلية متشددة جداً وليس أمام الزوجة من خيار سوى طاعة زوجها. امتطوا جيادهم وتوجهوا إلى بوابة المدينة، حيث ودعوا الأصدقاء الذين اكتسبوهم في خلال حكمهم المدينة. سرّ اللويا جيرغا. قد يكونون حصلوا على الكثيرين من الحلفاء، لكن القدر هو القدر. ما من أحد آخر سيخاطر بالقبول بمنصب الحاكم، وستستعاد أخيراً التقاليد الديموقراطية. وهم، ما إن يمكنهم ذلك، سيستعيدون الكنز المتروك في الصحراء على مسافة أقل من ثلاثة أيام من هنا.

جالت العائلة على ظهر الخيل في وادي الموت بصمت. لم يفهم الأولاد ما يحصل، وغرق الشاب في التفكير. تسلقوا إحدى التلال، وسافروا طوال يوم كامل عبر سهل فسيح، وناموا على قمة التلة الثانية.

أفاقت المرأة عند الفجر، وهي تريد الإفادة إلى أقصى حد من أيام حياتها الأخيرة على الجبال التي أحبتها كثيراً. مضت إلى أقصى أعلى القمة وتطلعت نزولاً إلى ما يفترض به أن يكون سهلاً فارغاً، وقد راعها ما رأته.

ففي خلال السنوات الأربع تلك، لم تكن القوافل التي تغادر المدينة في كل ليلة تحمل الجواهر والنقود الذهبية، بل إنها نقلت الآجر، والحبوب، والخشب، وقرميد الأسطح، والتوابل، والحيوانات، والأدوات التقليدية التي يمكن استخدامها لحفر الأرض والعثور على الماء.

وأمامها، انتشرت مدينة أكثر حداثة وأشد جمالاً من القديمة، وكل شيء فيها يعمل على ما يرام.

،هذه مملكتك، قال الشاب الذي أفاق للتو وانضم إليها. ،علمتُ منذ أن سمعت بالقرار، بأنه لا فائدة في أربع سنوات في محاولة تغيير كل ما خربته قرون من الفساد وسوء الحكم. إلا أنني تأكدتُ من أمر واحد، وهو أنه يمكن البدء من جديد،.

إيغور أيضاً يبدأ من جديد، وهو يقف تحت مرذاذ الماء وتتساقط قطراتها على وجهه. أدرك أخيراً أن الإنسانة الأولى التي تحدّث إليها في ،كان، هي الآن إلى جانبه، ترسله في مسلك مختلف، وتساعده على القيام بالتعديلات، وتشرح له أن تضحيتها ليست حدثاً عَرَضياً أو غير ضروري. وأوضحت له، من جهة أخرى، أن إيوا كانت دائماً منحرفة طبيعياً وغير مهتمة إلا بتسلّق السلّم الاجتماعي، حتى ولو عنى ذلك أن تتخلى عن عائلتها.

قالت الفتاة: حاول، عندما تعود إلى موسكو، القيام بالكثير من الرياضة. سيساعدك ذلك على التحرر من التوتر.

يمكنه تخيّل وجهها من خلال بخار الماء. لم يشعر في ما سبق بأنه على هذا القرب من شخص ما مثلما هو الآن مع أوليفيا، الفتاة ذات الحاجبين الداكنين.

،استمر، حتى لو أنك غير متأكد الآن مما تقوم به. فالله يعمل بوسائل غامضة، وأحياناً لا يُظهر المسلك ذاته لك إلا عندما تبدأ بالسير فيه،.

،شكرا لك، يا أوليفيا،، فكّر. ربما هو موجود هنا ليظهر للعالم شذوذ الحياة المعاصرة التي تشكّل ،كان، التعبير الأقصى عنها.

ليس متأكداً، لكن مهما تكن الحال، فإنه موجود هنا لسبب،

وقد وجد العامان الأخيران من التوتر، والتخطيط، والخوف، وعدم اليقين، مبرزاً لهما أخيراً.

أمكنه تخيُّل شكل المهرجان المقبل: سيتم إصدار بطاقات الكترونية يستخدمها الناس حتى للدخول إلى حفلات الغداء على الشاطئ، وسيحتل القناصة مراكز لهم على الأسطح، وسيختلط مئات من رجال الشرطة بالثياب المدنية بالحشود، وستوجد كاشفات المعادن على باب كل فندق، حيث سيضطر أبناء الطبقة الأرفع إلى الانتظار، بينما الشرطة تفتش حقائبهم، وستضطر النساء إلى خلع كعوبهن العالية ويستدعى الرجال لأن النقود المعدنية التي في جيوبهم أطلقت الإنذار، وسيكون على رجال ضرب الشيب رؤوسهم، أن يرفعوا أيديهم بينما يتم تفتيشهم كما يُفتَّش عامة المجرمين، وسيتم اقتياد النساء إلى ما يشبه خيمة الخيش عند المدخل - التي تتعارض في شكل رهيب مع أناقة المكان السابقة - حيث سينتظرن بصبر في الصف ليتم تفتيشهن، إلى ان تكتشف الشرطية أن الذي أطلق الإنذار هو السلك المعدني في الصدرية.

ستبدأ المدينة في إظهار وجهها الحقيقي. ويستبدل الرفاه والرونق بالتوتر، والشتائم، والوقت المهدور، وبنظرة الشرطة الباردة غير المبالية. سيشعر الناس أكثر فأكثر بالعزلة، وهذه المرة من جانب النظام ذاته، بدلاً من الصلف الأبدي لقلّة من المختارين. وستُرسَل وحدات من الجيش إلى هذه المدينة الشاطئية بهدف واحد هو حماية الناس الذين يحاولون اللهو، وبالطبع فإن الكلفة الباهظة لهذا ستقع على عاتق دافعي الضرائب.

سيتظاهر العمّال الشرفاء احتجاجاً على ما يعتبرونه سخفاً،

وتصدر الحكومة بياناً يفيد أنها تبحث في تحويل التكاليف إلى منظمي المهرجان. يفقد الرعاة - الذين يمكنهم بسهولة تحمل النفقات - الاهتمام عندما يتعرض أحد أعضائهم للمهانة على يد ضابط صغير تافه يطلب منه أن يصمت ويحترم أنظمة الأمن.

ستبدأ «كان» في الموت. وسيرون أن كل ما فعلوه، على مدى سنتين، للحفاظ على النظام والقانون، قد أعطى نتائجه فعلاً في غياب أي جريمة إبان فترة المهرجان. فشل الإرهابيون في محاولتهم زرع المزيد من الرعب.

سيحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، لكنهم سيفشلون. ستستمر «كان» في الموت. بابل الجديدة هذه ستتعرض للدمار، وستمحى سادوم أيامنا هذه عن الخريطة.

خرج من الحمام وقد اتخذ قراراً. سيطلب من موظفيه، عند عودته إلى روسيا، معرفة اسم عائلة الفتاة. سيقدّم تبرعات مجهولة عبر مصارف حيادية. وسيطلب من مؤلف موهوب ما، كتابة قصة حياتها، ويدفع لقاء ترجمتها إلى لغات مختلفة.

قصة شابة تبيع الحرفيات، وتتعرض للضرب على يد خليلها، وللاستغلال من قبل أهلها، إلى أن جاء يوم سلّمت فيه روحها إلى غريب ما، وغيّرت بالتالي زاوية صغيرة من كوكب الأرض.

فتح خزانة الثياب، وأخرج قميصاً أبيض نقياً، وسترته الرسمية المكوية بحرص، وحذاءه الجلدي ذا الماركة، المصنوع باليد. ولم يواجه مشكلة في عقد ربطة العنق لأنه يفعل ذلك مرّة في الأسبوع على الأقل.

أشعل جهاز التلفاز في وقت نشرة الأخبار المحلية. احتل استعراض النجوم على السجادة الحمراء معظم البرنامج، إلا أنه تضمن أيضاً تقريراً موجزاً عن امرأة وُجدت مقتولة على الشاطئ.

ضربت الشرطة نطاقاً حول المكان. يقول الفتى الذي شهد الجريمة (درس إيغور وجهه، لكنه لم يشعر بالرغبة في الانتقام) إنه شاهد الزوجين يجلسان للتحدث، ثم أخرج الرجل سكيناً رفيعة صغيرة وبدا أنه يمررها برفق على جسم المرأة. بدت المرأة سعيدة جداً، ولهذا لم يتصل بالشرطة في وقت أبكر لأنه اعتقد أنها مزحة ما.

كيف بدا عليه الرجل؟

أبيض، في حوالى الأربعين، يرتدي هذه الملابس وتلك، ومهذب جداً على ما يبدو.

ما من داع للقلق. فتح إيغور حقيبة يده الجلدية وأخرج منها مغلّفين. يحتوي أحدهما على دعوة إلى الحفلة التي يُفترض أن تبدأ في غضون ساعة (برغم أن الجميع يعرف أن الافتتاح سيتأخر تسعين دقيقة)، وحيث يعلم بأنه سيلتقي بإيوا وإذا لم تأت إليه، فسيشكّل ذلك مدعاة للأسف. استغرقه الأمر أقل من ٢٤ ساعة ليرى نوعية المرأة التي تزوج بها، وأن عذابات العامين الماضيين راحت سُدىً.

المغلّف الآخر فضي، ومقفل بإحكام. كُتبت عليه كلمتان: «من أجلك»، بخط جميل يمكنه ان يكون خط رجل أو امرأة.

توجد كاميرات مراقبة داخلية في الماشي، كما في معظم فنادق أيامنا هذه. وثمة في جزء من الطابق السفلي غرفة معتمة فيها شاشات تلفزة تجلس قبالتها مجموعة من الناس يراقبون.

يبحثون عن أمر غير اعتيادي، مثل الرجل الذي بقي يصعد الدرج وينزله، والذي شرح للضابط الذي أُرسل للتحقق من أنه يستمتع وحسب ببعض التمارين المجانية. وبما أن الرجل نزيل في الفندق، فقد اعتذر منه الضابط وغادر.

لا يهتمون بالنزلاء الذين يدخلون غرفة نزيل آخر ولا يغادرون إلا في اليوم التالي، عادة بعد تقديم الفطور. فهذا طبيعي وليس لهم أن يتدخلوا فيه.

ترتبط الشاشات بأنظمة تسجيل رقمية خاصة، ويتم تخزين الأسطوانات المسجلة لمدة ستة أشهر في خزانة يحمل المدير مفتاحها. فلا يريد أي فندق خسارة زبون لأن زوجاً غنياً، غيوراً ما، تمكن من رشوة أناس يراقبون جزءاً معيناً واحداً من المشى، ومن ثم يعطي (أو يبيع) المادة لإحدى صحف الفضائح، بعد أن يقدّم أوّلاً إثباتاً على الخيانة الزوجية إلى المحاكم لضمان عدم حصول زوجته على أي جزء من ثروته.

سيشكّل ذلك ضربة مأسوية لمكانة فندق يفاخر بتكتمه وسرّيته. وسيتدهور إيجار الغرفة فوراً. فالناس، في النهاية، يختارون فنادق الخمس نجوم لأنهم يعلمون بأن من يعملون فيها مدربون على رؤية ما يفترض بهم رؤيته فقط. فعندما يطلب أحد ما، مثلاً، خدمة الغرفة، يُبقي النادل عندما يصل عينيه على العربة، يمسك بالفاتورة ليوقع عليها الشخص الذي يفتح الباب، لكنه لا ينظر أبداً صوب السرير.

ترتدي المومسات - رجالاً ونساء - ثياباً متحفّظة، برغم أن الرجال قبالة الشاشات يعرفون تماماً من هم بفضل نظام خاص زودتهم به الشرطة. وهذا ليس شأنهم أيضاً، إلا أنهم في هذا الحالات يُبقون أعينهم على باب الغرفة التي يدخلونها إلى أن يخرجوا منها من

جديد. ويُطلب، في بعض الفنادق، من عاملة الاستقبال، إجراء اتصال هاتفي مصطنع بالغرفة للتأكد من أن النزيل بخير. يلتقط النزيل السماعة، ويطلب صوت نسائي شخصاً غير موجود، وتسمع أخطأت بالغرفة بصوت غاضب وصوت السماعة وقد أعيدت إلى مكانها بقوة. المهمة أنجزت؛ لا داعي للقلق.

السكارى الذين يحاولون وضع مفتاحهم في قفل الغرفة الخطأ، وعندما لا يفتح الباب يأخذون بالطَّرق عليه بغضب، يتفاجأون في الغالب بموظف حريص يظهر من لامكان - يقول إنه يمز بالصدفة - ويقترح مرافقة النزيل السكير إلى الغرفة الصحيحة (عادة في طابق آخر وفي رقم مختلف كلّياً).

يعرف إيغور أن كل حركة من حركاته تُسجل في الطابق السفلي للفندق؛ اليوم، الساعة، الدقيقة والثانية التي يصل فيها إلى البهو، ويخرج من المصعد، ويسير إلى باب جناحه ويضع البطاقة الالكترونية في القفل. وهو ما إن يصبح في الداخل حتى يمكنه التنفس بارتياح؛ ليس لأحد وصول إلى ما يجري في الغرفة ذاتها، لأن هذا سيشكّل خطوة أكثر مما ينبغي في انتهاك خصوصية شخص ما.

أقفل باب غرفته وراءه.

حرص على دراسة الكاميرات الداخلية فور وصوله في الليلة السابقة. وكما أنه لجميع السيارات بقعة طامسة لدى التجاوز بغض النظر عن عدد مرايا الرؤية الخلفية فيها، فإن الكاميرات تظهر كل جزء من الممشى، في ما عدا الغرف الموجودة في كل واحدة من الزوايا الأربع. وواضح أنه إذا شاهد أي من الرجال في الطابق

السفلي شخصاً يمر في مكان محدد لكنه لم يظهر على الشاشة التالية، فسيشك في حصول أمر مشؤوم - ربما أُغمي على الشخص - ويرسل فوراً أحداً ما للتحقق. وإذا بلغ المكان ولم يعثر على أحد، فمن المؤكد أنه تمت دعوة الشخص إلى واحدة من الغرف، ويصبح الباقي أمراً خاصاً يتعلّق بالنزلاء.

لكن إيغور لا ينوي التوقف في المشى. سار بلا مبالاة إلى النقطة التي يتعرج فيها المشى صوب المصاعد، ودس المغلف تحت باب الغرفة في الزاوية، أو الجناح... لا فرق.

استغرق ذلك كله جزءاً من الثانية. وإذا كان أحد ما في الطابق السفلي يراقب تحركاته، فلن يلاحظ شيئاً. وعندما سيتحققون، في وقت لاحق، من الأسطوانات في محاولة لتحديد هوية الشخص المسؤول عما حدث، سيجدون صعوبة كبرى في تحديد الساعة الدقيقة للوفاة. ربما النزيل لم يكن موجوداً ولم يفتح المغلف إلا عندما عاد، أو عادت، من واحدة من تلك المناسبات الليلية. وربما أنه فتح، أو فتحت، المغلف فوراً، إلا أن المحتوى استغرق وقتاً ليفعل فعله.

وسيمر، في غضون ذلك الوقت، أناس مختلفون في المكان ذاته، وسيُعتبر كل واحد منهم مشتبهاً فيه، ولو أنه لسوء الحظ سلك المسار ذاته شخص رث الثياب أو شخص من عوالم التدليك، أو البغاء، أو المخدرات الأقل استقامة، فسيتم توقيفه على الفور واستجوابه. وفرص ظهور مثل هؤلاء الاشخاص على الساحة، في خلال مهرجان الأفلام، عالية جداً بالفعل.

وهو يعرف أيضاً أن ثمة خطراً لم يُحسَب حسابه: الشخص الذي شهد على مقتل المرأة على الشاطئ. وسيطلب من الشاهد، بعد الانتهاء من الدوائر الروتينية، استعراض التسجيلات. لكن إيغور،

تسجل في الفندق مستخدماً جوازاً مزوراً يُظهر في الصورة وجه شخص يرتدي نظارات وله لحية (لم يتكبّد موظف الاستقبال في الفندق عناء التدقيق، برغم أنه لو سأل لأجابه بأنه حلق لحيته وشاربيه وهو يضع الآن عدسات لاصقة).

وعلى افتراض أنهم أسرع في الانطلاق من أي رجال شرطة، وقد توصلوا إلى استنتاج بوجود شخص واحد وحسب وراء هذه المحاولة لإخراج هذا المهرجان الذي يعمل في شكل طبيعي عن سكته، فسينتظرون عودته، ويطلب منه إعطاء إفادته. إلا أن إيغور يعلم بأنها المرة الأخيرة التي يسير فيها عبر ممرات فندق المارتينيز.

سيمضون إلى غرفته ويعثرون على حقيبة فارغة لا تحمل بصمات. وسيدخلون الحمام ويفكرون في قرارة أنفسهم: لماذا يقوم مليونير بغسل ثيابه في المغسلة! ألا يمكنه تحمل نفقة المصبغة؟

سيمد شرطي يده لالتقاط ما يعتبره دليلاً يحمل آثار الحمض النووي، والبصمات، وخيطان شعر، ويسقط ذلك كله بصرخة وقد أحرق أصابعه في الحامض الكبريتي الذي يذيب الآن كل ما خلّفه إيغور خلفه. يحتاج فقط إلى جواز سفره المزور، وبطاقات اعتماده وبعض المال النقدي، وهو يحمل ذلك كله في جيب سترته الرسمية إلى جانب البيريتا، ذلك السلاح الذي يحتقره الخبراء كثيراً.

لطالما وجد السفر سهلاً، إذ إنه يكره الأمتعة. وهو برغم أن لديه مهمة معقّدة ينفذها في «كان»، فقد اختار الأمور الخفيفة الوزن التي يسهل نقلها. ولا يستطيع فهم الناس الذين ينقلون معهم حقائب ضخمة حتى عندما لا يمضون أكثر من يومين بعيداً.

لا يعرف من سيفتح المغلف، ولا يهتم، فالخيار هو لملاك الموت،

وليس له. قد تحدث أمور كثيرة في غضون ذلك، أو في الحقيقة لا يحدث شيء.

قد يتصل النزيل بالاستقبال ويقول إنه تم تسليم مغلّف إلى الشخص الخطأ، ويطلب إرسال أحد لأخذه. أو ربما يلقيه في سلة المهملات، معتقداً أنها واحدة أخرى من رسائل الإدارة الساحرة تسأل فيها إذا كان كل شيء على ما يرام؛ فلدى النزيل أمور أخرى يقرأها، وحفلة عليه الاستعداد لها. وإذا كان النزيل رجلاً يتوقع وصول زوجته في أي لحظة، فسيضعه في جيبه وهو مقتنع بأن المرأة التي غازلها بعد الظهر تكتب لتقول له نعم. أو ربما تعلّق الأمر بشخصين متزوجين، وبما أن أياً منهما لا يعرف إلى من يعود حرف «الكاف» في «من أجلك»، المكتوبة على المغلف، يتفقان على أنه ليس وقت الشك المتبادل، ويرميان بالمغلف من النافذة.

أما إذا قرر ملاك الموت، برغم هذه الاحتمالات كلها، أن يمشح وجه المستلم بجناحيه، فعندها سيقوم، أو تقوم، بفتح المغلف لرؤية محتوياته. وهذه المحتويات تطلّبت الكثير من العمل وجعلته يتصل طلباً للعون من أصدقاء ومتعاونين قدموا إليه دعمهم المالي عندما شرع أولاً في إقامة شركته: الأشخاص أنفسهم الذين تم إخراجهم عندما أعاد باكراً دفع ذلك القرض. فهو كان بالنسبة إليهم، عطية حقيقة من الله، وقد مكّنهم من استثمار أموال مشبوهة المصدر في عمل شرعي بالكامل وشريف، وهم لا يريدون استعادة المال إلا متى ناسبهم ذلك.

وبرغم ذلك، بعد فترة من القطيعة شبه الكاملة بين الطرفين، عاد الودّ بينهما من جديد. وكان إيغور، في كل مرة يطلبون فيها منه خدمة - الحصول على مكان في الجامعة لابنة أحد منهم، أو تذاكر لحفلات موسيقية يريد زبائنهم حضورها - يفعل كل ما

في وسعه لمساعدتهم. ففي النهاية، بغض النظر عن دوافعهم، فإنهم الأناس الوحيدون الذين آمنوا بأحلامه. واعتادت أيوا - في كل مرة يفكّر فيها إيغور الآن يشعر بالحنق الشديد - القول إنهم تلاعبوا في براءة زوجها لتبييض أموال كسبوها من التجارة بالسلاح، كما لو أن هذا يُحدث أي فرق. وليس الأمر كما لو أنه تورط فعلاً في شراء السلاح أو بيعه، أضف إلى ذلك أنه، في أي صفقة أعمال، يحتاج الطرفان إلى تحقيق الربح.

ولكل واحد صعوده ونزوله. أمضى بعضٌ من داعميه السابقين فترات في السجن، لكنه لم يتخلَّ عنهم أبداً برغم أنه لم يعد يحتاج إلى مساعدتهم. فالرجل ذو الكرامة لا يُقاس بعدد الأصدقاء من حوله وهو في عزّ نجاحه، بل بقدرته على عدم نسيان أولئك الذين ساعدوه عندما كانت حاجته أكبر. أما إذا كانت هذه الأيدي ملطخة بالدم أو العرق، فأمر خارج عن الصدد: لن تهتم، لو أنك معلّق عند حافة الهاوية، بهوية من يرمي إليك بحبل النجاة.

الإحساس بالعرفان بالجميل مهم. لن يصل أحد بعيداً إذا نسي من وقفوا معه في ساعة حاجته. وليس الأمر أن عليك على الدوام التفكير في من ساعد، أو في من تمت مساعدته. فالله يَبقي عينيه على أبنائه وبناته، ويكافئ من يتصرفون وفقاً للنِّعَم التي أغدقها عليهم.

وهكذا، عرف إلى أين يذهب عندما احتاج إلى شراء بعض الكوراري، برغم أنه دفع ثمناً لا يُعقل لمادة شائعة نسبياً في أدغال أميركا الجنوبية.

بلغ بهو الفندق. تقع الحفلة على بعد أكثر من نصف ساعة

بالسيارة، وسيصعب كثيراً العثور على تاكسي إذا توقف وحسب في الشارع. علم منذ زمن طويل بأن أول أمر تفعله بوصولك إلى أي فندق، هو أن تعطي إكرامية كبيرة للبواب بدون أن تطلب شيئاً في المقابل. جميع رجال الأعمال الناجحين يفعلون هذا، ولا يجدون أبداً أي صعوبة في الحصول على حجوزات في أفضل المطاعم، أو بطاقات للعروض، أو معلومات حول مناطق معينة في المدينة غير موجودة في الدليل لعدم صدم الطبقة المتوسطة.

ظل مبتسماً وحصل على تاكسيه فوراً، بينما أحد النزلاء إلى جانبه يشتكي من مشاكل في الحصول على وسيلة نقل. العرفان بالجميل، الحاجة والاتصالات المناسبة، بهذه الأمور الثلاثة يمكنك الحصول على ما شئت، حتى على مغلف فضي، الكلمتان الفاتنتان «من أجلك»، مكتوبتان بخط جميل. تركه لاستخدامه في آخر النهاية لأن إيوا لم تتمكن من فهم الرسائل الأخرى، أما هذه - الأكثر مهارة من بينها جميعاً - فلن تترك مجالاً للشك.

أظهر رفاقه القدامى من كرم الأخلاق ما لم يكن متوقعاً. عرضوا إعطاءه إياه لقاء لاشيء، لكنه فضّل أن يدفع. لديه ما يكفي من المال، ولا يحب ان يكون مَديناً لأحد.

لم يطرح الكثير من الأسئلة حول طريقة صنعه، علم فقط بأنها عملية معقّدة جداً، وأن الرجل الذي صنع المغلّف المقفل إقفالاً محكماً اضطر إلى ارتداء قفازين وقناع واق من الغازات. وللسعر الكبير الذي دفعه لقاء الظرف ما يُبرره بما أنه يجب التعامل معه بانتباه شديد بالفعل، ليس صعباً الحصول على المادة ذاتها؛ فاستعمالها شائع في سقي الفولاذ وفي إنتاج الورق، والملابس، والبلاستيك. وهو يحمل بالأحرى اسماً مخيفاً: كيانوس الهيدروجين، لكن رائحته أشبه برائحة اللوز، ويبدو غير مؤذ أبداً.

توقف عن التفكير في من أقفل المغلف، وشرع في تخيل الشخص الذي سيفتحه... ممسكاً به، في شكل طبيعي، قريباً من وجهه. وعلى البطاقة البيضاء طُبعت رسالة باللغة الفرنسية:

«كاتيوشا، أحبّك».

«كاتيوشا، من هي كاتيوشا؟»، سيسأل الشخص، ملاحظاً أن البطاقة مغطاة بنوع من الغبار. فما إن يحتك بالهواء حتى يتحول الغبار إلى غاز، وستمتلئ الغرفة برائحة اللوز القوية.

سيُفاجَأ الشخص ويفكِّر: أمكن من أرسله أن يختار رائحة ألطف. لا بد من أنها دعاية لعطر ما. وسيسحب، أو تسحب، البطاقة، ويقلبها في هذا الاتجاه وذاك، وسيبدأ الغاز المنطلق من الغبار في الانتشار بسرعة أكبر حتى.

لا بد من أنها مزحة ما.

سيشكِّل ذلك آخر تفكير واع له. يترك البطاقة على الطاولة القريبة من الباب، ويذهب إلى غرفة الحمام ليستحم، أو للانتهاء من وضع التبرج أو ترتيب ربطة العنق.

لن يلبث أن يلاحظ أن قلبه يخفق بشدة. لن يتمكن من ربط ذلك فوراً بالعطر الذي يملأ الغرفة؛ ففي النهاية لا أعداء له، بل يوجد منافسون ومناوئون وحسب. وهو حتى قبل أن يبلغ غرفة الحمام، سيلاحظ أنه لم يعد يمكنه الوقوف، فيجلس على حافة السرير. وسيصبح العارض الثاني ألماً لا يُطاق في الرأس وصعوبة في التنفس، تتبعهما رغبة في التقيّؤ. لكن لا وقت لذلك؛ فسيفقد الوعي سريعاً، وهو لا يزال لا يربط بين حالته الجسدية ومحتوى المغلف.

وفي غضون دقائق - فقد طلب أن تكون المادة على أكبر قدر

ممكن من التركيز - ستتوقف الرئتان عن العمل، ويشرع الجسم في التشنج، ويتوقف القلب عن ضخ الدم، ويتبع ذلك الموت.

موت غير مؤلم، رحيم، وإنساني.

صعد إيغور في التاكسي، وأعطى العنوان: فندق الكاب، إدن روك، كاب دانتيب.

إنه حفل العشاء الكبير لهذه الليلة.

٧:٤٠ ب.ظ.

أبلغها الخنثوي - الذي ارتدى قميصاً أسود، وربطة عنق بيضاء على شكل فراشة، ونوعاً من الجلباب الهندي من فوق السروال الضيق ذاته الذي يجلب الانتباه إلى ساقيه الهزيلين - أنه يمكنهما أن يصلا إما في وقت مناسب، وإما في توقيت سيئ جداً.

«حركة السير أفضل مما توقعت. سنكون من أول الواصلين إلى إدن روك».

لم تفهم غابرييلا، التي تمت الآن إعادة ترتيب شعرها وتبرجها - هذه المرة على يد خبيرة تبرج بدت ضجرة من عملها -، ما يعني ذلك.

«أليس من الأفضل الوصول باكراً، نظراً إلى كل التوقفات في حركة السير؟ كيف يمكن هذا أن يكون سيئاً؟».

تنهد الخنثوي تنهيدة عميقة قبل أن يجيب، كما لو أن عليه أن يشرح ما هو واضح لشخص لا يعرف حتى أكثر المبادئ أساسية في عالم الروعة.

يمكنه ذلك، لأنك ستكونين وحدك في الممشى...

نظر الخنثوي إليها. شاهد التعبير الفارغ على وجهها، ثم تنهّد مرة أخرى بعمق، وقال:

- ما من أحد يدخل مباشرة من الباب في هذا النوع من الحفلات. عليك أن تسيري عبر الرواق أولاً. فمن جهة، يوجد المصورون، وفي الجهة المقابلة جدار يحمل شعار راعي الحفلة. ألم يسبق لك أن شاهدت صوراً في مجلات المشاهير؟ ألم تلاحظي أن المشاهير يقفون دوماً أمام شعار وهم يبتسمون للكاميرات؟

«مشاهير». لقد زلّ لسان الخنثوي المتعجرف بالكلمة الخطأ، واعترف سهواً بأن غابرييلا هي أيضاً من المشاهير. استذوقت غابرييلا هذا الانتصار بصمت، برغم أنها كبيرة كفاية لتعلم بأنه لا يزال أمامها شوط كبير تقطعه.

وما السيئ في الوصول في الوقت؟

تنهيدة أخرى.

قد لا يكون المصورون أنفسهم قد وصلوا بعد، لكن دعينا نأمل أنني مخطئ، وهكذا سأتمكن من توزيع بعض من هذه المناشير.

في شأني؟

- أنتِ بالتأكيد لا تتصورين أن الجميع يعرف هويتك، أليس كذلك؟ آسف لتخييب ظنك، يا عزيزتي. كلا، عليّ أن أسبقك وأعطي هذه الرقعة البائسة من الورق لكل مصور، وأخبرهم جميعهم، بأن النجمة الكبرى لفيلم غيبسون المقبل، على وشك الوصول، وأن عليهم أن يجهّزوا كاميراتهم. وسأعطيهم الإشارة ما إن تظهري في الرواق.

إلا أنني لن أكون لطيفاً معهم. أعني أنهم معتادون على التعامل معهم كما هم، مخلوقات في أسفل درجات السلطة. سأقول إنني أقدم إليهم خدمة كبيرة، ولن يريدوا المخاطرة في تضييع الفرصة، فيتم طردهم لأنه لا يوجد نقص في الناس في العالم ممن يمتلكون كاميرا ورابطاً بالانترنت، الذين يحرصون بجنون على نشر أمر فات الجميع. وأظن ان الصحف في المستقبل، نظرا إلى حيث تتجه أرقام التوزيع، ستعتمد كلياً على خدمات مصورين مغمورين كوسيلة لخفض النفقات.

أراد التباهي بمعرفته بالإعلام، لكن المرأة الشابة التي إلى جانبه غير مهتمة. التقطت واحدة من الوريقات وشرعت في القراءة.

«من هي ليزا وينر؟».

- إنها أنتِ. لقد غيّرنا اسمك؛ أو بالأحرى، تم اختيار الاسم حتى قبل أن يتم انتقاؤك. وهذا ما ستُدعين به من الآن وصاعداً. فغابرييلا اسم إيطالي جدّاً، بينما يمكن ليزا أن تكون من أي جنسية. تظهر أبحاث السوق ان الجمهور العريض يجد أن الاسماء التي تتضمن بين أربعة وستة أحرف هي الاكثر سهولة على الحفظ: فانتا. تايلور. بورتون. ديفيس. وودز. هيلتون... هل أواصل؟

- لا، شكرا. أرى أنك تعرف سوقك، لكن عليّ أن أجد الآن من أنا، استناداً إلى سيرة حياتي الجديدة.

قامت بمحاولة لإخفاء السخرية في صوتها. أخذت تكسب المزيد من الثقة بالنفس، وتشرع في التصرف كنجمة حقيقية. بدأت تقرأ: اكتشاف كبير. اختيرت من بين أكثر من متقدّمة للعمل في أول إنتاج للخياط ورجل الأعمال الشهير حميد حسين... إلخ... الخ.

المناشير مطبوعة منذ أكثر من شهر»، قال الخنثوي، معيداً ترجيح الكفة إلى صوبه. كتبها فريق مجموعة التسويق، وهو دائم الدقة. اسمعي: «عملتْ عارضة ودرستْ المسرح». هذه أنت، أليس كذلك؟

- تم اختياري إذاً، لسيرة حياتي، وليس لجودة اختياري.

- لا، يعني ذلك أن للجميع هناك سيرة حياة متشابهة.

- اسمع، ألا يمكننا التوقف وحسب عن السخرية من بعضنا البعض، ونحاول أن نكون أكثر إنسانية وصداقة بقليل؟

- هنا؟ في «كان»؟ انسي الأمر. لا يوجد أمر اسمه الصداقة، فقط مصالح شخصية. لا توجد كائنات إنسانية، بل مجرد آلات مجنونة تطيح بكل شيء في طريقها من أجل الوصول إلى حيث تريد، وإلا تنتهي بالاصطدام بعمود الإنارة.

شعرت غابرييلا، برغم هذا الجواب، بأنها محقّة، وبأن بغضاء رفيقها آخذة في الذوبان.

«اسمعي هذا»، تابع، «رفضت، على مدى سنوات، العمل في السينما لشعورها بأن المسرح يشكل الطريقة الأفضل للتعبير عن موهبتها». و«هذا يعطيك الكثير من النقاط الجيدة. يُظهر أنك إنسانة مستقيمة لم تقبل الدور في الفيلم إلا لأنها أحبته فعلاً، برغم أنه تمت دعوتك إلى لعب أدوار في مسرحيات لشكسبير، بيكيت، أو جيني، أو مهما يكن».

واضح أن هذا الخنثوي قارئ جيد. الجميع سمعوا بشكسبير، لكن قلة من الناس تعرف عن بيكيت وجيني.

وافقت غابرييلا - أو ليزا - معه. وصلت السيارة إلى حيث يوجد،

هنا أيضاً، الحراس الأمنيون الحتميون بالبزات السوداء والقمصان البيضاء وربطات العنق السوداء، يحملون جميعهم أجهزة لاسلكي صغيرة كما لو أنهم رجال شرطة حقيقيون (أو ربما هذا هو الحلم الجماعي لكل الحراس الأمنيين). أشار أحدهم إلى السائق بالمضي، لأن الوقت لا يزال مبكراً جداً.

قفز الخنثوي - الذي وزن المخاطر وقرر أن الوصول باكراً هو في الواقع أفضل - من الليموزين، وتوجه صوب أحد الحراس، وهو رجل يفضل اثنين منه. أما غابرييلا فحاولت إلهاء نفسها بالتفكير في أمور أخرى.

«أي نوع من السيارات هي هذه؟»، سألت السائق.

أجاب: «إنها مايباخ ٥٧ أس». لكنته ألمانية. «إنها تحفة حقيقية، الآلة المثالية، الأفضل من حيث الرفاه. تم صنعها...»

إلا أنها لم تعد تسمع. أمكنتها رؤية الخنثوي يتحدّث مع الحارس الأمني الضخم. بدا أن الرجل يتجاهله ويقوم بحركة تشير إلى أن عليه الصعود إلى السيارة والتوقف عن عرقلة السير. استدار الخنثوي - وهو مجرد بعوضة أمام الحارس الأمني الفيل - على عقبيه وسار عائداً إلى السيارة.

فتح الباب، وطلب من غابرييلا الخروج. إنهما سيدخلان كيفما كان.

خشيت غابرييلا الأسوأ، وتوجست منْ حصول شجار قوي. سارت مع الذُبابة من أمام الفيل الذي قال: «قفا، لا يمكنكما الذهاب إلى هناك!»، لكنهما واصلا التقدم. صرخت أصوات أخرى: «ليكن لديكما بعض الاحترام للقوانين! لم نفتح الأبواب بعد!». لم تمتلك

الجرأة للنظر إلى الوراء، وتخيّلت أنه لا بد من أن القطيع يمضي في أثرهما جاهزاً للدوس عليهما في من أي لحظة.

لكن، لم يحصل أي شيء، بل حتى أن الخنثوي لم يعد يسير بسرعة أكبر، ربما مراعاة منه لثوبها الطويل. ها هما يجتازان حديقة كاملة النقاء؛ وها أن الأفق أمامهما ملوّن بمسحة من الزهري والأزرق؛ والشمس تغيب.

استمتع الخنثوي بانتصاره الجديد.

جميعهم فحوليون إلى أن تواجهيهم، وما عليك إلا أن ترفعي صوتك، وتنظري مباشرة إلى أعينهم وتستمرّين في السير، ولن يلحقوا بك. لدي الدعوات، وهذا كل ما أحتاج إليه. وربما كان هؤلاء الفتيان كبار الجثة، لكنهم ليسوا أغبياء، ويعرفون أن شخصاً مهماً فقط سيخاطبهم بالطريقة التي خاطبتهم فيها.

وانتهى بتواضع مفاجئ:

- لقد اعتدت الادعاء أنني مهم.

بلغا الفندق الذي هو بعيد حقيقة عن هرج «كان» ومرجها، ومناسب للنزلاء الذين لا يحتاجون إلى الاستمرار في الذهاب والإياب عبر الجادة. طلب الخنثوي من غابرييلا - ليزا الذهاب إلى البار وإحضار كأسين من الشمبانيا. سيشير هذا إلى أنها ليست وحدها. فلا حديث مع الغرباء. «رجاء، لا شيء سوقياً»... وهو سيذهب ويرى كيف هي الأجواء ويوزع المناشير.

- أفعل هذا حقيقة من أجل الشكل وحسب. فلا أحد سينشر صورتك، لكن هذا ما يُدفع لي من أجله. سأعود في خلال دقيقة.

- لكن، ألم تقل للتو إن المصورين...

عاد إلى حالته الصلفة. واختفى، قبل أن تتمكن غابرييلا من الرد عليه.

لا توجد طاولات شاغرة. المكان يعج بالرجال الذين يرتدون السترات الرسمية والنساء بالفساتين الطويلة. يتحدثون بأصوات خافتة، أو على الأقل أولئك الذين يتحدثون من بينهم، إذ إن أنظار معظمهم تحدّق في البحر الذي تمكن رؤيته عبر النوافذ العريضة. وبرغم أن هذه هي المرة الأولى لهم في مكان كهذا، فإن شعوراً لا يخفى يخيم على جميع هؤلاء المحتفى بهم: شعور عميق بالسأم.

جميعهم حضر المئات، وربما الآلاف من حفلات كهذه. وربما أنهم شعروا مرة بالإثارة حيال المجهول، وبإمكان اللقاء بحب جديد، وبالقيام باتصالات مهنية مهمة... لكنهم بلغوا الآن قمة حياتهم المهنية، ولم تعد توجد تحديات جديدة؛ وكل ما بقي عمله هو مقارنة يختك مع يخت آخر، وجواهرك مع جواهر الجارة، والأناس الجالسين إلى الطاولات الأقرب من النافذة مع أولئك الذين هم أكثر بعداً، وهي إشارة أكيدة على أولوية الأسبقين. نعم، هذه نهاية المطاف: السأم والمقارنات التي لا تنتهي. ويبدو، بعد عقود من الكفاح للوصول إلى ما هم عليه، أنه لم يبقَ شيء، ولا حتى لذة مراقبة غروب آخر للشمس في واحد من أكثر الأماكن جمالاً.

ما الذي تفكر فيه هؤلاء النساء الثريات، الصامتات، المتباعدات جداً عن أزواجهن؟

إنهن يهجسنَ بالعمر.

يحتجن إلى العودة إلى جزاحهن التجميلي، ويَعدن ترميم ما يدأب

الزمن على تخريبه. تعرف غابرييلا أن هذا سيحصل لها أيضاً في يوم من الأيام، وفجأة - ربما بسبب جميع انفعالات النهار الذي ينتهي في شكل مغاير كثيراً لما بدأ به - أخذت تشعر بأن الأفكار السلبية آخذة في العودة.

مرة أخرى، يوجد ذلك الشعور بالرعب الممزوج بالفرح. والشعور مرة أخرى بأنها، برغم الكفاح، لا تستأهل ما يحصل لها، فهي ليست سوى فتاة عملت جاهدة في مهنتها، لكنها غير مستعدة كما يجب للحياة. لا تعرف القواعد؛ وهي تذهب أبعد مما تفرضه سلامة العقل. هذا العالم لا ينتمي إليها ولن تصبح أبداً جزءاً منه. شعرت بالعجز، وبأنها لا تستطيع أن تتذكر سبب مجيئها إلى أوروبا. وفي النهاية، فإنه ليس رهيباً إلى هذا الحد كونها ممثلة في مدينة أميركية صغيرة، تفعل بالتحديد ما تحب، وليس ما يجعلها الآخرون تقوم به. تريد أن تكون سعيدة، وهي ليست متأكدة تماماً من أنها في الطريق الصحيح.

- توقفي! توقفي عن التفكير بهذا الشكل!

لا يمكنها القيام هنا بأي تمارين يوغا، لذا عليها أن تركّز على البحر وعلى السماء الزرقاء والزهرية. أُعطيت فرصة ذهبية، عليها أن تتغلب على مشاعر النفور وأن تُجري المزيد من الحديث مع الخنثوي في الأوقات الحرّة القليلة التي لهما قبل الوصول إلى الرواق. لا يجب أن ترتكب أي أخطاء. كانت محظوظة وعليها أن تستفيد من ذلك ما أمكن. فتحت حقيبة يدها لتُخرج إصبع الحمرة وتسوّي شفتيها، إلا أن كل ما وجدته كتلة من الورق المكعبش. فهي قد عادت إلى غرفة الهدايا مع خبيرة التبرج الضَّجِرة، ونسيت مرة أخرى جمع أغراضها، لكن حتى لو تذكّرت فأين كانت لتضعها؟

تشكّل حقيبة اليد تلك مجازاً ممتازاً لتجربتها الراهنة: رائعة من الخارج، وفارغة تماماً من الداخل.

عليها أن تسيطر على نفسها.

الشمس غطست للتو وراء الأفق، وستولد من جديد في الغد بالقوة ذاتها. وأنا أحتاج إلى أن أُولد من جديد الآن. ويفترض بواقع أنني حلمت بهذه اللحظة مرّات لا تحصى، أن يحضّرني، ويجعلني أكثر ثقة بالنفس. أؤمن بالمعجزات، وقد أنعم عليّ الله الذي يستمع إلى صلواتي. يجب أن أتذكر ما تعوّد المخرج أن يقول لي قبل كل تمرين: عليك، حتى وأنت تقومين بالأمر ذاته المرة تلو المرة، أن تكتشفي شيئاً جديداً، رائعاً ولا يصدّق، مرّ بدون ملاحظته في المرة السابقة.

دخل رجل وسيم في حوالى الأربعين من العمر، بدأ الشيب يدب في رأسه، ويرتدي سترة رسمية لا عيب فيها صنعها أستاذ في الخياطة بيده. بدا كما لو أنه سيأتي إليها، لكنه لاحظ فوراً كأس الشامبانيا الثاني، فتوجه إلى الطرف الآخر من البار. أحبت لو أنها تتحدث إليه، فلقد استغرق الخنثوي وقتاً طويلاً، لكنها تذكّرت كلماته الصارمة:

«لا شيء سوقياً».

ستكون أمراً مستهجَناً بالفعل، وغير لائق، ومحرجاً، رؤية امرأة شابة، وحدها عند بار فندق من خمس نجوم، تذهب إلى عند زبون أكبر منها عمراً. ما الذي سيظنه الناس؟

شربت كأس الشامبانيا، وطلبت واحدة أخرى. وهي، في حال

اختفى الخنثوي نهائياً، ليست لديها وسيلة لدفع الفاتورة، لكن من يبالي؟ أخذت شكوكها وقلقها بالاختفاء وهي تشرب، وها أنها تخشى الآن أنها قد لا تتمكن من الذهاب إلى الحفلة والوفاء بالتزاماتها.

كلا، لم تعد فتاة المدينة الصغيرة التي كافحت للمضي في الحياة، وهي لن تعود ذلك الشخص أبداً. ظهرت الطريق أمامها. كأس أخرى من الشامبانيا، وتحول الخوف من المجهول إلى خشية من أنها لن تحصل ابداً على فرصة اكتشاف ما يعنيه حقاً وجودها هنا. ما يرعبها الآن هو الشعور بأن كل شيء قد يتبدّل من لحظة إلى أخرى. كيف لها أن تتأكد من أن معجزة اليوم ستستمر غداً؟ ما الضمانات التي لها بأنه سيتم الوفاء بجميع الوعود التي قُطعت لها في وقت سابق؟ فهي غالباً ما وقفت من قبلُ أمام أبواب عظيمة، وفرصة رائعة ما، وحلمت لأيام وأسابيع بإمكان أن تتغير حياتها إلى الأبد، لتكتشف فقط في النهاية أن هاتفها لم يرن، وأنه قد تم تضييع سيرة حياتها، أو أن المخرج سيتصل ويقدم اعتذاراته، ويقول لها إنهم وجدوا شخصاً مناسباً أكثر للدور، وهذا لا يعني القول إنك لا تتمتعين بموهبة حقيقية. فلا تُخذلي، فللحياة طرائق عدة في اختبار إرادة الشخص، إما من خلال عدم حصول شيء على الإطلاق، وإما بحدوث كل شيء دفعة واحدة.

كان الرجل الذي وصل وحده يحدّق فيها، وفي الكاس الثانية من الشامبانيا. كم تتمنى أن يأتي إليها! لم تسنح لها الفرصة للحديث مع أحد حول ما يحصل. فكّرت مرات عدة في الاتصال هاتفياً بعائلتها، إلا أن هاتفها موجود في حقيبة يدها الحقيقية، وربما يعج بالرسائل من رفيقات غرفتها اللواتي يُردن معرفة مكان وجودها، وإذا كانت تحمل دعوات إضافية، وإن كانت تحب أن

تذهب معهن إلى مناسبة من الدرجة الثانية، حيث سيظهر هذا المشهور وذاك.

لا يمكنها أن تتقاسم أي شيء مع أي أحد. لقد أخذت خطوة كبرى في حياتها، وهي وحدها في بار أحد الفنادق، يتملكها الرعب من أن الحلم قد ينتهي، وتعرف في الوقت ذاته أنها لا تستطيع العودة إلى أن تكون الشخص الذي كانت عليه. فهي تكاد تبلغ قمة الجبل: وعليها إما أن تتمسك بقوة، وإما أن تقذفها الريح.

الرجل الأربعيني ذو الشعر الآخذ في الشيب ويشرب عصير البرتقال، لا يزال هناك. التقت أعينهما عند حد ما، وابتسم. ادعت أنها لم تره.

لماذا هي خائفة إلى هذا الحد؟ لأنها، في كل خطوة جديدة تخطوها، لا تعرف تماماً كيف تتصرف. ما من أحد يساعدها. جل ما يفعلونه هو إصدار الأوامر وتوقّع أنها ستُطاع في شكل بالغ الشدة. تشعر كالطفل الحبيس في غرفة مظلمة. تحاول إيجاد طريقها إلى الباب لأن شخصاً قوياً يناديها ويطلب أن يُطاع.

قطع الخنثوي الذي عاد للتو، عليها أفكارها.

«لننتظر أيضاً بعض الشيء. فالناس قد بدأوا الآن في الوصول»، قال.

نهض الرجل الوسيم، دفع فاتورته وتوجه صوب المخرج. بدا خائباً. ربما كان ينتظر الوقت المناسب للتقدم منها، ويعرّفها باسمه و...

... التحدث قليلاً.

- ماذا؟

لقد تخلّت عن تحفّظها. كأسان من الشامبانيا، وحلّت عقدة لسانها أكثر مما ينبغي.

- لا شيء.

- كلا، قلت للتو إنك تريدين التحدث قليلاً.

إنها الفتاة الصغيرة في الغرفة المظلمة، وليس لها من يسدد خطاها. الوضاعة. عليها أن تفعل ما تعهدت لنفسها منذ دقائق قليلة بالقيام به.

- نعم، كنت سأسأل ما الذي تفعله هنا في «كان»، وكيف انتهى بك المطاف في هذا العالم الذي لا أفقه منه تقريباً أي شيء. فهو ليس ما تخيلت أنه سيكون عليه. صدّق أو لا تصدّق، أنك عندما ذهبت للتحدث إلى المصورين، شعرت حقيقة بأنني وحدي وخائفة، لكنني أعلم بأنني أستطيع الاعتماد عليك للمساعدة، وقد تساءلت إذا كنت تستمتع بعملك.

ثمة ملاك ما - واضح أنه يحب الشامبانيا - يضع الكلمات المناسبة في فمها.

نظر إليها الخنثوي بدهشة. هل تحاول مصادقته؟ لم تطرح أسئلة لا يسألها أحد في العادة، وهي التي لم تعرفه إلا منذ ساعات قليلة؟

ما من أحد يثق به لأنه لا يشبه أحداً آخر. إنه فريد من نوعه. وهو، خلافاً لما يعتقده معظم الناس، ليس مثلي الجنس، بل إنه فقد وحسب أي اهتمام بالكائنات الإنسانية الأخرى. يصبغ شعره، ويرتدي الثياب التي طالما حلم بوضعها، ويزن تماماً ما يريد أن يزنه،

وبرغم أنه يعرف أنه يترك انطباعاً غريباً لدى الناس، فإنه ليس مضطراً إلى أن يكون لطيفاً مع أحد ما دام يقوم بعمله.

وها أن هذه المرأة تسأله عما يعتقد، وكيف يشعر. التقط كأس الشامبانيا التي تنتظره وشربها دفعة واحدة.

لا بدّ من أنها تتصور أنه يعمل لحميد حسين، وأن له بعض النفوذ، وتريد منه التعاون والمساعدة بحيث تعرف ماذا يجب أن تكون عليه خطوتها التالية. هو يعرف جميع الخطوات، المطلوبة لكنه وُظّف لفترة المهرجان، وللقيام بمهمات معينة، وهو سيفعل فقط ما طُلب منه القيام به. وعندما تنتهي أيام الرفاه والبهرجة هذه، يعود إلى شقته المتواضعة في ضاحية باريس، حيث يتعرض لسوء المعاملة على أيدي جيرانه، لا لسبب إلا لأنه لا يطابق النموذج التقليدي الذي أقامه أي رجل مجنون أعلن مرّة: جميع الكائنات البشرية متساوية. هذا ليس صحيحاً. جميع البشر مختلفون، وعليهم أن يتمسكوا بحقهم في الاختلاف حتى النهاية.

سيشاهد التلفزيون، ويتبضع من السوبرماركت المجاورة، ويشتري المجلات، ويذهب أحياناً إلى السينما. وسيتلقى، لأنه يُعتبر إنساناً مسؤولاً، اتصالات ظرفية من وكلاء يحتاجون إلى مساعدين ذوي خبرة في عالم الأزياء، وإلى أناس يعرفون كيف يُلبسون العارضة ويختارون الأكسسوارات، لمساعدة الجديدات في عالم الموضة، على تفادي القيام بحماقات اجتماعية، ويشرح لهن ما عليهن القيام به، وما لا يجوز الإقدام عليه إطلاقاً.

آه، ولديه أحلامه. يقول في نفسه إنه فريد من نوعه. وهو سعيد لأنه لا يتوقع من الحياة ما هو أكثر، وقد تجاوز الأربعين من العمر برغم أنه يبدو اصغر سناً بكثير. حاول شق طريقه المهنية في عالم التصميم، لكنه لم يتمكن من الحصول على وظيفة

محترمة، واختلف مع أناس كان في إمكانهم مساعدته. لم تعد لديه توقعات كبيرة برغم أنه مثقف ويتمتع بذوق رفيع وإرادة من حديد. لم يعد يؤمن بأن أحداً ما سينظر إليه، ويرى الطريقة التي يرتدي بها ثيابه، ويقول: عظيم، أحب أن اتحدّث إليك. تلقى دعوات قليلة للعمل كعارض، لكن ذلك حصل منذ زمن بعيد، ولا يندم على رفضها، لأن العمل كعارض لا يشكّل جزءاً من مخطط حياته.

يصنع ثيابه الخاصة من أقمشة مقصوصة تتخلى عنها استوديوهات الخياطة الراقية. وهو يقيم في «كان» مع شخصين آخرين عند التلة، ربما ليس بعيداً كثيراً عن المكان الذي تنزل فيه المرأة الشابة. إلا أنها تحصل على فرصتها الكبيرة، ولا يجب أن يسمح لنفسه، مهما شعر بظلم الحياة، بأن يجتاحه الإحباط والحسد. سيبذل أفضل ما عنده لأنه إذا لم يفعل، فلن تتم إعادة دعوته إلى العمل كمساعد إنتاج.

إنه سعيد بالطبع. نظر إلى ساعته. لا بد من أنه الوقت المناسب لهما للدخول.

- هيا بنا. سنتحدث في وقت آخر.

دفع ثمن الشراب، وطلب وصلاً بذلك بحيث يمكنه أن يسترد كل قرش صرفه ما إن ينتهي كل ذلك البريق وهذه البهرجة. أخذ بعض الأناس الآخرين في النهوض والقيام بالأمر ذاته؛ يحتاج هو وغابرييلا - ليزا إلى الإسراع حتى لا تضيع وسط الحشود التي أخذت في الوصول. سارا عبر بهو الفندق إلى الممشى؛ سلّمها بطاقتي دعوتها، اللتين أبقاهما بأمان في جيبه. ليس على الأشخاص المهمين، على أي حال، إزعاج أنفسهم بمثل هذه التفاصيل، فلديهم دوماً مساعد يتولى ذلك.

إنه المساعد، وهي الشخصية المهمة، وها هي تأخذ بالفعل في إظهار إشارات بأن العظمة قد أخذت بمجامع رأسها. وهي سرعان ما ستكتشف ما يقدر عليه هذا العالم: سيمتص كل أونصة من طاقتها، مالئاً رأسها بالأحلام، ومتلاعباً في غرورها، ليُسقطها بعد ذلك تماماً في الوقت الذي تشعر فيه بأنها على استعداد لأي شيء. فهذا ما حصل له، وما يحصل للجميع.

صعدا الدرج. توقفا في الردهة الصغيرة قبل المشى. ما من داع للعجلة، هنا مختلف عن السجادة الحمراء. عليها، إذا ما ناداها أحد باسمها، أن تستدير وتبتسم. وإذا حصل ذلك، فثمة حظوظ بأن يستدير جميع المصوّرين ويشرعوا في التقاط الصور، لأنه، إذا عرف أحد اسمها، فلا بد من أنها شخص مهم. لا يجب أن تتوقف أكثر من دقيقتين في أخذ وضعية التصوير، لأن هذا مدخل الحفلة وحسب، برغم أنه يبدو كأنه شيء من عالم آخر. وإذا أرادت أن تصبح نجمة، فعليها البدء في التصرف كواحدة من النجمات.

ولماذا أدخل وحدي؟

يبدو أنه حصلت مشكلة ما. عليه أن يكون هنا - فهو محترف في النهاية - لكن من الواضح أن ثمة ما أعاقه.

هو يعني النجم. أمكن الخنثوي أن يبلغها بما يعتقد أنه حصل: لم يغادر غرفته عندما كان عليه ذلك، ما يعني أنه ربما التقى بفتاة ما معجبة به. لكن هذا سيؤذي مشاعر المبتدئة التي إلى جانبه، والتي تحتضن أحلاماً لا أساس لها على الإطلاق بقصة حب رائعة ما.

لا يحتاج إلى أن يكون قاسياً تماماً، كما ليس عليه أن يكون

صديقها. عليه فقط أن يقوم بعمله وحسب، ومن ثم يغادر. ثم إنه إذا لم تتمكن الفتاة السخيفة من السيطرة على عواطفها، فقد تؤخذ لها صور سيئة في المشى.

وقف أمامها في الصف وطلب منها اللحاق به على أن تترك متراً أو مترين بينهما. وما إن يدخلا المشى، حتى يتوجه إلى المصورين ليرى إذا كان في وسعه إثارة اهتمامهم.

انتظرت غابرييلا لبضع ثوان، وتصنّعت أفضل ابتسامة على وجهها، وأمسكت بحقيبة يدها كما علّموها أن تفعل. قوّمت ظهرها وشرعت في التقدم بثقة وهي على استعداد لمواجهة أي من أضواء الكاميرا. فتح الرواق على منطقة مضاءة بالأنوار الساطعة، مع جدار أبيض وقد ألصقت عليه شعارات الراعي. وتوجد في الجانب الآخر سدّة داخلية تتوجه منها عدسات مختلفة في اتجاهها.

استمرت في السير، محاولة هذه المرة أن تعي كل خطوة من خطواتها. لا تريد تكرار التجربة المحبطة في وقت سابق من النهار، عندما انتهى سيرها على السجادة الحمراء، قبل أن تدرك ذلك. عليها أن تحيا اللحظة الحاضرة كما في فيلم عن حياتها، يُعرض بالسرعة البطيئة. وستبدأ الكاميرات، عند حد ما، في الإعلان عن اللحظة الموعودة.

صرخ أحدهم: ياسمين!

ياسمين؟ لكن اسمها غابرييلا.

توقّفت لجزء من الثانية، وقد تجمّدت الابتسامة على وجهها. كلا، لم يعد اسمها غابرييلا. وما هو؟ أهو ياسمين؟

فجأة سمعت صوت أزرار الكاميرات وقد تم الضغط عليها، والعدسات تفتح وتغلق، إلا أن جميعها مصوبة إلى الشخص الذي وراءها.

تحرّكي! قال أحد المصورين. انتهت لحظة مجدك. تنحّي عن الطريق!

لم يمكنها تصديق الأمر. استمرت في الابتسام، لكنها شرعت في السير بسرعة أكبر الآن في اتجاه النفق المظلم الذي يبدو أنه يتبع ممشى الضوء ذلك.

- ياسمين! من هنا! هنا!

بدا أن المصورين مصابون بالهستيريا الجماعية.

بلغت نهاية الرواق بدون أن تسمع أحداً ينادي باسمها، الاسم الذي نسيته هي على أي حال. كان الخنثوي في انتظارها.

«لا تقلقي»، قال، وهو للمرة الأولى يُظهر القليل من الإنسانية. «سيحصل الأمر ذاته لآخرين. أو أسوأ. سترين أناساً اعتادوا على أن تتم مناداة أسمائهم، لكنهم سيمرّون الليلة عبر الرواق، والابتسامة تعلو وجوههم، ينتظرون أن يتلقط أحد ما صورتهم، ليكتشفوا وحسب أنه ما من أحد يزعج نفسه».

عليها أن تبقى هادئة ومسيطرة على نفسها. هذه ليست نهاية العالم. لن تظهر أي شياطين بعد.

- آه، لستُ قلقة. فأنا، على العموم، لم أبدأ إلا اليوم. لكن من هي ياسمين؟

- بدأت هي الأخرى اليوم أيضاً. تم الإعلان هنا المساء أنها وقّعت

للتو على عقد هائل مع حميد حسين، لكن ليس للظهور في فيلمه، لذا لا تقلقي.

ليست قلقة. بل إنها تتمنى وحسب، لو أن الأرض تنشق وتبتلعها.

٨:١٢ ب.ظ.

ابتسمي.

ادعي أنك لا تعرفين أن هذا العدد الكبير من الناس مهتم باسمك.

امشي كأنك تمشين على السجادة الحمراء، وليس على ممر العرض.

حاذري، ثمة أناس آخرون يصلون. كمية الوقت المخصصة لتصويرك قد انتهت، ومن الافضل ان تتابعي تحركك.

لكن المصوّرين يصرّون على المناداة باسمها، وتشعر بالارتباك لأنه على الشخص التالي - وهما زوجان في الواقع - الانتظار إلى أن يرضى المصوّرون، وهم لا يرضون أبداً، لأنهم يبحثون دوماً عن الزاوية الفضلى، واللقطة الفريدة (كما لو أن مثل هذا الأمر ممكن)... لقطة لها تنظر فيها مباشرة إلى الكاميرا.

لوّحي الآن بيدك، استمري في الابتسام، وتابعي سيرك.

أحاط بها، وهي تصل إلى آخر الرواق، حشد من الصحافيين. يريدون معرفة كل شيء عن العقد الهائل الذي وقّعته للتو مع واحد من أكثر الخياطين شهرة في العالم. أحبت أن تقول: هذا غير صحيح، لكنها قالت بدلاً من ذلك:

لا نزال ندرس التفاصيل.

أصزوا. تقدم منها مراسل تلفزيوني والمذياع بيده، وسألها إذا كان الخبر أسعدها. قالت إنها تعتقد أن عرض الأزياء بعد الظهر قد جرى في شكل جيد جداً، وأن المصممة - وحرصت على أن تذكرها بالاسم - ستقيم عرضها التالي في خلال أسبوع الموضة في باريس.

بدا أن الصحافي لا يعرف شيئاً عن عرض بعد الظهر، واستمر في طرح الأسئلة، سوى أنه يتم هذه المرة تصويرها.

لا تُسقطي حذرك. أَعطي فقط الأجوبة التي تريدين إعطاءها وليس تلك التي يحاولون استخراجها منك. ادعي أنك لا تعرفين التفاصيل، واكتفي مرّة أخرى بالقول كم أن العرض جرى على ما يرام، وأنه تحيّة استحقت منذ زمن بعيد لآن سالنز، العبقرية المنسية التي من سوء حظها أنها لم تُولد في فرنسا. وسألها شاب، يبدو أنه من النوع الذي يحب المزاح بعض الشيء، هل أنها تستمتع بالحفلة، وأجابته بسخرية مماثلة: حسناً، إذا أعطيتني فرصة للدخول إليها، سأخبرك. وسألتها عارضة سابقة، تعمل الآن مقدمة برامج في أحد تلفزيونات الكابل، عن شعورها بأن تصبح الوجه الحصري لمجموعة ح. ح. المقبلة. وأراد زميل على دراية أكثر، أن يعرف هل صحيح أن معاشها سيكون أكثر من ستة أرقام.

«كان يُفترض أن يضعوا «معاشاً من سبعة أرقام» على البيان الصحافي، ألا تعتقدين؟»، قال. «ألا تعتقدين أن أكثر من ستة أرقام يبدو منافياً للمعقول بعض الشيء؟ أو ربما أفضل، كان يمكنهم القول إنه يفوق المليون يورو، بدلاً من تركنا نُحصي الأرقام، ألا تظنين ذلك؟ وكان يمكنهم في الواقع أن يقولوا «معاشاً من ستة أعداد» بدلا من «ستة أرقام»، ألا تعتقدين ذلك؟».

إنها لا تظن شيئاً.

«نحن لا نزال ننظر فيه»، قالت من جديد. والآن اتركوني أتنشق بعض الهواء. أتسمحون؟ سأجيب عما يمكنني من أسئلتكم لاحقاً».

هذه في الحقيقة كذبة تامة. فهي ستستقل لاحقاً سيارة تاكسي، تقلها مباشرة إلى الفندق.

سألها أحدهم إذا كانت ترتدي ثوباً من تصميم حميد حسين.

عملت دوماً مع... وأعطت مرّة أخرى اسم المصممة. سجّله بعض المراسلين، بينما اكتفى آخرون بتجاهله. فما يريدونه هو أخبار يمكن نشرها. وليس الحقيقة ولا سرد الوقائع.

أنقذتها سرعة حصول الأمور في حفلات كهذه. فقد أخذ المصورون في الرواق بالفعل في الصياح باسم أحد آخر. وفي حركة منظمة، أشبه بحركة الأوركسترا على إيقاع حركة عصا قائدها، استدار الصحافيون المحيطون بها لرؤية أن شخصاً أكثر شهرة قد وصل للتو. استغلّت ياسمين هذا الفراغ وتوجهت إلى الحديقة المسوّرة الرائعة التي تم تحويلها إلى قاعة استقبال، حيث يقوم الناس بالشرب والتدخين والسير صعوداً ونزولاً.

هي ستتمكن قريباً أيضاً من الشرب، والنظر إلى السماء، وسوف تركل التصوينة، وتستدير وتغادر.

إلا أن امرأة شابة وكائناً غريب المنظر جداً - أشبه بمخلوق فضائي في فيلم خيال علمي - يحدقان فيها، ويقطعان عليها الطريق. من الواضح أنهما أيضاً لا يعرفان ما الذي يفعلانه هنا، لذا من الأفضل أن تشرع في محادثة معهما. عزفت عن نفسها. أخرج الكائن الغريب هاتفه من جيبه، ولوى قسمات وجهه، وقال إنه سيعود قريباً.

لا تزال المرأة الشابة تحدّق فيها والنظرة على وجهها تقول: لقد دمّرتِ أمسيتي.

أسفت ياسمين لمجرّد أنها قبلت دعوة الليلة. فقد قام رجلان بتسليمها، بينما كانت هي ورفيقتها تستعدان للذهاب إلى حفل استقبال صغير ينظمه اتحاد الملابس البلجيكي (الهيئة التي تسوّق الموضة وتنظمها في بلدها). لكن ذلك كله ليس بالأخبار السيئة. فلو أنه تم نشر الصورة، فسيظهر ثوبها، وربما شعر أحدهم بما يكفي من الاهتمام بمعرفة اسم المصممة.

بدا الرجلان اللذان سلّما الدعوة مهذبين جداً. قالا إن سيارة ليموزين تنتظر في الخارج، وإنهما متأكدان من أن عارضة بمثل خبرتها ستحتاج إلى ١٥ دقيقة وحسب للاستعداد.

فتح أحدهما حقيبة، وأخرج حاسوباً وطابعة محمولين، وأعلنا أنهما هنا لإنجاز العقد. يتعلّق الأمر وحسب بدوزنة التفاصيل. سيعبئان الشروط، وستقوم وكيلتها - عرفا أن المرأة التي معها هي المفوّضة قانوناً منها - بالتوقيع.

وعدا رفيقتها بكل مساعدة في مجموعتها الجديدة. وقالا لها:

نعم، بالتأكيد، ستحتفظ باسمها على الماركة، بل حتى تستخدم جهاز العلاقات العامة التابع لهم. وأكثر من ذلك، فإن حميد حسين يود أن يشتري الماركة ويقوم بضخ المال اللازم فيها ليضمن حصولها على تغطية وسائل الإعلام الإيطالية والفرنسية والباريسية.

يوجد شرطان: الأول، هو أنه على المسألة أن تُبَتّ هنا والآن، بحيث يمكنهما إرسال ملاحظة إلى الصحافة قبل أن تنتهي عملية طباعة الصحف هذا الليل.

والثاني، سيكون عليها أن تنقل عقدها مع ياسمين تايغر إلى حميد حسين الذي ستعمل ياسمين له حصرياً. وليس ثمة، في النهاية، نقص في العارضات، وستجد المصممة البلجيكية أحداً يحل محلها، إضافة إلى أنها، بوصفها وكيلة ياسمين، ستكسب الكثير من المال.

«أوافق على نقل العقد»، قالت رفيقتها، «لكن سيكون علينا التحدّث في البقية».

كيف أمكن المرأة المسؤولة عن كل ما حصل في حياتها، أن توافق بمثل هذه السرعة، وهي تبدو الآن سعيدة جداً لخسارتها؟ لقد طعنتها المرأة التي أحبتها أكثر ما يكون في العالم، في الظهر.

أخرج أحد الرجلين جهاز اتصاله البلاكبيري المحمول.

سنرسل بياناً صحافياً الآن، ونحن قد كتبناه بالفعل: «أنا أهتز فرحا لأنه أتيحت لي الفرصة....».

تمهّل قليلاً. أنا لا أهتز فرحاً على الإطلاق. ولا أعرف حتى ما الذي تتحدث عنه.

إلا أن رفيقتها أخذت في تحرير النص، وتغيرت عبارة «أهتز

فرحاً»، إلى «سعيدة بالفرصة إلى الدعوة». درست كل كلمة وجملة. طلبت أن يشيرا إلى معاش مرتفع في شكل لا يُعقل. لم يوافق الرجلان، قائلين إن ذلك قد يصيب السوق بالتضخم. وجاء الجواب بأنه لا صفقة إذاً. غادر الرجلان الغرفة لإجراء اتصال هاتفي، وعادا على الفور تقريباً. سيذكران شيئاً غامضاً حول معاش من ستة أرقام، بدون الإشارة إلى المبلغ بالتحديد. تصافحوا جميعا، أشاد الرجلان بكل من المجموعة والعارضة، وأعادا الحاسوب والطابعة إلى الحقيبة، وطلبا من المصممة تسجيل اتفاق رسمي على هاتفيهما المحمولين كإثبات على أن مفاوضاتهم في ما يتعلق بياسمين قد أثمرت. غادرا بمثل السرعة التي وصلا بها، وكل منهما يتحدث على هاتفه المحمول، ويحثان في الوقت ذاته ياسمين على ألا تتأخر أكثر من ١٥ دقيقة، فوجودها في حفلة الليلة يشكل جزءاً من العقد.

«من الأفضل لك إذاً، أن تستعدي»، قالت رفيقتها.

أنت لا تملكين السلطة لتقرري ما أفعله بحياتي. تعلمين بأنني لا أوافق، بل إنك حتى لم تطلبي رأيي. لست مهتمة بالعمل لحساب أي شخص آخر.

ذهبت المرأة إلى الثياب المنتشرة في أنحاء الغرفة، واختارت الأجمل: فستاناً أبيض مزركشاً بالفراشات. وأمضت بعض الوقت تبحث عن الحذاء وحقيبة اليد اللذين على ياسمين ارتداؤهما، فما من وقت تضيّعه.

- لم يقولا شيئاً عن ارتدائك الليلة ثوباً من تصميم ح. ح.، ما يعني أن أمامنا فرصة للتباهي بشيء من مجموعتي.

لم تتمكن ياسمين من تصديق ما تسمعه.

«ألهذا فعلتِ ذلك؟».

- نعم، هو كذلك.

وقفتا قبالة بعضهما البعض، ولم تُشح أي منهما بنظرها.

- أنت تكذبين.

- نعم، أكذب.

وارتمتا في ذراعي بعضهما البعض.

- علمتُ، منذ نهاية الأسبوع تلك على الشاطئ، عندما التقطنا الصور الأولى، بأن هذا اليوم سيأتي. استغرق وقتاً، لكنك في التاسعة عشرة الآن، وقد كبرت بما يكفي لتقبلي بالتحدي. تقدّم مني أناس آخرون من قبل، وكنت دائماً أقول «لا»، ولم أعرف أبداً إذا كان ذلك لأنني لم أُرد أن أخسرك، أم لأنك غير مستعدة تماماً بعدُ. لكنني عندما رأيت اليوم حميد حسين بين الحضور، علمت بأنه ليس هناك لتكريم آن سانز وحسب. وأنه لا بد من وجود أمر آخر في ذهنه، ولا يمكن هذا أن يكون سوى أنت. وبالتأكيد، تلقيت رسالة تقول إنه يريد التحدث معنا. لم أعرف تماماً ماذا عليّ أن أفعل، لكنني أعطيته اسم فندقنا. ولم يشكّل وصول الرجلين مع العقد أي مفاجأة.

- لكن لماذا وافقت؟

- إذا أحببتِ شخصاً، فعليكِ أن تكوني مستعدة لتركه حرّاً. يمكنه أن يقدّم إليك أكثر مما أستطيع، وأنت تحصلين على رضاي. أريدك أن تحصلي على كل ما تستحقينه. سنبقى معاً، لأني لك قلباً وجسداً وروحاً. وسأحتفظ باستقلاليتي، برغم أنني أعلم بمدى أهمية الرعاة في هذا العالم. ولو أن حميد حسين جاءني بعرض لشراء ماركتي، لما واجهت صعوبة في بيعها والذهاب للعمل

معه. إلا أن الصفقة لا تتعلق بي، بل بك. ولو أنني قبلت بالجزء من الصفقة المتعلّق بي، لعنى ذلك أنني غير صادقة مع نفسي.

عانقت ياسمين.

«حسناً، لا يمكنني أن أقبل أيضاً»، أعلنت ياسمين. «لم أكن سوى طفلة خائفة عندما التقيتُ بك، كنت مرعوبة لأنني كذبت في المحكمة، وبائسة لأنني مسؤولة عن ترك مجرم حرّاً، ومكتئبة جداً إلى درجة أنني فكّرت جدّياً في الانتحار. أنت مسؤولة عن كل ما حدث في حياتي».

طلبت منها رفيقتها الجلوس أمام المرآة، وقامت بمداعبة شعرها بحنان قبل القيام بأي شيء آخر.

- عندما قابلتك، كنت قد فقدت أيضاً لذتي بالحياة. هجرني زوجي من أجل واحدة أصغر سنّاً، وأكثر جمالاً، وأشد ثروة، واضطررت إلى أن أصبح مصوّرة لأكسب عيشي، وقد قضيت نهايات الأسبوع في المنزل أقرأ، وأجول في الإنترنت، أو أشاهد أفلاماً قديمة على التلفزيون. بدا أن حلمي الكبير بأن أصبح مصممة أزياء، أخذ يبتعد أكثر فأكثر. لم أستطع الحصول على الدعم المالي الضروري، وقد مللتُ من قرع الأبواب التي لا تُفتح، ومن التحدث إلى أناس لا يسمعون ما أقوله.

وظهرتِ أنت حينها. يجب أن أعترف بأنني، في عطلة الأسبوع تلك، لم أفكر إلا في نفسي. علمت بأنني لدي جوهرة نادرة بين يدي، وأنه يمكنني أن أجني ثروة إذا تمكنت من جعلك توقعين عقداً حصرياً معي. ويبدو أنني أتذكر أنني أوحيت حتى بانه علي أن أصبح وكيلتك. لم أفعل ذلك انطلاقاً من رغبة في حمايتك من

العالم. أفكاري في ذلك الوقت كانت أنانية مثل أفكار حميد حسين: سأعرف كيف أستغل كنزي. وأصبح ثرية بفضل تلك الصور.

وضعت لمساتها الأخيرة على شعر ياسمين.

«وأنت، برغم أنك لم تكوني إلا في السادسة عشرة، أظهرت لي كيف أنه يمكن الحب أن يغير الشخص. فأنا لم أكتشف ذاتي إلا من خلالك. وشرعت، من أجل إظهار موهبتك للعالم، في تصميم الثياب لك لترتديها. ثياب كانت في رأسي كل الوقت تنتظر لتتحول إلى أقمشة، وتطريزات، وأكسسوارات. عشنا معاً، برغم أنني أكبرك بالضعفين. تعلّمنا معاً أيضاً. وبفضل جميع هذه الأمور، أخذ الناس يلاحظون ما أقوم به، وقرروا الاستثمار فيه. وشرعت، للمرة الأولى، في تحقيق أحلامي. وقد سافرنا معاً إلى هنا، إلى «كان»، ولا يمكن أي عقد أن يفرّق بيننا».

ذهبت إلى غرفة الحمام لجلب علبة التبرج، وأخذت نبرتها تصبح أكثر عملية:

- يجب أن تكوني مذهلة حقيقة الليلة. فنادراً ما تصعد العارضات إلى النجومية من مكان مجهول، لذا سيهتم الإعلام كثيراً. قولي وحسب إنك لا تعرفين التفاصيل بعدُ، وهذا يكفي. لكنهم سيستمرون في السؤال، ويحاولون جعلك تقولين أشياء، مثل: «لطالما حلمت بالعمل لصالح حميد حسين»، أو «هذه خطوة مهمة جداً في حياتي المهنية»... إلخ.

نزلت مع ياسمين إلى بهو الفندق، حيث قام السائق المنتظرِ بفتح باب السيارة.

- تذكّري، أنت لا تعرفين تفاصيل العقد بعد، ووكيلتك تهتم بذلك كله. استمتعي بالحفلة.

بدا في الحفلة، أو بالأحرى العشاء - برغم أنها لا ترى لا طاولات ولا طعاماً، بل فقط ندلاء يجوبون المكان يقدّمون جميع الأنواع الممكنة من المشروب، بما في ذلك المياه المعدنية - أن الناس يشكلون مجموعات صغيرة، وكل من يصل وحده يبدو بطريقة ما ضائعاً. الحدث يحصل في حديقة كبيرة مجهّزة بكراسي ذات أيد وأرائك، وتوجد أيضاً أعمدة عدة بعلو ثلاثة أقدام ترقص على كل منها عارضات نصف عاريات على أنغام الموسيقى المتصاعدة من مكبرات للصوت، مركّزة في أماكن استراتيجية.

استمر المشاهير في الوصول. الضيوف يبدون سعداء، يبتسمون ويرحبون ببعضهم البعض كما لو أنهم يعرفون أحدهم الآخر منذ سنوات، برغم أن ياسمين تدرك أن الأمر ليس كذلك. وهم ربما يلتقون بين الفترة والأخرى في مناسبات كهذه، وينسون على الدوام أسماء بعضهم البعض، لكنهم يريدون أن يُظهروا مدى نفوذهم، وشهرتهم، والإعجاب بهم، وحسن علاقاتهم.

كشفت المرأة الشابة التي ظهر عليها في البداية الغضب الشديد، أنها أيضاً تشعر بالضياع التام. طلبت سيجارة وعرّفت عن نفسها. وأصبحت واحدتهما، في غضون بضع دقائق، تعرف قصة حياة الأخرى. قادتها ياسمين إلى الدرابزين المشرف على البحر المتوسط. وقفتا هناك وشرعتا في التحديق في مياهه، بينما الحفلة تمتلئ بالغرباء والمعارف. اكتشفتا أنهما تعملان الآن للرجل ذاته، لكن في

مشروعين مختلفين. لم يسبق لأي منهما أن قابلته، وكل شيء حصل في خلال هذا اليوم الواحد.

حاول رجال من وقت إلى آخر الشروع في حديث معهما، لكن غابرييلا وياسمين تجاهلتاهم. فغابرييلا هي الشخص الذي تحتاج ياسمين إلى اللقاء به، شخص تتقاسم معه الشعور بأنه تم التخلي عنها برغم كلمات رفيقتها المحبة. ولو اضطرت إلى الاختيار بين حياتها المهنية وحب حياتها لاختارت في كل مرة الحب على المهنة، ولا تبالي إذا كان مثل هذا السلوك يبدو مراهقاً. وقد ظهر الآن أن من كانت حب حياتها تريد وضع سيرتها المهنية أولاً، ويبدو أنها وافقت على عرض ح. ح. ليس إلا لأنها تستطيع أن تشعر بالفخر لكل ما فعلته لها، وبالحرص الذي قادت به خطواتها وصححت أخطاءها، والحماسة التي وضعتها في كل كلمة قيلت وقرار اتُّخذ، مهما كان صعباً.

احتاجت غابرييلا أيضاً إلى لقاء ياسمين، لتطلب نصيحتها، وللشعور بأنها أقل وحدة، ولترى أموراً جيدة تحصل لأناس آخرين أيضاً. اعترفت بأنها تشعر بالقلق من أن رفيقها هنا قد هجرها في حين يُفترض به أن يقدّمها إلى مختلف الأناس الذين تحتاج إلى لقائهم.

يعتقد أنه يستطيع التحكم في عواطفه، لكنني أعرف أن ثمة أمراً خاطئاً.

طلبت منها ياسمين عدم القلق، والاسترخاء، وتناول بعض الشامبانيا، والتمتع بالموسيقى والمنظر. تحدث دوماً أمور غير متوقعة، وهناك جيش كامل من الناس المستعدين للتعامل معها بحيث لا يكتشف أحد أبداً حقيقة ما يجري من خلف كواليس كل الثراء والبهرجة هذين. من المؤكد ان النجم سيكون هنا قريباً.

لكن أرجوك، لا تتركيني وحدي، هل فعلت؟ أنا لن أبقى طويلاً.

وعدتها بأنها لن تتركها وحدها. فهي صديقتها الوحيدة في هذا العالم الجديد كلّياً.

نعم، صديقتها الوحيدة، لكن ياسمين فتية جداً إلى درجة أن غابرييلا شعرت فجأة بأنها أكبر من أن تشرع في مسار جديد. فقد أظهر النجم نفسه على أنه سطحي للغاية في خلال الرحلة بالليموزين إلى السجادة الحمراء، وتلاشى سحره كله. وهي، مهما أحبت الفتاة الشابة التي إلى جانبها، تحتاج إلى العثور على رفيق ذكوري لليلة. لاحظت أن الرجل الذي جاء في وقت سابق إلى البار يقف مثلهما إلى الدرابزين يتطلّع إلى البحر وظهره للحفلة، غافلاً عن كل شيء آخر يجري في حفل العشاء. إنه ساحر، وسيم، أنيق، وغامض. وما إن تسنح الفرصة حتى تقترح على صديقتها الجديدة أن تذهبا إليه وتشرعا في حديث لا يهم أي موضوع يتناوله أبداً.

فهذا اليوم هو في النهاية، برغم كل شيء، يوم سعدها، وربما تضمّن العثور على حب جديد.

٨:٢١ ب.ظ.

جلس طبيب علم الامراض، والمفوّض وسافاوا وشخص رابع - لم يتم التعريف عنه، لكنه وصل مع المفوض - حول طاولة مستديرة.

لا تقضي مهمتهم بمناقشة جريمة القتل الأخيرة، بل بوضع بيان مشترك يقدّم إلى الصحافيين المتجمعين في الخارج. هذه المرة مات نجم كبير فعلاً، بينما يقبع مخرج كبير مشهور معلّقاً بين الحياة والموت، في العناية الفائقة، ولا بد من أن وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم قد بعثت برسالة قاسية ولا تحمل التأويل: إما أن تأتونا بشيء يمكننا طبعه. وإما فأنتم مطرودون.

الطب الشرعي واحد من أقدم العلوم، كونه ينخرط كعلم في تعريف السموم وفي إنتاج الترياق. إلا أن الملوك والنبلاء فضلوا دوماً، في الماضي، استخدام «المتذوق الرسمي»، لجزد تفادي أي مفاجآت شنيعة يفشل الاطباء في توقعها.

سبق لسافوا أن التقى بهذا الحكيم في وقت سابق من اليوم. إلا

أنه ترك للمفوض هذه المرة أن يتدخل ويضع حداً لمحاضرة الطبيب المختص.

- كفى تباهياً أيها الطبيب. يوجد مجرم طليق في «كان».

بقي الطبيب ساكن الجوارح.

- ليست لي، بوصفي طبيب علم أمراض، سلطة تحديد ظروف جريمة ما. لا يمكنني إعطاء رأيي في القضية، في استطاعتي فقط أن أحدد سبب الوفاة، والسلاح المستخدم، وهوية الضحية، والوقت التقريبي لارتكاب الجريمة.

- هل ترى رابطاً بين الوفاتين؟ أثمة ما يربط بين جريمتي قتل منتج الأفلام والممثل؟

- بالتأكيد، فكلاهما يعمل في مجال الأفلام.

تضاحك، لكن لم يحرك أحد غيره عضلة واحدة. واضح أنهم يفتقرون إلى حس الفكاهة.

الرابط الوحيد، في الحالتين، هو استخدام مادتين سامتين، كلتاهما تؤثر في الجسم بسرعة هائلة. إلا أن ما يثير الاستغراب حقيقة في الجريمة الثانية، هو الطريقة التي تم فيها تغليف كيانوس الهيدروجين. فقد تضمن المغلف غشاء بلاستيكياً رقيقاً محكم الإقفال، لكنه يتمزّق بسهولة لدى فتح المغلّف.

«هل أمكن صنعه هنا؟»، سأل الرجل الرابع بلكنة أجنبية قوية.

- ممكن، لكنني أشك في ذلك، لأن صناعته في الواقع معقدة جداً، ولأن الشخص الذي صنعه عرف أنه سيستخدم لقتل شخص ما.

- أي أن القاتل لم يصنعه؟

- أشك في ذلك. من المؤكد أنه تم توظيف فريق من المتخصصين لإنتاجه. فيمكن، في حالة الكوراري، أن يكون المجرم ذاته غطّس الإبرة في السم، لكن كيانوس الهيدروجين يتطلّب تقنيات خاصة.

انتقلت أفكار سافوا فوراً إلى مرسيليا، وكورسيكا، وصقلية، وبعض دول أوروبا الشرقية وإلى مجموعات إرهابية في الشرق الأوسط. غادر الغرفة لبرهة، واتصل هاتفياً باليوروبول. شرح خطورة الوضع. وطلب منه لائحة كاملة بالمختبرات المجهزة لإنتاج أسلحة كيميائية من هذا النوع.

أحيل على شخص قال له إنهم تلقوا للتو اتصالاً من وكالة الاستخبارات الأميركية يطلب الأمر ذاته. فما الذي يجري؟

- لا شيء. لكن أرجوك عاود الاتصال بي ما إن تحصل على المعلومات، في الدقائق العشر التالية على أبعد تقدير.

«هذا مستحيل»، قال الصوت في الطرف الآخر. «سنعطيك الجواب ما إن نحصل عليه، ليس قبل أو بعد. يفترض بنا أن نقدّم طلباً...»

أقفل سافوا الخط، وعاد وانضم إلى المجموعة.

«المزيد من الأوراق».

لا بد من أن ذلك هاجس يتملك كل من يعمل في حقل الأمن العام. ما من أحد يريد أن يخاطر باتخاذ خطوة بدون أن يحصل أوّلاً على ضمانة بأن رؤساءه يوافقون على ما يقوم به. وها إن رجالاً لاحت أمامهم في السابق حياة مهنية لامعة، وشرعوا يعملون بأسلوب خلاّق وبحماسة، يجبنون خائفين في إحدى الزوايا، وهم مدركون

المشاكل العظيمة التي يواجهونها: الحاجة إلى التحرك بسرعة، لكن يجب في الوقت ذاته احترام تراتبية السلطة. يسارع الإعلام دوماً إلى اتهام الشرطة بالوحشية، بينما يشتكي دافعو الضرائب من أن الجرائم لا تُحَل أبداً. ومن الأفضل دائماً، لهذه الاسباب معاً، تمرير المسؤولية إلى من هو في موقع أرفع.

لم يكن اتصاله الهاتفي أكثر من مجرّد دور يلعبه. فهو يعرف القاتل، وهو وحده سيمسك به، لا يريد لأي أحد أن ينتش منه مفخرة حلّ أكبر قضية قتل في تاريخ «كان». عليه أن يحافظ على الهدوء، وبرغم ذلك فإنه ملّ انتظار وصول هذا الاجتماع إلى خاتمته.

أبلغه المفوض بعودته إلى الغرفة، أن ستانلي موريس، وهو العنصر السابق في سكوتلانديارد، اتصل للتو من مونتي كارلو يبلغه ألا يقلق لأنه يشك كثيرا في أن المجرم سيستخدم السلاح ذاته مرّة أخرى.

«قد نكون في مواجهة تهديد إرهابي جديد»، قال الاجنبي.

«يُحتمل ذلك، نعم»، أجاب المفوض، «إلا أن آخر ما نريده، على العكس منكم، هو زرع الخوف بين السكان. ما نريد القيام به هو وضع بيان صحافي لمنع الصحافيين من القفز على استنتاجاتهم الخاصة وإذاعتها في أخبار الليلة التلفزيونية. هذه حادثة إرهابية معزولة، وقد يكون قاتل متسلسل متورطاً فيها».

- لكن...

«ليس ثمة من «لكن»»، قالها المفوض بصوت صارم وآمر. «اتصلنا بسفارتكم لأن الميت من بلدكم. أنت هنا بناءً على دعوة منّا. فأنتم، في حالتي الأميركيين القتيلين الآخرين، لم تظهروا أي اهتمام على الإطلاق في إرسال ممثل عنكم، وذلك برغم استخدام

السم أيضاً في واحدة من هاتين الحالتين. لذا، إذا كنت تحاول أن تلمح إلى أننا نواجه نوعاً من التهديد الجماعي يتم فيه استخدام الأسلحة البيولوجية، فيمكنك المغادرة فوراً. نحن لن نحوّل قضية جرمية إلى مسألة سياسية. نريد أن نقيم مهرجاناً آخر في السنة المقبلة بكل بريقه وبهرجته، لذا سنعمل بنصيحة السيد موريس، ونضع بياناً متوافقاً مع ذلك».

لم يقل الأجنبي شيئاً.

استدعى المفوض أحد مساعديه، وطلب منه إبلاغ الصحافيين المنتظرين أنهم سيحصلون على استنتاجاته في غضون عشر دقائق. أخبره الطبيب بأنه يمكن تقفي أثر مصدر كيانوس الهيدروجين لأنه يترك نوعاً من «التوقيع»، لكن تقفي الأثر لا يتم بعشر دقائق، بل يحتاج إلى أسبوع.

- توجد آثار كحول في الدم. كانت البشرة حمراء، والوفاة حدثت تقريباً على الفور. لا يوجد شك حول السم المستخدم، فلو أنه كان حامضاً لوجدنا حروقاً حول الأنف والفم. أما في حالة الحشيشة الحمراء فسيتوسع بؤبؤ العين، و...

- أرجوك، يا دكتور، نعرف أنك درست في الجامعة، ولديك ما يكفي لتبلغنا إياه عن سبب الوفاة، ولا يوجد لدينا أي شك في كفاءتك في هذا المضمار. دعنا نستنتج أنه الكيانوس الهيدروجيني.

هز الطبي برأسه، وعض على شفته مسيطراً على حنقه.

- وماذا بالنسبة إلى الرجل الآخر، الموجود في المستشفى... المخرج السينمائي...

- نعالجه بالأكسيجين النقي، ٦٠٠ ملغ من الكيلوسيانور يُعطَى

له عبر المصل كل ١٥ دقيقة. وإذا لم ينجح ذلك، فيمكننا أن نضيف ثلاثي كبريت الصوديوم المذوب بـ٢٥٪...

عمَّ الغرفة صمت ملموس.

...المعذرة. الجواب هو نعم، سينجو.

دوّن المفوض بعض الملاحظات على ورقة صفراء. يعلم بأنه لم يعد لديه وقت. شكر الجميع وطلب من الأجنبي عدم الخروج معهم كما لو أنه يريد تفادي المزيد من التكهنات غير الضرورية. دخل الحمام وأصلح ربطة عنقه، وطلب من سافوا أن يصلح ربطته أيضاً.

- يقول موريس إن القاتل لن يستخدم السمَّ في المرة المقبلة. فالقاتل، كما أمكنني ملاحظته، يتبع نسقاً ولو أنه نسق غير واع. هل تعلم ما هو؟

سبق لسافوا أن فكّر في هذا وهو يقود سيارته عائداً من مونتي كارلو. نعم، هذا نسق لم يلاحظه حتى تحري سكوتلانديارد العظيم. وهو:

في حالة الضحية على المقعد، كان القاتل قريباً.

الضحية في الغداء: القاتل بعيد.

الضحية على الشاطئ: المجرم قريب.

الضحية في الفندق: المجرم بعيد جداً.

وبالتالي، فإن الجريمة التالية ستُرتكب والضحية على مقربة من المجرم، أو بالأحرى سيكون هذا مخططه ما لم يتم توقيفه في نصف الساعة المقبل. علم بذلك كله من زملائه في مخفر الشرطة الذين أعطوه المعلومة كما لو أنها غير ذات أهمية. بل إن سافوا

أسقطها بدوره في البداية على أنها أيضاً خارجة عن الصدد، لكنها بالتاكيد ليست كذلك. إنها الحلقة المفقودة، الخيط الحيوي، القطعة الوحيدة الناقصة لإتمام الأحجية.

أخذ قلبه يخفق بشدة. لقد حلم طوال حياته بهذا، ولا يمكنه الانتظار حتى انتهاء هذا الاجتماع الذي لا ينتهي.

- هل إنك تستمع؟

- نعم، سيدي.

- انظر، لا يتوقع الناس في الخارج بياناً رسمياً وتقنياً يتضمن أجوبة دقيقة عن أسئلتهم. الواقع أنهم سيفعلون كل ما يستطيعون لجعلنا نقول ما يودّون سماعه، لكن علينا ألا نقع في ذلك الفخ. جاؤوا إلى هنا ليس ليستمعوا إلينا، بل للنظر إلينا، وليتمكن قراؤهم ومشاهدوهم من رؤيتنا أيضاً.

نظر إلى سافوا نظرة فوقية كما لو أنه الشخص الأكثر معرفة على وجه الأرض. يبدو أن موريس وطبيب علم الامراض ليسا الوحيدين اللذين يحبان التباهي بمعرفتهما، وفي الحقيقة أن لكل شخص طريقته في القول: أعرف عملي.

- فكّر بطريقة مظهرية. أعني بذلك تذكّر أن وجهك وجسمك يقولان أكثر مما تقوله الكلمات. تطلّع أمامك مباشرة، أبقِ رأسك مرفوعاً وكتفيك إلى الاسفل وإلى الوراء قليلاً. فالكتفان المرفوعتان تعنيان التوتر، وهما إشارة مؤكّدة إلى أننا لا نملك فكرة عما يجري.

- نعم، سيدي.

سارا إلى مدخل مؤسسة الطب الشرعي. أُضيئت الأنوار، مدّت المنياعات إلى الأمام، وأخذ الناس في التدافع. بعد دقائق قليلة أصبحت هذه الفوضى الظاهرة أكثر انتظاماً. أخرج المفوض قصاصة الورق من جيبه.

- قُتل الممثل بواسطة كيانوس الهيدروجين، وهو سم قاتل يمكن دسه بطرائق مختلفة، إلا أنه هذه المرة استُخدم على شاكلة غاز. نجا مخرج الأفلام من الهجوم. واضح أن وجوده جاء بالصدفة. فقد حصل أنه دخل الغرفة في وقت كانت لا تزال فيه بقايا الغاز في الهواء. وتُظهر صور كاميرات المراقبة الداخلية رجلاً يسير عبر الممشى، يدخل واحدة من الغرف، ويخرج بعد خمس دقائق ويسقط على الأرض.

أغفل القول إن الغرفة المعنية ليست في الواقع في مجال رؤية الكاميرا. والإغفال ليس كذباً.

عمل الطاقم الأمني سريعاً. وبعث في طلب طبيب لاحظ على الفور رائحة اللوز التي كانت عند ذاك قد تحللت كثيراً ولم تعد تسبب أي أذى. استُدعي رجال الشرطة الذين وصلوا إلى المسرح في أقل من خمس دقائق، وضربوا طوقاً حول المنطقة. وجاءت سيارة إسعاف، واستخدم الأطباء الأوكسيجين لإنقاذ حياة المخرج.

أخذ سافوا يشعر بأنه معجب فعلاً بأسلوب المفوض السهل. وتساءل إذا كان على جميع المفوضين تلقي دروس في العلاقات العامة.

- تم تسليم السم في مغلّف، لكننا لم نتمكن بعدُ من التحقق إذا كانت الكتابة على المغلف بيد رجل أو امرأة. وكانت في داخله قصاصة من الورق.

أغفل الإشارة إلى أن التكنولوجيا المستخدمة في إحكام إقفال

المغلف متطورة جداً. وثمة احتمال واحد من مليون في أن واحداً من الصحافيين الموجودين سيعرف هذا، برغم أنه لن يمكن تفادي هذا النوع من الأسئلة في وقت لاحق. وأغفل كذلك عن ذكر أن رجلاً آخر في صناعة السينما قد تسمم بعد ظهر اليوم ذاته. ويعتقد الجميع، على ما يبدو، أنه مات من جراء ذبحة قلبية برغم أن أحداً لم يقل في الواقع لهم ذلك. من المفيد أحياناً أن تقوم الصحافة - بسبب الكسل أو عدم الانتباه - باستخلاص نتائجها الخاصة بدون إزعاج الشرطة.

كان السؤال الأول، ماذا كُتب على الورقة؟

شرح المفوض أنه لا يستطيع الكشف عن الأمر الآن، لأن قيامه بذلك قد يُعيق التحقيق. أخذ سافوا يرى الاتجاه الذي يوجّه إليه هذه المقابلة وقد ملأه الإعجاب، فهو حقيقة يستحق منصبه كمفوض.

«هل يمكن أن تكون جريمة حب؟»، سأل آخر.

- كل شيء ممكن حتى اللحظة. والآن، اعذروني أيتها السيدات والسادة، فعلينا العودة إلى العمل.

صعد إلى سيارته. أدار صفارة الإنذار، وابتعد مسرعاً. وسار أيضاً سافوا إلى سيارته وهو يشعر بالفخر الشديد برئيسه. يا للعجب! أمكنه أن يتخيل العناوين منذ الآن: نجم يُعتقد أنه ضحية جريمة حب.

من المؤكد أن هذا سيأسر اهتمام الناس. فقوة الشهرة كبيرة إلى حد أنه لن تتم ملاحظة الجرائم الاخرى. من يبالي بفتاة شابة فقيرة ربما ماتت من تأثير المخدرات، وقد تم العثور عليها على

مقعد بالقرب من الشاطئ؟ وهل يهم إذا أصيب موزع أفلام محنّى الشعر بنوبة قلبية على الغداء؟ وماذا هناك ليقال عن جريمة - جريمة حب أخرى - راح ضحيتها شخصان نكرتان لم تسلَّط أبداً عليهما الضوء، عند شاطئ بعيد عن هرج المهرجان ومرجه؟ إنه نوع الأشياء التي تظهر ليلياً على أخبار التلفزيون، إلا أن الإعلام سيبقى يخمّن في شأنه إذا كان المعني من المشاهير الكبار! كما أنه يوجد مغلف! وقصاصة ورق كُتب عليها شيء!

أشعل صفارة الإنذار واستدار في الاتجاه المعاكس لمخفر الشرطة. استخدم جهاز لاسلكي السيارة حتى لا يُثير الشبهات. وها قد عثر أخيراً على موجة المفوض.

- تهانينا!

والمفوض بالأحرى مسرور من نفسه. لقد كسبا بضع ساعات، قد تكون ربما أياماً إضافية، إلا ان كلاً منهما يعرف أنهما يتعاملان مع قاتل متسلسل، ذكر، حسن الملبس، ذي شعر أخذ يدب فيه الشيب، وهو في حوالى الأربعين، ومسلح بأسلحة متطورة. رجل خبير أيضاً فن القتل، وقد يضرب بسهولة من جديد، في أي وقت برغم أنه قد يكون اكتفى بالجرائم التي ارتكبها بالفعل.

«أرسِلْ شرطيين إلى جميع حفلات المهرجان»، أمر المفوض، «عليهم أن يبحثوا عن أي رجال وحدهم يطابقون هذا الوصف. اطلب منهم إبقاء أي مشتبه فيه تحت المراقبة. اطلب تعزيزات. أريد رجال شرطة مدنيين يرتدون ملابس لا تلفت النظر تتناسب مع محيطهم، إما بالجينز وإما ثياب السهرة. وأكرر، أريدهم في جميع الحفلات، حتى لو اضطررنا إلى تعبئة شرطة السير أيضاً».

نفّذ سافوا على الفور ما طُلب منه. وقد تلقى للتو رسالة على

هاتفه النقال. اليوروبول تحتاج إلى المزيد من الوقت، ثلاثة أيام على الأقل، لتقفي المختبرات.

- دعني أحصل على ذلك خطّياً، اتسمح؟ لا أريد أن أُحمّل المسؤولية إذا ما حدث أمر خاطئ آخر.

تضاحك بهدوء. طلب منهم إرسال نسخة أيضاً إلى العميل الأجنبي، بما أنه شخصياً لم يعد مهتماً بالمسألة. قاد بأسرع ما يمكنه إلى فندق المارتينيز. ترك سيارته عند المدخل قاطعاً الطريق على سيارات الأناس الآخرين. وعندما اشتكى البواب أظهر له بطاقة الشرطة، ورمى له بالمفاتيح بحيث يمكنه ركن السيارة في مكان آخر، وركض إلى الفندق.

صعد إلى غرفة خاصة في الطابق الأول حيث ينتظره أحد ضباط الشرطة إلى جانب مديرة الدوام وأحد الندلاء.

«إلى متى سيكون علينا البقاء هنا؟»، سألت مديرة الدوام. تجاهلها سافوا واستدار إلى النادل.

- أمتأكد أنت من أن المرأة المقتولة، التي ظهرت صورها في الأخبار، هي المرأة نفسها التي كانت جالسة في الشرفة بعد ظهر هذا اليوم؟

- نعم يا سيدي، تمام التأكيد. وهي تبدو أصغر سناً في الصورة بشعرها المصبوغ، إلا أنني معتاد على تذكّر وجوه النزلاء، في حال حاول أحدهم المغادرة بدون أن يدفع.

- وهل أنت متأكد من أنها كانت مع النزيل الذي حجز الطاولة في وقت سابق؟

- بكل تأكيد. رجل جميل المحيا في حوالى الاربعين، وشعره أخذ يدب فيه الشيب.

كاد قلب سافوا يقفز من فمه. استدار إلى المديرة والشرطي:

- لنذهب مباشرة إلى غرفته.

«ألديك مذكّرة تفتيش؟»، سألت المديرة.

فرقعت أعصاب سافوا:

- لا. ليس لدي! ولن أعبئ المزيد من الطلبات! أتعرفين ما الخطأ في هذا البلد، يا سيدتي؟ جميعنا طيّعون أكثر من اللازم! وهذه في الواقع ليست مشكلة مختصة بنا، بل تنطبق على العالم بأسره! هل تنصاعين إذا أرادوا إرسال ابنك إلى الحرب؟ هل ينصاع ابنك؟ بالتأكيد! حسناً، بما أنك على هذا القدر من الانصياع، فإما أن تأخذيني إلى تلك الغرفة، وإما أعمل على اعتقالك بتهمة المشاركة والتحريض!

بدت المرأة مرتعبة عن حق. سلكا الطريق، مع الشرطي الآخر، إلى المصعد الذي ينزل، ويتوقف عند كل طابق، غير مدرك أن حياة إنسانية تتوقف على السرعة التي يمكن هؤلاء المنتظرين العمل فيها.

قرروا صعود الدرج بدلاً من ذلك. اشتكت المديرة لأنها ترتدي كعباً عالياً، إلا أن سافوا طلب منها ببساطة خلع حذائها وتسلق الدرج حافية. هرعوا صعوداً على الدرجات الرخامية، متمسكين بالدرابزين البرونزي تفادياً للوقوع، ومازين في مختلف مناطق الانتظار في طريقهم. تساءل الناس عمن تكون المرأة الحافية، وماذا يفعله رجل شرطة ببزته في الفندق راكضاً هكذا على الدرج. أحصل أمر سيئ؟ إذا كان كذلك، فلماذا لم يأخذوا المصعد؟ وقالوا في أنفسهم إن المقاييس تتراجع بالتأكيد في المهرجان، لم تعد الفنادق انتقائية كالسابق في شأن نزلائها، والشرطة تتعامل مع المكان كما لو أنها تغير على بيت للدعارة. وهم، ما إن تسنح لهم

الفرصة، سيشتكون إلى المديرة، التي لا يعرفون أنها المرأة الحافية نفسها التي رأوها للتو تتوجه صاعدة على الدرج.

بلغ سافوا والمديرة أخيراً باب الجناح الذي ينزل فيه المجرم. وكان أحد أعضاء الفريق الأمني قد سبق وأرسل شخصاً إلى فوق لمعرفة ما يجري. تعرف إلى المديرة وسألها إذا كان يستطيع تقديم المساعدة.

طلب منه سافوا أن يتكلم بهدوء أكبر، لكن نعم، يمكنه المساعدة. هل هو مسلح؟ قال الحارس إنه كذلك.

- إذاً، من الأفضل ان نبقى هنا.

كانوا يتحدثون همساً. طلب من المديرة أن تقرع الباب بينما وقف الرجال الثلاثة - سافوا، رجل الشرطة، والحارس الأمني - جانباً، وظهورهم إلى الجدار. أخرج سافوا مسدسه من قرابه، وحذا الشرطي الآخر حذوه. قرعت المديرة مرات عدة على الباب ولم تحظ بجواب.

- لا بد من أنه خرج.

طلب منها سافوا استخدام المفتاح الرئيسي. شرحت له أنها لا تحمله معها، وحتى لو حملته فإنها لن تفتح الباب إلا بإذن من المدير الإداري.

ردّ سافوا هذه المرة بتهذيب:

- لا يهم. سأنزل وأنتظر في غرفة المراقبة مع فريق الأمن. سيعود عاجلاً أم آجلاً، وأود أن أكون أول من يستجوبه.

- لدينا نحن صورة عن جواز سفره ورقم بطاقة اعتماده. لماذا أنت مهتم به بهذا القدر؟

- آه، لا يهم!

٩:٠٢ ب.ظ.

على مسافة نصف ساعة بالسيارة من «كان»، في بلد آخر يتحدث أهله اللغة ذاتها، ويستخدم العملة عينها، وليس فيه نقاط تفتيش حدودية، لكن نظامه السياسي يختلف كلّياً عن فرنسا - يحكمه أمير، كما في الأيام الخوالي - جلس رجل أمام حاسوبه. تلقى منذ ربع ساعة بريداً الكترونيا يبلغه أن ممثلاً شهيراً قد قُتل.

درس موريس صورة الضحية. فهو منذ دهور لم يذهب إلى السينما، وليست لديه أي فكرة عمّن هو. لكن لا بد من أنه شخص مهم بسبب وجود تقارير عن وفاته في أحد المواقع الإخبارية.

قد يكون موريس متقاعداً، لكن أموراً كهذه اعتادت أن تعادل لعبة الشطرنج بالنسبة إليه؛ لعبة نادراً ما سمح فيها لخصمه بالفوز. ليست سيرته المهنية على المحك الآن، بل اعتداده بالنفس.

ثمة قواعد معينة لطالما أحب أن يتبعها عندما عمل في سكوتلانديارد، وإحداها أن يخرج بما أمكنه من الفرضيات المعيبة.

هنا يحرر الذهن لأنك لا تتوقع بالضرورة أن تصيب. وقد اعتاد، في الاجتماعات الطويلة المملة للجان تقييم العمل، أن يستمتع باستثارة الأناس الموجودين: كل ما تعرفونه هو نتيجة خبرة تراكمت على مر سنوات من العمل. إلا أن هذه الحلول القديمة لا تنفع إلا إذا طُبّقت على مشاكل قديمة. إذا أردتم أن تكونوا مُبدعين، فحاولوا أن تنسوا أنكم تملكون هذه الخبرة كلها.

يدعي الأعضاء الأقدم في مثل هذه اللجان، أنهم يدونون الملاحظات، بينما ينظر إليه الأصغر سناً بهول، ويستمر الاجتماع كما لو أنه لم يقل شيئاً. لكنه يعلم بأنهم تلقوا الرسالة في شكل واضح، وسرعان ما سيبدأ رؤساؤه - بدون أن يعطوه أي فضل بالتأكيد - في طلب المزيد من الأفكار الجديدة.

طبع الملفات التي أرسلتها شرطة «كان». وهو في العادة يتحاشى استخدام الورق حتى لا يُتهم بأنه قاتل متسلسل للغابات، لكن ذلك ضروري أحياناً.

شرع في دراسة طريقة ارتكاب الجرائم. توقيت اليوم (صباحاً، بعد الظهر وليلاً)، الأسلحة (اليدان، السم، السكين الرفيعة)، نوع الضحية (رجال ونساء من مختلف الأعمار)، قرب الضحايا أو بعدها (اثنان تطلّبا احتكاكاً مباشراً، واثنان لم يستدعيا أي احتكاك على الإطلاق)، رد فعل الضحايا على المعتدي (لا رد فعل واحداً في جميع الحالات).

عندما يشعر بأنه بلغ جداراً مسدوداً، فإن أفضل الأمور هي في ترك أفكاره تهيم لفترة، بينما يمضي عقله اللاواعي في العمل. فتح شاشة جديدة على الحاسوب تظهر فيها بورصة نيويورك. لا يمكن الأمر أن يكون أكثر ضجراً بما أنه لا يملك مالاً يستثمره في الأسهم، لكن الأمر يعمل بهذه الطريقة: سنوات خبرته تحلل

جميع المعلومات التي تلقاها حتى الآن، ويأتيه حَدْسه بأجوبة جديدة وخلاّقة. عاد بعد عشرين دقيقة إلى الملفات، وقد أفرغ رأسه من جديد.

العملية نجحت. فثمة أمور مشتركة بين عمليات القتل.

القاتل رجل مثقف. لا بد من أنه أمضى أياماً وأسابيع في إحدى المكتبات يدرس الطريقة الأفضل لتنفيذ مهمته. يعرف كيفية التعامل مع السموم، ومن الواضح أنه لم يلمس الكيانوس الهيدروجيني بيده. يعرف ما يكفي من علم التشريح ليتمكن من غرز السكين في المكان المناسب تماماً بدون أن يصطدم بعظمة، وليقتل شخصاً بيديه العاريتين. يعرف عن الكوراري وقدرته القاتلة. وهو ربما قرأ عن القتل المتسلسل، وسيدرك أن توقيعاً ما يدلّ الشرطة دوماً إلى المهاجم، لذا ارتكب جرائمه بطريقة عشوائية تماماً بدون أي طريقة تنفيذ محددة على الإطلاق.

إلا أن ذلك مستحيل. فالعقل اللاواعي للقاتل يتجه إلى ترك توقيع ما، لم يتمكن موريس بعدُ من فك رموزه.

لكن ثمة أمراً أكثر أهمية: من الواضح أنه يملك المال، بما يكفي لمتابعة دورة في السامبو، من أجل أن يتأكد في شكل مطلق من نقاط الجسم التي يحتاج إلى الضغط عليها لشل ضحيته. ولديه أيضاً اتصالات: فهو لم يشتر هذه السموم من صيدلية الحي، ولا حتى من عالم الإجرام المحلي الخفي. إنها أسلحة بيولوجية معقدة جداً، تتطلب عناية كبيرة في نقلها وتطبيقها. لا بد من أنه جعل أناساً آخرين يحصلون عليها لحسابه.

وأخيراً، فإنه يعمل على نحو سريع جداً، ما دفع بموريس إلى

الاستنتاج أنه لن يبقى طويلاً.. ربما أسبوعاً، وربما أياماً إضافية قليلة.

إلى أين يقوده هذا كله؟

السبب في أنه لا يصل إلى استنتاج الآن، هو أنه تعوّد على قواعد اللعبة. فقد البراءة التي طالما طلبها من مرؤوسيه. هذا ما يفعله العالم بالناس، فنحن نصبح، بالتدريج عبر السنين، أناساً دون الوسط، نهتم بألا يُنظر إلينا بوصفنا غريبين أو مبالغين في الحماسة. والتقدم في السن يُعتبر وصمة، وليس رمزاً للحكمة. ويفترض الناس أنه ما من شخص تجاوز الخمسين يستطيع أن يماشي سرعة التغيير في أيامنا هذه.

صحيح أنه لا يستطيع الركض بالسرعة التي يريدها، وهو يحتاج إلى نظارات للقراءة، لكن ذهنه لا يزال حاداً كالسابق، أو على الأقل هذا ما يريد أن يعتقده.

لكن، ماذا بالنسبة إلى هذه الجريمة؟ لماذا لا يستطيع حل أمر يبدو بمثل هذه السهولة لو أنه على هذا القدر من الذكاء الذي يعتقده؟

لا يستطيع الوصول إلى ما هو أكثر الآن. عليه أن ينتظر إلى أن تظهر الضحية التالية.

١١:٩ ب.ظ.

مر به زوجان، ابتسما وهنآه على حظه في وجود مثل هاتين السيدتين الرائعتين إلى جانبه!

شكرهما إيغور، لأنه يحتاج حقيقة إلى صرف ذهنه. فقريباً سيحصل اللقاء الذي طال انتظاره، وهو، برغم أنه متعوّد على جميع أنواع الضغوط، يذكّر نفسه بالدوريات التي اضطر إلى القيام بها على مقربة من كابول، وكيف أنه، قبل كل مهمة خطرة، كان ورفاقه يشربون ويتحدثون عن النساء والرياضة... يثرثرون كما لو أنهم ليسوا في أفغانستان بل عادوا إلى ديارهم يجلسون حول الطاولة مع العائلة والأصدقاء. إنها طريقة لتهدئة أعصابهم واستعادة هويتهم الحقيقية، ويشعرون معها بأنهم أكثر استعداداً للتحديات التي سيواجهونها في اليوم التالي.

وهو، كأي جندي جيّد، يعرف أن للمعارك علاقة بالغايات والأهداف أكثر من القتال الفعلي. وكأي استرتيجي جيّد - وقد بنى، في النهاية، شركته من لاشيء لتصبح واحدة من الأكثر

احتراماً في روسيا - يعرف أن هدف الشخص يجب أن يبقى دوماً نفسه، حتى لو تغير دافعه مع الوقت. وهنا ما حصل اليوم؛ وصل إلى «كان» لسبب واحد، لكنه لم يفهم، إلا عندما تصرّف، الدوافع الحقيقية وراء ما يقوم به. كان أعمى طوال تلك السنين، إلا أنه يستطيع الآن رؤية الضوء. لقد جاءه الوحي أخيراً.

ولأجل هذا بالتحديد، يحتاج إلى المتابعة. فالقرارات التي اتخذها تتطلب شجاعة، ودرجة من الانفصال، بل أحياناً بعض الجنون، ليس نوع الجنون الذي يدمّر، بل ذلك الذي يدفع بالانسان إلى ما هو أبعد من حدوده. وهو لطالما بقي الشخص نفسه، وقد فاز بالتحديد لأنه عرف كيف يستخدم ذلك الجنون المضبوط لاتخاذ قرار ما. وكان أصدقاؤه ينتقلون بسرعة مدهشة من قولهم «هذا خطر جداً» إلى «لطالما علمنا بأنك تقوم بالصواب». امتلك القدرة على مفاجأة الناس، وعلى أن يأتي بأفكار جديدة، وفوق ذلك كله: على ركوب أي مخاطر ضرورية.

إلا أنه، هنا في «كان» - ربما بسبب عدم مؤالفته المكان، ولأنه لا يزال مشوشاً من قلة النوم - قام بمخاطر غير ضرورية؛ مخاطر أمكنها أن تجبره على إجهاض خطته بأبكر مما هو متوقع. ولو أن ذلك حصل، لما أمكنه أبداً بلوغ وضعه الواضح الراهن؛ الوضع الذي يسلّط نوراً مختلفاً كلّياً على المرأة التي اعتقد أنها محبوبته، وظن أنها تستأهل التضحية والشهادة معاً. تذكّر اللحظة التي توجه فيها إلى رجل الشرطة للاعتراف. عندها بدأ التغيير. عند هذا الحد شرعت روح الفتاة ذات الحاجبين الداكنين في حمايته، وفي أن تشرح له أنه يقوم بالأمور الصائبة، لكن للأسباب الخطأ. فتكديس الحب يجلب الحظ، وتكديس الحقد يجلب الكارثة. فكل من يقف

عند باب المشاكل ويفشل في التعرف إليه، قد ينتهي إلى تركه مفتوحاً، ويسمح للمآسي بالدخول.

رضي بحب الفتاة الشابة. فهو أداة الله التي أُرسلت لإنقاذها من مستقبل مظلم، وها هي الآن تساعده على الاستمرار.

وهو مدرك أيضاً أنه، برغم الاحتياطات الكثيرة التي ربما اتخذها، لا يمكن أن يكون فكّر في كل شيء، وأنه قد يتم اعتراض مهمته قبل وصولها إلى نهايتها. إلا أنه ما من سبب للندم أو الخوف. لقد فعل ما في وسعه، وتصرّف بلا عيب. وإذا لم يُرد الله له أن يكمل مهمته، فما عليه إلا أن يقبل بحكمه.

«استرخِ»، قال لنفسه. «تحدَّث مع الشابتين إلى جانبك. دع عضلاتك ترتح بعضَ الشيء قبل الضربة الأخيرة، فبهذه الطريقة ستصبح أكثر استعداداً». بدت غابرييلا - الشابة التي كانت وحدها على البار لدى وصوله - مثارة جداً. وكلما جاء النادل بالمزيد من الشراب تناوله كأسها، حتى وهي نصف ملآنه، وتأخذ واحدة جديدة محلها.

«أحبها عندما تكون مثلجة تماماً!»، قالت.

أصابته سعادتها ببعض العدوى أيضاً. فهي، على ما يبدو، وقّعت عقداً للظهور في فيلم، برغم أنها لا تعرف لا عنوان الفيلم ولا الدور الذي ستلعبه. لكنها ستكون، بحسب تعبيرها، الممثلة الأولى. ويُعرف عن المخرج أنه يختار ممثلين جيدين ونصوصاً جيدة، والممثل الذي يلعب دور البطل، ويعرفه إيغور ويحترمه، يستأهل التقدير بالتأكيد. وعندما ذكرت اسم المخرج، هزّ برأسه عارفاً، كما ليقول، «نعم طبعاً، أعرف من هو»، مدركاً أنها ستفسّر هزة الرأس على أنها تعني: لا فكرة لدي عمّن هو، لكنني لا أريد أن

أبدو جاهلاً. ثرثرت في شأن غرفة ملأى بالهدايا، والسجادة الحمراء، واجتماعها على اليخت، وعملية الاختيار المتشددة التي مرت بها، والمشاريع المستقبلية...

- توجد، في هذه اللحظة بالذات، آلاف الشابات في «كان»، والملايين حول العالم، يوددن أن يكن هنا الليلة، يتحدثن معك ويتمكن من إخبار هذه الروايات. استجيبت صلواتي، وكوفئت جميع جهودي.

بدت الشابة الاخرى أكثر تحفظاً، لكن أكثر حزناً أيضاً. ربما بسبب سنّها وقلّة خبرتها. كان إيغور هناك عندما سارت عبر الرواق وسمع المصورين ينادونها باسمها، ويلجّون في طرح الأسئلة عليها. وبرغم ذلك، يبدو أن الأناس الآخرين في الحفلة لا يملكون فكرة عمّن هي. فقد حصل طلب كبير عليها في البداية، ومن ثم تم إسقاطها فجأة.

ربما أن المرأة الثرثارة هي التي قررت الاقتراب منه وسؤاله عما يفعله هناك. شعر في البداية بأنه مُكرَه بالأحرى، لكنه عرف أنهما لو لم تتقربا منه فسيفعل ذلك أناس متوحدون آخرون ليتفادوا الانطباع بأنهم ضائعون ووحدهم في الحفلة بدون أصدقاء. لهذا رخب بحديثهما، أو بالاحرى برفقتهما برغم أن ذهنه في مكان آخر. قال لهما إن اسمه غانتر، وشرح أنه صناعي ألماني متخصص في الآليات الثقيلة (موضوع يضمن أنه لن يثير اهتمام أحد)، وقد دعاه أصدقاء له إلى هنا. وسيغادر في الغد (وهو ما أمل أن يكون صحيحاً، لكن الله يعمل بطرائق غامضة).

كانت الممثلة تبتعد عندما علمت بأنه لا يعمل في صناعة السينما، ولن يبقى طويلاً في المهرجان، إلا أن الفتاة الأخرى أوقفتها قائلة إنه من الجيد دائماً لقاء أناس جدد. وها هم: هو ينتظر

الصديق الذي لم يعط أي إشارة على وصوله، والممثلة تنتظر مساعدها الذي اختفى، والفتاة الهادئة لا تريد شيئاً على الإطلاق سوى القليل من الهدوء.

فجأة، لاحظت الممثلة كتلة ما على سترته الرسمية، وقبل أن يتمكن من إيقافها، مدت يدها لتسويتها. وقالت:

- آه، أتدخّن السيجار؟

يا للراحة، تعتقد أن الشيء الذي في جيب سترته سيجار.

- نعم، لكن فقط بعد العشاء.

- إذا أحببت، يمكنني دعوتكما معاً إلى حفلة على اليخت الليلة. لكنني أحتاج أولاً إلى العثور على مساعدي.

أوحت الفتاة الاخرى بأنها ربما تتسرع بعض الشيء. فهي لم توقع سوى على فيلم واحد وأمامها طريق طويل تجتازه قبل أن تحيط نفسها بالأصدقاء (أو بـ «الحَشَم»، هذه الكلمة المستخدمة عالمياً لوصف الطفيليين الذين يحومون حول المشاهير). عليها أن تحترم القواعد وتذهب إلى الحفلة وحدها.

شكرتها الممثلة على النصيحة. ثم مر نادل، فوضعت مرة أخرى كأسها الشامبانيا نصف الملآنة على الصينية وأخذت واحدة أخرى.

«أعتقد أنه عليك التوقف عن الشرب بهذه الكثرة والسرعة»، قال إيغور - غانتر، وأخذ الكأس منها برفق وأفرغ محتواها من فوق الدرابزين. قامت بحركة يائسة، ثم وافقت على أنه محق، مدركة أنه يحمل مصلحتها الفضلى في قلبه.

«أنا شديدة الإثارة»، قالت. «أحتاج إلى أن أهدأ قليلاً. أتعتقد أنه في وسعي تدخين واحد من سيجاراتك؟».

- أخشى أنه ليس معي سوى واحد. ثم إنه مُثبت علمياً أن النيكوتين مهيج وليس مسكناً.

سيجار. في الحقيقة أنهما متشابهان في الشكل، لكن هذا كل ما هو مشترك بينهما. لديه في جيب سترته كاتم للصوت. يبلغ طوله نحو أربعة إنشات، ويمكنه، ما إن يتم تثبيته على أسطون البيريتا الموجود في جيب سرواله، أن يصنع المعجزات من خلال تحويل «طاخ!» إلى «تك».

ذلك أنه عندما يتم إطلاق النار من مسدس، تبدأ بعض قوانين الفيزياء القليلة في العمل. تخف سرعة الرصاصة بعض الشيء، وتجبر على المرور عبر سلسلة من الحواجز المطاطية. وفي غضون ذلك، تملأ الغازات الناتجة عن إطلاق المسدس الغرفة الفارغة حول الأسطون، فتبرد بسرعة وتكتم ضجة البارود المنفجر. ولا فائدة من الكاتم لإطلاق النار من بعيد، لأنه يؤثر في مسار الرصاصة، لكنه مثالي لإطلاق النار عن كثب.

أخذ إيغور يعيل صبره. أيمكن أن إيوا وزوجها ألغيا الدعوة؟ أو هل يمكن - وللحظة دار رأسه - أنه دس المغلف تحت باب الجناح الذي ينزلان فيه؟

لا، ليس ذلك ممكناً، سيكون بمثابة ضربة حظ سيئة. فكّر في عائلات الذين ماتوا. لو أن هدفه الوحيد لا يزال استعادة المرأة التي هجرته من أجل رجل لا يستحقها، لراح عمله كله سُدًى.

أخذت سكينته تتمزق. أيمكن أن يكون هنا سبب عدم محاولة إيوا الاتصال به برغم جميع الرسائل التي بعث بها إليها؟ لقد اتصل مرتين بصديقهما المشترك فقط ليقال له إنه ما من أخبار.

أخذ شكّه يتحوّل إلى يقين. نعم، الزوجان كلاهما مات. وهذا ما يفسّر الرحيل المفاجئ لمساعد المثلة، ولماذا لا يُتعب أحد نفسه مع العارضة ابنة التسعة عشر عاماً التي يُفترض أن تظهر إلى جانب الخياط العظيم.

هل الله يعاقبه لأنه أحب امرأة لا يستحقها، وأحبها كثيراً جداً؟ لقد استخدمت زوجته السابقة يديه لخنق شابة حياتها كلها أمامها، وربما قد تذهب إلى حد اكتشاف علاج للسرطان أو طريقة لجعل البشرية تدرك أنها تدمر الأرض. ربما لم تعرف إيوا شيئاً عن جريمة القتل، وبرغم ذلك فهي التي جعلته يستخدم تلك السموم. كان واثقاً من أنه سيضطر إلى تدمير عالم واحد فقط، وأن الرسالة ستبلغ المرسَلة إليها المقصودة. أخذ ترسانته الصغيرة معه وهو يعلم بأنها ليست إلا مجرّد لعبة، متأكداً من أنها في الليلة الأولى ستقصد الحانة من أجل كأس من الشامبانيا قبل الانضمام إلى الحفل، وتشعر بوجوده هناك، وتدرك أنه تمت مسامحتها على كل الشر والدمار اللذين أفلتتهما من عقالهما من حولها. يعلم، استناداً إلى البحث العلمي، بأنه يمكن الأناس الذين أمضوا وقتاً طويلاً معاً، الإحساس بوجود شريكهم في مكان ما، حتى لو لم يعلموا بمكانه بالضبط.

ذلك لم يحصل. فلامبالاة إيوا في الليلة الماضية - أو ربما شعورها بالذنب لما فعلته به - منعتها من ملاحظة الرجل الذي يحاول الاختباء وراء أحد الأعمدة، لكنه ترك على الطاولة صحفاً اقتصادية روسية مختلفة كانت لتشكل دليلاً واضحاً بما يكفي لإنسانة

تبحث باستمرار عمّا أضاعته. عندما يقع المرء في الحب يتخيّل وجود حب حياته في كل مكان: في الشارع، في حفلة أو في مسرح، لكن إيوا ربما استبدلت الحب بحياة البهرجة.

أخذ يشعر بهدوء أكبر الآن. إيوا أقوى سمّ على الأرض، ولا يهم إذا قتلها الكيانوس الهيدروجيني، لأنها تستحق ما هو أسوأ بكثير.

واصلت الشابتان الحديث، بينما ابتعد إيغور عنهما. لا يستطيع السماح للخوف من أنه قد يكون دمّر عمله، بأن يجتاحه. يحتاج إلى الوحدة، والهدوء، والقدرة على الاستجابة بسرعة لأي تغيير مفاجئ في الاتجاه.

توجّه صوب مجموعة أخرى من الناس يناقشون بحدّة الأساليب المختلفة للامتناع عن التدخين. هذا واحد من المواضيع المفضّلة في ذلك العالم الخاص: أن تُظهر لأصدقائك أنك تملك ما يكفي من قوة الإرادة لقهر خصمك. وكي يبعد ذهنه عن أمور أخرى، أشعل سيجارة مدركاً جيداً أن هذا يشكل عملاً استفزازياً.

«تعرف أن هذا مضر جداً بصحتك»، قالت امرأة نحيلة كالهيكل العظمي مشلشلة بالماس، وتحمل بيدها عصير البرتقال.

«مجرّد أن يكون الإنسان حيّاً مضر بالصحة»، أجاب. «الأمر ينتهي دوماً بالموت، عاجلاً أم آجلا».

ضحك الرجال. نظرت النساء إلى القادم الجديد باهتمام. إلا أنه، في هذه اللحظة بالذات، في الرواق - على بعد نحو عشرين متراً من حيث يقف - أخذ المصورون في الصراخ:

- حميد! حميد!

أمكنه، حتى من بعيد، وقد حجب عنه الناس الذين يسيرون

في الحديقة المنظر، رؤية الخياط ورفيقته، المرأة ذاتها التي دخلت غرفاً معه في أماكن أخرى من العالم. المرأة نفسها التي اعتادت أن تمسك بذراعه بطريقة ودودة، رقيقة، وأنيقة.

لكن، قبل أن يتسنى له الوقت لإطلاق تنهيدة ارتياح، لفت أمرٌ آخر انتباهه وجعله ينظر بعيداً: دخل رجل للتو من الجانب الآخر للحديقة بدون أن يوقفه أي من الحراس الأمنيين. نظر الرجل إلى هذا الجانب وذاك كما لو أنه يبحث عن شخص ما، إلا أنه من الواضح أن هذا الشخص ليس صديقاً ضاع بين الحشود.

عاد إيغور، بدون أن يودّع المجموعة التي يقف معها، إلى الشابتين اللتين لا تزالان تقفان عند الدرابزين تتحدثان. أخذ يد الممثلة بيده وتلا صلاة صامتة للفتاة ذات الحاجبين الداكنين. طلب الغفران لأنه شكّك، لأننا نحن البشر لا نزال على قدر كبير من التلوث، عاجزين عن إدراك النِّعَم التي تُنزل علينا بسخاء.

«أنت تتحرك بسرعة بعض الشيء، أليس كذلك؟»، قالت الممثلة بدون ان تحاول الابتعاد.

نعم، أنا كذلك، لكن نظراً إلى ما قلته لي، فكل شيء في حياتك يتحرك بسرعة اليوم.

ضحكت. كذلك ضحكت الفتاة الحزينة. مرّ الشرطي بدون أن يلاحظه. فقد طُلب منه البحث عن رجال في الأربعين ذوي شعر آخذ في الشيب، لكن عن رجال يكونون وحدهم.

٩:٢٠ ب.ظ.

ينظر الأطباء إلى نتائج الفحص التي تتعارض كليّاً مع ما اعتقدوه العلّة الفعلية، ويصبح عليهم أن يقرّروا هل يثقون بالعلم أم بقلبهم. تعلّموا، مع الوقت، أن يرجّحوا كفّة غرائزهم، ووجدوا تحسّناً في النتيجة بالنسبة إلى مرضاهم.

ينكبّ رجال الأعمال على التخطيطات والرسوم البيانية، ثم يسيرون في شكل يتناقض تماماً مع اتجاه السوق، وبالتالي يزدادون ثراء.

يكتب الفنانون كتباً أو أفلاماً يقول عنها الجميع: لن تنجح. ما من أحد يهتم بأمور كهذه، وينتهي بهم الأمر وقد أصبحوا أيقونات للثقافة الشعبية.

يبشّر الزعماء الروحيون بالخوف والذنب بدلاً من المحبة التي يُفترض بها، نظرياً، أن تكون الشيء الأكثر أهمية في العالم، وتتضخم رعاياهم.

ثمة فئة واحدة فقط تفشل دوماً في السير بعكس التيار

الراهن: السياسيون. يريدون إرضاء الجميع، ويلتزمون بشدة بقواعد اللباقة السياسية. ينتهي بهم الأمر وقد اضطروا إلى الاستقالة، والاعتذار ومناقضة أنفسهم.

واصل موريس فتح نافذة تلو الأخرى على حاسوبه. ليست للأمر علاقة بالتكنولوجيا، بل بالحدس. يحاول إلهاء نفسه بمؤشّر «داو جونز»، لكنه لا يُسَرّ بالنتائج. من الأفضل لو أنه يركّز بعض الشيء على بعض الشخصيات التي عايشها معظم حياته.

شاهد من جديد الفيديو الذي يصف فيه غاري ريدجواي، قاتل غرين ريفر، بصوت هادئ كيفية قتله ٤٨ امرأة، معظمهن من المومسات. لا يفعل ريدجواي هذا لأنه يريد الغفران لخطاياه، أو لإراحة ضميره؛ بل لأن المدعي العام عرض عليه خفض الحكم بالإعدام إلى المؤبد إذا اعترف، لأن ريدجواي، الذي عمل بأمان لفترة طويلة، خلّف وراءه أدلة غير كافية لإدانته... أو ربما لأنه بقي متيقظاً للمهمة المروعة التي حدّدها بنفسه.

امتلك ريدجواي وظيفة ثابتة في طلاء الشاحنات، ولم يتمكن من تذكّر ضحاياه إلا من خلال ربطهم بما إذا كان يعمل أم لا في ذلك اليوم. وعلى مدى عشرين عاماً، بوجود أكثر من خمسين تحرّياً أحياناً في أثره، تمكن من ارتكاب الجريمة تلو الجريمة بدون أن يترك حتى أي توقيع أو دليل. وعلّق أحد التحريين على الشريط بأن ريدجواي لم يكن ألمعياً كثيراً، ولا جيداً كفاية في عمله، أو مثقفاً كبيراً، لكنه شكّل القاتل المثالي.

باختصار، فإنه وُلد ليصبح قاتلاً، برغم أنه عاش دائماً في

المكان ذاته. بل إنه تم، في مرحلة ما، إحالة قضيته على الملف بوصفها غير قابلة للحل.

شاهد موريس هذا الفيديو مئات المرات. وقد قدّم إليه في الماضي الوحي اللازم لحل قضايا أخرى، لكن ليس اليوم. أقفل تلك النافذة، وفتح غيرها لتظهر رسالة كتبها والد جيفري داهمر، آكل لحوم البشر في ميلووكي، وهو المسؤول عن قتل ١٧ رجلاً وتقطيع أوصالهم ما بين ١٩٧٨ و١٩٩١:

«لم يمكنني في البدء، طبعاً، تصديق أن جيفري هو الذي قام بالأمور التي تتهمه الشرطة بها. كيف يمكن أياً كان أن يصدّق أن ابنه يستطيع فعل مثل هذه الأمور؟ قصدت الأماكن بالذات، حيث قالوا إنه رتكبها فيها. دخلت غرفاً وأقبية لم تكن في أوقات أخرى، استناداً إلى الشرطة، بأقل من مسلخ. نظرت إلى ثلاجة ابني ولم أجد فيها إلا بعشرة من العلب الكرتونية للحليب وعلب الصودا. انحنيت عرضاً على الطاولة السوداء التي زعموا أن ابني استخدمها في الوقت ذاته طاولة تشريح ومذبحاً شيطانياً ناشزاً. كيف أمكن أن هذا كله خفي عني: ليس فقط الدليل المادي الرهيب على جرائم ابني، بل الطبيعة الشريرة للرجل الذي ارتكبها، هذا الطفل الذي حملته بين ذراعي آلاف المرات، والذي، عندما ألقي نظرة على الصحف، أجد أن وجهه يشبه وجهي؟ لو أن الشرطة أخبرتني أن ابني مات، لفكّرت فيه بطريقة مغايرة. لو أنها أخبرتني أن رجلاً غريباً استدرجه إلى شقة مهملة، وأنه بعد دقائق قليلة خدّره، وخنقه، ثم اعتدى عليه جنسياً ومثّل بجسده الميت - بعبارات أخرى، لو أنهم أخبروني بالأمور الرهيبة ذاتها التي اضطروا إلى إبلاغها لعدد كبير من الآباء والامهات في تموز/ يوليو ١٩٩١ - لفعلت عندها ما فعلوه. لتفجّعت على ابني وطالبت بإنزال أقصى العقوبات بالرجل الذي قتله. إذا لم يكن الإعدام، فإبعاده إلى الأبد عن الباقين منّا. ولحاولت بعد ذلك التفكير في ابني بحنان.

ولقمت - آمل ذلك - بزيارة ضريحه من وقت إلى آخر، متحدثاً إليه بتفجع وعطف، وأستمر، بقدر ما هو ممكن، في البقاء حارساً لذكراه. لكن لم أُخبَر بما أُخبرت به أولئك الأمهات والآباء، بأن أبناءهم قضوا على يد سفاح. بل قيل لي، بدلاً من ذلك، إن ابني هو الذي قتل أبناءهم.

منبح شيطاني. تشارلز مانسون وعائلته. ففي ١٩٦٩، اقتحم ثلاثة أشخاص منزلاً يقيم فيه نجم سينمائي وقتلوا جميع من فيه، بمن فيهم شاب صدف أنه يخرج بسيارته من المنزل. وأُتبع ذلك بجريمتي قتل في اليوم التالي: زوجان، كلاهما يتعاطى الأعمال. ادعى مانسون أنه قادر على قتل الإنسانية جمعاء.

نظر موريس، للمرة الألف، إلى صورة الرجل المسؤول عن تلك الجرائم، يبتسم للكاميرا ومحاطاً بأصدقاء من الخنافس بمن فيهم موسيقي بوب مشهور في تلك الأيام. بدوا جميعهم مأموني الجانب كلّياً، يتحدثون عن السلام والحب.

أغلق جميع النوافذ. مانسون هو أقرب الأشياء إلى ما يحصل اليوم، إذ تضمّن ما تضمّنه من سينما وضحايا معروفة جداً. إنه نوع من المانيفستو السياسي ضد الرفاه، والاستهلاكية والشهرة. إلا أن مانسون كان الدماغ الذي وقف وراء جميع عمليات القتل، وهو في الواقع لم يقتل أحداً بنفسه، بل ترك الأمر لأتباعه.

لا، ليس هو الأمر. وبرغم جميع الرسائل الالكترونية التي أرسلها شارحاً أنه لا يستطيع توفير الأجوبة في مثل هذه الفسحة الزمنية الضيقة، شرع موريس في اختبار ما يشعر به جميع

التحريين في شأن القتلة المتسلسلين: أخذ الأمر يصبح مسألة شخصية.

يوجد، من جهة، رجل، لا شك في أن له مهنة أخرى، قام بوضوح، نظراً إلى الاسلحة التي يستخدمها، بالتخطيط مسبقاً لجرائم القتل، لكنه موجود على أرض غير مألوفة منه أبداً، وحيث لا معرفة له بكفاءة قوة الشرطة المحلية، أو عدم كفاءتها. وهو بالتالي، رجل معرض. وثمة من جهة أخرى، الخبرة المتراكمة لجميع أنواع الأجهزة الأمنية المتعوّدة على التعامل مع منحرفي المجتمع، والتي يبدو أنها عاجزة عن وقف الأثر الدموي الذي يتركه هذا الهاوي المحض.

لم يكن عليه أبداً الرد على اتصال المفوض. قرر العيش في جنوب فرنسا لأن المناخ أفضل، والأناس أكثر تسلية، والبحر قريب، ولأنه أمل أنه لا يزال أمامه الكثير من السنوات التي يمكنه في خلالها التمتع بملذات الحياة.

ترك وظيفته في لندن، وكانت سمعته أنه الأفضل. ومن شأن هذا الإخفاق الوحيد الآن أن يبلغ مسامع زملائه، وسيخسر السمعة التي استحقها من خلال العمل الشاق والتكرّس الكبير. سيقولون: كان أوّل شخص يصر على وضع حواسيب حديثة في قسمنا، إلا أنه ببساطة، برغم جميع التكنولوجيا التي في تصرفه، أصبح أكبر سناً من أن يجاري تحديات العصر الجديد.

ضغط على زر الإيقاف. ظهر شعار البرنامج ثم انطفأت الشاشة. وفي داخل الآلة، اختفت النبضات الالكترونية من الذاكرة الثابتة بدون أن تترك شعوراً بالذنب، أو الندم، أو العجز.

لكن، ليس في جسمه أزرار إيقاف. استمر عقله في العمل، ليصل دائماً إلى النتائج ذاتها: محاولة تبرير ما لا يمكن تبريره،

وخادشاً اعتداده بالنفس، وقائلاً له إن زملاءه على حق: ربما غرائزه وقدرته على التحليل قد تأثرت بالعمر.

مضى إلى المطبخ. أدار آلة الإكسبريسو التي عانى معها المشاكل أخيراً. ومن الأقل كلفة في العادة، كما مع جميع الآلات المنزلية الحديثة، رمي القديمة وشراء أخرى جديدة. ولحسن الحظ، قررت الآلة العمل هذه المرّة، وارتشف ما نزل منها من قهوة على مهل. فجزء كبير من يومه يتضمن الضغط على أزرار: الحاسوب، الطابعة، الهاتف، الأنوار، المدفأة، صانعة القهوة، آلة الفاكس.

إلا أنه عليه الآن أن يضغط على الزر المناسب في دماغه. ولا فائدة من إعادة قراءة الوثائق التي أرسلتها الشرطة. عليه أنه يفكّر بطريقة جانبية ويضع قائمة، مهما جاءت متكرّرة.

أ - القاتل مثقف تماماً، ومحنّك على الأقل في ما يتعلّق بالأسلحة التي يستخدمها. وهو يتقن استعمالها.

ب - ليس من المنطقة، ولو أنه كذلك لاختار توقيتاً أفضل للمجيء عندما سيوجد عدد أقل من الشرطة في الجوار.

ج - ليس لديه أي توقيع واضح. ومن الجلي بالتالي أنه لا يرغب في أن يتم التعرّف إليه. وقد يبدو الأمر بائناً لذاته، إلا أن مثل هذه التواقيع تشكّل في الغالب أسلوباً يائساً للدكتور الذي يحاول وقف الشرور التي يرتكبها المسخ، كما لو أن الدكتور جيكل يقول للسيد هايد: أرجوك اعتقلني، فأنا خطر على المجتمع، ولا تمكنني السيطرة على نفسي.

د - واقع أنه تمكن من مقاربة اثنتين من ضحاياه، والنظر إلى أعينهما ومعرفة بعض الأمور عنهما، يعني انه متعوّد على القتل بدون ندم. ولا بد، بالتالي، من أنه قاتل في حرب في وقت من الاوقات.

هـ - لا بد من أنه يملك المال، الكثير من المال، ليس لأن الإقامة في «كان» في خلال المهرجان مكلفة وحسب، بل أيضاً بسبب التكلفة الكبيرة لإنتاج المغلف الذي يحتوي على كيانوس الهيدروجين. ولا بد من أنه دفع خمسة آلاف دولار بالكامل: ٥٤٠ دولاراً للسم، و٤,٤٦٠ دولاراً للتغليف.

و - ليس عضواً في مافيا مخدرات أو متورطاً في تجارة الأسلحة أو هذا النوع من الأمور، فلو أنه كذلك لكان اليوروبول يتقفى أثره. وخلافاً لما يعتقده معظم المجرمين، فإن السبب الوحيد لعدم الإمساك بهم، هو أنه لم يحن بعدُ الوقت المناسب لوضعهم خلف القضبان. ويتم في شكل منتظم اختراق مجموعاتهم من قبل عملاء تُدفع لهم ثروات لقاء عملهم.

ز - لا يريد أن يتم الإمساك به، لذا فإنه يحترس جيداً. لكن لا تمكنه، من جهة أخرى، السيطرة على ذهنه اللاواعي، ويتبع، عن غير قصد، نمطاً محدداً.

ح - يبدو طبيعياً بالكامل، ومن غير المرجح أن يثير الشبهة؛ بل إنه ربما لطيف وودود، يمكنه كسب ثقة الناس الذين يستدرجهم إلى حتفهم. يمضي بعض الوقت مع ضحاياه، واثنان منهم من النساء اللواتي يتجهن إلى الثقة بالآخرين أكثر من الرجال.

ط - لا يختار ضحاياه. ويمكنهم أن يكونوا رجالاً أو نساء من أي عمر أو طبقة اجتماعية.

توقّف موريس للحظة. ثمة أمر لا يتناسب مع البقية.

أعاد قراءة اللائحة مرتين أو ثلاث مرات. وأمكنه في القراءة الرابعة ملاحظة الخلل.

ي - ليس لديه أي توقيع واضح، ومن الجليّ بالتالي أنه لا يرغب في أن يتم التعرف إليه.

لا يحاول هذا القاتل تطهير العالم على غرار مانسون، أو كما حاول ريدجواي تنقية بلدته، ولا يسعى مثل داهمر إلى إشباع نهم الآلهة. معظم المجرمين لا يريدون أن يتم اعتقالهم، لكنهم يودون أن يتم التعرف إليهم: بعضهم من أجل بلوغ العناوين الرئيسية وكسب الشهرة والمجد، مثل زودياك أو جاك السفاح. وربما فكّر غيرهم في أن أحفادهم سيفخرون بما فعلوه عندما يكتشفون بعد سنوات من ذلك، مفكّرة مغبرة في العلية. ولآخرين مهمة ينجزونها: مثل إبعاد المومسات ليرتعبن من السير في الشوارع. وقد استنتج المحللون النفسيون أنه عندما يتوقف قاتل متسلسل فجأة عن القتل، من وقت إلى آخر، فلأنه يشعر بأن الرسالة التي يحاول إرسالها قد وصلت أخيراً.

هذا هو الأمر بالتأكيد! لماذا لم يفكّر فيه من قبل؟

لسبب واحد بسيط: لأنه كان سيرسل الشرطة إلى المطاردة في اتجاهين مختلفين، بحثاً عن القاتل، وعن الشخص الذي يبعث إليه بالرسائل. وقاتل «كان» هذا يقتل الناس بسرعة كبيرة جداً. وموريس شبه متأكد من أنه سيتوقف قريباً، ما إن يتم استلام الرسالة. في غضون يومين أو ثلاثة على أبعد حد. وكما مع القتلة المتسلسلين الآخرين الذين يبدو أنه ليس من قاسم مشترك بين ضحاياهم، لا بد من أن الرسالة موجهة إلى شخص واحد، واحد وحسب.

عاد إلى الحاسوب. أشعله وبعث برسالة مطمئنة إلى المفوض.

«لا تقلق، عمليات القتل ستتوقف قبل انتهاء المهرجان».

وأرسل، لا لشيء، نسخة عن البريد الالكتروني إلى صديق في سكوتلانديارد، كوسيلة لجعله يعرف أن السلطات الفرنسية

تحترمه كمحترف، وقد طلبت منه المساعدة وحصلت عليها، وأنه لا يزال قادراً على التوصل إلى استنتاجات ستثبت لاحقاً أنها صحيحة، وأنه ليس على هذه الدرجة من التقدم في السن التي يريدون أن يعتقدوها.

سمعته الآن على المحك، لكنه واثق أن استنتاجاته هي الصحيحة.

١٠:١٩ ب.ظ.

أطفأ حميد هاتفه النقال، فهو ليس مهتماً البتة بما يجري في بقية العالم، خصوصاً أن هاتفه أُغرق، في نصف الساعة الأخير، بالرسائل الكالحة.

إنها إشارة إلى أنه عليه التخلّي عن كل الفكرة السخيفة في إنتاج فيلم. من الواضح أنه سمح لنفسه بالانسياق وراء الغرور بدلاً من الاستماع إلى نصيحة الشيخ وزوجته. بدأ يفقد الاتصال بنفسه، أخذ عالم الرفاه والبهرجة في تسميمه، الأمر الذي اعتقد أنه لن يحصل أبداً.

غداً، عندما تهدأ الأمور، سيدعو إلى مؤتمر صحافي للإعلام العالمي، ويبلغهم أنه قرر الانسحاب، برغم أنه استثمر حتى الآن مبلغاً كبيراً من المال في المشروع، لأنه كان حلماً شاركه فيه جميع المنخرطين فيه، وواحد منهم لم يعد موجوداً. ومن المؤكد أن صحافياً سيسأل إذا كانت في ذهنه مشاريع أخرى، وسيجيب بأنه لا يزال من المبكر مناقشة مثل هذه الأمور، وعلينا أن نحترم ذكرى الراحل.

وهو، كأي شخص يتمتع بالحد الأدنى من اللباقة، يأسف أشد الأسف لكون الممثل الذي يُفترض أن يظهر في فيلمه الأول قد مات مسموماً، ولأن المخرج الذي اختاره لا يزال في المستشفى، ولو أنه ابتعد عنه خطر الموت. إلا أن الحدثين يحملان رسالة واضحة: ابتعد عن السينما. هذا ليس عالمه، ومن المحتّم أنه سيخسر المال بدون أن يكسب شيئاً في المقابل.

دع السينما لصانعي الافلام، والموسيقى للموسيقيين، والأدب للمؤلفين. فهو، منذ انطلق في هذه المغامرة قبل شهرين، لا يواجه سوى المشاكل: الصراع مع الأنانيات الهائلة؛ رفض الموزانات المستهجنة؛ ملاءمة نص يبدو أنه يصبح أكثر سوءاً مع كل نسخة جديدة؛ وتحمّل منتجين منحطّين عاملوه كما لو أنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق عن الأفلام.

لا غبار على نياته: أراد صنع فيلم عن ثقافة بلاده، عن جمال الصحراء وحكمة البدو القديمة وميثاق شرفهم. شعر بأنه مَدين بهذا لقبيلته، برغم أن الشيخ حذّره من عدم الانحراف عن خطه الأساسي:

«يضيع الناس في الصحراء لأن السراب يضلّلهم. أنت تقوم بعمل ممتاز كخياط؛ ركز كل طاقتك على ذلك».

إلا أن حميد أراد الذهاب إلى ما هو أبعد، ليُظهر أنه لا يزال يمكنه مفاجأة الناس، والارتفاع إلى أعلى، وركوب المخاطر. ارتكب خطيئة الكبرياء، لكن ذلك لن يتكرر.

أمطره الصحافيون بالأسئلة؛ يبدو أن الأخبار تسافر أسرع من

المعتاد. قال إنه لا يعرف التفاصيل بعدُ، لكنه سيدلي ببيان شامل غداً. كرر الجواب ذاته المرة تلو الأخرى إلى أن هبّ أحد حراسه الأمنيين لمساعدته وطلب من الصحافة ترك الزوجين وشأنهما.

استدعى أحد المساعدين وطلب منه العثور على ياسمين بين الحشد في الحديقة والمجيء بها إليه. يحتاجان إلى أن تلتقط لهما بعض الصور معاً، وإلى بيان صحافي جديد يؤكد الاتفاق، وموظف علاقات عامة لإبقاء المسألة حيّة حتى تشرين الأول/أكتوبر وأسبوع الموضة في باريس. وسيحاول لاحقاً إقناع المصممة البلجيكية بالانضمام إليه. هو في الحقيقة أحب عملها، ومتأكد من أنها ستدر المال والمكانة على مجموعته. إلا أنه يعرف انها تفكّر في الوقت الحاضر في أنه يحاول وحسب شراءها لأنه أراد عارضتها الرئيسية. ولن تؤدي مقاربتها الآن إلى رفع السعر وحسب، بل إنه سيبدو أيضاً فظاً وأنانياً. لكل شيء وقته، ومن الافضل انتظار الوقت المناسب.

بدا أن أسئلة الصحافيين أصابت إيوا بالاضطراب. وقالت:

- أعتقد أن علينا المغادرة.

- قطعاً لا. تعلمين بأنني لست قاسي القلب، لكن لا يمكنني أن أستاء من شيء يؤكّد فقط ما قلتِه لي دائماً، من أنه ليس عليّ التورط في السينما. لكننا الآن في حفلة، وسنبقى هنا حتى النهاية.

بدا صوته أقسى مما قصد، لكن يظهر أن إيوا لم تلاحظ، كما لو أنها لا تبالي بحبه ولا بكرهه. وأضاف بنبرة صوت أكثر اعتدالاً:

- هذه الحفلة مثالية تماماً، ألا تعتقدين؟ لا بد من أن مضيفنا

يصرف ثروة ليكون هنا في «كان»، ناهيك بالسفر ونفقات إقامة المشاهير الذين تم انتقاؤهم خصيصاً ليكونوا موجودين في حفل العشاء المسرف هذا. لكن يمكنك أن تتأكدي من أن كل الدعاية المجانية ستجعل أرباحه تحلّق: صفحة كاملة منشورة في المجلات والصحف، أوقات بث على التلفزيون وساعات من التغطية في قنوات الكابل التي ليس لديها شيء آخر تعرضه. ستربط النساء جواهره بالرونق، وسيرتدي الرجال ساعاته إثباتاً على أنهم أقوياء وأثرياء، وسيقلب الشبان صفحات الموضة ويفكرون: أريد في يوم من الأيام ان أكون هناك، وأرتدي ذلك بالضبط.

- أرجوك، دعنا نرحل الآن. فلدي شعور سيئ فعلاً في شأن هذه الحفلة.

طفح الكيل. لقد تحمّل كل النهار مزاج زوجته السيئ بدون أن يشتكي، وها أنه يبدأ الآن في التفكير بوجود أمر غريب فعلاً يحصل. أهو، ربما، رجل آخر؟ زوجها السابق، الذي رآه في بار الفندق، والذي ربما يفعل كل ما في وسعه لترتيب لقاء؟ لكن، إذا كانت هذه الحال، فلماذا لا تقول له ما تشعر به وحسب، بدلاً من التقوقع في داخلها؟

- لا تحدثيني عن الشعور السيئ. أحاول أن أشرح لك لماذا يقيم الناس حفلات كهذه. وإذا ما قررت أبداً أن تدخلي عالم الموضة كما حلمتِ دوماً بذلك، أو إذا أردت مرّة أخرى امتلاك متجر يبيع الثياب ذات الخياطة الراقية، ففي إمكانك أن تتعلمي شيئاً. وبالمناسبة، عندما قلت لك إنني رأيت زوجك السابق في البار الليلة الماضية، قلت لي إن ذلك مستحيل. أهذا هو سبب تدقيقك الدائم في هاتفك المحمول؟

«ولماذا يا ترى يكون هنا؟»، قالت، وهي تشعر بأنه عليها أن

تقول: أعرف من دمر مشروع فيلمك. وأعرف أنه قادر على ما هو أسوأ بكثير. نحن في خطر هنا، فلنرحل، أرجوك.

- لم تجيبي عن سؤالي.

- الجواب هو «نعم». لهذا، لا أنفك عن التدقيق في هاتفي، وأعرف أنه هنا في مكان ما، وأنا خائفة.

ضحك حميد:

- لكنني هنا أيضاً.

التقطت إيوا كأس شامبانيا وازدرته دفعة واحدة. لم يقل شيئاً، وقد شعر بأنها تتصرف باستفزاز وحسب.

تطلّع من حوله، محاولاً نسيان آخر الأخبار التي أومضت على هاتفه، ولا يزال يأمل فرصة التقاط بعض الصور مع ياسمين قبل أن تتم دعوتهم جميعا إلى الغرفة التي يتم فيها تقديم العشاء. لم يكن لموت الممثل أن يأتي في وقت أكثر سوءاً. فما من أحد يسأل الآن عن العقد الكبير الذي وقعه مع عارضة مغمورة، وهو العقد الذي كان، منذ نصف ساعة، شغل الصحافة الشاغل، لكنه لم يعد كذلك.

لا يزال أمامه الكثير ليتعلمه برغم سنوات عمله الطويلة في عالم البهرجة: سرعان ما تم نسيان العقد الذي وقّعه، لكن مضيف هذه الحلفة تمكّن من المحافظة على الاهتمام الإعلامي. لم يغادر أي من المصورين أو الصحافيين الموجودين الحفلة للذهاب إلى مخفر الشرطة أو المستشفى لمعرفة حقيقة ما حصل. ولا يُنكر أنهم صحافيو موضة، كما أن مديريهم لن يجرؤوا على إعطائهم الأمر بالمغادرة لسبب بسيط، هو أن جرائم القتل لا تظهر على الصفحات ذاتها مع المناسبات الاجتماعية.

لا يُقحم صانعو الجواهر الثمينة أنفسهم في مغامرات سينمائية. فالمسوّقون الكبار يعرفون أن الناس، بغض النظر عن كمية الدم المسفوك في العالم الآن، سيفضّلون دوماً صوراً تُظهر حياة رفاه مثالية لا يمكن بلوغها.

يمكن الجرائم ان تحصل في الجوار، أو خارجاً في الشارع، إلا أن حفلات كهذه لا تحصل إلا في أعلى قمة المجتمع. وما من أمر أكثر أهمية للفنانين العاديين من هذه الحفلة المثالية التي سيتم الإعلان عنها قبل أشهر في بيانات صحافية تؤكّد أن الجوهري سيقيم حفلته المعتادة في «كان»، وأنه قد تم توجيه جميع الدعوات. وهذا ليس صحيحاً تماماً، إذ إن نصف المدعوين سيكونون قد تلقوا نوعاً من المذكّرة تطلب منهم بتهذيب إبقاء أنفسهم أحراراً في ذلك الموعد.

وهم بالتأكيد سيردّون فوراً ويثبتون الموعد ويشترون تذاكر سفرهم، ويحجزون غرفة فندقهم لاثني عشر يوماً، حتى ولو أنهم لن يبقوا إلا لثمان وأربعين ساعة. يحتاجون إلى أن يثبتوا للجميع أنهم لا يزالون أعضاء في الطبقة الأرفع، وهي العضوية الضرورية للقيام بصفقات الأعمال، وفتح الأبواب وتغذية الأنانيات.

لن تصل بطاقة الدعوة السخيّة إلا بعد ذلك بشهرين. وستكفّ النساء عن الحيرة في شأن الثوب الذي سيرتدينه للمناسبة، وسيتصل الرجال ببعض المعارف لرؤية إذا كان في الإمكان اللقاء في البار لمناقشة الأعمال قبل العشاء. وهذه هي طريقة الذكور في القول: لقد تلقّيت دعوة إلى الحفلة، فهل تلقيت أنت مثلها؟ وحتى لو ادعى شخص من المعارف أنه كثير الانشغال وغير متأكد من تمكنه من الذهاب إلى «كان» في ذلك الموعد، فإن الرسالة المرسلة

هي شديدة الوضوح: تلك «المفكرة المليئة بالمواعيد»، هي مجرد تبرير لعدم تلقي دعوة.

بمرور بضع دقائق، سيبدأ ذلك الرجل الكثير الانشغال بتعبئة الأصدقاء والمستشارين والشركاء، ليتدبّروا له دعوة. ويعني هذا أنه يمكن المضيف عندها أن يختار النصف الثاني من لائحة مدعويه بالاستناد إلى ثلاثة أمور: السلطة، المال، العلاقات.

إنها الحفلة المثالية.

سيتم الاتفاق مع فريق محترف من المزودين بالطعام. وستصدر التعليمات في اليوم ذاته بتقديم ما أمكن من الكحول، ومن المفضل أن يُقدَّم الكثير من الشامبانيا الأسطورية التي لا يفوقها شيء. ولا يدرك الضيوف الآتون من بلدان أخرى أنه يُقدّم إليهم شراب منتج في البلد ذاته، وهو بالتالي أرخص بكثير مما قد يظنونه. تشعر النساء - كما تفعل إيوا نفسها في هذه اللحظة - بأن السائل الذهبي هو أفضل مكمل وإضافة ممكنين للفستان والحذاء والحقيبة. يحمل الرجال جميعهم كأساً أيضاً، لكنهم يشربون أقل بكثير. جاؤوا ليهادنوا منافساً لهم، ولتمتين العلاقات مع المزودين، أو لقاء موزّع محتمل لمنتجاتهم. يتم في تلك الليلة تبادل مئات بطاقات الزيارة، معظمها بين أصحاب المهن. ويُعطى طبعاً، القليل منها لنساء جميلات يعرفن أنها لا تساوي الورق المطبوعة عليه، فلا أحد يأتي إلى هنا ليجد حب حياته، بل لعقد الصفقات، وللرونق، والتمتع قليلاً. إلا أن التمتع اختياري، وليس له أهمية كبرى.

جاء الناس الموجودون هنا الليلة من ثلاث نقاط في مثلّث خيالي. ففي نقطة أولى يوجد أولئك الذين يملكون كل شيء، ويمضون نهارهم في لعب الغولف، أو تناول الغداء خارجاً في أحد الأندية

الحصرية، والذين، عندما يدخلون متجراً من المتاجر، يستطيعون شراء أي شيء يريدونه بدون أن يسألوا عن سعره. أدركوا، بوصولهم إلى القمة، أمراً لم يخطر أبداً في بالهم من قبل: لا يستطيعون تحمّل البقاء وحدهم. لا يستطيعون تحمّل رفقة الزوج أو الزوجة، ويحتاجون دوماً إلى الخروج اعتقاداً منهم أنهم لا يزالون قادرين على إحداث فارق للإنسانية برغم أنهم اكتشفوا، منذ تقاعدهم، أن حياتهم اليومية مملة كحياة أي شخص من الطبقة المتوسطة: تناول الفطور، قراءة الصحف، موعد الغداء، أخذ قيلولة، تناول العشاء، مشاهدة التلفزيون. يقبلون معظم الدعوات إلى العشاء التي يتلقونها. يؤمّون الأحداث الاجتماعية والرياضية في عطلة نهاية الأسبوع. يُمضون عطلهم في أماكن خاصة (لا يزالون يؤمنون بشيء اسمه العطلة برغم أنهم لم يعودوا يعملون).

ويوجد في النقطة الثانية من المثلث أولئك الذين لم يحققوا شيئاً، ويبذلون ما في وسعهم للسباحة في المياه العكرة، ولكسر مقاومة من لديهم كل شيء، وليبدوا سعداء حتى لو صدف أن أحد أهاليهم في المستشفى، ويضطرون إلى بيع أمور لا يملكونها حتى.

وفي النهاية، ثمة الطبقة الأرفع الموجودة في الذروة.

إنه المزيج المثالي لأي حفلة. وأولئك الذين بلغوا القمة، ويعيشون برغم ذلك حياة عادية، قد يملكون مالاً مخبأ يكفي أجيالاً عدة، لكن نفوذهم اضمحل. وقد اكتشفوا، متأخرين جداً، أن السلطة في الواقع أهم من الثروة. وأولئك الذين لم يبلغوا القمة بعدُ، يستجمعون طاقتهم كلها وحماستهم للانسجام مع الحفلة معتقدين أنهم يتركون تأثيراً طيباً بالفعل. لكن ليكتشفوا وحسب، في الأسابيع التي تلي، أنه ما من أحد يتصل بهم هاتفياً برغم جميع بطاقات الزيارة التي وزّعوها. وثمة أخيراً أولئك الذين يترنحون عند

الذورة، مدركين أن الجو عاصف جداً هناك، وأن أقل عاصفة قد ترمي بهم إلى الهوة التي تنتظرهم... تحت.

استمر الناس في القدوم للتحدث معه، إلا أن أياً منهم لم يشر إلى جريمة القتل، إما لأنهم لم يعلموا بها لأنهم يعيشون في عالم لا تحصل فيه مثل هذه الأمور، وإما تهذيباً، وهو ما يشك فيه كثيراً. تطلّع من حوله ورأى الأمر الذي يكرهه أكثر ما يكون في عالم الموضة: نساء متوسطات الأعمار يرتدين ثياباً كما لو أنهن في العشرين. ألم يلاحظن أن الوقت حان كي يبدّلن طرازهن؟ أخذ يتحدث مع شخص، ويبتسم لآخر، ويشكر ثالثاً على ملاحظة لطيفة. يعزّف إيوا إلى قلة ما زالت لا تعرفها. إلا أن فكرة واحدة تجول في ذهنه: العثور على ياسمين في غضون خمس دقائق للوقوف معاً والتقاط الصورة.

يخبره صناعي وزوجته بالتفصيل عن آخر لقاء لهم، وهو اجتماع لا يتذكّره حميد، برغم أن الحكمة فرضت عليه أن يهزّ رأسه موافقاً. تحدثا عن سفرات قاما بها، وأناس التقيا بهم، ومشاريع منخرطين فيها. ولا يقارب أحد منهم مواضيع مهمة فعلاً، مثل: هل أنت سعيد؟ أو: ما الذي يعنيه النصر لك بعد كل ما مررت به؟ إنهم جزء من الطبقة الأرفع، ومضطرون بالتالي إلى التصرف كما لو أنهم راضون ومكتفون، ولو أنهم في الواقع يسألون أنفسهم: ماذا عليّ ان أفعل بمستقبلي وقد حصلت الآن على كل ما حلمت به؟

اقترب كائن بائس يرتدي سروالاً ضيّقاً ولباساً فوقياً هندياً، وقد بدا أشبه برسم كاريكاتوري.

- سيد حميد، أنا آسف جداً...

- من أنت؟

- أنا أعمل لك يا سيدي.

- يا للغرابة!

- اسمع، أنا مشغول الآن، وأدرك ما أريد معرفته عن أحداث الليلة المحزنة، لذا لا حاجة بك إلى القلق.

إلا أن الكائن بقي في مكانه. أخذ حميد يشعر بالإحراج لوجوده، خاصة أن أصدقاء موجودين على مقربة منه سمعوه بلا شك يلفظ تلك الكلمات المريعة: «أنا أعمل لك يا سيدي». فما الذي سيعتقدونه؟

- سيد حميد، أنا على وشك الإتيان بالممثلة التي ستظهر في فيلمك. اضطررت إلى تركها لبرهة لأنني تلقيت رسالة هاتفية، لكن...

- في وقت لاحق. أنا أنتظر الآن اللقاء مع ياسمين تايغر.

غادر الكائن الغريب. الممثلة التي ستظهر في فيلمه! يا للفتاة المسكينة: تم التعاقد معها وصرفها في يوم واحد.

تحمل إيوا كأس الشامبانيا بيد، وهاتفها النقال وسيجارة مطفأة بالأخرى. أخرج الصناعي ولاّعة ذهبية من جيبه وعرض أن يشعل سيجارتها.

«لا، شكرا، لا بأس، يمكنني القيام بذلك بنفسي»، قالت. «فأنا أتعمّد إبقاء يدي الاثنتين منشغلتين في محاولة للإقلال من التدخين».

ودت أن تقول: إنني أحمل الهاتف لحماية هذا الغبي الذي يرفض تصديقي، والذي لم يُظهر أبداً أدنى اهتمام بحياتي، أو بما مررت به.

وإذا تلقيت رسالة أخرى، فسأثير مشكلة وسيضطر، شاء أو أبى، إلى المغادرة وأخذي معه. حتى لو أنّبني بعد ذلك، فعلى الأقل تمكنني تعزية نفسي بفكرة أنني أنقذت حياته. أعرف من هو القاتل، ويمكنني الشعور بوجود قريب جداً للشر المطلق.

أخذت عاملة استقبال في الطلب من الضيوف التوجه إلى القاعة الرئيسية للعشاء. واستعد حميد حسين لتقبل قدره بدون شكوى. يمكن الصورة أن تنتظر إلى الغد عندما يصعد الدرج معها. وعند هذا الحد ظهر أحد مساعديه.

- ياسمين تايغر ليست هنا. لا بد من أنها غادرت.

- لا بأس. ربما نسوا أن يقولوا لها إنه يفترض بنا أن نلتقي.

بدا هادئا جداً، أشبه بمن تعوّد التعامل مع أوضاع كهذه. إلا أن دمه كان يغلي من داخل. غادرت الحفلة؟ من تعتقد نفسها؟

١٦

الموت سهل جداً. قد يكون الجسم البشري واحداً من أكثر الآليات فعالية في الخلق، لكن كل ما يتطلبه مقذوف معدني صغير ليدخل ويقطعه بسرعة معينة، وينتهي الأمر.

الموت، بحسب القاموس، هو نهاية الحياة (برغم أن الحياة تحتاج أيضاً إلى تحديد مناسب)، والشلل الدائم لوظائف الجسم الحيوية، مثل نشاط الدماغ، والتنفس، وتدفق الدم من القلب وإليه. أمران فقط يقاومان هذا الشلل الدائم، هما الشعر والأظافر، التي تستمر في النمو لبضعة أيام أو أسابيع.

يتغير التحديد عندما يتعلّق الأمر بالأديان: فالموت يعني للبعض الانتقال إلى حالة أسمى، بينما يعتقد البعض الآخر أنه مجرّد حالة

موقتة، وأن النفس الساكنة في الجسد ستعود إليه لاحقاً، إما للتكفير عن خطاياها، وإما للتمتع في الحياة الثانية بالنِّعم التي حُرمت منها في تجسدها السابق.

وقفت الشابة ساكنة جداً بقربه. فإما أن الشامبانيا عملت مفعولها كاملاً فيها، وإما أن هذا المفعول قد زال، وهي تدرك الآن أنها لا تعرف أحداً، وأن هذه قد تكون دعوتها الأولى والأخيرة إلى مثل هذه الحفلة، وأن الاحلام تتحول أحياناً إلى كوابيس. وعندما استدار لبرهة صوب الفتاة الأخرى الأكثر حزناً، لاحظ بضعة رجال يقتربون من الممثلة، لكن بدا أنها غير مرتاحة إلى أي منهم. ولمَّا رأته يظهر من جديد، طلبت منه البقاء معها ما بقي من الحفلة. وسألته أيضاً إذا كانت لديه وسيلة نقل لأنها لا تملك المال، ولا يبدو أن رفيقها سيعود.

- نعم، طبعاً، من دواعي سروري أن أقلك إلى منزلك.

ليس هذا من ضمن خططه، لكنه لاحظ الشرطي الذي يراقب الضيوف، يعرف أنه من الافضل له أن يبدو كما لو أنه برفقة أحد ما، وأنه واحد آخر من الأناس المهمين المجهولين هناك، فخور بوجود امرأة جميلة أصغر منه سناً بكثير معه... وواحد من أولئك الذين يتناسبون تماماً مع مقاييس هذا المكان الخاص.

- أتعتقد أنه علينا الدخول؟

- نعم، لكنني أعرف كيف تعمل هذه الأمور. من الأفضل أن ننتظر حتى يجلس الجميع. فثمة أماكن كثيرة على الطاولات ستكون محجوزة لأناس معينين، ولا نريد أن نجد أنفسنا في وضعية محرجة، وقد جلسنا حيث لا يجب.

لاحظ أن الفتاة بدت، لبرهة، خائبة بعض الشيء، لأنه ليس له واحد من تلك الأماكن المحجوزة.

أخذ الندلاء يجمعون الكؤوس الفارغة المبعثرة في جميع أنحاء الحديقة. وقد نزلت العارضات عن أعمدتهن السخيفة حيث أقنع دورانهن الضيوف الذكور في الحفلة، بأنه لا يزال في إمكان الحياة أن تكون مثيرة للاهتمام، وذكّرت الضيفات بأنه عليهن بلا بد، أن يخضعن لمزيد من شفط الدهون، والبوتوكس، والسيليكون أو الجراحة التجميلية.

- أرجوك دعنا ندخل. أريد أن آكل. سأمرض إذا لم أفعل.

أخذت بذراعه، وسارا في اتجاه الغرفة في الطابق الأعلى. بدا أن رسالته الأخيرة لإيوا قد استُلمت وتمّ طرحها، بيد أنه يعلم الآن ما يمكن انتظاره من امرأة فاسدة مثل زوجته السابقة. واصلت الملاك ذات الحاجبين الداكنين مرافقته، فهي التي جعلته يستدير في اللحظة المناسبة ويلاحظ الشرطي بالثياب المدنية، بينما كان يُفترض به، نظرياً، التركيز على وصول الخياط الشهير.

- حسناً، سندخل.

صعدا الدرج إلى غرفة العشاء. طلب منها، وهما يصعدان، ترك ذراعه حتى لا يفسّر أصدقاؤه الوضع على غير منحاه.

- أنت متزوج إذاً؟

- لا، مطلّق.

أخذت إيوا تفكّر في أنها نعم كانت محقّة، وحدسها صائب، فالمشاكل التي واجهاها حتى الآن هذا المساء، ليست شيئاً مقارنة بما

رأته للتو. فبما أنه ليس لإيغور أي سبب مهني للتواجد في مهرجان الأفلام، فوجوده هنا لا يحمل إلا دافعاً واحداً ممكناً.

«إيغور!»، قال حميد.

نظر الرجل، الذي ترافقه امرأة أصغر منه بكثير، إليه مباشرة. أخذ قلب إيوا يخفق بشدة. قالت لحميد:

- ما الذي تفعله؟

كان حميد قد نهض عن الطاولة، وهو لا يملك فكرة عمّا يقوم به. أخذ يسير في اتجاه الشر المطلق الذي لا حدود له، والقادر على كل شيء. افترض حميد أن إيغور مجرّد شخص بالغ آخر، وأنه في وسعه مواجهته، إن بالقوة الجسدية أو بالحجة المنطقية. وما لا يعرفه أن للشر المطلق قلب طفل ولا يتحمّل مسؤولية أعماله، وهو مقتنع بأنه على صواب. ولا يخشى، عندما لا يحصل على مراده، استخدام جميع الوسائل المتاحة لتحقيق رغباته. وها إنها تفهم الآن كيف أن الملاك تحوّل سريعاً إلى شيطان: لأنه لطالما رعى في قلبه الانتقام والبغضاء، برغم أنه ادعى أنه كبر وتغلّب على جميع جروحه النفسية، لأنه لا يُغلب عندما يتعلّق الأمر بالنجاح في الحياة، مؤكّداً بالتالي اعتقاده بقدرته على كل شيء، لأنه لا يعرف كيف يستسلم وقد نجا من أسوأ العذابات الممكنة التي قطعها بدون أن يتطلع كثيراً إلى الوراء، بينما هو يكرر لنفسه: سأعود يوماً ما، وسترين ما أنا قادر عليه.

«وجد على ما يبدو، شخصاً أكثر إثارة للاهتمام منّا يتحدّث إليه»، قالت ملكة جمال أوروبية سابقة وهي تجلس أيضاً إلى الطاولة الرئيسية إلى جانب شخصيتين مشهورتين أخريين ومضيف الحفلة.

حاولت إيوا إخفاء انزعاجها، لكنها لا تعرف ما العمل. بدا المضيف شبه متسلّ وينتظر شرحاً.

آسف. إنه صديق قديم لي.

توجه حميد إلى إيغور، الذي أخذته الحيرة فجأة. قالت الفتاة التي معه بصوت مرتفع:

- مرحباً، سيد حميد. أنا ممثلتك الجديدة!

استدار أناس على الطاولات الأخرى لرؤية ما يجري. ابتسم المضيف. من الجيد دوماً حصول أمر غير معتاد في حفلة؛ سيوفّر للضيوف الكثير مما سيتحدثون عنه. ها إن حميد يقف الآن في مواجهة الرجل. أدرك المضيف أن الأمور ليست على ما يرام، وقال لإيوا:

أعتقد أنه من الأفضل أن تسحبي حميد، أو، إذا شئت، يمكننا الحصول على كرسي آخر لصديقكما. لكن أخشى أنه على رفيقته الجلوس في مكان آخر.

عاد الضيوف بانتباههم إلى طعامهم وإلى حديثهم عن اليخوت، والطائرات الخاصة، وسوق القطع. وحده المضيف أبقى عيناً يقظة على ما يجري.

«اذهبي وتحدثي معهما»، قال.

إلا أن إيوا ليست هنا. ابتعدت بها أفكارها آلاف الأميال، إلى مطعم في إيركوتسك، على مقربة من بحيرة بايكال. كان المشهد مختلفاً عندها، حيث قاد إيغور رجلاً آخر إلى الخارج. وبجهد جهيد، وقفت على رجليها وانضمت إلى الرجلين.

«عودي إلى الطاولة»، قال حميد بهدوء. «سنذهب إلى الخارج لنتحدث».

هذا هو الأمر الأكثر حماقة الذي يمكنه فعله. أمسكت بذراعه وابتسمت مدّعية أنها سعيدة للقاء شخص لم تره منذ زمن بعيد. وقالت بسكينة كبيرة:

- لكن العشاء بدأ للتو!

لم تُضف عبارة «يا حبي». لم تشأ أن تفتح أبواب الجحيم.

- إنها محقة. من الأفضل لنا أن نتحدث هنا.

هل قال إيغور هذا؟ ألعلها تتخيل أشياء، والأمر ليس ابداً ما اعتقدته؟ هل الطفل ترعرع أخيراً ليصبح راشداً مسؤولاً؟ هل تم الصفح عن الشيطان بسبب عنجهيته، وعاد إلى ملكوت السماء؟

أرادت كثيراً أن تكون مخطئة، إلا أن الرجلين لا يزالان يحدّقان في بعضهما البعض. أمكن حميد أن يرى أمراً منحرفاً كثيراً وراء هاتين العينين الزرقاوين. وللحظة أخذته القشعريرة. وقد مدّت المرأة الشابة يدها.

- شررت لمعرفتك. اسمي غابرييلا.

لم يردّ لها التحية، وقد توهّجت عينا الرجل الآخر.

«توجد طاولة في الزاوية. لماذا لا نذهب جميعنا ونجلس هناك»، قالت إيوا.

طاولة في الزاوية؟ أستغادر زوجته مركز الشرف عند رأس الطاولة وتجلس إلى طاولة في الزاوية؟ شبكت إيوا بالفعل ذراعيها بذراعي الرجلين وسارت بهما إلى الطاولة الفارغة الوحيدة على

مقربة من الباب الذي يدخل منه الخدم ويخرجون. تبعتهم الممثلة. أفلت حميد نفسه للحظة، ومضى إلى المضيف ليعتذر.

«التقيت للتو برفيق طفولة. عليه أن يغادر غداً، ولا أريد تفويت فرصة التحدث معه بعض الشيء. أرجو ألا تنتظرنا، لا أعرف كم سيستغرق الأمر».

«لن يسرق أحد مكانيكما»، قال المضيف، مبتسماً، عارفاً تمام المعرفة أن الكرسيين سيبقيان فارغين.

«اعتقدت أنه رفيق طفولة زوجتك»، قالت ملكة جمال أوروبا السابقة في شكل لاذع.

لكن حميد سار عائداً إلى أسوأ طاولة في الغرفة، مخصصة لمساعدي المشاهير الذين، برغم جميع الاحتياطات، غالبا ما يتدبرون التسلل إلى حيث لا يفترض بهم أن يكونوا.

«حميد رجل طيّب»، فكّر المضيف وهو يراقب الخياط مبتعداً، ورأسه مرفوع، إلا أن الليلة لم تحمل له بداية سعيدة.

جلسوا جميعاً إلى طاولة الزاوية، وغابرييلا تدرك أنها فرصتها الوحيدة، إلا أنها واحدة من الفرص الوحيدة الكثيرة التي حصلت اليوم. عبّرت عن مدى سرورها لتلقي الدعوة، وأنها ستفعل كل ما في وسعها حتى لا تخيّب الآمال.

«أثق بك»، قالت. «حتى أنني وقعت على العقد بدون أن أقرأه».

لم يتفوه الثلاثة الآخرون بكلمة، واكتفوا بالنظر إلى بعضهم البعض. هل من سوء؟ هل يمكن أن يكون تأثير الشامبانيا؟ من الأفضل الاستمرار في الكلام.

- أنا سعيدة بنوع خاص، خلافاً لما يقوله الناس عادة، بأن عملية الانتقاء كانت عادلة. ما من طلبات خاصة، ولا خدمات. قمت بالتجربة هذا الصباح، ولم يتركوني أنتهي حتى من قراءة النص الذي أعطوني إياه. طلبوا مني وحسب الذهاب إلى اليخت للتحدث إلى المخرج. ويشكّل هذا مثالاً يُحتذى، يا سيّد حميد، وأعني بذلك معاملة الناس بكرامة وصدق عندما يتعلق الأمر باختيار من ستعمل معهم. يعتقد الناس أن الأمر الوحيد الذي له الاعتبار في عالم السينما هو...

كانت على وشك قول «النوم مع المنتج»، إلا أن المنتج يجلس إلى جانب زوجته.

«مظهر الشخص».

أتى النادل بالمقبلات وانطلق في مونولوجه المعتاد:

مقبلات الليلة هي قلب الخرشوف مع صلصة خردل الديجون ورشّة صغيرة من زيت الزيتون مطعّمة بالأعشاب المطيّبة مع شرائح من جبن ماعز جبال البيرينيه...

وحدها المرأة الشابة تبتسم وتستمع إلى ما يقوله. أدرك أنه غير مرحّب به، فغادر.

«يبدو شهيّاً!»، قالت، ثم أدارت نظرها إلى الباقين، ولم يقم أي منهم بحركة لالتقاط سكين أو شوكة. ثمة أمر ليس أبداً على ما يرام هنا.

«اسمعوا، واضح أنكم تريدون الكلام. وربما عليّ ان أجلس في مكان آخر».

«نعم»، قال حميد.

«لا، ابقي هنا»، قالت المرأة.

ماذا عليها أن تفعل الآن؟

«هل تحبين رفيقك؟»، سألتها المرأة.

لقد قابلت غانتر للتو.

«غانتر»، نظر حميد وإيوا إلى إيغور الساكن الجوارح قربها.

وماذا يفعل غانتر؟

- ألستما صديقين له؟

- نعم، ونعرف ما الذي يفعله. لكننا لا نعرف كم تعرفين عن حياته.

استدارت غابرييلا صوب إيغور. لماذا لا يساعدها؟

وصل نادل وسأل عن نوع النبيذ الذي يودون شربه.

- أبيض أم أحمر؟

تم إنقاذها على يد غريب!

«أحمر للجميع»، قال حميد.

- لم تقولي لنا بعدُ ما الذي يفعله غانتر؟

يبدو أنه لم يتم إنقاذها.

- يعمل في مجال الآلات الثقيلة، على ما أعتقد. نحن في الحقيقة بالكاد نعرف بعضنا البعض. الأمر الوحيد المشترك هو أن كلاً منّا انتظر صديقاً لم يأت.

فكّرت غابرييلا في أن هذا جواب جيّد. ربما أن للمرأة علاقة سرّية مع رفيقها الجديد، أو على علاقة عرف بها زوجها للتو. هذا ما يفسر الجو المتوتر.

،اسمه إيغور، أعلنت المرأة. ،وهو يملك أكبر شركة هاتف نقّال في روسيا. وهذا أهم بكثير من بيع الآلات الثقيلة،.

إذا كان هذا صحيحاً، فلماذا كذب؟ قررت ألا تقول شيئاً.

،كنت آمل أن ألقاك هنا، يا إيغور، قالت المرأة موجهة كلامها إلى غانتر الآن.

وأتاها الجواب الصريح القاسي: جئت بحثاً عنك، لكنني بدّلت رأيي الآن.

شدّت غابرييلا فجأة على حقيبة يدها المحشوة بالورق، وتبنت تعبيراً مدهوشاً.

- آه، هاتفي يرن، أعتقد أن صديقي وصل، ومن الأفضل أن أذهب وألقاه. أنا آسفة، لكنه جاء من مكان بعيد ليكون معي، وبما أنه لا يعرف أحداً هنا، أشعر بأنني، نوعاً ما، مسؤولة عنه.

نهضت. وقد نصت قواعد حسن السلوك على ألا تتم مصافحة من يأكل، برغم أن الآخرين لم يمسّوا طعامهم حتى. إلا أن كؤوس النبيذ قد فرغت تماماً بالفعل. والرجل، الذي حتى دقائق خلت كان اسمه غانتر، طلب للتو زجاجة كاملة.

،آمل أنك تلقّيت رسائلي، قال إيغور.

- تلقّيت ثلاثاً. ربما أن الشبكة الهاتفية هنا أسوأ من تلك التي طوّرتها.

- أنا لا أتكلّم على الهواتف.

«إذاً، أنا لا أعلم ما الذي تتكلم عليه»، قالت، «لكن ما أردت قوله هو: أعرف أنك لا تفعل».

تماماً كما أنه على إيغور أن يعرف أنها في السنة الأولى لها مع حميد انتظرت اتصالاً هاتفياً أو رسالة، أو أن يقول لها صديق مشترك كم أن إيغور يفتقدها. لم ترده قربها، لكنها عرفت أن أسوأ شيء يمكنها أن تفعله هو في أذيته. تحتاج إلى أن تهدّئ من غضبها العنيف وتدّعي أنه في وسعهما أن يصبحا يوماً صديقين جيدين. ففي بعد ظهر أحد الأيام، وقد شربت بعض الشيء واستجمعت ما يكفي من أعصابها للاتصال به، وجدت أنه بدّل رقم هاتفه النقال. ولما اتصلت به في المكتب، قيل لها إنه في اجتماع. وعندما اتصلت في مناسبات لاحقة - دائماً بمساعدة من المشروبات الكحولية - قيل لها ان إيغور مسافر، أو سيعاود الاتصال بها فوراً، وهو طبعا ما لم يفعله أبداً.

أخذت ترى الأشباح في كل مكان، وتشعر بأنها قيد المراقبة، وأنها سرعان ما ستعاني المصير ذاته الذي عاناه الشحاذ وغيره من الذين أشار إيغور من طرف خفي إلى أنه رقّاهم إلى حياة أفضل. في هذه الاثناء، لم يسألها حميد أبداً عن ماضيها، زاعماً أن لكل شخص الحق في إبقاء حياته في مكان مغلق في عمق أنفاق ذاكرته. بذل كل ما في وسعه لإسعادها ولمساعدتها على الشعور بالأمان والحماية، بل إنه قال لها إنه لم يبدأ في إعطاء معنى لحياته إلا منذ أن التقى بها.

ثم، في يوم من الأيام، قرع الشر المطلق باب البناية الموجودة فيها شقتهما في لندن. كان حميد في المنزل وأبعده. ولم يحصل شيء آخر في الأشهر التي تلت.

استطاعت، تدريجاً، خداع نفسها. نعم، لقد قامت بالخيار

الصحيح. ففي اللحظة التي نختار فيها سبيلنا، تختفي كل السبل الأخرى. كان صبيانياً اعتقادها أنه في وسعها الزواج برجل وتكون صديقة لزوجها السابق، فذلك ممكن فقط بين أناس يتمتعون بقدر كاف من الاتزان، وإيغور ليس متزناً تماماً. وكان من الأفضل لها أن تعتقد أن يداً خفية أنقذتها من الشر المطلق. وهي على درجة كافية من الأنوثة لتجعل الرجل الذي إلى جانبها يعتمد عليها، وتساعده بقدر استطاعتها كحبيبة، ومستشارة، وزوجة، وشقيقة، وقد جيّرت طاقتها للقيام بهذا وحسب.

كانت لها في تلك الفترة صديقة حقيقية وحيدة وحسب، وقد اختفت فجأة كما ظهرت. وهي روسية أيضاً، وعلى العكس منها فقد هجرها زوجها ولم تعرف حقيقة ما الذي تفعله في إنكلترا. وقد أخذتا تتحدثان في كل يوم تقريباً.

«تركت ورائي كل شيء»، قالت لها إيوا مرّة. «وأنا لست نادمة على ذلك أبداً. ولفعلت الأمر ذاته حتى ولو لم يشترِ حميد - خلافاً لرغبتي - عقاراً جميلاً في إسبانيا ويضعه باسمي. ولاتخذت القرار ذاته لو أن إيغور، زوجي السابق، قدّم إليّ نصف ثروته، لأنني أحتاج إلى أن أحيا بدون خوف. وإذا أراد واحد من أكثر الرجال المرغوبين في العالم أن يكون إلى جانبي، فيعني هذا أنني إنسانة أفضل مما اعتقدت.

كانت هذه كلها أكاذيب. وهي لم تحاول إقناع أمينة أسرارها، بل نفسها. هذه كلها واجهة. ففي داخل المرأة القوية الجالسة بين رجلين شديدي الشوكة ومهمين، توجد فتاة صغيرة خائفة من أن تُترك وحيدة وفقيرة، ولم تختبر أبداً حالة الأمومة. هل تعوّدت وحسب على الرفاه والبهرجة؟ كلا. فهي طالما حضّرت نفسها

لخسارة كل شيء بين يوم وآخر، عندما وجد رفيقها الحالي أخيراً أنها ليست ما اعتقد أنها عليه، وأنها عاجزة عن تلبية توقعات الغير.

أهي تعرف كيف تتلاعب في الرجال؟ نعم. فجميعهم اعتقدوا أنها قوية وواثقة من نفسها، سيدة قَدَرها الخاص، وأنها قادرة على هجر أي رجل مهما كان مهمّاً وأهلاً. والأسوأ من ذلك كله، أن الرجال صدّقوا الأمر - رجال مثل إيغور وحميد - لأنها عرفت كيف تتظاهر، ولأنها لم تقل بالتحديد أبداً ما تفكّر فيه، ولكونها أفضل ممثلة على وجه الأرض، وتعرف أحسن من أي كان كيف تخبئ جانبها غير الحصين.

«ماذا تريدين؟»، سألها بالروسية.

- المزيد من النبيذ.

بدا كأنه لا يبالي كثيراً بالجواب الذي أعطته. فهو قد قال ما يريد قوله.

- قلت لك أمراً، قبل أن تغادري، لكنني أعتقد أنك نسيت، ولا بدّ، ما هو.

قال أموراً كثيرة: أعدك بأن أتغيّر وبأن أعمل أقل، أنت المرأة الوحيدة التي أحب، إذا رحلت، فسيدمّرني ذلك... كلمات مألوفة للجميع، وهي خالية تماماً من أي معنى.

قلت: إذا هجرتني، فسأدمّر عالماً.

لم تستطع تذكّر قوله هذا، إلا أن ذلك ممكن تماماً. فلطالما كان إيغور خاسراً سيئاً.

وسألته بالروسية: لكن ما الذي يعنيه ذلك؟

«كونا مهذبين، وتحدّثا بالإنكليزية على الأقل»، قال حميد.

استدار إيغور ليواجهه.

- سأتحدّث بالإنكليزية، ليس من باب التهذيب، بل لأنني أريدك أن تفهم.

وعاد واستدار صوب إيوا، وقال:

- قلت إنني سأدمّر عالماً بأكمله لاستعيدك. شرعت في القيام بالأمر، لكن ملاكاً أنقذني. أدركت أنك لا تستحقين ذلك. فأنت أنانية، امرأة لا تعرف الصفح، تهتمين فقط بالحصول على المزيد من الشهرة والمزيد من المال. رفضتِ كل الأمور الجيدة التي قدّمتها إليك لأن منزلاً في الريف الروسي لا يتناسب مع عالم أحلامك، وهو بالمناسبة عالم لا تنتمين، ولن تنتمي إليه أبداً.

ضحيت بنفسي وبآخرين من أجلك، وهذا ليس حقاً. أحتاج إلى المضي إلى النهاية، بحيث تمكنني العودة إلى عالم الأحياء بشعور بأنني أنجزت واجبي ومهمتي. فأنا الآن، ونحن نتحدث، موجود في عالم الأموات.

فكّر حميد، وهو يستمع إلى هذه المحادثة اللامعقولة، المليئة بفترات الصمت الطويل، بأن عيني هذا الرجل مليئتان بنظرة الشر المطلق. حسناً، سيترك الأمور تأخذ مجراها حتى النهاية، على ما اقترحه إيغور، ما دام ذلك لا يعني خسارته المرأة التي يحب. بل إن ذلك أفضل له، لأن زوج إيوا السابق لم يظهر وحسب بصحبة امرأة مبتذلة، بل وجه أيضاً إهانة إلى إيوا في وجهها. سيسمح له بالتمادي بعض الشيء وسيعرف متى يضع حداً لهذا الحديث ما إن يفوت الأوان كلياً على إيغور للاعتذار أو توسل المسامحة.

لا بد من أن إيوا ترى الأمر ذاته، حقداً أعمى لكل شيء وكل أحد، فقط لأن شخصاً واحداً لم يفعل ما يرغب فيه. وتساءل ما الذي قد يفعله هو لو أنه الرجل الذي يحارب من أجل المرأة التي يحب.

فكّر في أنه سيصبح قادراً على القتل من أجلها.

عاد النادل ولاحظ أن الاطباق لم تُمَس.

وسأل: أتوجد مشكلة ما في الطعام؟

لم يجبه أحد. فهم النادل؛ لا بد من أن الزوج أمسك بزوجته بالجرم المشهود في «كان»، وهذه هي المواجهة النهائية. سبق له أن شاهد ذلك، وهو ينتهي عادة بعراك أو مشادة.

«زجاجة أخرى من النبيذ»، قال أحد الرجلين.

«أنت لا تستحقين شيئاً»، قال الرجل الآخر، وقد سمّر عينيه بالمرأة. «استغللتني تماماً كما تستغلين الأحمق الذي إلى جوارك. أنت أكبر خطأ ارتكبته في حياتي».

قرر النادل التحقق مع المضيف قبل أن يأتيهم بزجاجة النبيذ الأخرى، إلا أن أحد الرجلين نهض للتو على قدميه قائلاً للمرأة:

- يكفي ذلك. نحن مغادران.

«نعم، دعنا جميعنا نغادر، لنذهب خارجاً»، قال الرجل الآخر. «أريد أن أرى إلى أي مدى ستذهب في الدفاع عن شخص لا يعرف معنى كلمتي «شرف» و«كرامة»».

رجلان يتقاتلان على امرأة. طلبت المرأة منهما عدم الخروج والعودة إلى الطاولة، لكن الرجل الذي معها بدا مستعداً للرد على الإهانة. فكّر الخادم في إنذار رجال الشرطة بأن شجاراً سينجم عن

ذلك، لكن رئيسه أخذ يشتكي من البطء الشديد في الخدمة. وماذا يفعله هناك؟ وأن لديه طاولات أخرى يخدمها. وهو محق، طبعاً. فما يحصل في الخارج ليس مشكلته. ولو أنه اعترف بالتنصت على المحادثة، فسيتم توبيخه. إنه يتلقى أجرته لخدمة الطاولات وليس لإنقاذ العالم.

اجتاز ثلاثتهم الحديقة التي قُدّم فيها الكوكتيل، والتي تخضع الآن لعملية تحويل سريعة. وعندما سينزل الضيوف من العشاء، سيجدون ساحة للرقص مضاءة بإنارة خاصة، ومنطقة جلوس مفروشة بكراسي ذات أذرع، وبارات صغيرة متعددة تقدم الشراب المجاني.

سار إيغور في الطليعة صامتاً. تبعته إيوا وسار حميد في الخلف. توجد بوابة حديدية صغيرة عند أعلى الدرج الذي يوصل إلى الشاطئ. فتحها إيغور وطلب منهما النزول أوّلاً. رفضت إيوا، وبدا أنه لا يمانع ونزل سلسلة الدرجات الكثيرة التي تؤدّي إلى البحر. يعرف أن حميد لن يُثبت أنه جبان. وهو، إلى أن التقاه في الحفلة، لم يعتبره سوى خياط لا يتورع عن شيء: مُغوٍ للنساء المتزوجات، ومتلاعب في غرور الأناس الآخرين. إلا أنه معجب به الآن سرّاً. إنه رجل حقيقي، قادر على القتال حتى النهاية من أجل شخص يعتبره مهمّاً، برغم أن إيغور يعلم بأن إيوا لا تمتلك ذرّة من موهبة الممثلة الشابة التي التقاها الليلة. لا تستطيع إطلاقاً إخفاء مشاعرها، يمكنه الشعور بخوفها، يعرف أنها تتعرّق، متسائلة عمن تنادي، وكيف تطلب النجدة.

ما إن بلغوا الرمل حتى سار إيغور إلى نهاية الشاطئ وجلس قريباً من بعض الصخور، وطلب منهما فعل الشيء ذاته. يعرف أن إيوا، برغم رعبها، تفكّر أيضاً: إنني سأُفسد ثوبي. سأوسخ حذائي. لكنها جلست قربه. طلب منها الرجل أن تزيح قليلاً بحيث يمكنه الجلوس هناك، لكنها لم تتزحزح.

لم يصرخ. وها هم، ثلاثتهم، أشبه بأصدقاء منذ زمن قديم يبحثون عن لحظة سكينة يتأملون فيها شروق البدر قبل أن يصعدوا الدرج من جديد للاستماع إلى الضجيج الجهنمي الصادر عن مشغّل الأسطوانات.

تعهّد حميد لنفسه بأنه سيعطي إيغور عشر دقائق، وهو الوقت الكافي له ليقول كل ما عنده، وينفس حنقه ويعود من ثم من حيث جاء. ولو أنه تحوّل إلى العنف فسيخسر لأن حميد أقوى منه جسدياً، وهو، كبدوي، قد تدرّب على الرد سريعاً وبدقّة على أي هجوم. لا يريد إثارة المشاكل في الحفلة، لكن على الروسي ألا يتوهم: فهو مستعد لكل شيء.

وسيعتذر، عندما سيعودون، من المضيف، ويشرح له أن المسألة قد سُوّيت. يعرف أنه يستطيع التكلّم معه بصراحة. سيقول له إن زوج امرأته السابق ظهر بدون سابق إنذار، وإنهما شعرا بأنه من الأفضل إخراجه قبل أن يسبب أي مشاكل. وإذا لم يغادر الرجل بعودتهما إلى الحفلة، فسيستدعي أحد حراسه الشخصيين لطرده. قد يكون إيغور ثرياً ويملك واحدة من أكبر شركات الهاتف النقال في روسيا، إلا أنه برغم ذلك مصدر إزعاج.

لقد خنتني، ليس فقط في خلال السنتين اللتين أمضيتهما مع هذا الرجل، بل طوال السنوات كلها التي أمضيناها معا.

لم تقل إيوا شيئاً.

فوجه السؤال إلى حميد: ما الذي أنت قادر على فعله من أجل الحفاظ عليها؟

تساءل حميد إذا كان عليه ان يجيب أم لا. فإيوا ليست سلعة تجارية تتم المساومة عليها.

أيمكنك إعادة صياغة سؤالك؟

حسناً. أتضحي بحياتك من أجل المرأة التي إلى جانبك؟

يوجد شر مستطير في عيني الرجل. لكن حتى لو تمكن إيغور من سرقة سكين من المطعم (لم يلاحظ حميد قيامه بذلك، لكن عليه أخذ جميع الاحتمالات في الاعتبار)، فلن يواجه مشكلة في نزع سلاحه. كلاّ، فهو لن يبذل حياته من أجل أحد، في ما عدا الله وزعيم قبيلته، لكن عليه أن يقول شيئاً.

سأقاتل من أجلها. وإذا تطلّب الأمر، أعتقد أنني قادر على القتل للحفاظ عليها.

لم يعد في مقدور إيوا تحمل الضغط أكثر، تودّ أن تقول كل ما تعرفه عن الرجل الذي إلى يمينها. إنها واثقة من أنه قتل الممثل ودمّر الحلم الذي رعاه شريك حياتها طويلاً بأن يصبح منتجاً سينمائياً.

- لنعد إلى فوق.

- ما أرادت قوله حقيقة هو: رجاء، لنذهب من هنا فوراً. فأنت تحادث مريضاً عقلياً.

بدا أن إيغور لم يسمع ما قالت.

- ستكون قادراً على القتل من أجلها، ويعني ذلك بالتالي أنك قادر على الموت من أجلها أيضاً.

إذا قاتلت وخسرت، فنعم. أعتقد أنه يمكنني ذلك. لكن دعنا لا نشرع في قتال هنا على الشاطئ.

«أريد العودة إلى الحفلة»، قالت إيوا من جديد.

لكن حميد شعر بأن للأمر علاقة بعنفوانه كرجل. لا يستطيع مغادرة المكان كالجبان. تم الشروع في الرقصة القديمة التي يؤديها الذكور - الإنسانيون والحيوانيون - للتأثير في الأنثى.

«عندما غادرت، لم أتمكن من أن أبقى نفسي»، قال إيغور كما لو أنه وحده على الشاطئ. أخذت أعمالي تزدهر، وأمكنني السيطرة على نفسي في خلال النهار، إلا أنني كنت، أثناء الليل، أسقط في كآبة سوداء. فقد خسرت جزءاً من نفسي لن أستطيع أبداً استعادته. اعتقدت أنه في وسعي القيام بذلك بمجيئي إلى هنا، إلى «كان»، لكنني أدركت، بوصولي، أن الجزء مني الذي مات لا تمكن إعادة إحيائه، ولا يجب ذلك. لن أستعيدك أبداً، حتى ولو جئت إليّ راكعة، متوسلة الغفران ومهددة بالانتحار.

تنفست إيوا بسهولة أكبر، فعلى الأقل لن يحصل عراك.

- لم تفهمي رسائلي. قلتُ إنه في إمكاني تدمير عوالم كاملة، ولم تستوعبي. أو لو فعلت لما أمكنك التصديق. فماذا يعنيه تدمير عالم؟

مدّ يده إلى جيب سرواله وأخرج مسدساً صغيراً. إلا أنه لم يصوّبه إلى أحد؛ بقيت عيناه مسمرتين في البحر وفي القمر. أخذ

الدم يجري بسرعة أكبر في عروق حميد. فإما أن إيغور يريد إخافتهما وإذلالهما، وإما أنه حقيقة قتال حتى الموت. لكن، هل سيقتلهما هنا، في الحفلة، وهو يعلم بأنه سيتم توقيفه ما إن يعود إلى صعود الدرج؟ لا يمكنه أن يكون على هذا القدر من الجنون، فلو أنه كذلك لما أمكنه إنجاز ما أنجزه في حياته.

يكفي انشغالاً. فهو محارب وقد تدرّب على الدفاع عن النفس والهجوم. عليه أن يبقى ساكناً تماماً، فهو يعلم بأن احاسيس الرجل متيقظة لأي حركة، برغم أنه لا ينظر إليه مباشرة.

الجزء الوحيد من جسمه الذي يمكنه تحريكه بأمان، هو عيناه. وأمكنه أن يرى عدم وجود أحد على الشاطئ. وقد أخذت الفرقة، في الأعلى، في دوزنة آلاتها استعداداً للقسم الأكثر إمتاعاً من الحفلة. حميد لا يفكّر، وغرائزه مركّزة الآن على التحرك بدون تدخّل من عقله.

تجلس إيوا بينه وبين إيغور، ويبدو أن رؤية المسدس قد استحوذت عليها. ولو أنه حاول أي شيء، فسيستدير إيغور ويطلق النار وقد تتعرض للإصابة.

نعم، لربما أن نظريته الأولى هي الصحيحة. يريد إيغور إخافتهما وحسب، لإجبار حميد على الظهور بمظهر الجبان ويفقد كرامته. ولو أنه اراد فعلاً إطلاق النار عليهما لما حمل المسدس بهذه الطريقة الاستعراضية. وسيكون من الأفضل التحدث معه ومحاولة جعله يسترخي بعض الشيء، بينما يفكّر بطريقة ما للخروج من المأزق.

سأله، ماذا يعني تدمير عالم؟

- تدمير حياة. كون بأكمله يختفي. كل ما رآه هذا الشخص

واختبره، كل ما جرى له من خير وشر؛ كل أحلامه، وآماله، وهزائمه وانتصاراته، وقد كفّت عن الوجود. ونحن كأطفال تعلّمنا عن ظهر قلب مقطعاً لم أكتشف إلا لاحقاً أنه جاء من كاهن بروتستانتي. جاء فيه شيء مثل: «عندما يحمل البحر إلى أعماقه حبة رمل واحدة، تصغر أوروبا بأكملها. ونحن لا نلاحظ ذلك طبعاً. فما هي في النهاية إلا حبة رمل، إلا أنه في تلك اللحظة بالذات، يصيب النقص قارة بأكملها".

توقف إيغور بعض الشيء. أخذ في الاستياء من الضجيج الآتي من فوق؛ فصوت الموج كان مريحاً إلى درجة سمحت له بالتعامل مع هذه اللحظة بالاحترام الذي تستحقه. الملاك ذات الحاجبين الداكنين تراقب، وهي سعيدة بما ترى.

وتابع: كان يُفترض بذلك أن يعلّمنا أننا مسؤولون عن خلق المجتمع المثالي، يعني الشيوعية. قالوا إننا جميعنا أخوة وأخوات، بينما نحن في الواقع جواسيس تدرّبنا على خيانة بعضنا البعض.

عاد ليصبح هادئاً وجدّياً.

- لا يمكنني سماعك جيداً.

سيعطيه هذا سبباً للتحرك.

- بالتأكيد يمكنك. تعرف أنه في يدي مسدس وتريد الاقتراب لترى إذا كان في وسعك انتزاعه مني. تريد إدخالي في محادثة لإلهائي بينما تفكّر في ما عليك القيام به. أرجوك ألا تتحرك. لم تأت اللحظة بعد.

«إيغور، دعنا نُسقط الأمر برمته»، قالت إيوا بالروسية. «أحبك. دعنا نذهب بعيداً معاً».

تحدثي بالإنكليزية، لأن رفيقك هنا يحتاج إلى أن يفهم ما تقولينه.

نعم، عليه أن يفهم، وسيشكرها لاحقاً على ذلك.

«أحبك»، قالت من جديد، بالإنكليزية هذه المرة. «لم أتلق رسائلك أبداً. ولو فعلت لعدت إليك راكضة. حاولت مرات كثيرة الاتصال بك هاتفياً، لكنني لم أتمكن من محادثتك. تركت رسائل مع سكريتيرتك، لكنك لم تتصل بي أبداً».

- هذا صحيح.

- منذ أن شرعت في تلقي رسائلك اليوم، وأنا أتطلع لرؤيتك من جديد. لم أعرف أين أنت، لكنني علمت بأنك ستأتي وتجدني. أعرف أنك لا تريد مسامحتي، لكن اسمح لي على الأقل بأن أعيش قربك. في وسعي أن أصبح خادمة لك، أقوم بالتنظيف، سأرعاك وأرعى محبوبتك في حال قررت أن تكون لك واحدة. جل ما أريده هو أن أكون معك.

ستشرح كل شيء لحميد لاحقاً. عليها أن تقول شيئاً، أي شيء، فقط للخروج من هناك وصعود الدرج من جديد إلى العالم الحقيقي، حيث يوجد رجال شرطة يمكنهم منع الشر المطلق من إظهار حقده.

- أود أن أصدّقكِ، أو بالأحرى أود أن اعتقد أنني أحبك أيضاً، وأريد عودتك، لكنني لا أريد. ثم إنني أعتقد أنك تكذبين، وأنك لطالما كذبت.

حميد لا يستمع إلى ما يقوله أي منهما، فذهنه بعيد مع أجداده المحاربين طالباً الإلهام للقيام بالخطوة الصحيحة.

- لأمكنكِ أن تقولي لي إن زواجنا لا يعمل كما يأمل كلانا. فلقد بنينا الكثير معاً، أَوَلم يكن في استطاعتنا إيجاد حل؟ توجد دائماً طريقة تسمح للسعادة بالدخول، إلا أنه على الشريكين، ليحصل ذلك، أن يعترفا بوجود مشاكل. ولاستمعت إلى ما أردت قوله، ولاستعاد زواجنا إثارته الأصلية وفرحه. لكنك لم تريدي القيام بذلك، واخترت الطريق الأسهل للهروب.

- لطالما خفتُ منك، وأنا الآن أشد خوفاً وأنا أرى ذلك المسدس في يدك.

أعاد تعليق إيوا الأخير حميد فجأة إلى الأرض. لم تعد روحه في مكان ما في الفراغ طالبة النصح من محاربي الصحراء، محاولة العثور على طريقة للتصرف.

لا يمكنها قول ذلك. إنها تتخلى عن السلطة للعدو، وهو سيعرف الآن أنه قادر على إرعابها.

«لأحببت أن أدعوك في أحد الأيام إلى العشاء، واقول لك إنني شعرت بقدر كبير من الوحدة برغم الولائم، والجواهر، والرحلات والاجتماعات مع ملوك ورؤساء»، قالت إيوا. «أتعرف أمراً آخر؟ فأنت أهديتني دوماً أشياء ثمينة، لكن ولا مرة أبسط الهدايا كلها: الأزهار».

أخذ الأمر يتحول إلى جدال زوجي.

سأترككما أنتما الاثنين تتحدثان.

لم يقل إيغور شيئاً. لا تزال عيناه مسمّرتين في البحر، لكنه لا يزال يصوّب المسدس نحوه، مشيراً إلى أن عليه البقاء حيث هو. الرجل مجنون، وهدوؤه الظاهر أكثر خطورة مما لو أنه يصرخ بالتهديدات في وجهيهما.

على أي حال، قال كما لو أنه لم يتأثر بكلامها أو بمحاولة حميد التحرك، لقد اخترتِ الطريقة الاسهل للهروب. هجرتني. لم تعطني فرصة، لم تفهمي أن كل ما أفعله هو لك ومن أجلك.

وبرغم ذلك كنت، برغم جميع المظالم والإذلالات، سافعل أي شيء لاستعادتك، حتى اليوم. إلى أن بعثتُ إليك بتلك الرسائل، وادعيتِ أنك لم تتلقيها. وبعبارات أخرى، فإنه حتى التضحية بأولئك الناس الآخرين لم تحرك نفسك، فأنت لا تكتفين وحسب من السلطة والجاه.

النجم الذي تسمم، والمخرج الذي حياته معلّقة بخيط رفيع: فهل حميد يتخيل ما لا يمكن تخيله؟ بل إنه أدرك أمراً أكثر خطورة: فبهذا الاعتراف، قام الرجل الموجود على مقربة منه، بتوقيع وثيقة إعدامهما وحسب. فهو إما ينتحر هنا الآن، وإما يضع حداً لحياة شخصين أصبحا يعرفان الآن أكثر بكثير مما يجب.

فكّر حميد في أنه ربما هو نفسه أخذ يجن، أو أنه أساء فهم الموقف، لكنه يعرف أن الوقت ينفد.

نظر إلى المسدس في يد الرجل. إنه من عيار صغير. وهو لن يُحدث ضرراً كبيراً إذا لم يصب نقاطاً حرجة في الجسم. لا يمكنه أن يكون خبيراً جداً، ولو أنه كذلك لاختار شيئاً أكثر قوة. واضح أنه لا يعرف ما يفعله؛ لا بد من أنه اشترى أول شيء يُعرَض عليه، شيء يطلق الرصاص ويمكنه أن يقتل.

أخذت الفرقة فوق في العزف. ألا يدركون أن صوت الموسيقى سيطغى على صوت الرصاصة؟ ثم، هل سيتمكنون من التمييز بين دوي طلقة مسدس وأي من الضجيج الاصطناعي الذي يتفشّى - نعم تلك الكلمة، يتفشى، يلوّث، يجتاح - في الجو؟

هذا إيغور من جديد، وهذا أكثر خطورة بكثير مما لو استمر في الكلام، مفرغاً ما في قلبه من مرارة وحقد. وزن حميد من جديد كل الاحتمالات. إذا كان عليه القيام بعمل ما، فأن يفعل ذلك في غضون الثواني القليلة المقبلة. يمكنه أن يُلقي بنفسه من فوق إيوا ويمسك بالمسدس وهو ملقى في شكل عرضي في حضن إيغور، برغم وجود إصبعه على الزناد. يمكنه أن يبلغه بذراعيه الاثنتين ويجبر إيغور على التراجع وقد ذُعر، وعندها تصبح إيوا خارج مرمى النار. سيصوب إيغور المسدس في اتجاهه، لكنه سيكون عندها قد اقترب كفاية ليمسك بمعصمه، ولن يستغرق الأمر كله أكثر من ثانية.

الآن.

ربما يشكل هذا الصمت علامة إيجابية، ربما أن إيغور فقد تركيزه، أو ربما هي بداية النهاية، بمعنى أنه قال كل ما أراد قوله.

الآن.

في جزء من الثانية اشتد عضل فخذه الأيسر ودفعه بعنف في اتجاه الشر المطلق. تقلّصت مساحة جسمه وهو يلقي بنفسه من فوق حضن إيوا وقد مدّ ذراعيه بأقصى ما يمكن. مرّت الثانية الأخرى ورأى المسدس وقد صُوّب إلى رأسه مباشرة، الرجل يتحرك بأسرع مما توقّع.

لا يزال جسمه يطير في اتجاه المسدس. كان عليه وعلى إيوا التحدّث من قبل. فهي لم تخبر أبداً الكثير عن زوجها السابق، كما لو أنه ينتمي إلى ماض تفضّل ألا تتذكره أبداً. وكما لو أن

كل شيء يحصل بالسرعة البطيئة، تراجع الرجل برشاقة الهر، والمسدس ثابت تماماً في يده.

قاربت الثانية الأولى نهايتها. شاهد إصبعاً تتحرك، لكن بدون صوت، شعر فقط بشيء يسحق العظمة في وسط جبينه. انطفأ كونه، ومعه اختفت جميع ذكريات شاب حلم بأن يصبح أحداً ما، وتلاشى ما كان عالقاً في ذهنه حول وصوله إلى باريس، ومتجر والده، والشيخ، ومعركته للفوز بمكان تحت الشمس، وعروض الأزياء، والرحلات إلى الخارج، ولقائه والمرأة التي يحب، وأيام الخمرة والورود، والدمعة والابتسامة، وآخر شروق للقمر، وعيني الشر المطلق، ونظرة الرعب في عيني زوجته.

«لا تصرخي. لا تتفوهي بكلمة. حافظي على هدوئك».

هي لن تصرخ بالتأكيد، كما لا تحتاج إلى الطلب منها أن تهدأ. إنها في حالة صدمة كالحيوانة التي هي، بالرغم من جواهرها الثمنية وثوبها الغالي. لم يعد دمها يجري بسرعته الطبيعية، أخذ وجهها يبهت. اختفى صوتها، وتهاوى ضغط دمها. يعرف تماماً ما تشعر به. فهو اختبر الأمر ذاته مرة عندما شاهد بندقية مقاتل أفغاني تسدد على صدره. الجمود التام وعدم القدرة على الانفعال. ولم ينقذه إلا قيام زميل له بإطلاق النار أولاً. وهو لا يزال ممتناً للرجل الذي أنقذ حياته. ظن الجميع أنه سائقه وحسب، بينما هو يملك في الحقيقة أسهماً كثيرة في الشركة، وغالباً ما يتحادث هو وإيغور، وقد تحدّثا بالفعل بعد ظهر هذا اليوم عندما اتصل إيغور سائلاً إذا كانت إيوا أظهرت أي علامة على استلامها الرسائل.

إيوا، المسكينة إيوا، جالسة هناك ورجل يحتضر في حضنها. لا

يمكن توقّع البشر، يقومون أحياناً برد فعل شبيه برد فعل هذا الأحمق برغم معرفته بأنه لا يملك فرصة للتغلب عليه. والأسلحة غير متوقّعة أيضاً. فقد توقّع أن تخرج الرصاصة من الجانب الآخر لرأس الرجل ناسفة الجزء الأعلى من الدماغ، لكن، نظراً إلى زاوية الطلقة، فلا بد من أنها خرقت الدماغ، وارتدّت عند إحدى العظام ودخلت الصدر لأنه يرتجف بطريقة جامحة، لكن بدون أي أثر للدماء.

لا بد من أن الارتجاف، وليس الطلقة، ما أصاب إيوا بالصدمة. دفع إيغور الجسم بإحدى قدميه إلى الأرض ووضع رصاصة في عنق الرجل من الخلف. توقف الارتجاف. ركع أمامها ووضع أسطون المسدس عند ثديها. لم تتحرك إيوا.

لقد تخيّل نهاية مختلفة للقصة، بأن تتفهم هي رسائله وتعطي لكليهما الفرصة في السعادة. فكّر في جميع الأمور التي سيقولها عندما يصبحان أخيراً وحدهما كما حالهما الآن، ينظران إلى هدوء البحر المتوسط، يضحكان ويتسامران.

لم يرد أن يعيش وهذه الكلمات عالقة في حلقه، برغم أنه لم يعد لهذه الكلمات من نفع الآن.

لطالما فكرت في أننا، في يوم من الأيام، سنسير من جديد يداً بيد عبر المنتزه على طول الشاطئ، ونقول أخيراً كلمات الحب تلك التي أرجأنا قولها كثيراً. سنتناول الطعام مرة في الأسبوع في الخارج، ونسافر معاً إلى أماكن لم يسبق أن زرناها، فقط لمجرد لذّة اكتشاف أمور جديدة بصحبة بعضنا البعض.

- أخذتُ، وأنت بعيدة، في نقل قصائد من أحد الكتب لأهمس بها في أذنك وأنت تستسلمين للنوم. كتبت إليك رسائل أخبرك فيها بما أشعر، رسائل أتركها حيث يمكنك العثور عليها وعندها

ستعرفين أنني لم أنسك أبداً، ولا حتى يوماً واحداً، أو لحظة واحدة. سنناقش خرائط المنزل الذي أردته عند شواطئ بحيرة بايكال، لنا نحن الاثنين فقط. أعرف أن لديك أفكاراً كثيرة لذلك. خططتُ لبناء مطار خاص هناك، وبالطبع سأترك هندسة المنزل الداخلية لذوقك الجميل، لك أنت المرأة التي أعطت مبرراً لحياتي، ومعنى لها.

لم تقل إيوا شيئاً، بل حدّقت في البحر أمامها.

- جئتُ إلى هنا بسببك، لأدرك فقط أنه لا فائدة من ذلك كله.

ضغط على الزناد.

لم يصدر تقريباً أي صوت لأن الأسطون كان ملتصقاً بجسمها. دخلت الرصاصة في المكان المناسب تماماً، وتوقف قلبها فوراً عن الخفقان. فهو، برغم الوجع الفظيع الذي سببته له، لم يُرد لها أن تتألم.

لو أن ثمة حياة بعد الموت، فسيمشي كلاهما الآن - المرأة التي خانته والرجل الذي شجعها - يداً بيد في ضوء القمر الذي يحفّ بخط الشاطئ. سيلتقيان بالملاك ذات الحاجبين الداكنين التي ستشرح كل ما حصل، وتضع حداً لأي شعور بالضغينة أو الحقد. ففي النهاية، وعند حد ما، على الجميع مغادرة هذا الكوكب المعروف بالأرض. ثم إن الحب يبرر أعمالاً لا يستطيع مجرد البشر فهمها ما لم يصدف أنهم يختبرون ما اختبره.

بقيت عينا إيوا مفتوحتين، لكن جسدها ارتخى وتهاوى على الرمل. ترك الجثتين في مكانهما، ومضى إلى الصخور. مسح بعناية بصماته عن المسدس ورماه في البحر بأبعد ما يمكن عن المكان الذي جلسوا فيه يتأملون القمر. عاد إلى الدرج. وجد في طريقه سلّة مهملات رمى الكاتم فيها. وهو لم يحتج إليه في الحقيقة، فالموسيقى بلغت أوجها في الوقت المناسب تماماً.

١٠:٥٥ ب.ظ.

توجّهت غابرييلا إلى الشخص الوحيد الذي تعرفه.

أخذ الضيوف الآن يغادرون غرفة العشاء. الفرقة تعزف أغاني من الستينيات، الحفلة تبدأ، والناس يبتسمون، ويتحدثون مع بعضهم البعض، برغم الضجيج الذي يصمّ الآذان.

- كنت أبحث عنكَ، أين صديقاك؟

- وأنتِ، أين صديقك؟

- رحل. كل ما قاله هو أن ثمة مشكلة مع الممثل والمخرج، ثم غادر. والشيء الآخر الوحيد الذي قاله هو أنه تم إلغاء حفلة الليلة على اليخت.

أدرك إيغور ما قد حصل. لم تكن لديه أي نية في قتل شخص يُعجب به تمام الإعجاب، ويحاول أن يحضر أفلامه كلما سمح له الوقت بذلك. كأنه القدر الذي يقوم بهذه الخيارات... وما الإنسان إلا وسيلة.

- أنا مغادر. وإذا أردتِ يمكنني أن أوصلك إلى فندقك.

- لكن الحفلة بدأت للتو.

- تمتعي بها إذاً. فأنا سأطير في وقت مبكر غداً.

على غابرييلا أن تتخذ قراراً سريعاً. يمكنها إما أن تبقى هنا مع حقيبة اليد تلك المحشوة بالورق، في مكان لا تعرف فيه أحداً، على أمل أن توصلها روح محسنة إلى لاكروازيت، حيث ستخلع حذاءها لتتسلق التلة التي لا تنتهي إلى الغرفة التي تتقاسمها مع أربع صديقات أخريات، وإما أن تقبل عرض هذا الرجل اللطيف الذي قد تكون لديه بعض العلاقات المفيدة، وهو صديق لزوجة حميد حسين. لقد شهدت على بداية ما يشبه الجدال، لكن أموراً كهذه تحصل في كل يوم، وسرعان ما سيتصالحون.

لديها دور في فيلم، وانفعالات اليوم كلها قد أرهقتها. وهي تخشى أن ينتهي بها الأمر وقد أفرطت في الشرب وتفسد كل شيء. سيتقدم منها رجال سائلين إذا كانت وحدها، وما الذي ستفعله بعد ذلك، وإذا كانت ترغب في زيارة جوهري ما معهم في اليوم التالي. وستضطر إلى قضاء ما بقي من الليل وهي تحاول، بتهذيب، تفادي الناس، محاولة عدم جرح شعور أحد لأنه لا يمكنها أن تتأكد كلياً من هوية الشخص الذي تتحدث معه. وهذه في النهاية واحدة من أكثر الحفلات حصرية في المهرجان.

- لنذهب.

هكذا تتصرف النجمة. تغادر حين لا يتوقع منها أحد أن تفعل.

خرجا إلى منطقة الاستقبال في الفندق، حيث طلب غانتر (لا يمكنها تذكر اسمه الآخر) من موظفة الاستقبال أن تستأجر لهما سيارة تاكسي، فقالت إنهما محظوظان؛ فلو أنهما تأخرا أكثر لكان عليهما ان يقفا في طابور ضخم.

سألته في طريق العودة عن سبب كذبه في ما يتعلق بعمله. فأخبرها بأنه كانت له شركة هاتف محمول، لكنه قرر بيعها لأنه شعر بأن المستقبل موجود في الآليات الثقيلة.

وماذا عن اسمه؟

إيغور اسم تحبُّب، وهو التصغير الروسي لغانتر.

توقّعت منه غابرييلا أن يخرج في أي وقت بعبارات: هل لنا بتناول شراب في فندقي قبل النوم؟ لكنه لم يفعل. تركها عند باب المنزل الذي تقيم فيه. صافحها وغادر.

يا للذوق الرفيع!

نعم، كان هذا يوم سعدها الأول، الأول في أيام سعد كثيرة. وغداً، عندما تستعيد هاتفها، ستُجري مخابرة، مدفوعة من المتلقّي، إلى مدينة قرب شيكاغو تخبر الجميع بالخبر الكبير، وتطلب منهم شراء مجلات الشائعات لأنه تم تصويرها وهي تصعد الأدراج مع النجم. وستقول لهم إنه يأمل أن يصبح لها اسم كبير. إلا أنهم إذا سألوها عن الذي سيحصل من بعد، فستغيّر الموضوع. لديها اعتقاد متطيّر بأنه ليس عليها مناقشة المشاريع إلى أن تحصل بالفعل. سيسمعون بالأمر في ما سيتسرب من أخبار. ممثلة مغمورة يتم اختيارها للدور الرئيسي. ليزا وينر ضيفة الشرف في حفلة في نيويورك. فتاة شيكاغو غير المعروفة من قبلُ، هي حديث الناس في آخر أفلام غيبسون. وكيلها يفاوض على عقد بمليون دولار مع واحد من كبار منتجي هوليوود.

حدودها السماء.

١١:١١ ب.ظ.

جئتِ باكراً؟

لوصلت في وقت أبكر، لولا زحمة السير.

نفضت ياسمين الحذاء من رجليها، أسقطت حقيبة يدها، ورمت بنفسها في السرير منهكة، وبكامل لباسها. قالت:

«أهم الكلمات في أي لغة هي العبارات القصيرة: «نعم»، على سبيل المثال، أو «حب»، أو «الله». كلّها يسهل قولها، وهي تملأ المساحات الفارغة في الكون. إلا أنه توجد كلمة صغيرة أجد صعوبة كبرى في قولها، لكنني سأقولها الآن». تطلّعت إلى رفيقتها وقالت: «لا».

ربتت على السرير داعية رفيقتها إلى الانضمام إليها. فعلت ذلك، وداعبت شعرها.

- لكلمة «لا» سمعة بأنها خسيسة، أنانية، وغير روحانية. ونعتقد عندما نقول «نعم» بأننا أسخياء، متفهمون، مهذبون. لكنني

سأقول لك الآن «لا». لن أفعل ما تطلبين مني، ولن تجعليني أقوم به، حتى لو اعتقدتِ أنه يصب في أفضل مصالحي. ستقولين إنني لم أتجاوز التاسعة عشرة ولم أتمكن بعدُ من فهم الحياة فهماً تاماً، إلا أن ذهابي إلى حفلة مثل حفلة الليلة، كان كافياً جداً لأعرف ما أريد، وبالتأكيد ما لا أريد.

لم أخطط أبداً لأن أصبح عارضة، كما أنني لم أفكّر حتى في أنني قادرة على الوقوع في الحب. أعلم بأن الحب لا يمكنه أن يبقى إلا إذا كان حرّاً، لكن من قال إنني عبدة لأحد؟ أنا فقط عبدة لقلبي، وحِمْلي في هذه الحالة خفيف جداً. اخترتك قبل أن تختاريني. أبحرتُ في ما بدا أنه مغامرة مستحيلة، ولم اشتكِ أبداً من العواقب، سواء أكانت الأفكار المسبقة للمجتمع أم المعارضة من عائلتي. لقد تغلّبت على جميع هذه الأمور بحيث يمكنني أن أكون معك هنا الليلة، في «كان»، أتلذذ بنجاح عرض أزياء ممتاز، وعارفة أنه ستكون ثمة فرص أخرى في الحياة، إلى جانبك.

استلقت رفيقتها قربها ورأسها في حضن ياسمين.

- الشخص الذي جعلني أدرك ذلك كان رجلاً، أجنبياً، التقيت به الليلة وأنا في الحفلة، ضائعة وسط الحشد، لا أعرف ما أقول. سألته عما يفعله هناك، وقال إنه أضاع حبيبته، وجاء إلى هنا بحثاً عنها، لكنه لم يعد متأكداً من أنها من يريد. طلب مني أن اتطلع من حولي إلى الضيوف الآخرين. وقال إننا محاطون بأناس ملؤهم اليقين والأمجاد والغزوات، لكنهم لا يستمتعون. يظنون أنهم في قمة مجدهم المهني. ويصيبهم النزول الحتمي بالخوف. نسوا أنه لا يزال يوجد عالم بكامله يتغلّبون عليه لأنهم...

- ... لأنهم اعتادوا على الحياة كما هي.

- بالضبط. لديهم الكثير من الأمور، والقليل من التطلعات.

ملؤهم المشاكل المحلولة، والمشاريع الموافَق عليها، وأعمال تزدهر بدون أن يضطروا إلى القيام بأي شيء. وكل ما بقي الآن هو الخوف من التغيير. لهذا، ينتقلون من حفلة إلى حفلة، ومن اجتماع إلى آخر، بحيث لا يتسنى لهم الوقت للتفكير، ويقابلون الأناس أنفسهم المرة تلو المرة، ليقتنعوا بأن كل شيء على حاله. اليقين حل محل الولع.

«اخلعي ثيابك»، قالت رفيقتها مفضلة عدم قول المزيد.

نهضت ياسمين، نزعت ثيابها، وانسلت بين الأغطية.

- انزعي ملابسك أنت أيضاً وأحيطيني بذراعيك، أحتاج فعلاً إلى الشعور بذراعيك تلفانني لأنني اعتقدت اليوم أنك ستتخلين عني.

فعلت ما طلبته منها، وأطفأت النور. غفت ياسمين فوراً بين ذراعيها. إلا أنها تمددت مستيقظة لبعض الوقت محدّقة إلى السقف، مفكّرة في أن ابنة ١٩ عاماً، بكل براءتها، هي أحياناً أكثر حكمة من امرأة في الثامنة والثلاثين. وهي ستضطر إلى النمو، مهما شعرت في هذه اللحظة بأنها تفتقد الشعور بالثقة. ستجد في ح. ح. عدواً قوياً، سيقوم بلا شك بوضع ما أمكنه من العراقيل لمنعها من المشاركة في أسبوع الموضة في تشرين الأول/أكتوبر. سيصرّ في البداية على شراء اسمها، وعندما ستثبت استحالة ذلك، سيحاول إسقاط سمعتها لدى الاتحاد، قائلاً إنها لم تلتزم بكلامها.

الأشهر القليلة المقبلة ستكون صعبة.

ما لا يعرفه ح. ح. بالتأكيد، وما لا يعرفه أحد، هو أنها تمتلك قوة مطلقة ستساهم في تغلُّبها على جميع الصعوبات: حب المرأة الشابة التي تنام الآن بين ذراعيها. من أجلها ستفعل أي شيء... كل شيء، أللهم إلا القتل.

معها تستطيع كل شيء، حتى الانتصار.

١:٥٥ ب.ظ

محركات طائرة شركته تدور بالفعل. جلس إيغور في مقعده المفضّل - الصف الثاني إلى اليسار - وانتظر الإقلاع. ما إن أُطفئ ضوء حزام الأمان، حتى توجه إلى البار، وسكب لنفسه كمية سخية من الفودكا، ارتشفها دفعة واحدة.

تساءل للحظة إذا كان قد نجح فعلاً في إرسال تلك الرسائل إلى إيوا، بينما هو منشغل في تدمير العوالم. أوَجب عليه أن يقدّم شرحاً أكثر، ويضيف ملاحظة أخرى أو اسماً أو شيئاً من هذا القبيل؟ لنتجت عن ذلك مخاطرة رهيبة. قد يعتقد الناس أنه قاتل متسلسل.

وهو ليس بواحد: كان لديه هدف تغيّر، لحسن الحظ، مع الوقت.

لم يعد التفكير في إيوا يُثقل عليه كالسابق. وهو لا يحبها كما أحبها من قبل، وكذلك لا يكرهها كما انتهى إلى كرهها.

وهي، مع الوقت، ستختفي كلّياً من حياته، وهنا مؤسف، لأنه من غير المرجّح أن يعثر على امرأة أخرى مثلها، على علاّتها.

عاد إلى البار، سكب لنفسه كأساً أخرى من الفودكا وشربها دفعة واحدة. هل سيدركون أن رجلاً واحداً هو المسؤول عن القضاء على تلك العوالم؟ هذا لا يهم. ندمه الوحيد هو على اللحظة التي قرر فيها تسليم نفسه إلى الشرطة بعد الظهر. إلا أن القدر كان إلى جانبه وتمكن من إكمال مهمته.

نعم، لقد ربح، لكن الرابح لا يبقى وحيداً. فكوابيسه انتهت. وثمة ملاك ذو حاجبين داكنين يسهر عليه، وسيعلّمه أي طريق يسلك من الآن وصاعداً.

عيد القديس يوحنا، ١٩ آذار/مايو ٢٠٠٨

إعرابات عن الشكر

لما تمكنت ربما من وضع هذا الكتاب بدون مساعدة من الكثيرين من الناس الذين، سواء أكانوا في العلن أم في الخفاء، مكنوني من الوصول إلى المعلومات التي يحتوي عليها. لم أتخيل أبداً، عندما شرعت في أبحاثي، أنني سأهتم إلى هذا الحد في ما هو وراء واجهة عالم الفتنة والبهرجة. وأود، إلى جانب الأصدقاء الذين طلبوا عدم ذكر أسمائهم، أن أشكر ألكسندر أوستروالد، برناديت إيماكولادا سانتوس، كلودين وإيلي صعب، ديفيد روثكوف (مخترع عبارة «الطبقة الأرفع»)، ديبورا وليامسون، فاتيما لوبيز، فؤاز غروزي، فرانكو كولنيي، هيلدغارد فوللون، جيمس و. رايت، جينيفر بولينجر، جوهان ركمان، يورن بفوتنهاور، جولييت ريغال، كيفن هاينبرغ، كيفن كارول، لوكا بوري، ماريا دي لوردس ديبات، ماريو روسا، مونتي شادو، ستيفي سزرني، فيكتوريا نافالوسكا، ياسر حميد وزينا روفايل، وجميعهم كان لهم الفضل، مباشرة أو في شكل غير مباشر، في وضع هذا الكتاب. ويجب أن أعترف بأنهم ساهموا في معظم الوقت بطريقة غير مباشرة، بما أنني لا أناقش في العادة موضوع كتابي أثناء كتابته.





صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

مجموعات

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابع يبقى وحيداً

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطية

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها ـ هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر ـ د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ ـ نافتج سارنا



- لا أحد يفهم ما يدور الآن ـ روحي طعمة
- الأيام والناس ـ برهان الدجاني
- علم الإبداع ـ د. مروان فارس
- آن الأوان ـ طلال حيدر
- انظر إليك ـ مرام المصري
- بائع الفستق/رواية ـ سمير عطا الله
- اللباس والزينة ـ أ . بينول
- أُخذَةُ كِشْ ـ ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية ـ د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال ـ بقلم شخصيات عدة
- طه حسين، من الشاطئ الآخر ـ عبد الرشيد محمودي
- الله بالخير ـ ابراهيم سلامة
- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية ـ منير عبود
- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون ـ عصام محفوظ



- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان - عصام محفوظ
- قصة يوطوبيا . قصة مشربية - حسن فتحي
- جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران - د. بطرس حبيب
- الحب والتصوف عند العرب - د. عادل كامل الآلوسي
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي - هادي محيي الخفاجي
- الطربوش - روبير سوليه
- مهما قلت لا تقل - د. نبيل سليمان
- امرأة تبحث عن وطن - ماريا المعلوف
- خطوات أنثى - رُدينة الفيلالي
- أثواب الحزن - هدى السراري
- وراء الأفق - ابراهيم أبو زيد
- دريد لحام/مشوار العمر - د. فاروق الجمال
- بساطٌ من الزهر الأحمر - نيلوفر بازيرا
- إمرأة. . . وظلّان - خلود عبد الله الخميس
- اعترافات غايشا - آرثر غولدن
- خريف من ذهب - جوزيف طوبيّا
- عودة النبض - نوال نجم
- مغامرة حب في بلاد ممزقة - جاين ساسون
- يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى - غسّان علم الدين
- طلاق الحاكم - مي دايخ
- حقيبة حذر - عاطف البلوي
- ألف عام من الصلاة - ييون لي
- حبٌّ محرَّم - يوكيو ميشيما
- بيل كانتو - آن باتشيت
- إيزيس في القدس - منى دايخ
- عشّاق أمي - هاجر عبدالسلام
- وراء الأفق - إبراهيم أبو زيد
- هل كنا مثل أي عاشقَين - نافتح سارنا
- الخامدون - ربى عنبتاوي
- هو وهي في السعودية - هتّان بن محمد الطاسجي
- نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية - خديجة نمري
- حبيبتي الحقيقة - أحمد طقش
- الوردة الضائعة - رواية سردار أوزكان
- أرملة مهندس - صالح ابن عايض
- سرّ الزمان - طلال حيدر
- بومبي - روبيرت هاريس
- مصائر الغبار - راوي حاج
- الصرصار - راوي حاج
- إبنة محازب - (رواية) لويس دو بيرنيير

الكتاب

يلج باولو كويلو بلا تمهيد عالم الطبقة فوق المخملية من مشاهير وأثرياء وأصحاب سلطة، ويداهمهم في أصعب اللحظات بلا أقنعة ولا رتوش. يرصد سلوكهم وتصرّفاتهم حيال محنة يتعرّضون لها. يدفع بهم إلينا كما هم عراة حفاة، وهم الذين يخطّطون لنا كيف نعيش وإلى أين نخطو، وكم ينبغي لنا أن ننفق من مالٍ وأعصاب وعمر! والحيّز الذي يحق لنا أن نشغله ومدى الأحلام التي يسمح لنا بها. وهم اللاعبون الذين لا يرون في الحياة إلا متعة الحياة، والذين برغم الضجيج والازدحام يقعون أسرى الوحدة والوحشة.

أربعاً وعشرين ساعةً في مهرجان كان السينمائي، حيث إيغور القادم ليستعيد حب زوجته مهما يكن الثمن، يعبث قلم باولو كويلو مصوّراً محلّلاً بعد أن أوقع روّاد المهرجان المدّعين في أزمة لا فكاك منها.

في رواية "الرابح يبقى وحيداً" تتأجج ثلاثية السلطة والمال والشهرة ومدى سطوتها على النفوس. وفيها يعرض باولو كويلو عالماً نعيش فيه أو يعيش فيه الآخرون، ولم ننتبه يوماً إلى أنه بكل هذه الغرابة وهذه الخفايا. مراجعة للحسابات، وقفة مع الذات، اكتشاف للداخل في عالم لا يؤمن إلا بالظاهري، جلادون وضحايا، أحلام مدبّرة يلهثون خلفها و... أن لكل ذلك ثمناً قد يكون باهظاً جداً..




ISBN 978-9953-88-302-1
9 789953 883021

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٠٧٢٢ ١٣٥ ٩٦١+
تلفون+فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ - ٣٤١٩٠٧ ١ ٩٦١+
tradebooks@all- prints.com
www.all-prints.com

Design by Richie Nazzal



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر